(١) التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء السادس

من تفسير من أول سورة القصص إلى آخر تفسير سورة الزخرف

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



تفســــير

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

---

* [تلك] الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم [آيات الكتاب المبين] لكل أمر يحتاج إليه العباد ، من معرفة ربهم ، ومعرفة حقوقه ، ومعرفة أوليائه وأعدائه ، ومعرفة وقائعه وأيامه ، ومعرفة ثواب الأعمال ، وجزاء العمال .

فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين ، وجلاَّها للعباد ، ووضحها .

ومن جملة ما أبان ، قصة موسى وفرعون ، فإنه أبداها ، وأعادها فى عدة مواضع .

وبسطها فى هذا الموضع فقال : [نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق] .

فإن نبأهما غريب ، وخبرهما عجيب .

[لقوم يؤمنون] فإليهم يساق الخطاب ، ويوجه الكلام .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

حيث إن معهم من الإيمان ، ما يقبلون به ، على تدبرُّ ذلك ، وتلقّيه بالقبول والاهتداء ، بمواقع العبر ، ويزدادون به إيماناً ، ويقينا ، وخيرا إلى خيرهم .

وأما من عداهم ، فلا يستفيدون منه ، إلا إقامة الحجة عليهم ، وصانه الله عنهم ، وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه .

فأول هذه القصة [إن فرعون علا فى الأرض] فى ملكه وسلطانه ، وجنوده ،وجبروته، فصار من أهل العلو فيها ، لا من الأعلين فيها .

[وجعل أهلها شيعا] أي : طوائف متفرقة ، يتصرف فيهم بشهوته ، وينفذ فيهم ما أراد من قهره ، وسطوته .

[يستضعف طائفة منهم] وتلك الطائفة ، هم : بنو إسرائيل ، الذين فضلهم الله على العالمين ، الذين ينبغى له أن يكرمهم ويجلهم .

ولـكنه استضعفهم ، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم .

فصار لا يبالى بهم ولا يهتم بشأنهم ، وبلغت به الحال ، إلى أنه [يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم] خوفاً من أن يكثروا ، فيغمروه فى بلاده ، ويصير لهم الملك .

[إنه كان من المفسدين] الذين لا قصد لهم فى صلاح الدين ،ولا صلاح الدنيا ، وهذا من إفساده فى الأرض .

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

---

* [ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض] بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف ، ونهلك من قاومهم ، ونخذل من ناوأهم .

[ونجعلهم أئمة] فى الدين ، وذلك لا يحصل مع استضعاف ، بل لا بد من تمكين فى الأرض ، وقدرة تامة .

[ونجعلهم الوارثين] للأرض ، الذين لهم العاقبة فى الدنيا قبل الآخرة.

[ونمكن لهم فى الأرض] فهذه الأمور كلها ، قد تعلقت بها إرادة الله ، وجرت بها مشيئته .

[و] كذلك نريد أن [نرى فرعون وهامان] وزيره [وجنودهما] الذين بهم[1] صالوا وجالوا ، وعلوا وبغوا [منهم] أى : من هذه الطائفة المستضعفة .

[ما كانوا يحذرون] من إخراجهم من ديارهم ، ولذلك كانوا يسعون

---

(١) فى الأصل المطبوع « التى الخ » والصواب أن يقال « الذين بهم صالوا الخ » لأن ضمير جمع التكسير لا يؤنث إلا لما لا يعقل ، وأما جمع تكسير العقلاء فيعود الضمير إليهم مذكراً ، كما قال تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة الآية » ولم يقل « لا تلهيها » كما فعل المؤلف هنا ولذلك أصلحنا العبارة هكذا « الذين بهم صالوا » .

أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُ

فى قمعهم ، وكسر شوكتهم ، وتقتيل أبنائهم ، الذين هم محل ذلك .

فكل هذا قد أراده الله ، وإذا أراد أمراً ، سهل أسبابه، ونهج طرقه .

وهذا الأمر كذلك ، فإنه قدر وأجرى من الأسباب — التى لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه — ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود .

فأول ذلك ، لما أوجد الله رسوله موسى ، الذى جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلى على يديه وبسببه ، وكان فى وقت تلك المخافة العظيمة ، التى يذبحون بها الأبناء ، أوحى إلى أمه ، أن ترضعه ، ويمكث عندها .

[فإذا خفت عليه] بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم .

[فألقيه فى اليم] أى نيل مصر ، فى وسط تابوت مغلق .

[ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين] .

فبشرها بأنه سيرده إليها ، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ، ويجعله الله رسولا .

وهذا من أعظم البشائر الجليلة ، وتقديم هذه البشارة لأم موسى ، ليطمئن قلبها ، ويسكن روعها ، فكأنها خافت عليه ، وفعلت ما أمرت به ، ألقته فى اليم ، وساقه الله تعالى .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ

[فالتقطه آل فرعون] فصار من لقطهم ، وهم الذين باشروا وجدانه .

[ليكون لهم عدوا وحزنا] أى : لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط ، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم ، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر ، وأن الذى خافوا منه من بنى إسرائيل ، قيض الله أن يكون زعيمهم ، يتربى تحت أيديهم ، وعلى نظرهم ، وبكفالتهم .

وعند التدبر والتأمل ، تجد فى طى ذلك من المصالح لبنى إسرائيل ، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته بحيث إنه صار من كبار المملكة .

وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا ، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة .

ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف — الذى بلغ بهم الذل والإهانة ، إلى ما قص الله علينا بعضه — أن صار بعض أفراده ، ينازع ذلك الشعب القاهر العالى فى الأرض : كما سيأتى بيانه .

وهذا مقدمة للظهور ، فإن الله تعالى من سنته الجارية ، أن جعل الأمور تمشى على التدريج ، شيئا فشيئا ، ولا تأتى دفعة واحدة .

وقوله [إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين] أى : مجرمين ، فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم ، ونكيد لهم ، جزاء على مكرهم وكيدهم .

لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ

فلما التقطه آل فرعون ، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة ، المؤمنة « آسية » بنت مزاحم [وقالت] : هذا الولد [قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه] .

أى أبقه لنا ، لِتقرَّ به أعيننا ، ونسر به فى حياتنا .

[عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا] أى : لا يخلو ، إما أن يكون بمنزلة الخدم ، الذين يسعون فى نفعنا وخدمتنا أو نرقيه درجة أعلى من ذلك ، نجعله ولدا لنا ، ونكرمه ، ونجله .

فقدَّر الله تعالى ، أنه نفع امرأة فرعون ، التى قالت تلك المقالة .

فإنه لما صار قرة عين لها ، وأحبته حبا شديداً ، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشقيق ، حتى كبر ، ونبأه الله وأرسله ، بادرت[1] إلى الإسلام والإيمان به ، رضى الله عنها ، وأرضاها .

قال الله تعالى هذه المراجعات والمقاولات ، فى شأن موسى : [وهم لا يشعرون] ما جرى به القلم ، ومضى به القدر ، من وصوله إلى ما وصل إليه .

وهذا من لطفه تعالى ، فإنهم لو شعروا ، لكان لهم وله ، شأن آخر .

---

(١) قوله « وبادرت » كان فى الأصل « فبادرت » فأصلحنا الكلمة بـ « بادرت » لأنه جواب « لما » فى قوله « فإنه لما صار الخ » وجواب « لما » لا يقترف بالفاء بدليل قوله تعالى « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » ولم يقل « فألقاه » .

لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ

ولما فقدت موسى أمه ، حزنت حزنا شديدا ، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق ، الذى أزعجها ، على مقتضى الحالة البشرية ، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف ، ووعدها برده .

[إن كادت لتبدى به] أى : بما فى قلبها [لولا أن ربطنا على قلبها] فثبتناها ، فصبرت ، ولم تبد به .

[لتكون] بذكر الصبر والثبات [من المؤمنين] فإن العبد إذا أصابته مصيبة ، فصبر وثبت ، ازداد بذلك إيمانه ، ودل ذلك ، على أن استمرار الجزع مع العبد ، دليل على ضعف إيمانه .

[وقالت] أم موسى [لأخته قصيه] أى : اذهبى فقصى الأثر عن أخيك ، وابحثى عنه ، من غير أن يحس بك أحد ، أو يشعروا بمقصودك .

فذهبت تقصه [فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون] أى : أبصرته على وجه ، كأنها مارة لا قصد لها فيه .

وهذا من تمام الحزم والحذر ، فإنها لو أبصرته ، وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها ، أنها هى التى ألقته ، فربما عزموا على ذبحه ، عقوبة لأهله .

ومن لطف الله بموسى وأمه ، أن منعه من قبول ثدى امرأة ، فأخرجوه إلى السوق ، رحمة به ، ولعل أحدا يطلبه .

فجاءت أخته ، وهو بتلك الحال [فقالت هل أدلكم على أهل بيت

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

يكفلونه لكم وهم له ناصحون] .

وهذا جُلُّ غرضهم ، فإنهم أحبوه حبا شديدا ، وقد منعه الله من الراضع فخافوا أن يموت .

فلما قالت لهم أخته ، تلك المقالة المشتملة على الترغيب ، فى أهل هذا البيت ، بتمام حفظه وكفالته ، والنصح له ، بادروا إلى إجابتها ، فأعلمتهم ، ودلتهم على أهل هذا البيت .

[فرددناه إلى أمه] كما وعدناها بذلك [كى تقر عينها ولا تحزن] بحيث أنه تربى عندها ، على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة ، تفرح به ، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك .

[ولتعلم أن وعد الله حق] فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ، ليطمئن بذلك قلبها ، ويزداد إيمانها ، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله ، فى حفظه ، ورسالته .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فإذا رأوا السبب متشوشا ، شوش ذلك إيمانهم ، لعدم علمهم الكامل ، أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة ، بين يدى الأمور العالية ، والمطالب الفاضلة .

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون ، يتربى فى سلطانهم ، ويركب مراكبهم ، ويلبس ملابسهم .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ

وأمه بذلك مطمئنة ، قد استقر أنها أمه من الرضاع ، ولم يستنكر ملازمته إياها ، وحنوه عليها .

وتأمل هذا اللطف من الله ، وصيانة نبيه موسى من الكذب فى منطقه ، وتيسير الأمر ، الذى صار به التعلق ، بينه وبينها ، الذى بان للناس ، أنه هو الرضاع ، الذى بسببه يسميها أمًّا ، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره فى ذلك كله ، صدقا وحقاً .

[ولما بلغ أشده] من القوة والعقل واللب ، وذلك نحو أربعين سنة فى الغالب .

[واستوى] فكملت فيه تلك الأمور [آتيناه حكما وعلماً] أى : حكما يعرف به الأحكام الشرعية ، ويحكم به بين الناس ، وعلماً كثيراً .

[وكذلك نجزى المحسنين] فى عبادة الله المحسنين ، لخلق الله ، يعطيهم علماً وحكما ، بحسب إحسانهم ، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام .

[ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها] إما وقت القائلة ، أو غير ذلك من الأوقات ، التى بها يغفلون عن الانتشار .

[فوجد فيها رجلين يقتتلان] يتخاصمان ويتضاربان [هذا من شيعته] أى من بنى إسرائيل [وهذا من عدوه] كالقبط .

عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

[فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه] لأنه قد اشتهر ، وعلم الناس أنه من بنى إسرائيل ، واستغاثته لموسى ، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا ، يخاف منه ، ويرجى من بيت المملكة والسلطان .

[فوكزه موسى] أى : وكز الذى من عدوه ، استجابة لاستغاثة الإسرائيلى .

[فقضى عليه] أى : أماته من تلك الوكزة ، لشدتها ، وقوة موسى .

فندم موسى عليه السلام على ماجرى منه ، و [قال هذا من عمل الشيطان] أى: من تزيينه ، ووسوسته [إنه عدو مضل مبين] فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة ، وحرصه على الإضلال .

ثم استغفر ربه [قال رب إنى ظلمت نفسي فاغفر لى فغفر ، له إنه هو الغفور الرحيم] خصوصاً للمخبتين إليه ، المبادرين للإنابة والتوبة ، كما جرى من موسى عليه السلام .

[قال] موسى [رب بما أنعمت على] بالتوبة والمغفرة ، والنعم الكثيرة [فلن أكون ظهيراً] أى : معينا ومساعدا [للمجرمين] أى: لا أعين أحدا على معصية .

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ

وهذا وعد من موسى عليه السلام ، بسبب منة الله عليه ، أن لا يعين مجرما ، كما فعل فى قتل القبطى .

وهذا يفيد أن النعم ، تقتضى من العبد فعل الخير ، وترك الشر .

[فـ] لما جرى منه قتل الذى هو من عدوه [أصبح فى المدينة خائفا يترقب] هل يشعر به آل فرعون ، أم لا ؟

وإنما خاف ، لأنه قد علم ، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال ، سوى موسى ، من بنى إسرائيل .

فبينما هو على تلك الحال [فإذا الذى استنصره بالأمس على عدوه يستصرخه] على قبطى آخر .

[قال له موسى] موبخا على حاله [إنك لغوى مبين] أى : بين الغواية ، ظاهر الجراءة .

[فلما أن أراد أن يبطش] موسى [بالذى هو عدو لهما] أى : له وللمخاصم المستصرخ لموسى ، أى : لم يزل اللجاج بين القبطى والإسرائيلى ، وهو يستغيث بموسى ، فأخذته الحمية ، حتى هم أن يبطش بالقبطى .

[قال] له القبطى زاجرا له عن قتله : [ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض] لأن من أعظم آثار الجبار فى الأرض ، قتل النفس بغير حق .

يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

[وما تريد أن تكون من المصلحين] وإلا ، فلو أردت الإصلاح ، لحلت بيني وبينه ، من غير قتل أحد .

فانكف موسى عن قتله ، وارعوى ، لوعظه وزجره.

وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين ، حتى تراود ملأ فرعون ، وفرعون على قتله ، وتشاوروا على ذلك .

فقيض الله ، ذلك الرجل الناصح ، وبادر إلى الإخبار[1] لموسى بما اجتمع عليه رَأْيُ ملإهم .

فقال : [وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى] أي : ركضا على قدميه ، من نصحه لموسى ، وخوفه أن يوقعوا به ، قبل أن يشعر .

[قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك] أي : يتشاورون فيك [ليقتلوك فاخرج] عن المدينة [إني لك من الناصحين] .

فامتثل نصحه [فخرج منها خائفا يترقب] أن يوقع به القتل ، ودعا الله .

---

(١) قوله « إلى الإخبار لموسى » لو قال « إلى إخبار موسى » لكان أصح وأفصح .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

[قال رب نجنى من القوم الظالمين] فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا، من غير قصد منه للقتل، فتوعُّدُهُمْ له، ظلم منهم وجراءة.

[ولما توجه تلقاء مدين] أى : قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبى فلسطين، حيث لا ملك فيه لفرعون.

[قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل] أى : وسط الطريق المختصر، الموصل إليها، بسهولة ورفق، فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

[ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون] مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة [ووجد من دونهم] أى : دون تلك الأمة [امرأتين تذودان] غنمهما، عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم، وعدم مروءتهم، عن السقى لهما.

[قال] لهما موسى [ما خطبكما] أى : ما شأنكما بهذه الحالة.

[قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء] أى : قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو، سقينا.

[وأبونا شيخ كبير] أى : لا قوة له على السقى، فليس فينا قوة، نقتدر

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى

بها ، ولا لنا رجال ، يزاحمون الرعاء .

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما [فسقى لهما] غير طالب منهما الأجر ، ولا له قصد ، غير وجه الله تعالى .

فلما سقى لهما ، وكان ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ، بدليل قوله : [ثم تولى إلى الظل] مستريحا لتلك الظلال بعد التعب .

[فقال] فى تلك الحالة ، مسترزقا ربه [رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير] .

أى : إنى مفتقر للخير ، الذى تسوقه إلىّ ، وتيسره لى .

وهذا سؤال منه بحاله ، والسؤال بالحال ، أبلغ من السؤال بلسان المقال.

فلم يزل فى هذه الحالة ، داعيا ربه متملقا .

وأما المرأتان ، فذهبتا إلى أبيهما ، وأخبرتاه بما جرى .

فأرسل أبوهما ، إحداهما إلى موسى ، فجاءته [تمشى على استحياء] .

وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة ، وخصوصاً فى النساء .

ويدل على أن موسى عليه السلام ، لم يكن فيما فعله من السقى ، بمنزلة الأجير والخادم ، الذى لا يستحى منه عادة ، وإنما هو عزيز النفس ، رأت من حسن خلقه ، ومكارم أخلاقه ، ما أوجب لها الحياء منه .

يدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

[قالت] له : [إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا] أى : لا لِمَنٍّ عليك ، بل أنت الذى ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك .

فأجابها موسى .

[فلما جاءه وقص عليه القصص] من ابتداء السبب الموجب لهربه ، إلى أن وصل إليه [قال] مسكنا روعه ، جابراً قلبه : [لا تخف نجوت من القوم الظالمين]

أى : ليذهب خوفك وروعك ، فإن الله نجاك منهم ، حيث وصلت إلى هذا المحل ، الذى ليس لهم عليه سلطان .

[قالت إحداهما] أى : إحدى ابنتيه [يا أبت استأجره] أى : اجعله أجيراً عندك ، يرعى الغنم ويسقيها .

[إن خير من استأجرت القوى الأمين] أى : إن موسى ، أولى من استؤجر ، فإنه جمع القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر ، من جمعهما ، القوة ، والقدرة ، على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه بعدم الخيانة .

وهذان الوصفان ، ينبغى اعتبارهما فى كل من يتولى للإنسان عملا ، بإجارة أو غيرها .

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما ، أو فقد إحداهما .

قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى

وأما باجتماعهما ، فإن العمل يتم ويكمل .

وإنما قالت ذلك ، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقى لهما ، ونشاطه ، ما عرفت به قوته ، وشاهدت من أمانته وديانته ، وأنه رحمهما فى حالة ، لا يرجى نفعهما ، وإنما قصده بذلك ، وجه الله تعالى .

[قال] صاحب مدين لموسى [إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى] أى تصير أجيراً عندى [ثمانى حجج] . أى : ثمانى سنين .

[فإن أتممت عشرا فمن عندك] تبرع منك ، لا شىء واجب عليك .

[وما أريد أن أشق عليك] فأحتم عشر السنين ، وما أريد أن أستأجرك ، لأكلفك أعمالا شاقة ، وإنما استأجرتك ، لعمل سهل يسير ، لا مشقة فيه [ستجدنى إن شاء الله من الصالحين] فرغبه فى سهولة العمل ، وفى حسن المعاملة .

وهذا يدل على أن الرجل الصالح ، ينبغى له أن يحسن خلقه ، مهما أمكنه ، وأن الذى يطلب منه ، أبلغ من غيره .

[قال] موسى عليه السلام — مجيبا له فيما طلبه منه — : [ذلك بينى وبينك] أى هذا الشرط ، الذى أنت ذكرت ، رضيت به ، وقد تم فيما بينى وبينك .

وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ

[أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على] سواء قضيت الثمانى الواجبة ، أم تبرعت بالزائد عليها [والله على ما نقول وكيل] حافظ يراقبنا ، ويعلم ما تعاقدنا عليه .

وهذا الرجل ، أبو المرأتين ، صاحب مدين ، ليس بشعيب النبي المعروف ، كما اشتهر عند كثير من الناس ، فإن هـذا ، قول لم يدل عليه دليل

وغاية ما يكون ، أن شعيبا عليه السلام ، قد كانت بلده مدين ، وهذه القضية ، جرت فى مدين ، فأين الملازمة بين الأمرين ؟

وأيضا ، فإنه غير معلوم ، أن موسى أدرك زمان شعيب ، فكيف بشخصه ؟ ! !

ولو كان ذلك الرجل شعيبا ، لذكره الله تعالى ، ولسمته المرأتان .

وأيضا فإن شعيبا ، عليه الصلاة والسلام ، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه . ولم يبق إلا من آمن به .

وقد أعاذ الله المؤمنين به ، أن يرضوا لبنتى نبيهم ، بمنعهما عن الماء ، وصد ماشيتهما ، حتى يأتيهما رجل غريب ، فيحسن إليهما ، ويسقى ماشيتهما.

وما كان شعيب ، ليرضى أن يرعى موسى عنده ، ويكون خادماً له ، وهو أفضل منه ، وأعلى درجة ، إلا أن يقال : هذا قبل نبوة موسى ، فلا منافاة .

وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ

وعلى كل حال ، لا يعتمد على أنه شعيب النبي ، بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

[فلما قضى موسى الأجل] يحتمل أنه قضى الأجل الواجب ،أو الزائد عليه ، كما هو الظن بموسى ، ووفائه ، اشتاق إلى الوصول إلى أهله،ووالدته ، وعشيرته ، ووطنه .

وظن من طول المدة ، أنهم قد تناسوا ما صدر منه .

[سار بأهله] قاصداً مصر [آنس] أى : أبصر [من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون] وكان قد أصابهم البرد ، وتاهوا الطريق .

[فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين] فأخبر بألوهيته ، وربوبيته .

ويلزم من ذلك ، أن يأمره بعبادته ، وتألهه ، كما صرح به فى الآية الأخرى « فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ

[وأن ألق عصاك] فألقاها [فلما رآها تهتز] تسعى سعياً شديدا ، ولها صورة مُهِيلة [كأنها جان] ذَكَرُ الحيات العظيم .

[ولى مدبرا ولم يعقب] أى : يرجع ، لاستيلاء الروع على قلبه .

فقال الله له : [ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين] وهذا أبلغ ما يكون فى التأمين ، وعدم الخوف .

فإن قوله : [أقبل] يقتضى الأمر بإقباله ، ويجب عليه الامتثال .

ولكن قد يكون إقباله ، وهو لم يزل فى الأمر المخوف ، فقال : [ولا تخف] أمر له بشيئين ، إقباله ، وأن لا يكون فى قلبه خوف .

ولكن يبقى احتمال ، وهو أنه ، قد يقبل وهو غير خائف ، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه ، فلذلك قال : [إنك من الآمنين] فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه .

فأقبل موسى عليه السلام ، غير خائف ، ولا مرعوب ، بل مطمئناً ، واثقاً بخبر ربه ، قد ازداد إيمانه ، وتم يقينه .

فهذه آية ، أراه الله إياها ، قبل ذهابه إلى فرعون ، ليكون على يقين تام ، فيكون أجرأ له ، وأقوى وأصلب .

ثم أراه الآية الأخرى فقال : [أسلك يدك] أى : أدخلها [فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء] فسلكها وأخرجها ، كما ذكر الله تعالى .

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ

[واضمم إليك جناحك من الرهب] أى ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف .

[فذانك] أى : انقلاب العصا حية ، وخروج اليد بيضاء من غير سوء .

[برهانان من ربك] أى : حجتان قاطعتان من الله .

[إلى فرعون وملإه ، إنهم كانوا قوما فاسقين] فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم ، بل لا بد من الآيات الباهرة ، إن نفعت .

[قال] موسى عليه السلام ، معتذرا من ربه ، وسائلا له المعونة على ما حمله ، وذاكرا له الموانع ، التى فيه ، ليزيل ربه ما يحذره منها .

[رب إنى قتلت منهم نفسا] أى : [فأخاف أن يقتلون * وأخى هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معى ردءاً] أى : معاونا ومساعدا [يصدقنى] فإنه مع تضافر الأخبار ، يقوى الحق [إنى أخاف أن يكذبون].

فأجابه الله إلى سؤاله فقال : [سنشد عضدك بأخيك] أى : نعاونك به وتقويك .

ثم أزال عنه محذور القتل ، فقال : [ونجعل لكما سلطانا] أى: تسلطاً ،

أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ

وتمكُّناً من الدعوة ، بالحجة ، والهيبة الإلهية من عدوهما [فلا يصلون إليكما] .

وذلك بسبب آياتنا ، وما دلت عليه من الحق ، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها .

فهى التى بها حصل لكما السلطان ، واندفع بها عنكم ، كيدُ عدوكم ، وصارت لكم أبلغ من الجنود ، أولى العَدَدِ والعُدَدِ .

[أنتما ومن اتبعكما الغالبون] وهذا وعد لموسى فى ذلك الوقت ، وهو وحده فريد ، وقد رجع إلى بلده ، بعد ما كان شريدا .

فلم تزل الأحوال تتطور ، والأمور تنتقل ، حتى أنجز له موعوده ، ومكنه من العباد والبلاد ، وصار له ولأتباعه ، الغلبة والظهور .

فذهب موسى برسالة ربه [فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات] واضحات الدلالة على ما قال لهم ، ليس فيها قصور ، ولا خفاء .

[قالوا] على وجه الظلم ، والعلو ، والعناد [ما هذا إلا سحر مفترى] كما قال فرعون فى تلك الحال ، التى ظهر فيها الحق ، واستعلى على الباطل ، واضمحل الباطل ، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » (هذا ، وهو الذكى غير الزكى الذى بلغ من المكر والخداع والكيد ، ما قصه الله علينا وقد علم « ما أنزل هؤلاء إلا رب

إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا

السموات والأرض » ولكن الشقاء غالب .

[وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين] وقد كذبوا فى ذلك ، فإن الله أرسل يوسف ، قبل موسى كما قال تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب » .

[وقال موسى] حين زعموا أن الذى جاءهم به سحر وضلال ، وأن ما هم عليه هو الهدى :

[ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار] .

أى : إذا لم تفد المقابلة معكم ، وتبيين الآيات البينات ، وأبيتم إلا التمادى فى غيكم ،واللجاج على كفركم ، فالله تعالى العالم بالمهتدى وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار ، نحن أم أنتم [إنه لا يفلح الظالمون] .

فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه ، والفلاح ، والفوز .

وصار لأولئك ، الخسار ، وسوء العاقبة والهلاك .

[وقال فرعون] متجرئا على ربه ، ومموها على قومه السفهاء ، ضعفاء العقول :

ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ

[يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى] أى : أنا وحدى ، إلهكم ومعبودكم .

ولو كان ثمّ إله غيرى ، لعلمته .

فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون ، حيث لم يقل « مالكم من إله غيرى » .

وهذا ، لأنه عندهم ، العالم الفاضل ، الذى مهما قال ، فهو الحق، ومهما أمر ، أطاعوه .

فلما قال هذه المقالة ، التي قد تحتمل أن ثمّ إلها غيره ، أراد أن يحقق النفى ، الذى جعل فيه ذلك الاحتمال ، فقال لـ « هامان » :

[فأوقد لى يا هامان على الطين] ليجعل له لبنا من فخار .

[فاجعل لى صرحا] أى : بناء عاليا [لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين] .

ولكن سنحقق هذا الظن ، ونريكم كذب موسى .

فانظر هذه الجراءة العظيمة ، على الله ، التي ما بلغها آدمى .

كذب موسى ، وادّعى أنه الله ، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق ، وفعل الأسباب ، ليتوصل إلى إله موسى ، وكل هذا ترويج .

ولكن العجب من هؤلاء الملأ ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة ، المدبرون لشئونها ، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم ، واستخف أحلامهم ،

ٱلْـكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَـكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً

وهذا لفسقهم ، الذى صار صفة راسخة فيهم .

فسد دينهم ، ثم تبع ذلك ، فساد عقولهم ، فنسألك اللهم ، الثبات على الإيمان ، وأن لا تزيغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وأن تهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

قال تعالى : [واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق] استكبروا على عباد الله ، وساموهم سوء العذاب ، واستكبروا على رسل الله ، وما جاءوهم به من الآيات .

فكذبوها ، وزعموا أن ما هم عليه ، أعلى منها وأفضل .

[وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون] فلذلك تجرأوا .

وإلا فلو علموا ، وظنوا أنهم يرجعون إلى الله ، لما كان منهم ما كان .

[فأخذناه وجنوده] عندما استمر عنادهم وبغيهم [فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين] كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة ، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة ، المتصلة بالعقوبة الأخروية .

[وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار أى جعلنا فرعون وملأه ، من الأئمة ، الذين يقتدى بهم ، ويمشى خلفهم إلى دار الخزى والشقاء .

يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ

[ويوم القيامة لا ينصرون] من عذاب الله ، فهم أضعف شيء ، عن دفعه عن أنفسهم ، وليس لهم من دون الله ، من ولى ولا نصير .

[وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة] أى : وأتبعناهم ، زيادة فى عقوبتهم وخزيهم ، فى الدنيا لعنة ، يلعنون ، ولهم عند الخلق ، الثناء القبيح ، والمقت والذم .

وهذا أمر مشاهد ، فهم أئمة الملعونين فى الدنيا ، ومقدمتهم .

[ويوم القيامة هم من المقبوحين] المبعدين ، المستقذرة أفعالهم . الذين اجتمع عليهم مقت الله ، ومقت خلقه ، ومقت أنفسهم .

[ولقد آتينا موسى الكتاب] وهو التوراة [من بعد ما أهلكنا القرون الأولى] الذين كان خاتمتهم ، فى الإهلاك العام ، فرعون وجنوده.

وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة ، انقطع الهلاك العام ، وشرع جهاد الكفار بالسيف .

[بصائر للناس] أى : كتاب الله ، الذى أنزله على موسى ، فيه بصائر للناس ، أى : أمور يبصرون بها ، ما ينفعهم ، وما يضرهم ، فتقوم الحجة على العاصى ، وينتفع بها المؤمن ، فتكون رحمة فى حقه ، وهداية إلى الصراط المستقيم ، ولهذا قال :

لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

[وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون] .

ولما قص الله على رسوله ، ما قص من هذه الأخبارالغيبية ، نبه العباد، على أن هذا خبر إلهى محض ، ليس للرسول ، طريق إلى علمه ، إلا من جهة الوحى ، ولهذا قال :

[وما كنت بجانب الغربى] أى : بجانب الطور الغربى [إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين] على ذلك ، حتى يقال : إنه وصل إليك من هذا الطريق .

[ولكنا أنشأنا قرونا ، فتطاول عليهم العمر] فاندرس العلم ، ونسيت آياته .

فبعثناك فى وقت اشتدت الحاجة اليك ، وإلى ما علمناك ، وأوحينا إليك .

[وما كنت ثاويا] أى : مقيما [فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا]أى: تعلمهم ، وتتعلم منهم ، حتى أخبرت بما أخبرت ، من شأن موسى فى مدين .

[ولكنا كنا مرسلين] أى : ولكن ذلك الخبر ، الذى جئت به عن موسى ، أثر من آثار إرسالنا إياك ، وَوَحْىٌ لا سبيل لك إلى علمه ، بدون إرسالنا .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

[وما كنت بجانب الطور إذ نادينا] موسى ، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ، ويبلغهم رسالتنا ، ويريهم من آياتنا وعجائبنا ، ما قصصنا عليك .

والمقصود ، أن الماجريات ، التى جرت لموسى ، عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الأماكن ، فقصصتها كما هى ، من غير زيادة ولا نقص ، لا يخلو من أحد أمرين .

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها ، أو ذهبت إلى محالها ، فتعلمتها من أهلها .

فحينئذ قد لا يدل ذلك ، على أنك رسول الله ، إذ الأمور التى يخبر بها عن شهادة ودراسة ، من الأمور المشتركة ، غير المختصة بالأنبياء .

ولكن هذا قد عُلِمَ وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار .

فأولياؤك وأعداؤك ، يعلمون عدم ذلك .

فتعين الأمر الثانى ، وهو : أن هذا جاءك من قِبَلِ الله ووحيه وإرساله .

فثبت بالدليل القطعى ، صحة رسالتك ، ورحمة الله بك للعباد ، ولهذا قال :

[ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك] أى : العرب ، وقريش ، فإن الرسالة عندهم ، لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة .

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ

[لعلهم يتذكرون] تفصيل الخير ، فيفعلونه ، والشر فيتركونه .

فإذا كنت بهذه المنزلة ، كان الواجب عليهم ، المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة ، التى لا يقادر قدرها ، ولا يدرك شكرها .

وإنذاره للعرب ، لا ينفى ، أن يكون مرسلا لغيرهم ، فإنه عربى ، والقرآن الذى نزل عليه ، عربى ، وأول من باشر بدعوته ، العرب .

فكانت رسالته لهم أصلا ، ولغيرهم تبعاً ، كما قال تعالى « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس * قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً » .

[ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم] من الكفر والمعاصى [فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين] أى : فأرسلناك يا محمد ، لدفع حجتهم ، وقطع مقالتهم .

[فلما جاءهم الحق] الذى لا شك فيه [من عندنا] وهو القرآن، الذى أوحيناه إليك [قالوا] مكذبين له ، ومعترضين بما ليس يعترض به :

[لولا أوتى مثل ما أوتى موسى] أى أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة .

أى : فأما ما دام ينزل متفرقاً ، فإنه ليس من عندالله .

أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ

وأى دليل فى هذا ؟ وأى شبهة أنه ليس من عندالله ، حين نزل مفرقاً؟

بل من كمال هذا القرآن ، واعتناء الله بمن أنزل عليه ، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله ، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين .

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .

وأيضاً ، فإن قياسهم على كتاب موسى ، قياس قد نقضوه ، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ، ولم يؤمنوا ؟

ولهذا قال [أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ، قالوا سحران تظاهرا] أى : القرآن والتوراة ، تعاونا فى سحرهما ، وإضلال الناس [وقالوا إنا بكل كافرون] .

فثبت بهذا ، أن القوم يريدون إبطال الحق ، بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض ، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة ، وهذا شأن كل كافر .

ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين [وقالوا إنا بكل كافرون] .

ولكن هل كفرهم بهما ، كان طلبا للحق ، واتباعا لأمر عندهم ، خير منهما ، أم مجرد هوى ؟

قال تعالى ملزما لهم بذلك : [قل فأتوا بكتاب من عندالله هو أهدى منهما] أى من التوراة والقرآن [أتبعه إن كنتم صادقين] ولا سبيل لهم ،

ولا لغيرهم ، أن يأتوا بمثلهما ، فإنه ما طرق العالم ، منذ خلقه الله ، مثل هذين الكتابين ، علماً ، وهدي ، وبيانا ، ورحمة للخلق .

وهذا من كمال الإنصاف من الداعى أن قال : مقصودى ، الحق والهدى والرشد .

وقد جئتكم بهذا الكتاب ، المشتمل على ذلك ، الموافق لكتاب موسى .

فيجب علينا جميعا الإذعان لهما ، واتباعهما ، من حيث كونهما هدى وحقا .

فإن جئتمونى بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما ، اتبعته .

وإلا ، فلا أترك هدى وحقا قد علمته لغير هدى وحق .

[فإن لم يستجيبوا لك] فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما [فاعلم أنما يتبعون أهواءهم] أي : فاعلم أن تركهم اتباعك ، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ، ولا إلى هدى ، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم .

[ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله] فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى ، والصراط المستقيم ، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ، فلم يلتفت إليه ، ولم يقبل عليه .

ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء ، فاتبعه ، وترك الهدى .

فهل أحد أضل ممن هذا وصفه ؟!! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذى أوجب له : أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله ، فلهذا قال :

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

[إن الله لا يهدى القوم الظالمين] أى: الذى صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتاً ، جاءهم الهدى فرفضوه ، وعرض لهم الهوى ، فتبعوه .

سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها ، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها .

فهم فى غيهم وظلمهم يعمهون ، وفى شقائهم وهلاكهم ، يترددون .

وفى قوله : [فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم] دليل على أن كل من لم يستجب للرسول ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى ، وإنما ذهب إلى هوى .

[ولقد وصلنا لهم القول] أى : تابعناه وواصلناه ، وأنزلناه شيئاً فشيئاً ، رحمة بهم ولطفا [لعلهم يتذكرون] حين تتكرر عليهم آياته ، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها .

فصار نزوله متفرقاً ، رحمة بهم ، فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم ؟

. . . .

فصـــل

فى ذكر بعض الفوائد والعبر فى هذه القصة العجيبة

فنها أن آيات الله وعبره ، وأيامه فى الأمم السابقة ، إنما يستفيد بها ويستنير ، المؤمنون ، فعلى حسب إيمان العبد ، تكون عبرته .

وإن الله تعالى إنما يسوق القصص ، لأجلهم .

وأما غيرهم ، فلا يعبأ الله بهم ، وليس لهم منها نور وهدى .

ومنها : أن الله تعالى ، إذا أراد أمراً ، هيأ أسبابه ، وأتى بها شيئا فشيئا بالتدريج ، لا دفعة واحدة .

ومنها : أن الأمة المستضعفة ، ولو بلغت فى الضعف ما بلغت ، لا ينبغى لها أن يستولى عليها الكسل ، عن طلب حقها ، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور ، خصوصا إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله ، أمة بنى إسرائيل ، الأمة الضعيفة ، من أسر فرعون وملإه ، ومكنهم فى الأرض، وملكهم بلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة ، لا تأخذ حقها ، ولا تتكلم به ، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ، ولا يكون لها إمامة فيه .

ومنها : لطف الله بأم موسى ، وتهوينه عليها المصيبة ، بالبشارة ، بأن الله سيرد إليها ابنها ، ويجعله من المرسلين .

. . . .

ومنها : أن الله يقدِّر على عبده بعض المشاق ، لينيله سرورا أعظم من ذلك ، أو يدفع عنه شراً أكثر منه .

كما قدر على أم موسى ، ذلك الحزن الشديد ، والهم البليغ ، الذى هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها ، على وجه تطمئن به نفسها ، وتقربه عينها ، وتزداد به غبطة وسرورا .

ومنها : أن الخوف الطبيعى من الخلق ، لا ينافى الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ، ولموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص . وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان ، ويتم به اليقين ، الصبر عند المزعجات ، والتثبيت من الله ، عند المقلقات ، كما قال تعالى .

[لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين] أى : ليزداد إيمانها بذلك ، ويطمئن قلبها .

ومنها : أن من أعظم نعم الله عبده ، وأعظم معونة للعبد على أموره ، تثبيت الله إياه ، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف ، وعند الأمور المذهلة ، فإنه بذلك ، يتمكن من القول الصواب ، والفعل الصواب .

بخلاف من استمر قلقه وروعه ، وانزعاجه ، فإنه يضيع فكره ، ويذهل عقله ، فلا ينتفع بنفسه فى تلك الحال .

ومنها : أن العبد ـ ولو عرف أن القضاء والقدر ، ووعد الله نافذ لابد منه ـ

. . . .

فإنه لا يهمل فعل الأسباب ، التى أمر بها ، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر الله .

فإن الله قد وعد أم موسى ، أن يرده عليها ، ومع ذلك ، اجتهدت فى رده ، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه .

ومنها : جواز خروج المرأة فى حوائجها ، وتكليمها للرجال ، من غير محذور ، كما جرى لأخت موسى ، وابنتى صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، والدلالة على من يفعل ذلك .

ومنها : أن الله من رحمته بعبده الضعيف ، الذى يريد إكرامه ، أن يريه من آياته ، ويشهده من بيناته ، ما يزيد به إيمانه ، كما رد الله موسى إلى أمه ، لتعلم أن وعد الله حق .

ومنها : أن قتل الكافر ، الذى له عهد بعقد أو عرف ، لا يجوز .

فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطى الكافر ، ذنبا ، واستغفر الله منه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق ، يعد من الجبارين ، الذين يفسدون فى الأرض .

ومنها : أن من قتل النفوس بغير حق ، وزعم أنه يريد الإصلاح فى الأرض ، وتهييب أهل المعاصى ، فإنه كاذب فى ذلك ، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطى [إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن

. . . .

تـكون من المصلحين] على وجه التقرير له ، لا الإنـكار .

ومنها : أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه ، على وجه التحذير له ، من شر ، يقع ، فيه ، لا يكون ذلك نميمة ـ بل قد يكون واجبا ـ كما أخبر ذلك الرجل موسى ، ناصحا له ومحذرا .

ومنها : أنه إذا خاف القتل والتلف فى الإقامة ، فإنه لا يلقى بيده إلى التهلـكة ، ولا يستسلم لذلك ، بل يذهب عنه ، كما فعل موسى .

ومنها : أنه عند تزاحم المفسدتين ، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما فإنه يرتـكب الأخف منهما ، والأسلم .

كما أن موسى ، لما دار الأمر بين بقائه فى مصر ، ولـكنه يقتل ، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة ، التى لا يعرف الطريق إليها ، وليس معه دليل يدله غير ربه ، ولـكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى ، فتبعها موسى .

ومنها : أن الناظر فى العلم عند الحاجة إلى التـكلم فيه ، إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فإنه يستهدى ربه ، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين ، بعد أن يقصد بقلبه الحق ، ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله .

كما خرج موسى تلقاء مدين فقال : [عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل] .

ومنها : أن الرحمة بالخلق ، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف ،

. . . .

من أخلاق الأنبياء ، وأن من الإحسان سقى الماشية الماء ، وإعانة العاجز .

ومنها استحباب الدعاء ، بتبيين الحال وشرحها ، ولو كان الله عالما لها . لأنه تعالى ، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته ، كما قال موسى : [رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير] .

ومنها أن الحياء - خصوصا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة .

ومنها : المكافأة على الإحسان ، لم يزل دأب الأمم السابقين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله تعالى ، ثم حصل له مكافأة عليه ، من غير قصد بالقصد الأول ، فإنه لا يلام على ذلك ، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين ، عن معروفه الذى لم يبتغ له ، ولم يستشرف بقلبه على عوض .

ومنها مشروعية الإجارة ، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها ، مما لا يقدر به العمل ، وإنما مرده ، العرف .

ومنها أنه تجوز الإجارة بالمنفعة ، ولو كانت للمنفعة بضعا .

ومنها أن خطبة الرجل لابنته الذى يتخيره ، لا يلام عليه .

ومنها : أن خير أجير وعامل يعمل للإنسان ، أن يكون قويا أمينا .

ومنها : أن من مكارم الأخلاق ، أن يُحَسِّن خلقه ، لأجيره ، وخادمه ، ولا يشق عليه بالعمل لقوله : [وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين] .

. . . .

ومنها : جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود ، من دون إشهاد لقوله : [والله على ما نقول وكيل] .

ومنها : ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات ، والمعجزات الظاهرة ، من الحية ، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ، ومن عصمة الله لموسى وهرون ، من فرعون ، ومن الغرق .

ومنها : أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما فى الشر ، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته .

كما أن من أعظم نعمة ، أنعم الله بها على عبده ، أن يجعله إماما في الخير هاديا مهديا .

ومنها : ما فيها من الدلالة ، على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أخبر بذلك تفصيلا ، وتأصيلا موافقا ، قصه قصا ، صدق به المرسلين ؛ وأيد به الحق المبين ، من غير حضور شيء من تلك الوقائع ؛ ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع ؛ ولا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور ؛ ولا مجالسة أحد من أهل العلم ؛ إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ؛ ووحى أنزله عليه الكريم المنان ؛ لينذر به قوما جاهلين ؛ وعن النذر والرسل غافلين .

فصلوات الله وسلامه ؛ على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله ؛ ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة ؛ أنه من عند الله .

كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به ؛ وصدقه خبر الأولين والآخرين .

. . . .

والشرع الذى جاء به من رب العالمين ، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة ؛ التى لا تناسب ؛ ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة ؛ والنصر المبين لدينه وأمته .

حتى بلغ دينه ؛ مبلغ الليل والنهار ؛وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار؛ بالسيف والسنان ، وقلوبهم بالعلم والإيمان .

ولم تزل الأمم المعاندة ؛ والملوك الكفرة ؛ ترميه بقوس واحدة ؛ وتكيد له المكايد ؛ وتمكن لإطفائه ؛ وإخفائه ؛ وإخماده من الأرض وهو قد بهرها وعلاها .

لا يزداد إلا نموا ، ولا آياته وبراهينه ، إلا ظهورا .

وكل وقت من الأوقات ، يظهر من آياته ، ما هو عبرة لِلْعَالَمِينَ ، وهداية لِلْعَالَمِينَ ، ونور وبصيرة للمتوسمين . والحمد لله وحده .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ

---

* يذكر تعالى ، عظمة القرآن ، وصدقه ، وحقه ، وأن أهل العلم بالحقيقة، يعرفونه ، ويؤمنون به ، ويقرون بأنه الحق :

[الذين آتيناهم الكتاب من قبله] وهم أهل التوراة ، والإنجيل ، الذين لم يغيروا ، ولم يبدلوا [هم به] أى : بهذا القرآن ، ومن جاء به [يؤمنون] .

[وإذا يتلى عليهم] استمعوا له ، وأذعنوا و [قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا] لموافقته ما جاءت به الرسل ، ومطابقته لما ذكر فى الكتب ، واشتماله على الأخبار الصادقة ، والأوامر والنواهى الموافقة ، لغاية الحكمة .

وهؤلاء ، الذين تفيد شهادتهم ، وينفع قولهم ، لأنهم لا يقولون ما يقولون ، إلا عن علم وبصيرة ، لأنهم أهل الخبرة ، وأهل الكتب .

وغيرهم لا يدل ردهم ، ومعارضتهم للحق ، على شبهة ، فضلا عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق .

قال تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » الآيات .

وقوله [إنا كنا من قبله مسلمين] فلذلك ثبتنا على ما منَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام ، فصدقنا بهذا القرآن ، آمنا بالكتاب الأول ، والكتاب الآخر .

وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ

وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب ، إيمانه بالكتاب الأول .

[أولئك] الذين آمنوا بالكتابين [يؤتون أجرهم مرتين] أجراً على الإيمان الأول ، وأجرا على الإيمان الثانى .

[بما صبروا] على الإيمان ، وثبتوا على العمل ، فلم تزعزعهم عن ذلك، شبهة ، ولا تناهم عن الإيمان ، رياسة ولا شهوة .

[و] من خصالهم الفاضلة ، التى هى من آثار إيمانهم الصحيح ، أنهم [يدرءون بالحسنة السيئة] أى : دأبهم وطريقتهم ، الإحسان لكل أحد ، حتى للمسىء إليهم ، بالقول والفعل ، يقابلونه بالقول الحميد ، والفعل الجميل ، لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم ، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم .

[وإذا سمعوا اللغو] من جاهل خاطبهم به ، أعرضوا عنه ، و [قالوا] مقالة عباد الرحمن أولى الألباب : [لنا أعمالنا ولكم أعمالكم] .

أى : كلٌّ سيُجازَى بعمله ، الذى عمله وحده ، ليس عليه من وزر غيره شىء .

ولزم من ذلك ، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون ، من اللغو والباطل، والكلام الذى لا فائدة فيه .

[سلام عليكم] أى لا تسمعون منا إلا الخير ، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم .

عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

فإسكم ، وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم ، فإننا ننزه أنفسنا عنه ، ونصونها عن الخوض فيه .

[لا نبتغى الجاهلين] من كل وجه .

* يخبر تعالى أنك يا محمد ـ وغيرك من باب أولى ـ لا تقدر على هداية أحد ، ولو كان من أحب الناس إليك ، فإن هذا ، أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق ، وخلق الإيمان فى القلب ، وإنما ذلك بيد الله تعالى ، يهدى من يشاء ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ، ممن لا يصلح لها ، فيبقيه على ضلاله .

وأما إثبات الهداية للرسول فى قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » فتلك هداية البيان والإرشاد .

فالرسول يبين الصراط المستقيم ، ويرغب فيه ، ويبذل جهده فى سلوك الخلق له .

وأما كونه يخلق فى قلوبهم الإيمان ، ويوفقهم بالفعل ، فحاشا وكلا .

ولهذا لو كان قادرا عليها ، لهدى من وصل إليه إحسانه ، ونصره ، ومنعه من قومه ، عمه أبا طالب ، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ، ما هو أعظم مما فعله معه عمه ، ولكن الهداية بيد الله .

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا

---

* يخبر تعالى أن المكذبين من قريش ، وأهل مكة ، يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا] بالقتل والأسر ، ونهب الأموال .

فإن الناس قد عادوك وخالفوك ، فلو تابعناك ، لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم ، ولم يكن لنا بهم طاقة .

وهذا الكلام منهم ، يدل على سوء الظن بالله تعالى ، وأنه لا ينصر دينه ، ولا يعلى كلمته .

بل يمكن الناس من أهل دينه ، فيسومونهم سوء العذاب ، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق .

قال الله ـ مبينا لهم حالة ، هم بها دون الناس ، وأن الله اختصهم بها فقال :

[أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا] .

أى : أو لم نجعلهم متمكنين ، ممكنين فى حرم ، يكثر المنتابون إليه ، ويقصده الزائرون ، قد احترمه القريب والبعيد ، فلا يهاج أهله ، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير .

مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن ، قدحف بها الخوف من كل جانب ، وأهلها غير آمنين ولا مطئنين .

فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام ، الذى ليس فيه غيرهم ، وعلى الرزق الكثير ، الذى يجىء إليهم من كل مكان ، من الثمرات ، والأطعمة ، والبضائع ، ما به يرتزقون ويتوسعون .

ولْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم ، ليتم لهم الأمن والرغد .

وإياهم وتكذيبه ، والبطر بنعمته ، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفا ، وبعد عزهم ذلا ، وبعد غناهم فقرا ، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم ، فقال :

[وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها] أى : فخرت بها ، وألهتها ، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل ، فأهلكهم الله ، وأزال عنهم النعمة ، وأحل بهم النقمة .

[فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا] لتوالى الهلاك والتلف عليهم ، وإيحاشها من بعدهم .

[وكنا نحن الوارثين] للعباد ، نميتهم ، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم ، ثم نعيدهم إلينا ، فنجازيهم بأعمالهم .

حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

ومن حكمته ورحمته ، أن لا يعذب الأمم ، بمجرد كفرهم ، قبل إقامة الحجة عليهم ، بإرسال الرسل إليهم ، ولهذا قال :

[وما كان ربك مُهْلِكَ القرى] أى بكفرهم وظلمهم [حتى يبعث فى أمها] أى : فى القرية والمدينة التى إليها يرجعون ، ونحوها يترددون ،وكل ما حولها ينتجعها ، ولا تخفى عليهم أخبارها .

[رسولا يتلو عليهم آياتنا] الدالة على صحة ما جاء به ، وصدق ما دعاهم إليه .

فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم .

بخلاف بعث الرسل فى القرى البعيدة ، والأطراف النائية ، فإن ذلك ، مظنة الخفاء والجفاء ، والمدن الأمهات ، مظنة الظهور والانتشار ، وفى الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم .

[وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون] بالكفر والمعاصى ، مستحقون للعقوبة .

والحاصل ، أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه ، وإقامة الحجة عليه .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا

---

* هذا حض منه تعالى لعباده ، على الزهد فى الدنيا ، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة فى الأخرى ، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه .

ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق ، من الذهب ، والفضة ، والحيوانات والأمتعة ، والنساء ، والبنين ، والمآكل ، والمشارب ، واللذات ، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها .

أى : يتمتع به وقتا قصيراً ، متاعاً قاصرا ، محشوا بالمنغصات ، ممزوجا بالغصص .

ويتزين به زمانا يسيرا ، للفخر والرياء ، ثم يزول ذلك سريعاً ، وينقضى جميعاً ، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم ، والخيبة والحرمان .

[وما عند الله] من النعيم المقيم ، والعيش السليم [خير وأبقى] أى : أفضل فى وصفه وكميته ، وهو دائم أبداً ، ومستمر سرمدا .

[أفلا تعقلون] أى : أفلا تكون لكم عقول ، بها تزنون أى الأمرين أولى بالإيثار ، وأى الدارين أحق للعمل لها .

فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد ، يؤثر الأخرى على الدنيا ، وأنه ما آثر أحد الدنيا ، إلا لنقص فى عقله .

ولهذا نبه العقول على الموازنة ، بين عاقبة مؤثر الدنيا ، ومؤثر الآخرة فقال :

حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

[أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه] أى : هل يستوى مؤمن ، ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له ، بالثواب الحسن ، الذى هو الجنة ، وما فيها من النعيم العظيم ، فهو لاقيه ، من غير شك ، ولا ارتياب لأنه وعد من كريم ، صادق الوعد ، لايخلف الميعاد ، لعبد قام بمرضاته ، وجانب سخطه .

[كمن متعناه متاع الحياة الدنيا] فهو يأخذ فيها ، ويعطى ، ويأكل ويشرب ، ويتمتع كما تتمتع البهائم .

قد اشتغل بدنياه عن آخرته ، ولم يرفع بهدى الله رأسا ، ولم ينقد للمرسلين .

فهو لايزال كذلك ، لايتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك .

[ثم هو يوم القيامة من المحضرين] للحساب وقد علم أنه لم يقدم خيرا لنفسه ، وإنما قدم جميع ما يضره ، وانتقل إلى دار الأعمال .

فما ظنكم بما يصير إليه ؟ وماتحسبون ما يصنع به ؟.

فليختر العاقل لنفسه ، ما هو أولى بالاختيار ، وأحق الأمرين بالإيثار .

۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا

---

* هذا إخبار من الله تعالى ، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة ، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء ، عن عبادة الله ، وإجابة رسله فقال :

[ويوم يناديهم] أى : ينادى من أشركوا به شركاء ، يعبدونهم ، ويرجون نفعهم ، ودفع الضرر عنهم ، فيناديهم ، ليبين لهم عجزها ، وضلالهم .

[فيقول أين شركائى] ، وليس لله شريك ، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم .

ولهذا قال : [الذين كنتم تزعمون] فأين هم ، بذواتهم ، وأين نفعهم وأين دفعهم ؟

ومن المعلوم أنهم يتبين لهم فى تلك الحال ، أن الذى عبدوه ، ورجوه باطل ، مضمحل فى ذاته ، وما رجوا منه ، فيقولون [أى : يحكمون] على أنفسهم بالضلالة والغواية .

ولهذا [قال الذين حق عليهم القول] من الرؤساء والقادة ، فى الكفر والشر ، مقرين بغوايتهم وإغوائهم : [ربنا هؤلاء] التابعون [الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا] .

أى : كلنا قد اشترك فى الغواية ، وحق عليه كلمة العذاب .

[تبرأنا إليك] من عبادتهم ، أى : نحن برآء منهم ، ومن عملهم .

يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

[ما كانوا إيانا يعبدون] وإنما كانوا يعبدون الشياطين .

[وقيل] لهم : [ادعوا شركاءكم] على ما أملتم فيهم ، من النفع .

فأمروا بدعائهم فى ذلك الوقت الحرج ، الذى يضطر فيه العابد إلى من عبده .

[فدعوهم] لينفعوهم ، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شىء .

[فلم يستجيبوا لهم] فعلم الذين كفروا ، أنهم كانوا كاذبين ، مستحقين للعقوبة .

[ورأوا العذاب] الذى سيحل بهم عيانا ، بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به ، منكرين له .

[لو أنهم كانوا يهتدون] أى : لما حصل عليهم ما حصل ، ولهدوا إلى صراط الجنـة ، كما اهتدوا فى الدنيا ، ولـكن لم يهتدوا ، فلم يهتدوا .

[ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين] ، هل صدقتموهم، واتبعتموهم أم كذبتموهم وخالفتموهم ؟

[فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون] أى : لم يحيروا عن هذا السؤال جوابا ، ولم يهتدوا إلى الصواب .

ومن المعلوم ؛ أنه لاينجى فى هـذا الموضع ؛ إلا التصريح بالجواب الصحيح ؛ المطابق لأحوالهم ؛ من أننا أجبناهم بالإيمان ؛ والانقياد .

فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم ؛ لم ينطقوا بشيء .

ولا يمكن أن يتساءلوا ؛ ويتراجعوا بينهم ؛ فيماذا يجيبون به ؛ ولو كان كذبا .

* لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم ؛ وعن رسلهم ؛ ذكر الطريق ، الذى ينجو به العبد ، من عقاب الله تعالى ، وأنه لانجاة إلا لمن اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصى ، وآمن بالله فعبده ، وآمن برسله ، فصدقهم ، وعمل صالحاً ؛ متبعا فيه للرسل .

[فعسى أن يكون] من جمع هذه الخصال [من المفلحين] الناجحين بالمطلوب ؛ الناجين من المرهوب .

فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* هذه الآيات ؛ فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ؛ ونفوذ مشيئته بجميع البريات ؛ وانفراده باختيار من يختاره ويختصه ؛ من الأشخاص؛ والأوامر والأزمان ؛ والأماكن .

وأن أحداً ؛ ليس له من الأمر والاختيار شيء .

وأنه تعالى ؛ منزه عن كل ما يشركون به ؛ من الشريك ؛ والظهير والعوين ؛ والولد ؛ والصاحبة ؛ ونحو ذلك ؛ مما أشرك به المشركون .

وأنه العالم بما أكنته الصدور ، وما أعلنوه .

وأنه وحده ، المعبود المحمود ؛ فى الدنيا والآخرة ؛ على ماله من صفات الجلال والجمال ؛ وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال .

وأنه هو الحاكم فى الدارين : فى الدنيا ؛ بالحكم القدرى ؛ الذى أثره جميع ما خلق وذرأ ، والحكم الدينى ، الذى أثره جميع الشرائع ، والأوامر والنواهى .

وفى الآخرة يحكم بحكمه القدرى والجزائى ، ولهذا قال : [وإليه ترجعون] فيجازى كلا منكم بعمله ، من خير وشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

* هذا امتنان من الله على عباده ، يدعوهم به إلى شكره ، والقيام بعبوديته وحقه ، أن جعل لهم من رحمته ، النهار ليبتغوا من فضل الله ، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم ، فى ضيائه ، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا ، وتستريح أبدانهم وأنفسهم ، من تعب التصرف فى النهار ، فهذا من فضله ورحمته بعباده .

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك ؟

و [إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون] مواعظ الله وآياته ، سماع فهم وقبول ، وانقياد .

و [إن جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون] مواقع العبر ؛ ومواضع الآيات فتستنير فى بصائركم ، وتسلكوا الطريق المستقيم .

وقال فى الليل [أفلا تسمعون] وفى النهار [أفلا تبصرون] .

لأن سلطان السمع فى الليل ، أبلغ من سلطان البصر ، وعكسه النهار .

وفى هذه الآيات ، تنبيه إلى أن العبد ينبغى له أن يتدبر نعم الله عليه ، ويستبصر فيها ؛ ويقيسها بحال عدمها .

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾
وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ

فإنه إذا وازن بين حالة وجودها ، وبين حالة عدمها ؛ تنبه عقله لموضع المنة .

بخلاف من جرى مع العوائد ، ورأى أن هذا أمر ، لم يزل مستمراً ، ولا يزال .

وعمى قلبه عن الثناء على الله ، بنعمه ، ورؤية افتقاره إليها فى كل وقت .

فإن هذا ، لايحدث له فكرة شكر ، ولا ذكر .

* أى : ويوم ينادى الله المشركين به ، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء ، يستحقون أن يعبدوا ، وينفعون ويضرون .

فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم فى زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم [يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون] .

أى : بزعمهم ، لا بنفس الأمر كما قال : « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » .

فإذا حضروا ، هم وإياهم ، نزع الله [من كل أمة] من الأمم المكذبة

فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

[شهيدا] يشهد على ماجرى فى الدنيا ، من شركهم واعتقادهم ، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين .

أى : انتخبنا من رؤساء المكذبين ، من يتصدى للخصومة عنهم ، والمجادلة عن إخوانهم ، وهم على طريق واحد .

فإذا برزوا للمحاكمة [فقلنا هاتوا برهانكم] أى : حجتكم ودليلكم ، على صحة شرككم .

هل أمرناكم بذلك ؟ هل أمرتكم رسلى ؟ هل وجدتم ذلك فى شىء من كتبى ؟

هل فيهم أحد يستحق شيئا من الإلهية ؟

هل ينفعونكم ، أو يدفعون عنكم من عذاب الله ، أو يغنون عنكم ؟

فليفعلوا ، إذا كان فيهم أهلية ، وليروكم ، إن كان لهم قدرة .

[فعلموا] حينئذ ، بطلان قولهم وفساده ، و [أن الحق لله] تعالى :

قد توجهت عليهم الخصومة ، وانقطعت حجتهم ، وأفلجت[1] حجة الله .

[وضل عنهم ماكانوا يفترون] من الكذب ، والإفك ، واضمحل ، وتلاشى ، وعدم .

وعلموا أن الله قد عدل فيهم ، حيث لم يضع العقوبة ، إلا بمن استحقها ، واستأهلها

---

(١) وأفلجت . أى : غلبت حجة الله حجتهم .

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ

---

* يخبر تعالى ، عن حالة قارون ، وما فعل ، وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ ، فقال :

[إن قارون من قوم موسى] أى : من بنى إسرائيل ، الذين فُضِّلوا على العالمين ، وفاقوهم فى زمانهم ، وامتن الله عليهم بما امتن به ، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة .

ولكن قارون هذا ، انحرف عن سبيل قومه [فبغى عليهم] وطغى ، بما أوتيه من الأمور العظيمة المطغية .

[وآتيناه من الكنوز] أى : كنوز الأموال شيئاً كثيرا

[ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة] والعصبة ، من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ، ونحو ذلك .

أى : حتى إن مفاتح خزائن أمواله ، تثقل الجماعة القوية عن حملها ، هذه المفاتيح ، فما ظنك بالخزائن ؟

[إذ قال له قومه] ناصحين له محذرين له عن الطغيان : [لاتفرح إن الله لايحب الفرحين] أى : لاتفرح بهذه الدنيا العظيمة ، وتفتخر بها ، وتلهيك عن الآخرة ، فإن الله لا يحب الفرحين بها ، المنكبين على محبتها .

[وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة] أى : قد حصل عندك من وسائل

ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ

الآخرة ، ما ليس عند غيرك من الأموال ، فابتغ بها ، ما عند الله ، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات ، وتحصيل اللذات .

[ولاتنس نصيبك من الدنيا] أى : لانأمرك أن تتصدق بجميع مالك ، وتبقى ضائعا ، بل أنفق لآخرتك ، واستمتع بدنياك ، استمتاعا ، لا يثلم دينك ، ولايضر بآخرتك .

[وأحسن] إلى عباد الله [كما أحسن الله إليك] بهذه الأموال .

[ولاتبغ الفساد فى الأرض] بالتكبر ، والعمل بمعاصى الله والاشتغال بالنعم عن المنعم .

[إن الله لايحب المفسدين] بلى يعاقبهم على ذلك ، أشد العقوبة .

[قال] قارون — راداً لنصيحتهم ، كافرا بنعمة ربه - : [إنما أوتيته على علم عندى] .

أى : إنما أدركت هذه الأموال ، بكسبى ، ومعرفتى بوجوه المكاسب ، وحذقى .

أو على علم من الله بحالى ، يعلم أنى أهل لذلك ، فلم تنصحونى على ما أعطانى الله ؟

قال تعالى — مبيناً أن عطاءه ، ليس دليلا على حسن حالة المعطى .

أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ

أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً] فما المانع من إهلاك قرون أخرى ، مع مُضِيِّ عادتنا ، وسنتنا بإهلاك من هو مثله . وأعظم منه ، إذا فعل ما يوجب الهلاك ؟ .

[ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون] بل يعاقبهم الله ، ويعذبهم على ما يعلمه منهم .

فهم ، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس قولهم مقبولا ، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً ، لأن ذنوبهم غير خفية ، فإنكارهم لا محل له .

فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه ، وعدم قبول نصيحة قومه ، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه ، وغره ما أوتيه من الأموال .

[فخرج] ذات يوم [على قومه فى زينته] أى بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه ، قد كان له من الأموال ما كان ، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه .

وتلك الزينة فى العادة ، من مثله ، تكون هائلة ، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها .

فرمقته فى تلك الحالة العيون ، وملأت بِزَّتُهُ القلوب ، واختلبت زينته ، النفوس .

مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ

فانقسم فيه الناظرون قسمين ، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة .

[قال الذين يريدون الحياة الدنيا] أى : الذين تعلقت إرادتهم فيها ، وصارت منتهى رغبتهم ، ليس لهم إرادة فى سو ها .

[ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من الدنيا ومتاعها وزهرتها [إنه لذو حظ عظيم] .

وصدقوا إنه لذو حظ عظيم ، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم ، وأنه ليس وراء الدنيا ، دار أخرى ، فإنه قد أعطى منها ، ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا ، واقتدر بذلك على جميع مطالبه ، فصار هذا الحظ العظيم ، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ، ومنتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم، وأسفلها ، وأدناها ، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية ، والمطالب الغالية .

[وقال الذين أوتوا العلم] الذين عرفوا حقائق الأشياء ، ونظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر أولئك إلى ظاهرها :

[ويلكم] متوجعين مما تمنوا لأنفسهم ، راثين لحالهم ، منكرين لمقالهم .

[ثواب الله] العاجل ، من لذة العبادة ومحبته ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه .

إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

والآجل من الجنة ، وما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين [خير لمن آمن وعمل صالحا] من هذا الذى تمنيتم ورغبتم فيه ، فهذه حقيقة الأمر .

ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه ، فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له [إلا الصابرون] الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة ، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها ، أن تشغلهم عن ربهم ، وأن تحول بينهم ، وبين ما خلقوا له .

فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية

فلما انتهت بقارون حالة البغى والفخر ، وازَّيَّنَتْ الدنيا عنده ، وكثر بها إعجابه ، بغته العذاب [فخسفنا به وبداره الأرض] جزاء من جنس عمله .

فكما رفع نفسه على عباد الله ، أنزله الله أسفل سافلين ، هو وما اغتر به ، من داره ، وأثاثه ، ومتاعه .

[فما كان له من فئة] أى : جماعة ، وعصبة ، وخدم ، وجنود [ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين] أى : جاءه العذاب ، فما نصر ، ولا انتصر .

[وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس] أى : الذين يريدون الحياة الدنيا ، الذين قالوا : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون » .

[يقولون] متوجعين ومعتبرين ، وخائفين من وقوع العذاب بهم :

لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

[ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر] أى : يضيق الرزق على من يشاء ، فعلمنا حينئذ ، أن بسطه لقارون ، ليس دليلا على خير فيه ، وأننا غالطون فى قولنا : « إنه لذو حظ عظيم » .

و [لولا أن من الله علينا] فلم يعاقبنا على ما قلنا ، فلولا فضله ومنته [لخسف بنا] .

فصار هلاك قارون ، عقوبة له ، وعبرة وموعظة لغيره ، حتى إن الذين غبطوه ، سمعت كيف ندموا ، وتغير فكرهم الأول .

[ويكأنه لا يفلح الكافرون] أى : لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

* لما ذكر تعالى ، قارون وما أوتيه من الدنيا ، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا : « ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » رغب تعالى فى الدار الآخرة ، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال :

[تلك الدار الآخرة] التى أخبر الله بها فى كتبه وأخبرت بها رسله ، التى جمعت كل نعيم ، واندفع عنها كل مكدر ومنغص

[نجعلها] دارا وقرارا [للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا] أى : ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو فى الأرض، على عباد الله ، والتكبر عليهم وعلى الحق [ولا فساداً] وهذا شامل لجميع المعاصى .

فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ

فإذا كانوا لا إرادة لهم فى العلو فى الأرض ، ولا الفساد ، لزم من ذلك ، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله ، وقصدهم الدار الآخرة ، وحالهم ، التواضع لعباد الله ، والانقياد للحق والعمل الصالح .

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة الحسنى ، ولهذا قال : [والعاقبة] أى حالة الفلاح والنجاح ، التى تستقر وتستمر ، لمن اتقى الله تعالى .

وغيرهم — وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة — فإنه لا يطول وقته ، ويزول عن قريب .

وعلم من هذا الحصر فى الآية الكريمة ، أن الذين يريدون العلو فى الأرض ، أو الفساد ، ليس لهم فى الدار الآخرة ، نصيب ، ولا لهم منها ، حظ .

* يخبر تعالى عن مضاعفة فضله ، وتمام عدله فقال :

[من جاء بالحسنة] شرط فيها أن يأتى بها العامل ، لأنه قد يعملها ، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه ، أو يبطلها ، فهذا لم يجىء بالحسنة .

والحسنة ، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله ، من الأقوال ، والأعمال الظاهرة ، والباطنة ، المتعلقة بحقه تعالى ، وحقوق العباد [فله خير منها] أى : أعظم وأجل ، وفى الآية الأخرى « فله عشر أمثالها » .

هذا التضعيف للحسنة ، لا بد منه ، وقد يقترن بذلك من الأسباب ، ما تزيد به المضاعفة كما قال تعالى : « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » بحسب حال العامل وعمله ، ونفعه ، ومحله ، ومكانه .

[ومن جاء بالسيئة] وهى كل ما نهى الشارع عنه ، نَهْىَ تحريم .

فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

[فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون] كقوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » :

* يقول تعالى [إن الذى فرض عليك القرآن] أى : نزله ، وفرض فيه الأحكام ، وبين فيه الحلال والحرام ، وأمرك بتبليغه للعالمين ، والدعوة لأحكامه ، جميع المكلفين .

لا يليق بحكمته ، أن تكون هى الحياة الدنيا فقط ، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا .

بل لا بد أن يردك إلى معاد ، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم ، والمسيئون بمعصيتهم .

وقد بينت لهم الهدى ، وأوضحت لهم المنهج .

فإن تبعوك ، فذلك حظهم وسعادتهم .

وإن أبوا إلا عصيانك ، والقدح بما جئت به من الهدى ، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق ، فلم يبق للمجادلة محل ، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة ، والمحق والمبطل .

ولهذا قال : [قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين] وقد علم أن رسوله هو المهتدى الهادى ، وأن أعداءه هم الضالون المضلون .

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

[وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب] أى : لم تكن متحريا لنزول هذا الكتاب عليك ، ولا مستعداً له ، ولا متصديا .

[إلا رحمة من ربك] وبالعباد ، فأرسلك بهذا الكتاب ، الذى رحم به العالمين ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وزكاهم ، وعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل ، لفى ضلال مبين .

فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه ، علمت ، أن جميع ما أمر به ، ونهى عنه ، رحمة ، وفضل من الله .

فلا يكن فى صدرك حرج من شىء منه ، وتظن أن مخالفه ، أصلح وأنفع .

[فلا تكونن ظهيراً للكافرين] أى : معينا لهم على ما هو ، من شعب كفرهم .

ومن جملة مظاهرتهم ، أن يقال فى شىء منه ، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة .

[ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك] بل أبلغها وأنفذها ، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها ، ولا تتبع أهواءهم .

[وادع إلى ربك] أى اجعل الدعوة إلى ربك ، منتهى قصدك وغاية عملك .

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

فكل ما خالف ذلك ، فارفضه ، من رياء ، أو سمعة ، أو موافقة أغراض أهل الباطل ، فإن ذلك داع إلى السكون معهم ، ومساعدتهم على أمرهم ولهذا قال :

[ولا تكونن من المشركين] لا فى شركهم ، ولا فى فروعه وشعبه ، التى هى جميع المعاصى .

[ولا تدع مع الله إلها آخر] بل أخلص لله عبادتك ، فإنه [لا إله إلا هو] فلا أحد يستحق أن يؤله ، ويحب ، ويعبد ، إلا الله الكامل الباقى الذى [كل شىء هالك إلا وجهه] وإذا كان كل شىء سواه هالكاً مضمحلا ، فعبادة الهالك الباطل باطلة ، ببطلان غايتها ، وفساد نهايتها .

[له الحكم فى الدنيا والآخرة [وإليه] لا إلى غيره [ترجعون] .

فإذا كان ما سوى الله ، باطلا هالكا ، والله هو الباقى ، الذى لا إله إلا هو ، وله الحكم فى الدنيا والآخرة ، وإليه مرجع الخلائق كلهم ، ليجازيهم بأعمالهم ، تعيَّن على من له عقل ، أن يعبد الله وحده لا شريك ، ويعمل لما يقربه ويدنيه ، ويحذر من سخطه وعقابه ، وأن يقدم على ربه غير تائب ، ولا مقلع عن خطإه وذنوبه .

تم تفسير سورة القصص ـ ولله الحمد والثناء والمجد دائما أبدا .

تفســـير

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟

---

* يخبر تعالى، عن تمام حكمته، وأن حكمته، لا تقتضى أن كل من قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا فى حالة، يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم، مايشوش عليهم إيمانهم وفروعه.

فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل،

ولكن سنته تعالى وعادته فى الأولين، وفى هذه الأمه، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم فى بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن، التى ترجع كلها، إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمن كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق.

ءامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصى والذنوب ، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله ، يعمل بمقتضى الإيمان ، ويجاهد شهوته ، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته .

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر فى قلبه ، شكا وريبا ، وعند اعتراض الشهوات ، تصرفه إلى المعاصى أو تصدفه عن الواجبات ، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه .

والناس فى هذا المقام : درجات ، لايحصيها إلا الله ، فمستقل ومستكثر .

فنسأل الله تعالى ، أن يثبتنا بالقول الثابت ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يثبت قلوبنا على دينه .

فالابتلاء والإمتحان للنفوس ، بمنزلة الكير ، يخرج خبثها ، وطيبها .

* أى : أحسب الذين همهم ، فعل السيئات ، وارتكاب الجنايات ، أن أعمالهم ستهمل ، وأن الله سيغفل عنهم ، أو يفوتونه ، فلذلك أقدموا عليها ، وسهل عليهم عملها ؟ .

[ساء ما يحكمون] أى : ساء حكمهم ، فإنه حكم جائر ، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته ، وأن لديهم قدرة ، يمتنعون بها من عقاب الله ، وهم أضعف شىء وأعجزه .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* يعنى : يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه ، المسارع فى مرضاته ، أبشر بقرب لقاء الحبيب ، فإنه آت ، وكل ما هو آت ، قريب .

فتزود للقائه ، وسر نحوه ، مستصحبا الرجاء ، مؤملا الوصول إليه .

ولكن ، ما كل من يَدَّعِى يُعْطَى بدعواه ، ولا كل من تمنى ، يعطى ما تمناه ، فإن الله سميع للأصوات ، عليم بالنيات .

فمن كان صادقا فى ذلك ، أناله ما يرجو ، ومن كان كاذبا ، لم تنفعه دعـواه .

وهو العليم بمن يصلح لحبه ، ومن لا يصلح .

[ومن جاهد] نفسه وشيطانه ، وعدوه الكافر ، [فإنما يجاهد لنفسه] لأن نفعه ، راجع إليه ، وثمرته ، عائدة إليه .

و [إن الله لغنى عن العالمين] لم يأمرهم به ، لينتفع به ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه ، بُخْلاً منه عليهم .

وقد علم أن الأوامر والنواهى ، يحتاج المكلف فيها ، إلى جهاد ، لأن نفسه ، تتثاقل بطبعها ، عن الخير ، وشيطانه ينهاه عنه ، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه ، كما ينبغى .

وكل هذه ، معارضات ، تحتاج إلى مجاهدات وسعى شديد .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

---

* يعني أن الذين منّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، سيكفر الله عنهم سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

[ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون] وهى أعمال الخير ، من واجبات ، ومستحبات ، فهى أحسن ما يعمل العبد ، لأنه يعمل المباحات أيضاً ، وغيرها .

* أى : وأمرنا الإنسان ، ووصيناه بوالديه حسنا ، أى : ببرهما ، والإحسان إليهما ، بالقول والعمل ، وأن يحافظ على ذلك ، ولا يعقهما ، ويسىء إليهما ، فى قوله وعمله .

[وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم] ، وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله ، وهذا تعظيم لأمر الشرك .

[فلا تطعمها إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون] فأجازيكم بأعمالكم .

فبروا والديكم وقدموا طاعتهما ، إلا على طاعة الله ورسوله ، فإنها مقدمة على كل شىء .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ

---

* أى : من آمن بالله ، عمل صالحا ، فإن الله وعده ، أن يدخله الجنة فى جملة عباد الله الصالحين ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، كل على حسب درجته ، ومرتبته عند الله .

فالإيمان الصحيح ، والعمل الصالح ، عنوان على سعادة صاحبه ، وأنه من أهل الرحمن ، ومن الصالحين من عباد الله .

* لما ذكر تعالى ، أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان ، ليظهر الصادق من الكاذب ، بيّن تعالى ، أن من الناس فريقا ، لا صبر لهم على المحن ، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال :

[ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله] بضرب، أو أخذ مال ، أو تعيير ، ليرتد عن دينه ، وليراجع الباطل .

[جعل فتنة الناس كعذاب الله] أى : يجعلها صادَّة له عن الإيمان ، والثبات عليه ، كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه .

[ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم] ، لأنه موافق للهوى ، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم ، : «ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وأن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ

[أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين] حيث أخبركم بهذا الفريق، الذى حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك، كمال علمه، وسعة حكمته.

[وليعلمن الله الذين آمنو وليعلمن المنافقين] أى: فلذلك قَدَّرَ مِحَناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتُلُوا، لثبتُوا.

* يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفى ضمن ذلك، تحذير المؤمنين، من الاغترار بهم، والوقوع فى مكرهم فقال:

[وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا] فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا فى ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر [ولنحمل خطاياكم].

وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: [وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء] لا قليل ولا كثير.

فهذا التحمل، ولو رضى به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله والله تعالى، لم يمكن العبد من التصرف فى حقه، إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله [وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء] قد يتوهم منه

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

أيضاً ، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم ، الذى ارتكبوه ، دون الذنب الذى فعله غيرهم ، ولو كانوا متسببين فيه ، قال محترزا عن هذا الوهم :

[وليحملن أثقالهم] أى : أثقال ذنوبهم التى عملوها [وأثقالا مع أثقالهم] وهى الذنوب التى حصلت بسببهم ، ومن جرائهم .

فالذنب الذى فعله التابع ، لكل من التابع والمتبوع ، حصة منه حصلت هذا لأنه فعله وباشره .

والمتبوع ، لأنه تسبب فى فعله ودعا إليه .

كما أن الحسنة إذا فعلها التابع ، له أجرها بالمباشرة وللداعى ، أجره بالتسبب .

[وليسألن يوم اليقامة عما كانوا يفترون] من الشر وتزيينه ، وقولهم « ولنحمل خطاياكم » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن حكمه وحكمته ، فى عقوبات الأمم المكذبة ، وأن الله أرسل عبده ورسوله ، نوحا عليه السلام ، إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة ، والنهى عن الانداد ، والأصنام .

[فلبث فيهم] نبياً داعياً [ألف سنة إلا خمسين عاما] ، وهو لا يَنِى بدعوتهم ، ولا يفتر فى نصحهم ، يدعوهم ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ، فلم يرشدوا ، ولا اهتدوا .

بلى استمروا على كفرهم وطغيانهم ، حتى دعا عليهم نبيهم نوح ، عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره ، وحلمه ، واحتماله فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » .

[فأخذهم الطوفان] أى : الماء الذى نزل من السماء بكثرة ، ونبع من الأرض بشدة [وهم ظالمون] مستحقون للعذاب .

[فأنجيناه وأصحاب السفينة] الذين ركبوا معه ، أهله ومن آمن به .

[وجعلناها] أى : السفينة ، أوقصة نوح [آية للعالمين] يعتبرون بها ، على أن من كذب الرسل ، آخر أمره ، الهلاك ، وأن المؤمنين ، سيجعل الله لهم ، من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق ، مخرجا .

وجعل الله أيضاً السفينة ، أى : جنسها آية للعالمين ، يعتبرون بها رحمة ربهم ، الذى قيض لهم أسبابها ، ويسر لهم أمرها ، وجعلها تحملهم ، وتحمل متاعهم ، من محل إلى محل ، ومن قطر إلى قطر .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

* يذكر تعالى ، أنه أرسل خليله ، إبراهيم عليه السلام إلى قومه ، يدعوهم إلى الله .

فقال لهم : [اعبدوا الله] أى : وحِّدوه ، وأخلصوا له العبادة ، وامتثلوا ما أمركم به .

[واتقوه] أن يغضب عليكم ، فيعذبكم ، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصى .

[ذلكم] أى : عبادة الله وتقواه [خير لكم] من ترك ذلك .

وهذا من باب إطلاق « أفعل التفضيل » بما ليس فى الطرف الآخر منه شيء .

فإن ترك عبادة الله ، وترك تقواه ، لا خير فيه بوجه ، وإنما كانت عبادة الله وتقواه ، خيراً للناس ، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته ، فى الدنيا والآخرة ، إلا بذلك .

وكل خير يوجد فى الدنيا والآخرة ، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه .

[إن كنتم تعلمون] ذلك ، فاعلموا الأمور ، وانظروا ، ما هو أولى بالإيثار .

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه ، نهاهم عن عبادة الأصنام ، وبيَّن لهم نقصها ، وعدم استحقاقها للعبودية فقال :

أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُ

[إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا] تنحتونها، وتخلقونها بأيديكم ، وتخلقون لها أسماء الآلهة ، وتختلقون الكذب ، بالأمر بعبادتها ، والتمسك بذلك .

[إن الذين تدعون من دون الله] فى نقصه ، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته .

[لا يملكون لكم رزقا] فكأنه قيل : قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة ، لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأن من هذا وصفه ، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة ، من العبادة والتأله .

والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تألهه ، وتسأله حوائجها .

فقال ـ حاثا لهم على من يستحق العبادة ـ [فابتغوا عند الله الرزق] فإنه هو الميسر له ، المقدر ، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه .

[واعبدوه] وحده، لا شريك له ، لكونه الكامل النافع ، الضار ، المتفرد بالتدبير .

[واشكروا له] وحده ، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق فى من النعم ، فمنه .

وجميع ما اندفع ، ويندفع من النقم عنهم ، فهو الدافع لها .

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ

[إليه ترجعون] فيجازيكم على ما عملتم ، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم .

فاحذروا القدوم عليه ، وأنتم على شرككم ، وارغبوا فيما يقربكم إليه ، ويثيبكم ــ عند القدوم ــ عليه .

[أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده] يوم القيامة [إن ذلك على الله يسير] .

كما قال تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

[قل] لهم ، إن حصل معهم ريب وشك فى الابتداء : [سيروا فى الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف بدأ الخلق] فإنكم ستجدون أمما من الآدميين ، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً ، وتجدون النبات والأشجار ، كيف تحدث ، وقتا بعد وقت ، وتجدون السحاب والرياح ونحوها ، مستمرة فى تجددها .

بل الخلق دائما ، فى بدء وإعادة .

فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى ــ النوم ــ وقد هجم عليهم الليل بظلامه ، فسكنت منهم الحركات ، وانقطعت منهم الأصوات ، وصاروا فى فرشهم ومأواهم ، كالميتين .

ثم إنهم لم يزالوا على ذلك ، طول ليلهم ، حتى تنفلق الأصباح ،

فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ

فانتبهوا من رقدتهم ، وبعثوا من موتتهم ، قائلين « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

ولهذا قال : [ثم الله] بعد الإعارة [ينشيء النشأة الآخرة] وهى النشأة لاتقبل موتا ، ولا نوماً ، وإنما هو الخلود والدوام ، فى إحدى الدارين .

[إن الله على كل شيء قدير] فقدرته تعالى ، لا يعجزها شيء ، وكما قدر بها على ابتداء الخلق ، فقدرته على الإعادة ، من باب أولى وأحرى .

[يعذب من يشاء ويرحم من يشاء] أى : هو المنفرد بالحكم الجزائى ، وهو : إثابة الطائعين ، ورحمتهم ، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم .

[وإليه تقلبون] أى : ترجعون إلى الدار ، التى بها تجرى عليكم أحكام عذابه ورحمته .

فاكتسبوا فى هذ الدار ، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات .

وابتعدوا عن أسباب عذابه ، وهى المعاصى .

[وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء] أى : ياهؤلاء المكذبين ، المتجرئين على المعاصى ، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم ، أو أنكم معجزون لله فى الأرض ، ولا فى السماء .

وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

فلا تغرنكم قدرتكم ، وما زينت لكم أنفسكم ، وخدعتكم ، من النجاة من عذاب الله فلستم بمعجزين الله ، فى جميع أقطار العالم .

[وما لكم من دون الله من ولى] يتولاكم ، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم .

[ولا نصير] ينصركم ، فيدفع عنكم المكاره .

* يخبر تعالى ، من هم الذين زال عنهم الخير ، وحصل لهم الشر .

وأنهم الذين كفروا به وبرسله ، وبما جاءوهم به ، وكذبوا بلقاء الله .

فليس عندهم ، إلا الدنيا ، فلذلك أقدموا ، على ما أقدموا عليه ، من الشرك والمعاصى ، لأنه ليس فى قلوبهم ، ما يخوفهم من عاقبة ذلك ، ولهذا قال :

[أولئك يئسوا من رحمتى] أى : فلذلك لم يعلموا سببا واحداً ، يحصلون به الرحمة .

وإلا ، فلو طمعوا فى رحمته ، لعملوا لذلك أعمالا .

والإياس من رحمة الله ، من أعظم المحاذير ، وهو نوعان .

إياس الكفار منها ، وتركهم كل سبب يقربهم منها .

وإياس العصاة ، بسبب كثرة جناياتهم ، أو حشتهم ، فملكت قلوبهم ، فأحدث لها الإياس .

[وأولئك لهم عذاب أليم] أى : مؤلم موجع .

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وكأن هذه الآيات ، معترضات ، بين كلام إبراهيم لقومه ، وردهم عليه ، والله أعلم بذلك .

* أى : فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم ، حين دعاهم إلى ربه ، قبول دعوته ، والاهتداء بنصحه ، ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم .

وإنما كان مجاوبتهم له ، شر مجاوبة .

[قالوا اقتلوه أو حرقوه] أشنع القتلات ، وهم أناس مقتدرون ، لهم السلطان ، فألقوه فى النار [فأنجاه الله] منها .

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل ، وبِرَّهُمْ ونصحهم ، وبطلان قول من خالفهم ، وناقضهم ، وأن المعارضين للرسل ، كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضا ، على التكذيب .

[وقال] لهم إبراهيم في جملة ما قاله ، من نصحه : [إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا] .

أى : غاية ذلك ، مودة فى الدنيا ستنقطع وتضمحل .

[ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا] أى : يتبرأ كل من العابدين والمعبودين ، من الآخر « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا

فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ ، من عابديه ، ويلعنهم ؟ .

[و] أن [مأواكم] جميعا ، العابدين والمعبودين [النار] .

وليس أحد ، ينصرهم من عذاب الله ، ولا يدفع عنهم عقابه .

* أى لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يدعو قومه ، وهم مستمرون على عنادهم .

إلا أنه آمن له بدعوته ، لوط ، الذى نبأه الله ، وأرسله إلى قومه كما سيأتى ذكره .

[وقال] إبراهيم ، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا :

[إنى مهاجر إلى ربى] أى : هاجر أرض السوء ، ومهاجر إلى الأرض المباركة ، وهى الشام .

[إنه هو العزيز] أى : الذى له القوة ، وهو يقدر على هدايتكم .

ولكنه [حكيم] ما اقتضت حكمته ذلك .

ولما اعتزلهم وفارقهم ، وهم بحالهم ، لم يذكر الله عنهم ، أنه أهلكهم بعذاب .

بل ذكر اعتزاله إياهم ، وهجرته من بين أظهرهم .

وأما ما يذكر فى الإسرائيليات ، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض ، فشرب دماءهم ، وأكل لحومهم ، وأتلفهم عن آخرهم ، فهذا يتوقف الجزم به ، على الدليل الشرعى ، ولم يوجد .

فلو كان الله استأصلهم بالعذاب ، لذكره ، كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة .

ولكن، هل من أسرار ذلك ، أن الخليل عليه السلام ، من أرحم الخلق ، وأفضلهم ، وأحلمهم ، وأجلهم ، فلم يدع على قومه ، كما دعا غيره ، ولم يكن الله ايجرى عليهم بسببه ، عذابا عاما ؟ .

ومما يدل على ذلك ، أنه راجع الملائكة فى إهلاك قوم لوط ، وجادلهم ، ودافع عنهم ، وهم ليسوا قومه ، والله أعلم بالحال .

[ووهبنا له إسحق ويعقوب] أى : بعد ما هاجر إلى الشام [وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب] .

فلم يأت بعده نبى ، إلا من ذريته ، ولا نزل كتاب ، إلا على ذريته ، حتى ختموا بابنه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليهم أجمعين .

وهذا من أعظم المناقب والمفاخر ، أن تكون مواد الهداية والرحمة ، والسعادة ، والفلاح ، والفوز ، فى ذريَّته ، وعلى أيديهم ، اهتدى المهتدون ، وآمن المؤمنون ، وصلح الصالحون :

وآتيناه أجره فى الدنيا] من الزوجة الجميلة ، فائقة الجمال ، والرزق

فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

الواسع ، والأولاد ، الذين بهم قرت عينه ، ومعرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه .

[وإنه فى الآخرة لمن الصالحين] بل وهو ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الصالحين على الإطلاق ، وأعلاهم منزلة ، فجمع الله له ، بين سعادة الدنيا والآخرة .

* تقدم أن لوطا عليه السلام ، آمن لإبراهيم ، وصار من المهتدين به .

وقد ذكروا ، أنه ليس من ذرية إبراهيم ، وإنما هو ابن أخى إبراهيم .

فقوله تعالى : [وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب] وإن كان عاما ، فلا يناقض كون لوط ، نبيا رسولا ، وهو ليس من ذريته ، لأن الآية ، جىء بها ، لسياق المدح والثناء ، على الخليل ،

وقد أخبر أن لوطاً ، اهتدى على يديه ، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادى ، والله أعلم .

فأرسل الله لوطا إلى قومه ، وكانوا مع شركهم ، قد جمعوا بين فعل

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن

الفاحشة فى الذكور ، وقطع السبيل ، وفشو المنكرات ، فى مجالسهم .

فنصحهم لوط ، عن هذه الأمور ، وبيّن لهم ، قبائحها فى نفسها ، وما تئول إليه من العقوبة البليغة ، فلم يرعووا ، ولم يذكروا .

[فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين] .

فأيس منهم نبيهم ، وعلم استحقاقهم العذاب ، وجزع من شدة تكذيبهم له ، فدعا عليهم و(قال رب انصرنى على القوم المفسدين] فاستجاب الله دعاءه ، فأرسل الملائكة لإهلاكهم .

فمروا بإبراهيم قبل ذلك ، وبشروه بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب .

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون ؟

فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط .

فجعل يراجعهم ، ويقول [إن فيها لوطا] .

فقالوا له : [لننجينه وأهله. إلا امرأته كانت من الغابرين] ثم مضوا حتى أتوا لوطا .

جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

فساءه مجيئهم ، وضاق بهم ذرعا ، بحيث إنه لم يعرفهم ، وظن أنهم من جملة الضيوف ، أبناء السبيل ، نخاف عليهم من قومه ، فقالوا له :

[لا تخف ولا تحزن] وأخبروه أنهم رسل الله .

[إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا] أى : عذابا [من السماء بما كانوا يفسقون] فأمروه أن يسرى بأهله ليلا .

فلما أصبحوا ، قلب الله عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم ، فصاروا سمَرًا من الأسمار ، وعبرة من العبر .

[ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون] أى : تركنا من ديار قوم لوط ، آثارا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم ، ، فينتفعون بها .

كما قال تعالى : « وإنكم لتمرون عليه مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

---

* أى [و] أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة المشهورة [أخاهم شعيبا] الذى أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالبعث ورجائه ، والعمل له ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، ببخس المكاييل والموازين ، والسعى بقطع الطرق .

[فكذبوه فأخذتهم الرجفة] أى عذاب الله [فأصبحوا فى دارهم جاثمين (١)] .

* أى : وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود ، وقد علمت قصتهم ، وتبين لكم بشىء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم ، وآثارهم ، التي بانوا عنها .

وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات ، المفيدة للبصيرة فكذبوهم ، وجادلوهم .

---

(١) قوله « جاثمين » المراد : ميتين قعودا » وفى المختار من الصحاح جثم الطائر : تلبد بالأرض وبابه « دخل » و« جلس » وكذا الإنسان » اه . أى : تلبد بالأرض .

وقال الراغب فى مفردات ألفاظ القرآن « جاثمين : استعارة للمقيمين . من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض اه . أى : لصق بالأرض .

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

[وزين لهم الشيطان أعمالهم] حتى ظنوا أنها أفضل ، مما جاءتهم به الرسل .

وكذلك قارون ، وفرعون ، وهامان ، حين بعث الله إليهم موسى ابن عمران ؛ بالآيات البينات ؛ والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا فى الأرض ، على عباد الله ، فأذلوهم ، وعلى الحق ، فردوه ، فلم يقدروا على النجاء ، حين نزلت بهم العقوبة .

[وما كانوا سابقين] الله ، ولا فائتين ، بل سلموا واستسلموا .

[فكلا] من هؤلاء الأمم المكذبة [أخذنا بذنبه] على قدره ، وبعقوبة مناسبة له .

[فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً] أى : عذابا يحصبهم ، كقوم عاد ، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم ، و« سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

[ومنهم من أخذته الصيحة] كقوم صالح ، [ومنهم من خسفنا به الأرض] كقارون .

[ومنهم من أغرقنا] كفرعون وهامان ، وجنودهما .

[وما كان الله] أى : ما ينبغى ولا يليق به [أن يظلمهم] لكمال

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ

عدله ، وغناه التام ، عن جميع الخلق

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] منعوها حقها ، الذى هى بصدده ، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده .

فهؤلاء ، وضعوها فى غير موضعها ، وشغلوها بالشهوات والمعاصى ، فضروها غاية الضرر ، من حيث ظنوا ، أنهم ينفعونها .

* هذا مثل ضربه الله ، لمن عبد معه غيره ، يقصد به التعزز والتَّقَوِّى ؛ والنفع ؛ وأن الأمر بخلاف مقصوده ؛ فإن مثله ؛ كمثل العنكبوت ؛ اتخذت بيتا ، يقيها من الحر ، والبرد ، والآفات .

[وإن أوهن البيوت] أى : أضعفها وأوهاها [لبيت العنكبوت] .

فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها ، من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه ، إلا ضعفا .

كذلك هؤلاء ، الذين يتخذون من دونه أولياء ، فقراء ، عاجزون ، من جميع الوجوه .

وحين اتخذوا الأولياء من دونه ، يتعززون بهم ، ويستنصرونهم ، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ، ووهناً إلى وهنهم .

فإن اتكلوا عليهم ، فى كثير من مصالحهم ، وألقوها عليهم ، تخلوا هم عنها .

لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

على أن أولئك سيقومون بها .

نخذلوهم ، فلم يحصلوا منهم على طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم ، أقل نائل .

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم ، حالهم ، وحال من اتخذوهم ،لم يتخذوهم ، ولتبرأوا منهم ، ولتولوا الرب القادر الرحيم ، الذى إذا تولاه عبده، وتوكل عليه ، كفاه مئونة دينه ودنياه ، وازداد قوة إلى قوته ، فى قلبه وبدنه وحاله وأعماله .

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ، ارتقى من هذا ، إلى ما هو أبلغ منه ، وأنها ليست بشىء ، بل هى مجرد أسماء سموها ، وظنون اعتقدوها .

وعند التحقيق ، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها ، ولهذا قال :

[إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء] أى : إنه تعالى يعلم — وهو عالم الغيب والشهادة — أنهم ما يدعون من دون الله شيئا موجودا ، ولا إلها له حقيقة ، كقوله تعالى « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » .

[وهو العزيز] الذى له القوة جميعاً ، الذى قهر بها جميع الخلق .

وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأتقن ما أمره .

[وتلك الأمثال نضربها للناس] أى : لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم ، لأنهاتقرب الأمور المعقولة ، بالأمور المحسوسة ، فيتضح المعنى المطلوب بسببها ، فهى مصلحة لعموم الناس .

[و] لكن [ما يعقلها] بفهمها وتدبرها ، وتطبيقها على ماضربت له ، وعقلها فى القلب .

[إلا العالمون] أى : إلا أهل العلم الحقيق ، الذين وصل العلم إلى قلوبهم .

وهذا مدح للأمثال ، التى يضربها ، وحث على تدبرهاوتعقلها، ومدح لمن يعقلها .

وأنه عنوان ، على أنه من أهل العلم ، فعلم أن من لم يعقلها ، ليس من العالمين .

والسبب فى ذلك ، أن الأمثال التى يضربها الله فى القرآن ، إنما هى للأمور الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجليلة .

فأهل العلم ، يعرفون أنها أهم من غيرها ، لاعتناء الله بها ،وحثه عباده على تعقلها ، وتدبرها . فيبذلون جهدهم فى معرفتها .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وأما من لم يعقلها ، مع أهميتها ، فإن ذلك ، دليل على أنه ليس من أهل العلم ، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة ، فعدم معرفته غيرها ، من باب أولى وأحرى .

ولهذا ، أكثر ما يضرب الله الأمثال فى أصول الدين ،ونحوها .

* أى : هو تعالى، المنفرد بخلق السموات ، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة .

والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبرارى والقفار ، والأشجار ونحوها .

وكل ذلك خلقه بالحق ، أى لم يخلقها عبثا ، ولا سدى ، ولا لغير فائدة .

وإنما خلقها ، ليقوم أمره وشرعه ، ولتتم نعمته على عباده ، وليروا من حكمته ، وقهره وتدبيره ، ما يدلهم على أنه وحده ،معبودهم، ومحبوبهم، وإلههم .

[إن فى ذلك لآية للمؤمنين] على كثير من المطالب الإيمانية ، إذا تدبرها المؤمن ، رأى ذلك فيها عياناً .

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

---

* يأمر تعالى بتلاوة وحيه ، وتنزيله ، وهو : هذا الكتاب العظيم .

ومعنى تلاوته ، اتباعه ، بامتثال ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ، والاهتداء بهداه ، وتصديق أخباره ، وتدبر معانيه ، وتلاوة ألفاظه ، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى ، وبعضه .

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب ، علم أن إقامة الدين كلها ، داخلة فى تلاوة الكتاب .

فيكون قوله [وأقم الصلاة] من باب عطف الخاص على العام ، لفضل الصلاة وشرفها ، وآثارها الجميلة ، وهى [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] .

فالفحشاء ، كل ما استعظم ، واستفحش من المعاصى ، التى تشتهيها النفوس .

والمنكر : كل معصية تنكرها العقول والفطر .

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أن العبد المقيم لها ، المتمم لأركانها وشروطها ، وخشوعها ، يستنير قلبه ، ويتطهر فؤاده ، ويزداد إيمانه ، وتقوى رغبته فى الخير ، وتقل أو تنعدم ، رغبته فى الشر.

فبالضرورة ، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه ، تنهى عن الفحشاء والمنكر .

فهذا من أعظم مقاصد الصلاة ، وثمراتها .

وثَمَّ فى الصلاة ، مقصود أعظم من هذا وأكبر ، وهو : ما اشتملت عليه من ذكر الله ، بالقلب ، واللسان ، والبدن .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فإن الله تعالى ، إنما خلق العباد ، لعبادته ، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة .

وفيها من عبوديات الجوارح كلها ، ما ليس فى غيرها ، ولهذا قال : [ولذكر الله أكبر] .

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها ، أخبر أن ذكره تعالى ، خارج الصلاة ، أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين .

لكن الأول ، أولى ، لأن الصلاة ، أفضل من الذكر خارجها ، ولأنها — كما تقدم — بنفسها من أكبر الذكر .

[والله يعلم ما تصنعون] من خير وشر ، فيجازيكم على ذلك ، أكمل الجزاء ، وأوفاه .

* ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب ، إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل ، أو بغير قاعدة مرضية ، وأن لا يجادلوا ، إلا بالتي هى أحسن ، بحسن خلق ولطف ولين كلام ، ودعوة إلى الحق ، وتحسينه ، ورد الباطل وتهجينه ، بأقرب طريق موصل لذلك .

وأن لا يكون القصد منها ، مجرد المجادلة والمغالبة ، وحب العلو ، بل يكون القصد ، بيان الحق ، وهداية الخلق .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

[إلا الذين ظلموا] من أهل الكتاب ، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله ، أنه لا إرادة له فى الحق ، وإنما يجادل ، على وجه المشاغبة والمغالبة.

فهذا ، لا فائدة فى جداله ، لأن المقصود منها ضائع .

[وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد] أى : ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم ، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم ، وعلى أن الإله واحد .

ولا تكن مناظرتكم إياهم ، على وجه يحصل به القدح ، فى شىء من الكتب الإلهية ، أو بأحد من الرسل ، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم ، يقدح بجميع ما معهم ، من حق وباطل ، فهذا ظلم ، وخروج عن الواجب ، وآداب النظر .

فإن الواجب ، أن يرد ما مع الخصم من الباطل ، ويقبل ما معه من الحق .

ولا يرد الحق ، لأجل قوله ، ولو كان كافراً .

وأيضا فإن بناء مناظرة أهل الكتاب ، على هذا الطريق ، فيه إلزام لهم ، بالإقرار بالقرآن ، وبالرسول ، الذى جاء به .

فإنه إذا تكلم فى الأصول الدينية ، والتى اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين ، وثبتت حقائقها عندهما ، وكانت الكتب السابقة ، والمرسلون ، مع القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم ، قد بينتها ، ودلت ، وأخبرت

وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

بها ، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها ، والرسل كلهم ، وهذا من خصائص الإسلام .

فأما أن يقال : نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلانى ، دون الكتاب الفلانى ، وهو الحق الذى صدق ما قبله ، فهذا ظلم وهوى .

وهو يرجع إلى قومه بالتكذيب ، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها ، المصدق لما بين يديه ، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن .

وأيضا فإن كل طريق تثبت بها نبوة أى نبى كان ، فإن مثلها . وأعظم منها ، دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكل شبهة يقدح بها فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن مثلها ، أو أعظم منها ، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره .

فإذا ثبت بطلانها فى غيره ، فثبوت بطلانها فى حقه صلى الله عليه وسلم ، أظهر وأظهر .

وقوله [ونحن له مسلمون] أى : منقادون مستسلمون لأمره .

ومن آمن به ، واتخذه إلها ، وآمن بجميع كتبه ، ورسله ، وانقاد لله واتبع رسله ، فهو السعيد .

ومن انحرف عن هذا الطريق ، فهو الشقى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ

---

* أى . [وكذلك أنزلنا إليك] يامحمد ، هذا [الكتاب] الكريم ، المبين كل نبأ عظيم .

الداعى إلى كل خلق فاضل ، وأمر كامل ، المصدق للكتب السابقة ، المخبر به الأنبياء الأقدمون .

[فالذين آتيناهم الكتاب] فعرفوه حق معرفته ، ولم يداخلهم حسد وهوى .

[يؤمنون به] لأنهم تيقنوا صدقه ، بما لديهم من الموافقات ، وبما عندهم من البشارات ، وبما تميزوا به ، من معرفة الحسن والقبيح ، والصدق والكذب .

[ومن هؤلاء] الموجودين [من يؤمن به] إيمانا عن بصيرة ، لا عن رغبة ولا رهبة .

[وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون] الذين دأبهم الجحود للحق ، والعناد له .

وهذا حصر لمن كفر به ، أنه لا يكون من أحد ، قصده متابعة الحق .

وإلا ، فكل من له قصد صحيح ، فإنه لا بد أن يؤمن به ، لما اشتمل عليه من البينات ، لكل من له عقل ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومما يدل على صحته ، أنه جاء به هذا النبي الأمين ، الذى عرف

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

قومه صدقه ، وأمانته ، ومدخله ومخرجه ، وسائر أحواله ، وهو لا يكتب بيده خطا ، بل ولا يقرأ خطا مكتوباً .

فإتيانه به فى هذه الحال ، من أظهر البينات القاطعة ، التى لا تقبل الارتياب ، أنه من عندالله العزيز الحميد ، ولهذا قال :

[وما كنت تتلو] أى تقرأ [من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا] لو كنت بهذه الحال [لارتاب المبطلون] فقالوا : تعلمه من الكتب السابقة ، أو استنسخه منها .

فأما وقد نزل على قلبك ، كتابا جليلا ، تحديت به الفصحاء البلغاء ، الأعداء ، الألداء أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، فعجزوا غاية العجز ، بل ولا حدثتهم أنفسهم بالمعارضة ، لعلمهم ببلاغته وفصاحته ، وأن كلام أحد من البشر ، لا يبلغ أن يكون مجاريا له أو على منواله ، ولهذا قال :

[بل هو آيات مبينات] إلى [الظالمون] .

* [بل هو] أى : هذا القرآن [آيات بينات] لا خفيات .

[فى صدور الذين أوتوا العلم] وهم : سادة الخلق ، وعقلاؤهم ، وأولو الألباب منهم ، والكمل منهم .

فإذا كان آيات بينات ، فى صدور أمثال هؤلاء ، كانوا حجة على غيرهم .

وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

وإنكار غيرهم ، لا يضر ، ولا يكون ذلك إلا ظلما ، ولهذا قال :

[وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون] لأنه لا يجحدها إلا جاهل ، تـكلم بغير علم ، ولم يقتد بأهل العلم ، ومن هو التمكن من معرفته على حقيقته ، أو متجاهل ، عرف أنه حق فعانده ، وعرف صدقه ، فخالفه .

* أى : واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ، ولما جاء به ، واقترحوا عليه ، نزول آيات ، عينوها كما قال الله عنهم :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات .

فتعيين الآيات ، ليس عندهم ، ولا عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن فى ذلك تدابير ، مع الله ، وأنه لو كان كذا ، وينبغى أن يكون كذا ، وليس لأحد من الأمر شىء .

ولهذا قال : [قل إنما الآيات عند الله] إن شاء أنزلها ، أو منعها [وإنما أنا نذير مبين] وليس لى مرتبة ، فوق هذه المرتبة .

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل ، فإذا حصل المقصود ـ بأى طريق ـ كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ، ظلما وجورا ، وتكبرا على الله ، وعلى الحق .

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات ، ويكون فى قلوبهم ، أنهم لا يؤمنون

. . . .

بالحق إلا بها كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك، شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت، في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال:

[أو لم يكفهم] في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به [أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم].

وهذا كلام مختصر، جامع فيه، من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير.

فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده، وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديهم إياه، آية أخرى.

ثم ظهوره، وبروزه جهرا علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه.

بل خرج به على رءوس الأشهاد، ونادى به، بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته[1] أو يستطيع مجاراته.

---

(١) قوله: أو ينطق بمباراته الأولى أن يقال أو «ينطق بعباراته» أو «يبرز ويتحدي بمباراته» حتى يكون الكلام واضحاً بعيداً عن ارتكاب المجازات والتأويلات فإن المباراة لا تكون بالنطق بل بالفعل.

أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة ، وتصحيحه للصحيح ، ونَفْيُ ما أدخل فيها من التحريف ، والتبديل .

ثم هدايته لسواء السبيل ، فى أمره ونهيه .

فما أمر بشيء ، فقال العقل « ليته لم يأمر به » ، ولا نهى عن شيء فقال العقل « ليته لم ينه عنه » .

بل هو مطابق للعدل والميزان ، والحكمة المعقولة لذوى البصائر ، والعقول .

ثم مسايرة إرشاداته ، وهدايته ، وأحكامه ، لكل حال ، وكل زمان ، بحيث لا تصلح الأمور إلا به .

فجميع ذلك ، يكفى من أراد تصديق الحق ، وعمل على طلب الحق .

فلا كفى الله ، من لم يكفه القرآن ، ولا شفى الله ، من لم يشفه الفرقان .

ومن اهتدى به واكتفى ، فإنه رحمة له وخير ، فلذلك قال :

[إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون] وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير ، والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح ، وتطهير العقائد ، وتكميل الأخلاق ، والفتوحات الإلهية ، والأسرار الربانية .

[قل كفى الله بينى وبينكم شهيدا] فأنا قد استشهدته .

فإن كنت كاذبا ، أحَلَّ بى ما به تعتبرون .

يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وإن كان إنما يؤيدنى ، وينصرنى ، وييسر لى الأمور ، فلتكفكم ، هذه الشهادة الجليلة من الله .

فإن وقع فى قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعوه ، ولم تروه - لا تكفى دليلا ، فإنه [يعلم ما فى السموات والأرض] .

ومن جملة معلوماته ، حالى وحالكم ، ومقالى لكم .

فلو كنت متقولا عليه ، مع علمه بذلك ، وقدرته على عقوبتى - لكان قدحا ، فى علمه ، وقدرته ، وحكمته كما قال تعالى « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » .

[والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون] حيث خسروا الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ،وحيث فاتهم النعيم المقيم ، وحيث حصل لهم فى مقابلة الحق الصحيح ، كل باطل قبيح ، وفى مقابلة النعيم ، كل عذاب أليم ، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

۞ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ

---

* يخبر تعالى، عن جهل المكذبين للرسول، وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالا للعذاب، وزيادة تكذيب: [متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] ؟

يقول تعالى [ولولا أجل مسمى] مضروب لنزوله، ولم يأت بعد [لجاءهم العذاب] بسبب تعجيزهم لنا، وتكذيبهم الحق.

فلو آخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم، أسرع لبلائهم وعقوبتهم.

ولكن — مع ذلك — فلا يستبطئوا نزوله [وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون].

فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ«بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون على مقصودهم.

فأذلهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت، إلا أصابته تلك المصيبة.

فأتاهم العذاب، من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم، وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوى، فإن أمامهم العذاب الأخروى، الذى لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا، أو أمهل.

بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

[وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] ليس لهم عنها ، معدل ولا منصرف . قد أحاطت بهم من كل جانب ، كما أحاطت بهم ذنوبهم ، وسيئاتهم ، وكفرهم .

وذلك العذاب ، هو العذاب الشديد .

* [يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون] فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابا ، وشملكم العذاب ، كما شملكم الكفر والذنوب .

* يقول تعالى : [يا عبادى الذين آمنوا] وصدقوا رسولي [إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون] فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم فى أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى ، حيث كانت العبادة لله وحده .

فأما كن العبادة ، ومواضعها ، واسعة ، والمعبود واحد ، والموت لابد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم ، فيجازى من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية ، والمنازل الأنيقة الجامعة ، لما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ

فـ[نعم] تلك المنازل ، فى جنات النعيم [أجر العاملين] لله .

[الذين صبروا] على عبادة الله [وعلى ربهم يتوكلون] فى ذلك .

فصبرهم على عبادة الله ، يقتضى بذل الجهد والطاقة فى ذلك ، والمحاربة العظيمة للشيطان ، الذى يدعوهم إلى الإخلال بشىء من ذلك .

وتوكلهم ، يقتضى شدة اعتمادهم على الله ، وحسن ظنهم به ، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ، ويكملها .

ونص على التوكل ، وإن كان داخلا فى الصبر ، لأنه يحتاج إليه فى كل فعل ، وترك مأمور به ، ولا يتم إلا به .

* أى : البارى تبارك وتعالى ، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم ، قويهم ، وعاجزهم .

فكم [من دابة] فى الأرض ، ضعيفة القوى ، ضعيفة العقل .

[لا تحمل رزقها] ولا تدخره ، بل لم تزل ، لا شىء معها من الرزق ، ولا يزال الله يسخر لها الرزق ، فى كل وقت بوقته .

[الله يرزقها وإياكم] فكلكم عيال الله القائم برزقكم ، كما قام بخلقكم وتدبيركم .

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ

[وهو السميع العليم] فلا تخفى عليه خافية ، ولا تهلك دابة من عدم الرزق ، بسبب أنها خافية عليه .

كما قال تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » :

* هذا استدلال على المشركين ، المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة ، وإلزام لهم ، بما أثبتوه من توحيد الربوبية .

فأنت لو سألتهم من خلق السموات والأرض ، ومن نزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، ومن بيده تدبير جميع الأشياء ؟

« ليقولن الله » وحده ، ولاعترفوا بعجز الأوثان ، ومن عبدوه مع الله ، عن شىء من ذلك .

فاعجب لإفكهم ، وكذبهم ، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه ، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئا .

وسجِّلْ عليهم عدم العقل ، وأنهم السفهاء ، ضعفاء الأحلام .

فهل تجد أضعف عقلا ، وأقل بصيرة ، ممن أتى إلى حجر ، أو قبر ونحوه وهو يدرى أنه لا ينفع ولا يضر ، ولا يخلق ولا يرزق ـ ثم صرف له خالص الإخلاص ، وصافى العبادية ، وأشركه مع الرب ، الخالق الرازق ، النافع الضار .

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ

وقل : الحمد لله الذى بين الهدى من الضلال ، وأوضح بطلان ما عليه المشركون ، ليحذره الموفقون .

وقل : الحمد لله ، الذى خلق العالم العلوى والسفلى ، وقام بتدبيرهم ، ورزقهم ، وبسط الرزق على من يشاء ، وضيقه عمن يشاء ، حكمة منه،ولعلمه بما يصلح عباده ، وما ينبغى لهم .

* يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة ، وفى ضمن ذلك ، التزهيد فى الدنيا والتشويق للأخرى فقال :

[وما هذه الحياة الدنيا] فى الحقيقة [إلا لهو ولعب] تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان ، بسببما جعل الله فيها من الزينة واللذات،والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة ، الباهجة للعيون الغافلة ، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة .

ثم تزول سريعا ، وتنقضى جميعا ، ولم يحصل منها محبها ، إلا على الندم والخسران .

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ

[وإن الدار الآخرة لهى الحيوان] أى : الحياة الكاملة ، التى من لوازمها ، أن تكون أبدان أهلها ، فى غاية القوة ، وقواهم فى غاية الشدة ، لأنها أبدان وقوى ، خلقت للحياة،وأن يكون موجودا فيها ، كل ماتكمل به الحياة ، وتتم به اللذة ، من مفرحات القلوب ، وشهوات الأبدان ، من المآكل ، والمشارب ، والمناكح ؛ وغير ذلك ، مما لا عين رأت . ولاأذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[لو كانوا يعلمون] لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان ، ورغبوا فى دار اللهو واللعب .

فدل ذلك ، أن الذين يعلمون ، لابد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا ، لما يعلمونه من حالة الدارين .

ثم ألزم تعالى ، المشركين بإخلاصهم لله ، فى حال الشدة ، عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم الهلاك ، يتركون وقتذاك ، أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له .

فلما زالت عنهم الشدة ، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به ، من لا نجاهم من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة .

فهلا أخلصوا لله الدعاء ، فى حال الرخاء والشدة ، واليسر والعسر ، ليكونوا مؤمنين حقا ، مستحقين ثوابه ، مندفعا عنهم عقابه .

مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم ، بالنجاة من البحر ، ليكون عاقبته الكفر ، بما آتيناهم ، ومقابلة النعمة بالإساءة ، وليكملوا تمتعهم فى الدنيا ، الذى هو كتمتع الأنعام ، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم .

[فسوف يعلمون] حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ، شدة الأسف ، وأليم العقوبة .

ثم امتن عليهم بحرمه الآمن ، وأنهم أهله ، فى أمن ، وسعة ورزق ، والناس من حولهم ، يتخطفون ويخافون . فلا يعبدون الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .

[أفبالباطل يؤمنون] وهو ما هم عليه ، من الشرك ، والأقوال ، والأفعال الباطلة .

[وبنعمة الله] هم [يكفرون] فأين ذهبت عقولهم ، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى ، والباطل على الحق ، والشقاء على السعادة ، وحيث كانوا أظلم الخلق .

[ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا] فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل ، إلى الله .

[وكذب بالحق لما جاءه] على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هذا الظالم العنيد ، أمامه جهنم [أليس فى جهنم مثوى للكافرين] يؤخذ بها منهم الحق ، ويخزون بها ، وتكون منزلهم الدائم ،

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

الذى لا يخرجون منه .

[والذين جاهدو فينا] وهم الذين هاجروا فى سبيل الله ، وجاهدوا أعداءهم ، وبذلوا مجهودهم فى اتباع مرضاته .

[لنهدينهم سبلنا] أى : الطرق الموصلة إلينا ، وذلك ، لأنهم محسنون[1].

[وإن الله لمع المحسنين] بالعون ، والنصر ، والهداية .

دل هذا ، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب ، أهل الجهاد .

وعلى أن من أحسن فيما أمر به ، أعانه الله ، ويسر له أسباب الهداية .

وعلى أن من جد واجتهد فى طلب العلم الشرعى ، فإنه يحصل له من الهداية ، والمعونة على تحصيل مطلوبه ، أمور إلهية ، خارجة عن مدرك اجتهاده ، وتيسر له أمر العلم .

فإن طلب العلم الشرعى ، من الجهاد فى سبيل الله ، بل هو أحد نوعى الجهاد ، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق ، وهو الجهاد بالقول ، واللسان ، للكفار ، والمنافقين .

والجهاد على تعليم أمور الدين ، وعلى رد نزاع المخالفين للحق ، ولو كانوا من المسلمين .

تم تفسير سورة العنكبوت ـ بحمد الله وعونه

تفســـير

سُورَةُ الرُّوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم

كانت الفرس والروم ، فى ذلك الوقت ، من أقوى دول الأرض .

وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ، ما يكون بين الدول المتوازنة .

وكانت الفرس مشركين ، يعبدون النار .

وكانت الروم ، أهل كتاب ، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل ، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس ، فكان المسلمون يحبون غلبتهم ، وظهورهم على الفرس .

وكان المشركون ، لاشتراكهم والفرس فى الشرك ، يحبون ظهور الفرس على الروم .

فظهر الفرس على الروم ، وغلبوهم غلبا لم يحط بملكهم ، بل أدنى أرضهم .

ففرح بذلك مشركو مكة ، وحزن المسلمون .

فأخبرهم الله ، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس .

مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ

[فى بضع سنين] تسع ، أو ثمان ، ونحو ذلك ، مما لا يزيد على العشر ، ولا ينقص عن الثلاث .

وأن غلبة الفرس للروم ، ثم غلبة الروم للفرس ، كل ذلك بمشيئته وقدره ولهذا قال :

[لله الأمر من قبل ومن بعد] فليس الغلبة والنصر ، لمجرد وجود الأسباب .

وإنما هى ، لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر .

[ويومئذ] أى : يوم يغلب الروم الفرس ، ويقهرونهم [يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء] .

أى : يفرحون بانتصارهم على الفرس ، وإن كان الجميع كفاراً ، ولكن بعض الشر أهون من بعض ، ويحزن يومئذ ، المشركون .

[وهو العزيز] الذى له العزة ، التى قهر بها الخلائق أجمعين « يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء » .

[الرحيم] بعباده المؤمنين ، حيث قيض لهم من الأسباب التى تسعدهم وتنصرهم ، ما لا يدخل فى الحساب .

[وعد الله لا يخلف الله وعده] فتيقنوا ذلك ، واجزموا به ، واعلموا أنه لا بد من وقوعه .

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

فلما نزلت هذه الآيات ، التى فيها هذا الوعد ، صدق بها المسلمون ، وكفر بها المشركون ، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين ، على مدة سنين عينوها .

فلما جاء الأجل ، الذى ضربه الله ، انتصر الروم على الفرس ، وأجلوهم عن البلاد التى أخذوها منهم ، وتحقق وعد الله .

وهذا من الأمور الغيبية ، التى أخبر بها الله ، قبل وقوعها ، ووجدت فى زمان من أخبرهم الله بها ، من المسلمين والمشركين .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أن ما وعد الله به حق ، فلذلك يوجد فريق منهم ، يكذبون بوعده ، ويكذبون آياته .

وهؤلاء الذين لا يعلمون ، أى : لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها .

وإنما [يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا] فينظرون إلى الأسباب ، ويجزمون بوقوع الأمر ، الذى فى رأيهم ، انعقدت أسباب وجوده ، ويتيقنون عدم الأمر الذى لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده ، شيئا .

فهم واقفون مع الأسباب ، غير ناظرين إلى مسببها ، المتصرف فيها .

[وهم عن الآخرة هم غافلون] قد توجهت قلوبهم ، وأهواؤهم ، وإراداتهم ، إلى الدنيا وشهواتها ، وحطامها ، فعملت لها ، وسعت ، وأقبلت بها ، وأدبرت ، وغفلت عن الآخرة .

. . . .

فلا الجنة تشتاق إليها ، ولا النار تخافها وتخشاها ، ولا المقام بين يدى الله ولقائه ، يروعها ويزعجها ، وهذا علامة الشقاء ، وعنوان الغفلة عن الآخرة .

ومن العجب أن هذا القسم من الناس ، قد بلغت بكثير منهم ، الفطنة والذكاء ، فى ظاهر الدنيا ، إلى أمر يحير العقول ، ويدهش الألباب .

وأظهروا من العجائب الذرية، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية ، والهوائية ، ما فاقوا به وبرزوا ، وأعجبوا بعقولهم ، ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه .

فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء ، وهم مع ذلك ، أبلد الناس فى أمر دينهم ، وأشدهم غفلة عن آخرتهم ، وأقلهم معرفة بالعواقب .

قد رآهم أهل البصائر النافذة ، فى جهلهم يتخبطون ، وفى ضلالهم يعمهون ، وفى باطلهم يترددون .

نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون .

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه ، من الأفكار الدقيقة فى الدنيا وظاهرها ، وما حرموا من العقل العالى ، لعرفوا أن الأمر لله ، والحكم له فى عباده ، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه ، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم ، من نور العقول والإيمان ، حتى يصلوا إليه ، ويحلوا بساحته .

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان ، وبنيت عليه ، لأثمرت الرقى العالى ، والحياة الطيبة .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

ولكنها لما بنى كثير منها على الإلحاد ، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق ، وأسباب الفناء والتدبير .

* أى : أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه [فى أنفسهم] .

فإن فى أنفسهم ، آيات يعرفون بها ، أن الذى أوجدهم من العدم ، سيعيدهم بعد ذلك ، وأن الذى نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة إلى آدمى ، قد نفخ فيه الروح ، إلى طفل إلى شاب ، إلى شيخ ، إلى هرم ، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين ، لا ينهون ولا يؤمرون ، ولا يثابون ولا يعاقبون .

[ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق] أى : ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

[وأجل مسمى] أى : مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضى به الدنيا ، وتقوم القيامة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات .

[وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون] فلذلك لم يستعدوا للقائه ، ولم يصدقوا رسله ، التى أخبرت به ، وهذا الكفر عن غير دليل .

بل الأدلة القاطعة ، دلت على البعث والجزاء .

ولهذا نبههم على السير فى الأرض ، والنظر فى عاقبة الذين كذبوا

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

رسلهم ، وخالفوا أمرهم ، ممن هم أشد من هؤلاء قوة ، وأكثر آثارا فى الأرض، من بناء قصور ، ومصانع ، ومن غرس أشجار ، ومن زرع ، وإجراء أنهار .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا نفعتهم آثارهم ، حين كذبوا رسلهم ، الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق ، وصحة ما جاءوهم به .

فإنهم حين ينظرون فى آثار أولئك ، لم يجدوا إلا أمما بائدة ، وخلقا مهلكين ، ومنازل بعدهم موحشة ، وذم من الخلق عليهم متتابع .

وهذا جزاء معجل ، توطئة للجزاء الأخروى ، ومبتدأ له .

وكل هذه الأمم المهلكة ، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك ، وإنما ظلموا أنفسهم ، وتسببوا فى هلاكها .

[ثم كان عاقبة الذين أساءوا] أى : المسيئين [السوى] أى : الحالة السيئة الشنيعة .

وصار ذلك داعيا لهم إلى[أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون].

فهذا عقوبة إساءتهم وذنوبهم .

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب ، يكون سببا لأعظم العقوبات ، وأعضل المثلات .

* يخبر تعالى ، أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ، ثم يعيدهم ، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ، ليجازيهم بأعمالهم .

ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ، ثم جزاء أهل الخير ، فقال :

[ويوم تقوم الساعة] ويقوم الناس لرب العالمين ، ويردون القيامة عيانا .

يومئذ [يبلس المجرمون] أى : ييأسون من كل خير .

وذاك لأنهم ، ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام ، وهى الذنوب ، من كفر ، وشرك ، ومعاصى .

فلما قدموا أسباب العقاب ، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب ، أيسوا ، وأبلسوا ، وأفلسوا ، وضل عنهم ما كانوا يفترونه ، من نفع شركائهم ، وأنهم يشفعون لهم .

ولهذا قال : [ولم يكن لهم من شركائهم] التي عبدوها مع الله [شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين] .

تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله ، وتبرأ المعبودون ، وقالوا « تبرأنا إليك ، ما كانوا إيانا يعبدون » ، والتعنوا ، وابتعدوا .

ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

وفى ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر ، كما افترقت أعمالهم فى الدنيا .

[فأما الذين آمنو وعملوا الصالحات] وآمنوا بقلوبهم ، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة [فهم فى روضة] فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات .

[يحبرون] أى : يسرون ، وينعمون بالمآ كل اللذيذة ، والأشربة ، والحور الحسان ، والخدم ، والولدان ، والأصوات المطربات ، والسماع المبهج ، والمناظر العجيبة ، والروائح الطيبة ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور ، مما لا يقدر أحد أن يصفه .

[وأما الذين كفروا] وجحدوا نعمه ، وقابلوها بالكفر [وكذبوا بآياتنا] التى جاءتهم بها رسلنا [فأولئك فى العذاب محضرون] فيه .

قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم ، واطّلع العذاب الأليم على أفئدتهم ، وشوى الحميم وجوههم ، وقطّع أمعاءهم .

فأين الفرق بين الفريقين ، وأين التساوى بين المنعمين والمعذبين ؟!!

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

---

* هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص ، وتقدسه عن أن يماثله أحد من الخلق ، وأمر للعباد أن يسبحوه ، حين يمسون ، وحين يصبحون ، ووقت العشى ، ووقت الظهيرة .

فهذه الأوقات الخمسة ، أوقات الصلوات الخمس ، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد .

ويدخل فى ذلك ، الواجب منه ، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس .

والمستحب كأذكار الصباح والمساء ، وأدبار الصلوات ، وما يقترن بها من النوافل .

لأن هذه الأوقات التى اختارها الله لأوقات المفروضات ، هى أفضل الأوقات .

فالتسبيح والتحميد فيها ، والعبادة فيها ، أفضل من غيرها .

بل العبادة ، وإن لم تشتمل على قول « سبحان الله » فإن الإخلاص فيها ، تنزيه لله بالفعل ، أن يكون له شريك فى العبادة ، أو أن يستحق أحد من الخلق ، ما يستحقه من الإخلاص والإنابة .

[يخرج الحى من الميت] كما يخرج النبات من الأرض الميتة ، والسنبلة

۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

من الحبة ، والشجرة من النواة ، والفرخ من البيضة ، والمؤمن من الكافر ، ونحو ذلك .

[ويخرج الميت من الحي] بعكس المذكور [ويحيي الأرض بعد موتها] .

فينزل عليها المطر ، وهي ميتة هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء ، اهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج [وكذلك تخرجون] من قبوركم .

فهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها ، يحيي الأموات .

فلا فرق في نظر العقل ، بين الأمرين ، ولا موجب لاستبعاد أحدهما ، مع مشاهدة الآخر .

* هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية ، وكمال عظمته . ونفوذ مشيئته ، وقوة اقتداره ، وجميل صنعه ، وسعه رحمته وإحسانه فقال :

[ومن آياته أن خلقكم من تراب] وذلك بخلق أصل النسل ، آدم عليه السلام [ثم إذا أنتم بشر تنتشرون] وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها .

ففي ذلك ، آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل ، وبثكم في أقطار الأرض ، هو الرب المعبود ، الملك المحمود ، والرحيم الودود ، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت .

لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

[ومن آياته] الدالة على رحمته ، وعنايته بعباده ، وحكمته العظيمة ، وعلمه المحيط .

[أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا] تناسبكم وتناسبونهن ، وتشاكلكم وتشاكلونهن .

[لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة] بما رتب على الزواج ، من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة .

فحصل بالزوجة ، الاستمتاع واللذة ، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم ، والسكون إليها .

فلا تجد بين اثنين فى الغالب ، مثل ما بين الزوجين ، من المودة و الرحمة.

[إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون] يُعْمِلُون أفكارهم ، ويتدبرون آيات الله ، وينتقلون من شىء إلى شىء .

* والعَالِمُون ، هم أهل العلم ، الذين يفهمون العبر ، ويتدبرون الآيات . وآيات الله فى ذلك كثيرة :

[ومن آياته خلق السموات والأرض] وما فيهما ، فإن ذلك ، دال على عظمة سلطان الله ، وكمال اقتداره ، الذى أوجد هذه المخلوقات العظيمة وكمال حكمته ، لما فيها من الإتقان ، وسعة علمه — لأن الخالق ، لا بد أن

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

يعلم ما خلقه « ألا يعلم من خلق » — وعموم رحمته وفضله ، لما فى ذلك من المنافع الجليلة .

وأنه المريد ، الذى يختار ما يشاء ، لما فيها من التخصيصات والمزايا .

وأنه وحده ، الذى يستحق أن يعبد ويوحد ، لأنه المنفرد بالخلق ، فيجب أن يفرد بالعبادة .

فكل هذه ، أدلة عقلية ، نبه الله العقول إليها ، وأمرها بالتفكر ، واستخراج العبرة منها .

[و] كذلك فى [اختلاف ألسنتكم وألوانكم] على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد ، ومخارج الحروف واحدة .

ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ، ولا لونين متشابهين من كل وجه ، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ، ما به يحصل التميز .

[إن فى ذلك لآيات للعالمين] أى : إن هذا دال على كمال قدرته ، ونفوذ مشيئته .

ومن عنايته بعباده ، ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف ، لئلا يقع التشابه ، فيحصل الاضطراب ، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

* أى : سماع تدبر ، وتعقل للمعانى والآيات فى ذلك .

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى ، كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وعلى تمام حكمته ، إذ حكمته ، اقتضت سكون الخلق فى وقت ، ليستريحوا ويستجموا .

وانتشارهم فى وقت ، لمصالحهم الدينية والدنيوية ، ولا يتم ذلك ، إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم ، والمنفرد بذلك ، هو المستحق للعبادة .

* أى : ومن آياته ، أن ينزل عليكم المطر ، الذى تحيا به البلاد والعباد ، ويريكم قبل نزوله ، مقدماته ، من الرعد ، والبرق ، الذى يُخَاف ويُطْمَع فيه .

[إن فى ذلك لآيات] دالة على عموم إحسانه ، وسعة علمه ، وكمال إتقانه ، وعظيم حكمته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها .

[لقوم يعقلون] أى : لهم عقول ، تعقل بها ماتسمعه ، وتراه ، وتحفظه ، وتستدل به ، على ما جعل دليلاً عليه .

* وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* أى : ومن آياته العظيمة ، أن قامت السموات والأرض ، واستقرتا ، وثبتتا بأمره ، فلم تتزلزلا ، ولم تسقط السماء على الأرض .

فقدرته العظيمة ، التى بها أمسك السموات والأرض أن تزولا ، يقدر بها ، على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض ، إذا هم يخرجون « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

[وله من فى السموات والأرض] لكل خلقه ومماليكه ، والمتصرف فيهم من غير منازع ، ولا معاون ، ولا معارض ، وكلهم قانتون لجلاله ، خاضعون لكماله .

[وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو] أى إعادة الخلق بعد موتهم [أهون عليه] من ابتداء خلقهم ، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول .

فإذا كان قادراً على الابتداء ، الذى تقرون به ، كانت قدرته على الإعادة ، التى هى أهون ، أولى وأولى .

ولما ذكر من الآيات العظيمة ، ما به يعتبر المعتبرون ، ويتذكر المؤمنون ويستبصر المهتدون ، ذكر الأمر العظيم ، والمطلب الكبير فقال :

[وله المثل الأعلى فى السموات والأرض] وهو كل صفة كمال .

وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ

والكمال من تلك الصفة ، والمحبة ، والإنابة التامة الكاملة ، فى قلوب عباده المخلصين ، والذكر الجليل ، والعبادة منهم .

فالمثل الأعلى ، هو وصفه الأعلى ، وما ترتب عليه .

ولهذا كان أهل العلم ، يستعملون فى حق البارى ، قياس الأولى ، فيقولون :

كل صفة كمال فى المخلوقات ، فخالقها أحق بالاتصاف بها ، على وجه لا يشاركه فيها أحد .

وكل نقص فى المخلوق ، ينزه عنه ، فتنزيه الخالق عنه ، من باب أولى وأحرى .

[وهو العزيز] أى : له العزة الكاملة ، والحكمة الواسعة .

فبعزته أوجد المخلوقات ، وأظهر المأمورات .

وبحكمته ، أتقن ما صنعه ، وأحسن فيها ما شرعه .

* هذا مثل ضربه الله ، لقبح الشرك وتهجينه ، مثلا من أنفسكم ، لا يحتاج إلى حل وترحال ، وإعمال الجمال .

[هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم] أى : هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء ، يشاركم فى رزقكم ، وترون أنكم وهم فيه ، على حد سواء .

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ

[تخافونهم كخيفتكم أنفسكم] أى : كالأحرار الشركاء فى الحقيقة ، الذين يخاف من قسمه ، واختصاص كل شىء بماله ؟

ليس الأمر كذلك ، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم ، شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى .

هذا ، ولستم الذين خلقتموهم ، ورزقتموهم ، وهم أيضا ، مماليك مثلكم .

فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكا من خلقه ، وتجعلونه بمنزلته ، وعديلا له فى العبادة ، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم ؟

هذا من أعجب الأشياء ، ومن أدل شىء على سفه من اتخذ شريكا مع الله ، وأن ما اتخذه باطل مضمحل ، ليس مساوياً لله ، ولا له من العبادة شىء .

[كذلك نفصل الآيات] بتوضيحها بأمثلتها [لقوم يعقلون] الحقائق ويعرفون .

وأما من لا يعقل ، فلو فُصِّلَتْ له الآيات ، وبينت له البينات ، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين ، ولا لُبٌّ يعقل به ما توضح .

فأهل العقول والألباب ، هم الذين يساق إليهم الكلام ، ويوجه الخطاب .

وإذا علم من هذا المثال ، أن من اتخذ من دون الله شريكا ، يعبده ويتوكل عليه فى أموره ، ليس معه من الحق شىء ، فما الذى أوجب لهم الإقدام ، على أمر باطل ، توضح بطلانه ، وظهر برهانه ؟ لقد أوجب لهم ذلك ، اتباع الهوى ، فلهذا قال :

يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

[بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم] هويت أنفسهم الناقصة ، التى ظهر من نقصها ، ما تعلق به هواها ، أمراً[1] يجزم العقل بفساده ، والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادهم إليه .

[فمن يهدى من أضل الله] أى : لا تعجبوا من عدم هدايتهم ، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ، ولا طريق لهداية من أضل الله ، لأنه ليس أحد معارضاً لله ، أو منازعاً له فى ملكه .

[ومالهم من ناصرين] ينصرونهم ، حين تحق عليهم كلمة العذاب ، وتنقطع بهم الوصل والأسباب .

* يأمر تعالى بالإخلاص له فى جميع الأحوال ، وإقامة دينه فقال :

[فأقم وجهك] أى : انصبه ووجهه [للدين] الذى هو الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، بأن تتوجه بقلبك ، وقصدك ، وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ونحوها .

وشرائعه الباطنة ، كالمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والإنابة .

والإحسان فى الشرائع الظاهرة والباطنة ، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وخص الله إقامة الوجه ، لأن إقبال الوجه ، تبع لإقبال القلب ، ويترتب على الأمرين ، سعىُ البدن ، ولهذا قال :

---

(١) قوله « أمراً » مفعول به لقوله « هويت أنفسهم » .

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

[حنيفا] أي : مقبلا على الله فى ذلك ، معرضاً عما سواه .

وهذا الأمر الذى أمرناك به ، هو [فطرة الله التى فطر الناس عليها] ووضع فى عقولهم حسنها ، واستقباح غيرها .

فإن جميع أحكام الشرع ، الظاهرة والباطنة ، قد وضع الله فى قلوب الخلق كلهم . الميل إليها .

فوضع فى قلوبهم ، محبة الحق ، وإيثار الحق ، وهذا حقيقة الفطرة .

ومن خرج عن هذا الأصل ، فلمارض عرض لفطرته ، أفسدها ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه » .

[لا تبديل لخلق الله] أى : لا أحد يبدل خلق الله ، فيجعل المخلوق على غير الوضع ، الذى وضعه الله .

[ذلك] الذى أمرناك به [الدين القيم] أى : الطريق المستقيم الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته ، فإن من أقام وجهه للدين حنيفا فإنه سالك الصراط المستقيم ، فى جميع شرائعه وطرقه .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] فلا يتعرفون الدين القيم ، وإن عرفوه ، لم يسلكوه .

[منيبين إليه واتقوه] وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين .

فإن الإنابة ، إنابة القلب ، وانجذاب دواعيه ، لمراضى الله تعالى .

وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

ويلزم من ذلك ، عمل البدن ، بمقتضى ما فى القلب ، فشمل ذلك ، العبادات الظاهرة والباطنة .

ولا يتم ذلك ، إلا بترك المعاصى ، الظاهرة والباطنة ، فلذلك قال :

[واتقوه] فهذا يشمل فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

وخص من المأمورات الصلاة بقوله [وأقيموا الصلاة] لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى ، كما قال تعالى فى سورة العنكبوت « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فهذا إعانتها على التقوى .

ثم قال [ولذكر الله أكبر] فهذا حثها على الإنابة .

وخص من المنهيات أصلها ، والذى لا يقبل معه عمل ، وهو الشرك فقال:

[ولا تكونوا من المشركين] لكون الشرك مضادا للإنابة ، التى روحها ، الإخلاص من كل وجه .

ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها ، ومقبحا فقال :

[من الذين فرقوا دينهم] مع أن الدين واحد ، وهو إخلاص العبادة لله وحده وهؤلاء المشركون ، فرقوه :

منهم من يعبد الأوثان والأصنام .

ومنهم من يعبد الشمس والقمر .

ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ، ومنهم يهود ، ومنهم نصارى .

. . . .

ولهذا قال :

[وكانوا شيعا] أى : كل فرقة ، تحزبت وتعصبت ، على نصر مامعها ، من الباطل ، ومنابذة غيرهم ومحاربتهم .

[كل حزب بما لديهم] من العلوم المخالفة لعلوم الرسل [فرحون] به ، يحكمون لأنفسهم ، بأنه الحق ، وأن غيرهم على باطل .

وفى هذا تحذير للمسلمين ، من تشتتهم وتفرقهم فرقا ، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل ، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين ، فى التفرق بل الدين واحد ، والرسول واحد ، والإله واحد .

وأكثر الأمور الدينية ، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة .

والأخوة الإيمانية ، قد عقدها الله وربطها ، أتم ربط .

فما بال ذلك كله ، يُلْغَى ويُبْنَى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية ، أو فروع خلافية ، يضلل بها بعضهم بعضا ، ويتميز بها بعضهم على بعض ؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان ، وأعظم مقاصده ، التى كاد بها المسلمين ؟

وهل السعى فى جمع كلمتهم ، وإزالة ما بينهم من الشقاق ، المبنى على ذلك الأصل الباطل ، إلا من أفضل الجهاد فى سبيل الله ، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله ؟

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه — والإنابة المأمور بها ، هى الإنابة الاختيارية ، التى تكون فى حالَىِ العسر واليسر ، والسعة والضيق — ذكر الإنابة الاضطرارية ، التى لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه .

فإذا زال عنه الضيق ، نبذها وراء ظهره ، وهذه غير نافعة فقال : [وإذا مس الناس ضر] إلى [يشركون] .

* [وإذا مس الناس ضر] مرض ، أو خوف من هلاك ونحوه .

[دعوا ربهم منيبين إليه] ونسوا ما كانوا به يشركون فى تلك الحال ، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله .

[ثم إذا أذاقهم منه رحمة] فشفاهم من مرضهم ، وآمنهم من خوفهم .

[إذا فريق منهم] ينقضون تلك الإنابة ، التى صدرت منهم ، ويشركون به من لا أسعدهم ولا أشقى ، ولا أفقرهم ولا أغنى .

وكل هذا ، كفر بما آتاهم الله ، ومَنَّ به عليهم ، حيث أنجاهم ، وأنقذهم من الشدة ، وأزال عنهم المشقة .

فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة ، بالشكر والدوام على الإخلاص له ، في جميع الأحوال ؟ .

بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

[أم أنزلنا عليهم سلطانا أى : حجة ظاهرة [فهو] أى : ذلك السلطان .

[يتكلم بما كانوا به يشركون] ويقول لهم : اثبتوا على شرككم ، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه ، هو الحق ، وما دعتكم الرسل إليه ، باطل .

فهل ذلك السلطان ، موجود عندهم ، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك .

أم البراهين العقلية والسمعية ، والكتب السماوية ، والرسل الكرام ، وسادات الأنام ، قد نهوا أشد النهى عن ذلك ، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه ، وحكموا بفساد عقل ودين ، من ارتكبه ؟ .

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان ، وإنما هو ، أهواء ، النفوس ، ونزغات الشيطان .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن طبيعة أكثر الناس ، فى حالى الرخاء والشدة ، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة ، من صحة ، وغنى ، ونصر ونحو ذلك ، فرحوا بذلك ، فرح بطر ، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله .

[وإن تصبهم سيئة] أى : حال تسوؤهم وذلك [بما قدمت أيديهم] من المعاصى .

[إذا هم يقنطون] ييأسون من زوال ذلك الفقر ، والمرض ، ونحوه .

وهذا جهل منهم وعدم معرفة .

[أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر] .

فالقنوط بعد ماعلم ، أن الخير والشر من الله ، والرزق ، سعته وضيقه ، من تقديره ، ضائع ، ليس له محل .

فلا تنظر أيها العاقل ، لمجرد الأسباب ، بل اجعل نظرك لمسببها ، ولهذا قال :

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فهم الذين يعتبرون بيسط الله الرزق لمن يشاء ، وقبضه .

ويعرفون بذلك ، حكمة الله ورحمته ، وجوده ، وجذب القلوب لسؤاله ، فى جميع مطالب الرزق .

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ

✿ أى : فأعط القريب منك ـ على حسب قربه وحاجته ـ حقه الذى أوجبه الشارع ، أو حض عليه ، من النفقة الواجبة ، والصدقة ، والهداية ، والبر ، والسلام ، والإكرام ، والعفو عن زلته ، والمسامحة عن هفوته .

وكذلك ، آت المسكين ، الذي أسكنه الفقر والحاجة ، ماتزيل حاجته ، وتدفع به ضرورته ، من إطعامه ، وسقيه وكسوته .

[وابن السبيل] الغريب المنقطع ، فى غير بلد ، الذى هو مظنة شدة الحاجة ، وأنه لا مال معه ، ولا كسب يدبر نفسه به ، فى سفره .

بخلاف الذى فى بلده ، فإنه حتى لو لم يكن له مال ، فإنه لا بد — فى الغالب — أن يكون فى حرفة ، أو صناعة ونحوها تسد حاجته .

ولهذا جعل الله فى الزكاة ، حصة للمسكين ، وابن السبيل .

[ذلك] أى : إيتاء ذى القربى والمسكين ، وابن السبيل [خير للذين يريدون] بذلك العمل [وجه الله] أى : خير غزير ، وثواب كثير ، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة ، والنفع المتعدى ، الذى وافق محله ، المقرون به الإخلاص .

فإن لم يرد به وجه الله ، لم يكن خيراً لِلْمُعْطِى ، وإن كان خيراً ونفعا للْمُعْطَى كما قال تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

مفهومها ، أن هذه الأمور خير ، لنفعها المتعدى ، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما .

خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ

وقوله [وأولئك] الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله [هم المفلحون] الفائزون بثواب الله ، الناجون من عقابه .

ولما ذكر العمل ، الذى يقصد به وجهه ، من النفقات ، ذكر العمل الذى يقصد به مقصد دنيوى فقال :

[وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس] أى : ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم ، وقصدكم بذلك ، أن يربو أى : يزيد فى أموالكم ، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها ، فهذا العمل ، لا يربو أجره عند الله ، لكونه معدوم الشرط ، الذى هو الإخلاص .

ومثل ذلك العمل ، الذى يراد به الزيادة ، فى الجاه والرياء عند الناس ، فهذا كله لا يربو عند الله .

[وما آتيتم من زكاة] أى : مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة ، ويطهر أموالكم من البخل بها ، ويزيد فى دفع حاجة الْمُعْطَى .

[تريدون] بذلك [وجه الله فألئك هم المضعفون] أى : المضاعف لهم الأجر ، الذى تربو نفقاتهم عند الله ، ويربيها الله لهم ، حتى تكون شيئاً كثيراً .

ودل قوله [وما أتيتم من زكاة] أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق ، أو مع دَيْنٍ عليه ، لم يقضِه ، ويقدم عليه الصدقة ، أن ذلك ليس

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

بزكاة ، يؤجر عليه العبد ، ويرد تصرفه شرعاً ، كما قال تعالى فى الذى يمدح « الذى يؤتى ماله يتزكى » .

فليس مجرد إيتاء المال ، خيراً ، حتى يكون بهذه الصفة ، وهو : أن يكون على وجه ، يتزكى به صاحبه .

* يخبر تعالى أنه وحده ، المنفرد بخلقكم ورزقكم ، وإماتتكم وإحيائكم ، وأنه ليس أحد من الشركاء ، التي يدعوها المشركون ، من يشارك الله فى شيء من هذه الأشياء .

فكيف يشركون ، بمن انفرد بهذه الأمور ، من ليس له تصرف فيها ، بوجه من الوجوه ؟ !

فسبحانه وتعالى ، وتقدس ، وتنزه ، وعلا عن شركهم .

فلا يضره ذلك ، وإنما وباله عليهم .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : استعلن الفساد ، فى البر والبحر ، أى: فساد معايشهم ونقصها ، وحلول الآفات بها .

وفى أنفسهم من الأمراض والوباء ، وغير ذلك .

وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، من الأعمال الفاسدة ، المفسدة ، بطبعها .

هذه المذكورة [ليذيقهم بعض الذى عملوا] أى : ليعلموا أنه المجازى على الأعمال ، فعجل لهم نموذجا ، من جزاء أعمالهم فى الدنيا .

[لعلهم يرجعون] عن أعمالهم ، التى أثرت لهم من الفساد ، ما أثرت .

فتصلح أحوالهم ، ويستقيم أمرهم .

فسبحان من أنعم ببلائه ، وتفضل بعقوبته ، وإلا ، فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة

* والأمر بالسير فى الأرض ، يدخل فيه السير بالأبدان ، والسير فى القلوب ، للنظر والتأمل ، بعواقب المتقدمين .

[كان أكثرهم مشركين] تجدون عاقبتهم شر العواقب ، ومآلهم شر مآل .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

عذاب استأصلهم ، وذم ، ولعن من خلق الله يتبعهم ، وخزى متواصل .

فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم ، لئلا يُحْذَى بكم حذوهم ، فإن عدل الله وحكمته فى كل زمان ومكان .

* أى : أقبل بقلبك ، وتوجه بوجهك ، واسع ببدنك ، لإقامة الدين القيم المستقيم .

فنفذ أوامره ونواهيه ، بجد واجتهاد ، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة .

وبادر زمانك ، وحياتك ، وشبابك ، [من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله] وهو يوم القيامة ، الذى إذا جاء ، لا يمكن رده ، ولا يرجأ العاملون ، ليستأنفوا العمل ، بل فرغ من الأعمال ، لم يبق إلا جزاء العمال .

[يومئذ يصدعون] أى : يتفرقون عن ذلك اليوم ، ويصدرون أشتاتا متفاوتين ، لِيُرَوْا أعمالهم .

[من كفر] منهم [فعليه كفره] ويعاقب هو بنفسه ، لا تزر وازرة وزر أخرى .

[ومن عمل صالحاً] من الحقوق ، التى لله ، والتى للعباد ، الواجبة والمستحبة .

وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم

[فلأنفسهم] لا لغيرهم [يمهدون] أى : يهيئون ، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها .

ومع ذلك ، جزاؤهم ليس مقصورا على أعمالهم ، بل يجزيهم الله من فضله الممدود ، وكرمه غير المحدود ، ما لا تبلغه أعمالهم .

وذلك لأنه أحبهم ، وإذا أحب الله عبداً ، صب عليه الإحسان صبا ، وأجزل له العطايا الفاخرة ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة .

وهذا بخلاف الكافرين ، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم ، عاقبهم وعذبهم ، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم ، فلهذا قال : [إنه لا يحب الكافرين] .

* أى : ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى ، وأنه الإله المعبود ، والملك المحمود .

[أن يرسل الرياح] أمام المطر [مبشرات] بإثارتها للسحاب ، ثم جمعها ، فتستبشر بذلك النفوس قبل نزوله .

[وليذيقكم من رحمته] فينزل عليكم مطراً ، تحيا به البلاد والعباد ، وتذوقون من رحمته، ما تعرفون أن رحمته ، هى المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة ، الفاتحة لخزائن الرحمة

مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

[ولتجرى الفلك] فى البحر [بأمره] القدرى [ولتبتغوا من فضله] بالتصرف فى معايشكم ومصالحكم .

[ولعلكم تشكرون] من سخر لكم الأسباب ، وسير لكم الأمور .

فهذا المقصود من النعم ، أن تقابل بشكر الله تعالى ، ليزيدكم الله منها ، ويبقيها عليكم .

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصى ، فهذه حال من بدّل نعمة الله كفرا ، ومنحته محنة ، وهو معرض لها للزوال ، والانتقال منه إلى غيره .

* أى [ولقد أرسلنا من قبلك] فى الأمم السالفين [رسلا إلى قومهم] حين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بالحق ، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص ، والتصديق بالحق ، وبطلان ماهم عليه ، من الكفر والضلال .

وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك ، فلم يؤمنوا ، ولم يزولوا عن غيهم .

[فانتقمنا من الذين أجرموا] ونصرنا المؤمنين ، أتباع الرسل .

[وكان حقا علينا نصر المؤمنين] أى : أوجبنا ذلك على أنفسنا ،

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ

وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به ، فلا بد من وقوعه .

فأنتم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إن بقيم على تكذيبكم ، حلَّت بكم العقوبة ، ونصرناه عليكم .

* يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وتمام نعمته ، أنه [يرسل الرياح فتثير سحابا] من الأرض .

[فيبسطه فى السماء] أى : يمده ويوسعه [كيف يشاء] أى : على أى حالة أرادها من ذلك .

[ثم يجعله] أى : ذلك السحاب الواسع [كسفا] أى : سحابا ثخينا ، قد طبق بعضه فوق بعض .

[فترى الودق يخرج من خلاله] أى : السحاب ، نقطا صغارا متفرقة ، لا تنزل جميعا ، فتفسد ما أتت عليه .

[فإذا أصاب به] بذلك المطر[من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون] يبشر بعضهم بعضا بنزوله ، وذلك لشدة حاجتهم ، واضطرارهم إليه ، فلهذا قال : [وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين] أى : آيسين

إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ

قانطين ، لتأخر وقت مجيئه .

أى : فلما نزل فى تلك الحال ، صار له موقع عظيم عندهم ، وفرح واستبشار .

[فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها] فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج كريم .

[إن ذلك] الذى أحيا الأرض بعد موتها [لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير] فقدرته تعالى ، لا يتعاصى عليها شيء ، وإن تعاصى على قدر خلقه ، ودق عن أفهامهم ، وحارت فيه عقولهم .

* يخبر تعالى عن حالة الخلق ، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ، ونشر رحمة الله تعالى ، لو أرسلنا على هذا النبات الناشيء عن المطر ، وعلى زروعهم ، ريحا مضرة متلفة ، أو منقصة .

[فرأوه مصفرا [قد تداعى إلى التلف [لظلوا من بعده يكفرون] .

فينسون النعم الماضية ، ويبادرون إلى الكفر .

وهؤلاء ، لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر [فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع

إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

الصم الدعاء] وبالأولى [إذا ولوا مدبرين] فإن الموانع قد توفرت فيهم[1] عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة ، عن سماع الصوت الحسى .

[وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم] لانهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس فيهم قابلية له .

[إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى ، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم ، المنقادون لأوامرنا ، المسلمون لنا .

لأن معهم الداعى القوى لقبول النصائح والمواعظ ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله ، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله .

---

(١) قوله : « فإن الموانع الخ » تعبير قلق وفيه تعقيد فلو قال « فإن الموانع عن الانقياد والسماع النافع قد توفرت فيهم كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسى » لكان أسس أسلوبا ، وأوضح فهما للقارىء .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن سعة علمه ، وعظيم اقتداره ، وكمال حكمته ، أنه ابتدأ خلق الآدميين من ضعف ، وهو الأطوار الأولى من خلقه ، من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى أن صار حيوانا فى الأرحام ، إلى أن ولد ، وهو فى سن الطفولية ، وهو إذ ذاك فى غاية الضعف ، وعدم القوة والقدرة .

ثم ما زال الله يزيد فى قوته ، شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الشباب ، واستوت قوته ، وكملت قواه ، الظاهرة والباطنة .

ثم انتقل من هذا الطور ، ورجع إلى الضعف ، والشيبة والهرم .

[يخلق ما يشاء] بحسب حكمته .

ومن حكمته ، أن يرى العبد ضعفه ، وأن قوته محفوفة بضعفين ، وأنه ليس له من نفسه ، إلا النقص .

ولولا تقوية الله له ، لما وصل إلى قوة وقدرة ، ولو استمرت قوته فى الزيادة ، لطغى ، وبغى ، وعتا .

وليعلم العباد ، كمال قدرة الله ، التى لا تزال مستمرة ، يخلق بها الأشياء ، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ، ولا ضعف ، ولا نقص ، بوجه من الوجوه .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ

---

* يخبر تعالى عن يوم القيامة ، وسرعة مجيئه ، وأنه إذا قامت الساعة .

[يقسم المجرمون] بالله أنهم [ما لبثوا] فى الدنيا [إلا ساعة] .

وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر ، واستقصار لمدة الدنيا .

ولما كان قولهم كذبا لا حقيقة له ، قال تعالى : [كذلك كانوا يؤفكون] .

أى : ما زالوا – وهم فى الدنيا – يؤفكون عن الحقائق ، ويأتفكون الكذب .

ففى الدنيا ، كذَّبوا الحق الذى جاء به المرسلون .

وفى الآخرة ، أنكروا الأمر المحسوس ، وهو اللبث الطويل فى الدنيا .

فهذا خلقهم القبيح ، والعبد ، يبعث على ما مات عليه .

[وقال الذين أوتوا العلم والإيمان] أى : مَنَّ الله عليهم بهما ، وصار وصفا لهم ، العلم بالحق ، والإيمان المستلزم ، إيثار الحق .

وإذا كانوا عالمين بالحق ، مؤثرين له ، لزم أن يكون قولهم مطابقا للواقع ، مناسبا لأحوالهم .

فلهذا قالوا الحق : [لقد لبثتم فى كتاب الله] أى : فى قضائه وقدره ،

وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

الذى كتبه الله عليكم ، وفى حكمه [إلى يوم البعث] أى : عُمْراً ، يتذكر فيه المتذكر ، ويتدبر فيه المتدبر ، ويعتبر فيه المعتبر ، حتى صار البعث ، ووصلتم إلى هذه الحال .

[فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون] فلذلك أنكرتموه فى الدنيا ، وأنكرتم إقامتكم فى الدنيا وقتا ، تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة .

فلم يزل الجهل شعاركم ، وآثاره من التكذيب ، والخسار دثاركم .

[فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم] فإن كذبوا ، وزعموا أنهم ، ما قامت عليهم الحجة ، أو ما تمكنوا من الإيمان ، ظهر كذبهم ، بشهادة أهل العلم والإيمان ، وشهادة جلودهم ، وأيديهم ، وأرجلهم .

وإن طلبوا الإعذار وأن يردون فلا يعودون ، لما نُهُوا عنه ، لم يُمَكَّنُوا ، فإنه فات وقت الإعذار ، فلا تقبل معذرتهم .

[ولاهم يستعتبون[1]] أى لا : يزال عتبهم ، والعتاب عنهم .

---

(١) يستعتبون . أى : لا يطلب منهم إرضاؤه تعالى والرجوع إلى ما يرضيه من التوبة والطاعة ، كما دعوا إليه فى الدنيا .

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أى : [ولقد ضربنا] لأجل عنايتنا ، ورحمتنا ، ولطفنا ، وحسن تعليمنا .

[للناس فى هذا القرآن من كل مثل] تتضح به الحقائق ، وتعرف به الأمور ، وتنقطع به الحجة .

وهذا عام فى الأمثال ، التى يضربها الله ، فى تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة .

وفى الإخبار ، بما سيكون ، وجلاء حقيقته ، حتى كأنه وقع .

ومنه فى هذا الموضع ، ذكر الله تعالى ، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه ، وشدة أسفهم ، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب .

ولكن أبى الظالمون الكافرون ، إلا معاندة الحق الواضح ، ولهذا ، قال :

[ولئن جئتهم بآية] أى : أى آية ، تدل على صحة ما جئت به [ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون] أى : قالوا للحق : إنه باطل .

وهذا من كفرهم وجراءتهم ، وطَبْعِ الله على قلوبهم ، وجهلهم المفرط ، ولهذا قال :

[كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون] فلا يدخلها خير ، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها ، بل ترى الحق باطلا ، والباطل حقاً .

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

---

* [فاصبر] على ما أمرت به ، وعلى دعوتهم إلى الله .

ولو رأيت منهم إعراضا ، فلا يصدنك ذلك .

[إن وعد الله حق] أى : لاشك فيه، وهذا مما يعين على الصبر ، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع ، بل سيجده كاملا ، هان عليه ما يلقاه من المكاره ، وتيسر عليه كل عسير ، واستقل من عمله كل كثير .

[ولا يستخفنك الذين لا يوقنون] أى : قد ضعف إيمانهم ، وقل يقينهم ، فخفت لذلك أحلامهم ، وقل صبرهم .

فإياك أن يستخفك هؤلاء ، فإنك إن تجعلهم منك على بال ، وتحذر منهم ، وإلا ، استخفوك ، وحملوك على عدم الثبات ، على الأوامر والنواهى .

والنفس تساعدهم على هذا ، وتطلب التشبه والموافقة .

وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن ، رزين العقل ، يسهل عليه الصبر .

وكل ضعيف اليقين ، ضعيف العقل خفيفه .

فالأول ، بمنزلة اللب ، والآخر بمنزلة القشور . فالله المستعان .

تم تفسير سورة الروم — ولله الحمد والمنة .

تفســـــير

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى [آيات الكتاب الحكيم] أى : إن آياته محكمة ، صدرت من حكيم خبير .

ومن إحكامها ، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها ، وأبينها ، الدالة على أجل المعانى وأحسنها .

ومن إحكامها ، أنها محفوظة من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، والتحريف .

ومن إحكامها : أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة ، والأمور الغيبية كلها ، مطابقة للواقع ، مطابق لها الواقع ، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية ، ولم يخبر بخلافها ، نبي من الأنبياء ، ولم يأت ، ولن يأت علم محسوس ولا معقول صحيح ، يناقض مادلت عليه .

ومن إحكامها : أنها ما أمرت بشيء ، إلا هو خالص المصلحة ، أو راجحها .

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

ولانهت عن شيء ، إلا وهو خالص المفسدة ، أو راجحها .

وكثيراً مايجمع بين الأمر بالشيء ، مع ذكر حكمته وفائدته ، والنهى عن الشيء ، مع ذكر مضرته .

ومن إحكامها : أنها جمعت بين الترغيب والترهيب ، والوعظ البليغ ، الذى تعتدل به النفوس الخيرة ، وتحتكم ، فتعمل بالحزم .

ومن إحكامها : أنك تجد آياتها المتكررة ، كالقصص ، والأحكام ونحوها ، قد اتفقت كلها وتواطأت ، فليس فيها تناقض ، ولا اختلاف .

فكلما ازداد بها البصير تدبرا ، وأعمل فيها العقل تفكراً ، انبهر عقله ، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ ، وجزم جزما ، لايمترى فيه ، أنه تنزيل من حكيم حميد .

ولكن — مع أنه حكيم — يدعو إلى كل خلق كريم ، وينهى عن كل خلق لئيم .

أكثر الناس محرومون من الاهتداء به ، معرضون عن الإيمان والعمل به ، إلا من وفقه الله تعالى ، وعصمه ، وهم المحسنون فى عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق .

فإنه [هدى] لهم ، يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحذرهم من طرق الجحيم .

[ورحمة] لهم ، تحصل لهم به ، السعادة فى الدنيا والآخرة ، والخير الكثير ، والثواب الجزيل ، والفرح ، ويندفع عنهم الضلال والشقاء .

ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ثم وصف المحسنين ، بالعلم التام ، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله ، فيتركون معاصيه .

ووصفهم بالعمل ، وخص من العمل ، عملين فاضلين .

[يقيمون الصلاة] المشتملة على الإخلاص ، ومناجاة الله تعالى ، والتعبد العام للقلب واللسان ، والجوارح المعينة ، على سائر الأعمال .

[ويؤتون الزكاة] التى تزكى صاحبها ؛ من الصفات الرذيلة ، وتنفع أخاه المسلم ، وتسد حاجته ، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال ، فيخرج محبوبه من المال ، لما هو أحب إليه ، وهو طلب مرضاة الله .

[أولئك] المحسنون ، الجامعون بين العلم التام ، والعمل [على هدى] أى : عظيم ، كما يفيده التنكير .

وذلك الهدي حاصل لهم ، وواصل إليهم [من ربهم] الذى لم يزل يربيهم بالنعم ؛ ويدفع عنهم النقم .

وهذا الهدى الذى أوصله إليهم ، من تربيته الخاصة بأوليائه ، وهو أفضل أنواع التربية .

[وأولئك هم المفلحون] الذين أدركوا رضا ربهم ، وثوابه الدنيوى والأخروى ، وسلموا من سخطه وعقابه .

وذلك لسلوكهم طريق الفلاح ، الذى لا طريق له غيرها .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

[ومن الناس] إلى [وهو العزيز الحكيم].

* أى: [ومن الناس من] هو محروم مخذول [يشترى].

أى: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن فى الشىء.

[لهو الحديث] أى: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادّة لها عن أجلّ مطلوب.

فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة فى الكفر، والفسوق، والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناءومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التى لانفع فيها، فى دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشترى لهو الحديث، عن هدى الحديث [ليضل] الناس [عن سبيل الله بغير علم] أى: بعد ماضل هو فى فعله، أضل غيره، لأن الإضلال، ناشىء عن الضلال.

وإضلاله فى هذا الحديث؛ صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم.

مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

ولا يتم له هذا ، حتى يقدح فى الهدى والحق ، الذى جاءت به آيات الله .

[ويتخذها هزوا] يسخر بها ، وبمن جاء بها .

فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه ، والقدح فى الحق ، والاستهزاء به وبأهله ، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه ، من القول الذى لا يميزه ذلك الضال ، ولا يعرف حقيقته .

[أولئك لهم عذاب مهين] بما ضلوا ، واستهزأوا بآيات الله ، وكذبوا الحق الواضح ، ولهذا قال [وإذا تتلى عليه آياتنا] ليؤمن بها وينقاد لها .

[ولى مستكبراً] أى: أدبر إدبار مستكبر عنها ، رادٍّ لها ، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه ، بل أدبر عنها [كأن لم يسمعها] بل [كأن فى أذنيه وقراً] أى : صمما لا تصل إليها الأصوات ؛ فهذا لا حيلة فى هدايته .

[فبشره] بشارة تؤثر فى قلبه الحزن والغم ؛ وفى بشرته السوء ؛ والظلمة ؛ والغبرة .

[بعذاب أليم] مؤلم لقلبه ؛ ولبدنه ؛ لا يقادر قدره ؛ ولا يدرى بعظيم أمره .

فهذه بشارة أهل الشر ، فلا نِعْمَتِ البشارة .

وأما بشارة أهل الخير فقال : [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات]

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان ، والظاهر بالإسلام ، والعمل الصالح .

[لهم جنات النعيم] بشارة لهم بما قدموه ، وقِرًى لهم بما أسلفوه .

[خالدين فيها] أى ، فى جنات النعيم ، نعيم الروح ، والبدن .

[وعد الله حقا] لايمكن أن يخلف ، ولا يغير ، ولا يتبدل .

[وهو العزيز الحكيم] كامل العزة ، كامل الحكمة .

من عزته وحكمته ، أن وفق من وفق ، وخذل من خذل ، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم ، وحكمته .

* يتلو تعالى على عباده ، آثاراً من آثار قدرته ، وبدائع من بدائع حكمته ، ونعما من آثار رحمته ، فقال :

[خلق السموات] السبع ، على عظمها ، وسعتها ، وكثافتها ، وارتفاعها الهائل .

[بغير عمد ترونها] أى : ليس لها عمد ، ولو كان لها عمد لرؤيت وإنما استقرت واستمسكت ، بقدرة الله تعالى .

[وألقى فى الأرض رواسى] أى : جبالا عظيمة ، ركزها فى أرجائها وأنحائها ، لئلا [تميد بكم] فلولا الجبال الراسيات ، لمادت الأرض ، ولما استقرت بساكنها .

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

[وبث فيها من كل دابة] أى : نشر فى الأرض الواسعة ، من جميع أصناف الدواب ، التى هى مسخرة لبنى آدم ، ولمصالحهم ، ومنافعهم .

ولما بثها فى الأرض ، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به ، فأنزل من السماء ماء مباركا .

[فأنبتنا فيها من كل زوج كريم] المنظر ، نافع مبارك ، فرتعت فيه الدواب المنبثة ، وسكن إليه كل حيوان .

[هذا] أى : خلق العالم العلوى والسفلى ، من جماد ، وحيوان ، وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم [خلق الله] وحده لاشريك له ، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين .

[فأرونى ماذا خلق الذين من دونه] أى : الذين جعلتموهم له شركاء ، تدعونهم وتعبدونهم ، يلزم على هذا ، أن يكون لهم خلق كخلقه ، ورزق كرزقه .

فإن كان لهم شىء من ذلك ، فأرونيه ، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة .

ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئا من الخلق لها ، لأن جميع المذكورات ، قد أقروا أنها خلق الله وحده ، ولا ثَمَّ شىء يعلم غيرها .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ﴿١٢﴾

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به ، أن تعبد .

ولكن عبادتهم إياها ، عن غير علم وبصيرة ، بل عن جهل وضلال ، ولهذا قال : [بل الظالمون فى ضلال مبين] .

أى : جَلِيٍّ واضح حيث عبدوا من لايملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولاحياةولا نشورا،وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور .

* يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل ، لقمان ، بالحكمة ، وهى العلم بالحق ، على وجهه وحكمته ، فهى العلم بالأحكام ، ومعرفة ما فيها ، من الأسرار والإحكام .

فقد يكون الإنسان عالما ، ولا يكون حكيما .

وأما الحكمة ، فهى مستلزمة للعلم ، بل وللعمل ، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة ، أمره أن يشكره على ما أعطاه ، ليبارك له فيه ، وليزيده من فضله ، وأخبره أن شكر الشاكرين ، يعود نفعه عليهم ، وأن من كفر فلم يشكر الله ، عاد وبال ذلك عليه .

[والله غنى عنه حميد] فيما يقدره ويقضيه ، على من خالف أمره] .

فغناه تعالى ، من لوازم ذاته ، وكونه حميداً فى صفات كماله ؛ حميداً فى جميل صنعه ، من لوازم ذاته ، وكل واحد من الوصفين ، صفة كمال ، واجتماع أحدهما إلى الآخر ، زيادة كمال إلى كمال .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ

واختلف المفسرون ، هل كان لقمان نبياً ، أو عبداً صالحا ؟

والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة ، وذكر بعض مايدل على حكمته ، فى وعظه لابنه .

فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال : [وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه] .

وقال له قولا يعظه به ، والوعظ : الأمر ، والنهى ، المقرون بالترغيب والترهيب .

فأمره بالإخلاص ، ونهاه عن الشرك ، وبيّن له السبب فى ذلك فقال :

[إن الشرك لظلم عظيم] ووجه كونه ظلما عظيما ، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوّى المخلوق من تراب ، بمالك الرقاب .

وسوّى الذى لايملك من الأمر شيئاً ، بمالك الأمر كله .

وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه ، بالرب الكامل الغنى من جميع الوجوه .

وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم، بالذىما بالخلق من نعمة فى دينهم ، ودنياهم وأخراهم ، وقلوبهم ، وأبدانهم ، إلا منه ، ولايصرف السوء إلا هو .

فهل أعظم من هذا الظلم شىء ؟؟!

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

وهل أعظم ظلما ، ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده ، فذهب بنفسه الشريفة ، فجعلها فى أخس المراتب ؟ !

جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئا ، فظلم نفسه ظلما كبيرا .

ولما أمر بالقيام بحقه ، بترك الشرك الذى من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال :

[ووصينا الإنسان] أى : عهدنا إليه ، وجعلناه وصية عنده ، سنسأله عن القيام بها ، وهل حفظها أم لا ؟

فوصيناه [بوالديه] وقلنا له : [اشكر لى] بالقيام بعبوديتى ، وأداء حقوق ، وأن لاتستعين بنعمى على معصيتى .

[ولوالديك] بالإحسان إليهما بالقول اللين ، والكلام اللطيف ، والفعل الجميل ، والتواضع لهما ، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه ، بالقول والفعل .

فوصيناه بهذه الوصية ، وأخبرناه أن [إلى المصير] أى : سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك ، وكلفك بهذه الحقوق ، فيسألك :

هل قمت بها ، فيثيبك الثواب الجزيل ؟ أم ضيعتها ، فيعاقبك العقاب الوبيل ؟ .

وذكر السبب الموجب لبر الوالدين فى الأم فقال : [حملته ، أمه وهنا على وهن] أى : مشقة على مشقة ، فلا تزال تلاقى المشاق ، من حين يكون نطفة ، من الوحم ، والمرض ، والضعف ، والثقل ، وتغير الحال ، ثم وجع الولادة ، ذلك الوجع الشديد .

وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ

[وفصاله فى عامين] وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ، ورضاعها .

أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد ، مع شدة الحب ، أن يؤكد على ولده ، ويوصى إليه بتمام الإحسان إليه ؟

[وإن جاهداك] أى : اجتهد والداك [على أن تشرك بى ، ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما] ولا تظن أن هذا داخل فى الإحسان إليهما ، لأن حق الله ، مقدم على حق كل أحد ، و « لا طاعة لمخلوق ، فى معصية الخالق » .

ولم يقل « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فعقهما » .

بل قال : [فلا تطعهما] أى : فى الشرك ، وأما برهما ، فاستمر عليه .

ولهذا قال : [وصاحبهما فى الدنيا معروفاً] أى : صحبة إحسان إليهما بالمعروف .

وأما اتباعهما ، وهما بحالة الكفر والمعاصى ، فلا تتبعهما .

[واتبع سبيل من أناب إلىّ] وهم المؤمنون بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، المستسلمون لربهم ، المنيبون إليه .

واتباع سبيلهم ، أن يسلك مسلكهم فى الإنابة إلى الله ، التى هى

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ

انجذاب دواعى القلب وإراداته، إلى الله، ثم يتبعها سعى البدن، فيما يرضى الله، ويقرب منه.

[ثم إلى مرجعكم] الطائع والعاصى، والمنيب، وغيره [فأنبئكم بما كنتم تعملون]، فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما، ثم أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

[يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل] التى هى أصغر الأشياء وأحقرها.

[فتكن فى صخرة] أى فى وسطها [أو فى السموات أو فى الأرض].

فى أى: جهة من جهاتهما [يأت بها الله] سعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته.

ولهذا قال: [إن الله لطيف خبير] أى: لطف فى علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قلّ أو كثُر.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

[يابنى أقم الصلاة] حثه عليها ، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية .

[وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر] وذلك يستلزم العلم بالمعروف ، وذلك يستلزم العلم بالمعروف ،ليأمر به ، والعلم بالمنكر ، لينهى عنه .

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر إلا به ، من الرفق ، والصبر ، وقد صرح به فى قوله [واصبر على ما أصابك]ومن كونه فاعلا لما يأمر به ، كافًّا لما ينهى عنه .

فتضمن هذا ، تكميل نفسه،بفعل الخير وترك الشر،وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه .

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن فى الأمر والنهى مشقة على النفوس ، أمره بالصبر على ذلك فقال : [واصبر على ما أصابك إن ذلك] الذى وعظ به لقمان ابنه [من عزم الأمور] أى : من الأمور ، التى يعزم عليها ، ويهتم بها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم .

[ولا تصعر خدك للناس] أى : لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك للناس ، تكبُّراً عليهم ، وتعاظما .

[ولا تمش فى الأرض مرحاً] أى : بطرا ، فخرا بالنعم ، ناسيا المنعم ، معجبا بنفسك .

[إن الله لا يحب كل مختال] فى نفسه وهيئته وتعاظمه [فخور] بقوله.

وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[واقصد فى مشيك] أى : امش متواضعاً مستكينا ، لا مَشْىَ البطر والتكبر ، ولا مشى التماوت .

[واغضض من صوتك] أدبا مع الناس ومع الله .

[إن أنكر الأصوات] أى أفظعها وأبشعها [لصوت الحمير] .

فلو كان فى رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة ، لما اختص بذلك ، الحمار الذى قد علمت خسته وبلادته .

وهذه الوصايا ، التى وصى بها لقمان ابنه ، تجمع أمهات الحكم ، وتستلزم ما لم يذكر منها .

وكل وصية يقرن بها ، ما يدعو إلى فعلها ، إن كانت أمرا ، وإلى تركها ، إن كانت نهياً .

وهذا يدل على ما ذكرنا فى تفسير الحكمة ، أنها العلم بالأحكام ، وحِكَمِها ومناسباتها .

فأمره بأصل الدين ، وهو التوحيد ، ونهاه عن الشرك ، وبيَّن له الموجب لتركه .

وأمره ببر الوالدين ، وبين له السبب الموجب لبرهما ، وأمره بشكره وشكرهما .

ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ، ما لم يأمرا بمعصية ، ومع ذلك ، فلا يعقهما ، بل يحسن إليهما ، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك .

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

وأمره بمراقبة الله ، وخوّفه القدوم عليه .

وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر ، إلا أتى بها .

ونهاه عن التكبر ، وأمره بالتواضع ، ونهاه عن البطر والأشر ، والمرح ،

وأمره بالسكون فى الحركات والأصوات ، ونهاه عن ضد ذلك .

وأمره بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر ، كما قال تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا ، أن يكون مخصوصاً بالحكمة ، مشهورا بها .

ولهذا من منة الله على عباده ، أن قص عليهم من حكمته ، ما يكون لهم به أسوة حسنة .

* يمتن تعالى على عباده بنعمه ، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها ؛ وعدم الغفلة عنها فقال :

[ألم تروا] أى : تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم ؛ وقلوبكم .

[أن الله سخر لكم ما فى السموات] من الشمس والقمر والنجوم ، كلها مسخرات لنفع العباد .

[وما فى الأرض] من الحيوانات والأشجار والزروع ، والأنهار

يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ

والمعادن ونحوها كما قال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .

[وأسبغ عليكم] أى عمكم وغمركم بوافر [نعمه ظاهرة وباطنة] التي نعلم بها ؛ والتى تخفى علينا ، نعم الدنيا ، ونعم الدين ، حصول المنافع ، ودفع المضار .

فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم ؛ بمحبة المنعم والخضوع له ؛ وصرفها فى الاستعانة على طاعته ، وأن لا يستعان بشىء منها على معصيته .

[و] لكن مع توالى هذه النعم ؛ فإن [من الناس من] لم يشكرها ؛ بل كفرها ؛ وكفر بمن أنعم بها ؛ وجحد الحق الذى أنزل به كتبه ؛ وأرسل به رسله .

فجعل [يجادل فى الله] أى : يجادل عن الباطل ؛ ليدحض به الحق ؛ ويدفع به ما جاء به الرسول ؛ من الأمر بعبادة الله وحده .

وهذا المجادل يجادل [بغير علم] وعلى غير بصيرة .

فليس جداله عن علم ، فيترك وشأنه ، ويسمح له فى الكلام [ولاهدى] يقتدى به بالمهتدين [ولا كتاب منير] أى نَيِّر مُبَيِّنٍ للحق ، فلا معقول ، ولا منقول ، ولا اقتداء بالمهتدين .

وإنما جداله فى الله ، مبنى على تقليد آباء غير مهتدين ، بل ضالين مضلين .

لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

ولهذا قال : [وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله] على أيدى رسله ، فإنه الحق ، وبينت لهم أدلته الظاهرة [قالوا] معارضين ذلك :

[بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا] فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد ، كائنا من كان .

قال تعالى فى الرد عليهم وعلى آبائهم : [أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير] .

فاستجاب له آباؤهم ، ومشوا خلفه ، وصاروا من تلاميذ الشيطان ، واستولت عليهم الحيرة .

فهل هذا ، موجب لاتباعهم ومشيهم على طريقتهم ، أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم ، وينادى على ضلالهم ، وضلال من تبعهم .

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم ، محبة لهم ومودة ، وإنما ذلك ، عداوة لهم ومكر لهم ، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه ، الذين تمكن منهم ، وظفر بهم ، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير ، بقبول دعوته .

* [ومن يسلم وجهه إلى الله] أى : يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصا له دينه .

[وهو محسن] فى ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعا ، قد اتبع فيه الرسول .

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ

أو من يسلم وجهه إلى الله ، بفعل جميع العبادات ، وهو محسن فيها ، بأن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

أو ومن يسلم وجهه إلى الله ، بالقيام بحقوقه ، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم .

والمعانى متلازمة ، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظين .

وإلا فكلها منفعة على القيام بجميع شرائع الدين ، على وجه تقبل به وتكمل .

فمن فعل ذلك ، [فقد استمسك بالعروة الوثقى] أى : بالعروة التى من تمسك بها ، توثق ونجا ، وسلم من الهلاك ، وفاز بكل خير .

ومن لم يسلم وجهه لله ، أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وإذا لم يستمسك لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار .

[وإلى الله عاقبة الأمور] أى : رجوعها ، وموئلها ، ومنتهاها .

فيحكم فى عباده ، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم ، ووصلت إليه عواقبهم ،فليستعدوا لذلك الامر .

[ومن كفر فلا يحزنك كفره] لأنك أديت ما عليك ، من الدعوة والبلاغ .

فإذا لم يهتد ، فقد وجب أجرك على الله،ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه ، لأنه لو كان فيه خير ، لهداه الله .

عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى

ولا تحزن أيضا ، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة ، ونابذوك المحاربة ، واستمروا على غيهم وكفرهم ، ولا تتحرق عليهم ، بسبب أنهم ما بودروا[1] بالعذاب .

[إن إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا] من كفرهم وعداوتهم،وسعيهم فى إطفاء نور الله ، وأذى رسله .

[إن الله عليم بذات الصدور] التى ما نطق بها الناطقون ، فكيف بما ظهر ، وكان شهادة ؟ ! !

[نمتعهم قليلا] فى الدنيا ، ليزداد إثمهم ، ويتوفر عذابهم .

[ثم نضطرهم] أى نلجئهم [إلى عذاب غليظ] أى انتهى فى عظمه ، وكبره ، وفظاعته ، وألمه ، وشدته .

* [ولئن سألتهم] أى : سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق .

[من خلق السموات والأرض] لعلموا أن أصنامهم ، ما خلقت شيئا من ذلك [ليقولن الله] الذى خلقهما وحده .

[قل] لهم ، ملزما لهم ، ومحتجا عليهم بما أقروا به ، على ما أنكروا :

[الحمد لله] الذى بين النور ، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم .

---

(١) ما بودروا . أى : لم يعجل الله عليهم العذاب .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ

فلو كانوا يعلمون ، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير ، هو الذى يفرد بالعبادة والتوحيد .

[بل أكثرهم لا يعلمون] فلذلك أشركوا به غيره ، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه ، على وجه الحيرة والشك ، لا على وجه البصيرة .

ثم ذكر هاتين الآيتين ، نموذجا من سعة أوصاف الله سبحانه، ليدعو عباده إلى معرفته ، ومحبته ، وإخلاص الدين له .

فذكر عموم ملكه ، وأن جميع ما فى السموات والأرض ـ وهذا شامل لجميع العالم العلوى والسفلى ـ أنه ملكه ، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية، وأحكامه الأمرية ، وأحكامه الجزائية .

فكلهم عبيد مماليك ، مدبرون مسخرون ، ليس لهم من الملك شىء .

وأنه واسع الغنى ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق .

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » .

وأن أعمال النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، لا تنفع الله شيئا وإنما تنفع عامليها ، والله غنى عنهم ، وعن أعمالهم .

ومن غناه ، أن أغناهم وأقناهم[1] فى دنياهم وأخراهم .

---

(١) أقناه . أى : أعطاه ما يقتنى من القنية والنشب . واقتناه أيضا ، رضّاه . ا هـ . من المختار من الصحاح ، ومثله فى المصباح .

وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدا من جميع الوجوه، فهو حميد فى ذاته، وهو حميد فى صفاته.

فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال.

وجميع ما فعله وخلقه، يحمد عليه، وجميع ما أمر به، ونهى عنه، يحمد عليه.

وجميع ما حكم به فى العباد، وبين العباد، فى هذه الحياة الدنيا، وفى الآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه عز وجل، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتتحير فيه الأفئدة، وتسيح فى معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال:

[ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام] يكتب بها [والبحر يمده من بعده سبعة أبحر] مدادا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفنى ذلك المداد، و [ما نفدت كلمات الله].

وهذا ليس مبالغة، لا حقيقة له.

بل لما علم تبارك وتعالى، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى، أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة[1] حصلوها، وهى لا تمكن على وجهها، ولكن مالا يدرك كله، لا يترك كله.

(١) منقبة. أى: الشرف والمفخرة. وفى المختار من الصحاح «المنقبة» بون المتربة: ضد المثلبة (أى العيب).

. . . .

فنبههم تعالى على بعضها تنبيها تستنير به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه ، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه : « لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

[وإلا ، فالأمر أجل من ذلك ، وأعظم .

وهذا التمثيل ، من باب تقريب المعنى ، الذى لا يطاق الوصول به إلى الأفهام والأذهان .

وإلا ، فالأشجار ، وإن تضاعفت على ما ذكر ، أضعافا كثيرة ، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة ، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها ، لكونها مخلوقة .

وأما كلام الله تعالى ، فلا يتصور نفاده ، بل دلنا الدليل الشرعى والعقلى ، على أنه لا نفاد له ولا منتهى ، فكل شىء ينتهى إلا البارى وصفاته « وإن إلى ربك المنتهى » .

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته ، وأن كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة ، مهما تسلسل الفرض والتقدير ، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية .

وأنه مهما فرض الذهن والعقل ، من الأزمان المتأخرة ، و تسلسل الفرض والتقدير ، وساعد على ذلك من ساعد ، بقلبه ولسانه، فالله تعالى، بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية .

والله فى جميع الأوقات ، يحكم ، ويتكلم ، ويقول ، ويفعل كيف أراد ، وإذا أراد ، لا مانع له من شىء ، من أقواله وأفعاله .

. . . .

فإذا تصور العقل ذلك ، عرف أن المثل الذى ضربه الله لـكلامه ، ليدرك العباد شيئا منه ، وإلا ، فالأمر أعظم وأجل .

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال :

[إن الله عزيز حكيم] أى : له العزة جميعا ، الذى ما فى العالم العلوى والسفلى من القوة ، إلا هى منه ، هو الذى أعطاها للخلق ، فلا حول ولا قوة إلا به .

وبعزته قهر الخلق كلهم ، وتصرف فيهم ، ودبرهم .

وبحكمته خلق الخلق ، وابتدأه بالحـكمة ، وجعل غايته ، والمقصود منه ، الحـكمة .

وكذلك الأمر والنهى ، وجد بالحـكمة ، وكانت غايته المقصودة ، الحـكمة ، فهو الحـكيم فى خلقه وأمره .

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال :

[ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة] وهذا شىء يحير العقول .

إن خلق جميع الخلق ـ على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم ، بعد تفرقهم فى لحة واحدة ـ كخلقه نفسا واحدة .

فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور ، والجزاء على الأعمال ، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته .

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات ، وبصره لجميع المبصرات فقال :

[إن الله سميع بصير] .

۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

* وهذ فيه أيضا ، انفراده بالتصرف والتدبير،وسعة تصرفه بإيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل ، أى : إدخال أحدهما على الآخر ، فإذا دخل أحدهما ، ذهب الآخر .

وتسخيره للشمس والقمر ، يجريان بتدبير ونظام ، لم يختل منذ خلقهما ، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم ،فى دينهم ودنياهم ، ما به يعتبرون وينتفعون .

و [كل] منهما [يجرى إلى أجل مسمى] إذا جاء ذلك الأجل ،انقطع جريانهما ، وتعطّل سلطانهما ، وذلك فى يوم القيامة ، حين تكور الشمس ، ويخسف القمر ، وتنتهى دار الدنيا ، وتبتدىء الدار الآخرة .

[وأن الله بما تعملون] من خير وشر [خبير] لا يخفى عليه شىء من ذلك ، وسيجازيكم على تلك الأعمال ، بالثواب للمطيعين ، والعقاب للعاصين .

[ذلك] الذى بين لكم من عظمته وصفاته ،ما بيّن [بأن الله هو الحق] فى ذاته وفى صفاته ، ودينه حق ، ورسله حق، ووعده حق ، ووعيده حق ، وعبادته هى الحق .

ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

[وأن ما يدعون من دونه الباطل] فى ذاته وصفاته .
فلولا إيجاد الله له ، لما وجد ، ولولا إمداده ، لَمَا بَقِىَ .
فإذا كان باطلا ، كانت عبادته أبطل وأبطل .

[وأن الله هو العلى] بذاته ، فوق جميع مخلوقاته ، الذى علت صفاته ، عن أن يقاس بها صفات ، وعلا على الخلق فقهرهم [الكبير] الذى له الكبرياء فى ذاته وصفاته ، وله الكبرياء فى قلوب أهل السماء والأرض .

* أى : ألم تر من آثار قدرته ورحمته ، وعنايته بعباده ، أن سخر البحر ، تجرى فيه الفلك ، بأمره القدرى ، ولطفه وإحسانه .

[ليريكم من آياته] ففيها الانتفاع والاعتبار .

[إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور] . المنتفعون بالآيات ، كل صبار على الضراء ، شكور على السراء ، صبار على طاعة الله وعن معصيته ، وعلى أقداره ، شكور لله ، على نعمه الدينية والدنيوية .

وذكر تعالى حال الناس ، عند ركوبهم البحر ، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم ، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة فقال :
[فلما نجاهم إلى البر] انقسموا فريقين :

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا

[فمنهم] فريق [مقتصد] ، أى : لم يقم بشكر الله على وجه الكمال ، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم .

وفريق كافر بنعمة الله ، جاحد لها ، ولهذا قال : [وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار] أى غدار ، ومن غدره ، أنه عاهد ربه ، لئن أنجيتنا من البحر وشدته ، لنكونن من الشاكرين .

فغدر هذا الفريق، ولم يف بذلك ، وهو ومع ذلك [كفور] بنعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة ، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

* يأمر تعالى الناس بتقواه ، التى هى : امتثال أوامره ، وترك زواجره .

ويستلفتهم لخشية يوم القيامة ، اليوم الشديد ، الذى فيه كل أحد ، لا يهمه إلا نفسه [واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا] يزيد فى حسناته ولا ينقص من سيئاته ، قد تم على كل عبد ، عمله ، وتحقق عليه جزاؤه .

فلفت النظر لهذا اليوم المهول ، مما يقوى العبد ، ويسهل عليه تقوى الله .

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

وهذا من رحمة الله بالعباد ، يأمرهم بتقواه التى فيها سعادتهم ، ويعدهم عليها الثواب ، ويحذرهم من العقاب ، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات . فلك الحمد يارب العالمين .

[إن وعد الله حق] فلا تمتروا فيه ، ولا تعملوا عمل غير المصدق ، فلهذا قال :

[فلا تغرنكم الحياة الدنيا] بزينتها وزخارفها ، وما فيها ، من الفتن والمحن .

[ولا يغرنكم بالله الغرور] الذى هو الشيطان ، ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه فى جميع الأوقات .

فإن لله على عباده حقا ، وقد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم ، وهل وفوا حقه ، أم قصروا فيه .

وهذا أمر يجب الاهتمام به ، وأن يجعله العبد نصب عينيه ، ورأس مال تجارته ، التى يسعى إليها .

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه ، الدنيا الفتانة ، والشيطان الموسوس المُسَوِّل .

فنهى تعالى عباده ، أن تغرهم الدنيا ، أو يغرهم بالله الغرور « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسُ

---

* قد تقرر أن الله تعالى ، أحاط علمه بالغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية .

وهذه الأمور الخمسة ، من الأمور التى طوى علمها عن جميع الخلق ، فلا يعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، فضلا عن غيرهما ، فقال :

[إن الله عنده علم الساعة] أى : يعلم متى مرساها ، كما قال تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها * قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، لا تأتيكم إلا بغتة » الآية .

[وينزل الغيث] أى : هو المنفرد بإنزاله ، وعلم وقت نزوله .

[ويعلم ما فى الأرحام] فهو الذى أنشأ ما فيها ، وعلم ما هو ، هل هو ذكر أم أنثى .

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله ما يشاء .

[وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا] من كسب دينها ودنياها .

[وما تدرى نفس بأى أرض تموت] بل الله تعالى ، هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولما خصص هذه الأشياء ، عمم علمه بجميع الأشياء فقال :

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

[إن الله عليم خبير] محيط بالظواهر والبواطن ، والخفايا والخبايا ، والسرائر .

ومن حكمته التامة ، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد ، لأن في ذلك من المصالح ، مالا يخفى على من تدبر ذلك .

تم تفسير سورة لقمان ـ بفضل الله وعونه ، والحمد لله

تفســـــير

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ

---

* يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم ، تنزيل من رب العالمين ، الذى رباهم بنعمته .

ومن أعظم ما رباهم به ، هذا الكتاب ، الذى فيه كل مايصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم .

وأنه لا ريب فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون فى ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه .

وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمى محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الكذب ، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق .

وكل واحد من هذه من الأمور المظائم ، قال الله — راداً على من قال: افتراه : —

[بل هو الحق] الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ

[من ربك] أنزله رحمة للعباد [لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك] أى فى حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، لعدم النذير.

بل هم فى جهلهم يعمهون ، وفى ظلمة ضلالهم يترددون .

فأنزلنا الكتاب عليك [لعلهم يهتدون] من ضلالهم ، فيعرفون الحق ويؤثرونه .

وهذه الأشياء التى ذكرها الله كلها ، مناقضة لتكذيبهم له : وإنها تقتضى منهم الإيمان والتصديق التام به ، وهو كونه [من رب العالمين] وأنه [الحق] .

والحق مقبول على كل حال ، وأنه [لا ريب فيه] بوجه من الوجوه .

فليس فيه ، ما يوجب الريبة ، لا بخبر غير مطابق للواقع ، ولا بخفاء واشتباه معانيه .

وأنهم فى ضرورة وحاجة إلى الرسالة ، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان .

* يخبر تعالى عن كمال قدرته بأنه [الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام] أولها ، يوم الأحد ، وآخرها الجمعة ، مع قدرته على خلقها بلحظة ، ولكنه تعالى رفيق حكيم .

[ثم استوى على العرش] الذى هو سقف المخلوقات ، استواء يليق بجلاله .

وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ

[ما لكم من دونه من ولى] يتولاكم ، فى أموركم ، فينفعكم [ولا شفيع] يشفع لكم ، إن توجه عليكم العقاب .

[أفلا تتذكرون] فتعلمون أن خالق الأرض والسموات ، المستوى على العرش العظيم ، الذى انفرد بتدبيركم ، وتوليكم ، وله الشفاعة كلها ، هو المستحق لجميع أنواع العبادة .

[يدبر الأمر] القدرى والأمر الشرعى ، الجميع هو المتفرد بتدبيره ، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير [من السماء إلى الأرض] فَيُسْعِدُ بها وَيُشْقِي ، وَيُغْنِي ويُفْقِرُ ، ويُعِزُّ ، ويُذِلُّ ، وَيُكرِمُ ، ويُهِينُ ، ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ، وَيُنزِّلُ الأرزاق .

[ثم يعرج إليه] أى : الأمر ينزل من عنده ، ويعرج إليه [فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون] وهو يعرج إليه ، ويصله فى لحظة .

[ذلك] الذى خلق تلك المخلوقات العظيمة ، الذى استوى على العرش العظيم ، وانفرد بالتدابير فى المملكة [عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم] .

فبسعة علمه ، وكمال عزته ، وعموم رحمته ، أوجدها ، وأودع فيها ، من المنافع ما أودع ، ولم يعسر عليه تدبيرها .

[الذى أحسن كل شىء خلقه] أى : كل مخلوق خلقه الله ، فإن الله أحسن خلقه ، وخلقه خلقا يليق به ، ويوافقه — فهذا عام .

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

ثم خص الآدمى لشرفه وفضله فقال .

[وبدأ خلق الإنسان من طين] وذلك بخلق آدم عليه السلام ، أبى البشر .

[ثم جعل نسله] أى : ذرية آدم ناشئة [من سلالة من ماء مهين] وهو النطفة المستقذرة الضعيفة .

[ثم سواه] بلحمه ، وأعضائه ، وأعصابه ، وعروقه ، وأحسن خلقته ، ووضع كل عضو منه ، بالمحل الذى لا يليق به غيره .

[ونفخ فيه من روحه] بأن أرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، فيعود بإذن الله ، حيوانا ، بعد أن كان جمادا .

[وجعل لكم السمع والأبصار] أى : ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً ، حتى أعطاكم السمع والأبصار [والأفئدة قليلا ما تشكرون] الذى خلقكم وصوركم .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* أى : قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد : [أإذا ضللنا فى الأرض] أى : بلينا وتمزقنا ، وتفرقنا فى المواضع التى لا تُعْلَمُ .

[أإنا لفى خلق جديد] أى : لمبعوثون بعثا جديداً .

بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء ، وذلك بقياسهم قدرة الخالق ، على قُدَرِهِمْ .

وكلامهم هذا ، ليس لطلب الحقيقة ، وإنما هو ظلم ، وعناد ، وكفر بلقاء ربهم وجحد ، ولهذا قال :

[بل هم بلقاء ربهم كافرون] فكلامهم علم مصدره وغايته .

وإلا ، فلو كان قصدهم بيان الحق ، لَبَيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ، ما يجعله مشاهدا للبصيرة ، بمنزلة الشمس للبصر .

ويكفيهم ، علمهم أنهم قد ابتُدِئُوا من العدم ، فالإعادة أسهل من الابتداء .

وكذلك الأرض الميتة ، ينزل الله عليها المطر ، فتحيا بعد موتها ، وينبت به متفرق بذورها .

[قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم] أى : جعله الله وكيلا على قبض الأرواح ، وله أعوان .

[ثم إلى ربكم ترجعون] فيجازيكم بأعمالكم ، وقد أنكرتم البعث ، فانظروا ماذا يفعل الله بكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ

---

* لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة ، ذكر حالهم فى مقامه بين يديه ، فقال :

[ولو ترى إذ المجرمون] الذين أصروا على الذنوب العظيمة .

[ناكسو رءوسهم عند ربهم] خاشعين خاضعين أذلاء ، مقرين بجرمهم ، سائلين الرجعة قائلين : [ربنا أبصرنا وسمعنا] أى : بان لنا الأمر ، ورأيناه عيانا ، فصار عين يقين .

[فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون] أى : صار عندنا الآن ، يقين بما كنا نكذب به .

أى : لرأيت أمراً فظيعا ، وحالا مزعجة ، أقواما خاسرين ، وسؤالا غير مجاب ، لأنه قد مضى وقت الإمهال .

وكل هذا بقضاء الله وقدره ، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصى ، فلهذا قال :

[ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها] أى : لهدينا الناس كلهم ، وجمعناهم على الهدى .

فمشيئتنا صالحة لذلك ، ولكن الحكمة ، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ، ولهذا قال .

[ولكن حق القول منى] أى : وجب ، وثبت ثبوتا لا تغير فيه .

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين] فهذا الوعد ، لا بد منه ، ولا محيد عنه .

فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصى .

[فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا] أى : يقال للمجرمين ، الذين ملكهم الذل ، وسألوا الرجعة إلى الدنيا ، ليستدركوا ما فاتهم : قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب ، فذوقوا العذاب الأليم ، بما نسيتم لقاء يومكم هذا .

وهذا النسيان نسيان ترك ، أى: بما أعرضتم عنه ، وتركتم العمل له ، وكأنكم غير قادمين عليه ، ولا ملاقيه .

[إنا نسيناكم] أى : تركناكم بالعذاب ، جزاء من جنس عملكم ، فكما نَسِيتُمْ نُسِيتُمْ .

[وذوقوا عذاب الخلد] أى : العذاب غير المنقطع .

فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية ، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف

وأما عذاب جهنم — أعاذنا الله منه — فليس فيه روح راحة ، ولا انقطاع لعذابهم فيها .

[بما كنتم تعملون] من الكفر والفسوق والمعاصى .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ

---

* لما ذكر الكافرين بآياته ، وما أعد لهم من العذاب ، ذكر المؤمنون بها ، ووصفهم ، وما أعد لهم من الثواب فقال :

[إنما يؤمن بآياتنا] أى : إيماناً حقيقيا ، من يوجد منه شواهد الإيمان .

وهم : [الذين إذا ذكروا بها] فتليت عليهم آيات القرآن ، وأتتهم النصائح على أيدى رسل الله ، وَدُعُوا إلى التذكر ، سمعوها فقبلوها ، وانقادوا ، و [خروا سجدا] أى : خاضعين لها ، خضوع ذكر لله ، وفرح بمعرفته .

[وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون] لا بقلوبهم ، ولا بأبدانهم ، فيمتنعون من الانقياد لها ، بل متواضعون لها ، قد تلقوها بالقبول ، وقابلوها بالانشراح والتسليم ، وتوصلوا بها ، إلى مرضاة الرب الرحيم ، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

[تتجافى جنوبهم عن المضاجع] أى : ترتفع جنوبهم ، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة ، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم ، وهو : الصلاة فى الليل ، ومناجاة الله تعالى .

ولهذا قال : [يدعون ربهم] أى : فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ، ودفع مضارهما .

[خوفا وطمعاً] أى : جامعين بين الوصفين ، خوفا أن ترد أعمالهم ، وطمعا فى قبولها .

يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

خوفا من عذاب الله ، وطمعا فى ثوابه .

[ومما رزقناهم] من الرزق ، قليلا أو كثيرا [ينفقون] ولم يذكر قيد النفقة ، ولا المنفق عليه ، ليدل على العموم .

فإنه يدخل فيه ، النفقة الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، ونفقة الزوجات والأقارب .

والنفقة المستحبة فى وجوه الخير ، والنفقة والإحسان المالى ، خير مطلقا ، سواء وافق فقيرا ، أو غنيا ، قريبا ، أو بعيدا ، ولكن الأجر يتفاوت ، بتفاوت النفع ، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم ، فقال : [فلا تعلم نفس] يدخل فيه جميع نفوس الخلق ، لكونه نكرة فى سياق النفى .

أى : فلا يعلم أحد [ما أخفى لهم من قرة أعين] من الخير الكثير ، والنعيم الغزير ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور .

كما قال تعالى على لسان رسوله « أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فكما صلوا فى الليل ، ودعوا ، وأخفوا العمل ، جازاهم من جنس عملهم ، فأخفى أجرهم ، ولهذا قال : [جزاء بما كانوا يعملون] .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا

---

* ينبه تعالى ، العقول على ما تقرر فيها ، من عدم تساوى المتفاوتين المتباينين ، وأن حكمته تقتضى عدم تساويهما فقال :

[أفمن كان مؤمنا] قد عمر قلبه الإيمان ، وانقادت جوارحه لشرائعه ، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته ، من ترك مساخط الله ، التى يضر وجودها بالإيمان .

[كمن كان فاسقا] قد خرب قلبه ، وتعطل من الإيمان ، فلم يكن فيه وازع دينى ، فأسرعت عنه جوارحه بموجبات الجهل والظلم ، فى كل إثم ومعصية ، وخرج بفسقه عن طاعة ربه .

أفيستوى هذان الشخصان ؟ .

[لا يستون] عقلا وشرعا ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء ، والظلمة ، وكذلك لا يستوى ثوابهما فى الآخرة .

[وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] من فروض ونوافل [فلهم جنات المأوى] أى : الجنات التى هى مأوى اللذات ، ومعدن الخيرات ، ومحل الأفراح ، ونعيم القلوب ، والنفوس ، والأرواح ، ومحل الخلود ، وجوار الملك المعبود ، والتمتع بقربه ، والنظر إلى وجهه ، وسماع خطابه .

[نزلا] لهم أى : ضيافة ، وقِرًى [بما كانوا يعملون] .

فأعمالهم التى تفضل الله بها عليهم ، هى التى أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية ، التى لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال ، ولا بالجنود

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

والخدم ، ولا بالأولاد ، بل ولا بالنفوس والأرواح ، ولا يتقرب إليها بشيء أصلا ، سوى الإيمان والعمل الصالح .

[وأما الذين فسقوا فمأواهم النار] أى : مقرهم ومحل خلودهم ، النار التى جمعت كل عذاب وشقاء ، ولا يُفَتَّرُ عنهم العقاب ساعة .

[كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها] فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج ، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ ، ردوا إليها ، فذهب عنهم روح ذلك الفرج ، واشتد عليهم الكرب .

[وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون] فهذا عذاب النار ، الذى يكون فيه مقرهم ومأواهم .

وأما العذاب الذى قبل ذلك ، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ ، فقد ذكر بقوله :

[ولنذيقنهم] إلى [يرجعون] .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* أى : ولنذيقن الفاسقين المكذبين ، نموذجا من العذاب الأدنى ، وهو عذاب البرزخ ، فنذيقهم طرفا منه ، قبل أن يموتوا .

إما بعذاب بالقتل ونحوه ، كما جرى لأهل بدر من المشركين .

وإما عند الموت ، كما فى قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ،اليوم تجزون عذاب الهون » ثم يكمل لهم العذاب الأدنى فى برزخهم .

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ، ودلالتها ظاهرة ، فإنه قال :

[ولنذيقنهم من العذاب الأدنى] أى : بعض وجزء منه .

فدل على أن ثَمَّ عذابا أدنى قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب النار .

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى فى الدنيا ، قد لا يتصل بها الموت ، أخبر تعالى ، أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

* أى : لا أحد أظلم ، وأزيد تعديا ، ممن ذكر بآيات ربه ، التى أوصلها إليه ربه، الذى يريد تربيته،وتكميل نعمته على أيدى رسله، تأمره ، وتذكره بمصالحه الدينية والدنيوية ، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية ،التى تقتضى أن يقابلها بالإيمان والتسليم ، والانقياد والشكر .

فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغى ، فلم يؤمن بها ، ولا اتبعها،بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره ، فهذا من أكبر المجرمين ، الذين يستحقون شديد النقمة .

ولهذا قال : [إنا من المجرمين منتقمون] .

* لما ذكر تعالى ، آياته التى ذكر بها عباده ، وهو : القرآن ، الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكَّر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به ، بغريب من الرسل .

[ولقد آتينا موسى الكتاب] الذى هو التوراة المصدقة للقرآن ، والتى قد صدقها القرآن ، فتطابق حقهما ، وثبت برهانهما .

[فلا تكن فى مرية من لقائه] لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته ، فلم يبق للشك والمرية ، محل .

[وجعلناه] أى : الكتاب الذى آتيناه موسى [هدى لبنى إسرائيل]

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

يهتدون به فى أصول دينهم ، وفروعه ، وشرائعه موافقة لذلك الزمان ، فى بنى إسرائيل .

وأما هذا القرآن الكريم ، فجعله الله هداية للناس كلهم ، لأنه هداية للخلق ، فى أمر دينهم ودنياهم ، إلى يوم القيامة ، وذلك لكماله وعلوه « وأنه فى أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حكيم » .

[وجعلنا منهم] أى : من بنى إسرائيل [أئمة يهدون بأمرنا] .

أى : علماء بالشرع ، وطرق الهداية ، مهتدين فى أنفسهم ، يهدون غيرهم بذلك الهدى .

فالكتاب الذى أنزل إليهم ، هدى ، والمؤمنون به منهم ، على قسمين :

أئمة يهدون بأمر الله ، وأتباع مهتدون بهم .

والقسم الأول ، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة ، وهى درجة الصديقين .

وإنما نالوا هذه الدرجة العالية [بما صبروا] على التعلم والتعليم ، والدعوة إلى الله ، والأذى فى سبيله ، وكفوا نفوسهم عن جماحها فى المعاصى ، واسترسالها فى الشهوات .

[وكانوا بآياتنا يوقنون] أى : وصلوا فى الإيمان بآيات الله ، إلى درجة اليقين ، وهو العلم التام ، الموجب للعمل .

وإنما وصلوا إلى درجة اليقين ، لأنهم تعلموا تعلما صحيحا ، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين .

يَفصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ

فما زالوا يتعلمون المسائل ، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل ، حتى وصلوا لذاك .

فبالصبر واليقين ، تُنَالُ الإمامة فى الدين .

وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل ، منهم من أصاب فيها الحق ، ومنهم من أخطأه خطأ ، أو عمداً ، والله تعالى [يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانون فيه يختلفون] وهذا القرآن يقص على بنى إسرائيل ، بعض الذى يختلفون فيه .

فكل خلاف وقع بينهم ، ووجد فى القرآن تصديق لأحد القولين ، فهو الحق ، وما عداه مما خالفه ، باطل .

* يعنى : أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ، ويهدهم إلى الصواب .

[كم أهلكنا قبلهم من القرون] الذين سلكوا مسلكهم .

[يمشون فى مساكنهم] فيشاهدونها عيانا ، كقوم هود ، وصالح ، وقوم لوط .

[إن فى ذلك لآيات] يستدل بها ، على صدق الرسل ، التى جاءتهم ، وبطلان ما هم عليه ، من الشرك والشر ، وعلى أن من فعل مثل فعلهم ، فُعِلَ به ، كما فُعِلَ بأشياعه من قبل .

يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

وعلى أن الله تعالى مجازى العباد ، وباعثهم للحشر والتناد .

[أفلا يسمعون] آيات الله ، فيعونها ، فينتفعون بها .

فلو كان لهم سمع صحيح ، وعقل رجيح ، لم يقيموا على حالة ، يجزم بها ، بالهلاك

[أولم يروا] بأبصارهم نعمتنا ، وكمال حكمتنا [أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز] التي لا نبات فيها ، فيسوق الله المطر ، الذى لم يكن قبل موجودا فيها ، فيفرغه فيها ، من السحاب ، أو من الأنهار .

[فنخرج به زرعا] أى نباتا ، مختلف الأنواع [تأكل منه أنعامهم] وهو نبات البهائم [وأنفسهم] وهو طعام الآدميين .

[أفلا يبصرون] تلك المنة ، التى أحيا الله بها البلاد والعباد ، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر ، وتلك البصيرة ، إلى الصراط المستقيم .

ولكن غلب عليهم العمى ، واستولت عليهم الغفلة ، فلم يبصروا فى ذلك ، بصر الرجال .

وإنما نظروا إلى ذلك ، نظر الغفلة ، ومجرد العادة ، فلم يوفقوا للخير

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى : يستعجل المجرمون بالعذاب ، الذى وعدوا به على التكذيب ، جهلا منهم ومعاندة .

[ويقولون متى هذا الفتح] الذى يفتح بيننا وبينكم ، بتعذيبنا على زعمكم [إن كنتم صادقين] فى دعواكم .

[قل يوم الفتح] الذى يحصل به عقابكم ، لا تستفيدون به شيئا .

فلو كان إذا حصل ، حصل إمهالكم ، لتستدركوا ما فاتكم ، حين صار الأمر عندكم يقينا ، لكان لذلك وجه .

ولكن إذا جاء يوم الفتح ، انقضى الأمر ، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل إذ [لا ينفع الذين كفروا إيمانهم] لأنه صار إيمان ضرورة .

[ولاهم ينظرون] أى : يمهلون ، فيؤخر عنهم العذاب ، فيستدركون أمرهم .

[فأعرض عنهم] لما وصل خطابهم لك ، وظلمهم إلى حالة الجهل ، واستعجال العذاب .

[وانتظر] الأمر الذى يحل بهم ، فإنه لا بد منه ، ولكن له أجل ، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر .

[إنهم منتظرون] بك ريب المنون ، ومتربصون بكم دوائر السوء ، والعاقبة للتقوى .

تم تفسير سورة السجدة — بحول الله ومنه

تفسـير

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

أى : يا أيها الذى ، منّ الله عليه بالنبوة ، واختصه بوحيه ، وفضله على سائر الخلق .

أشكر نعمة ربك عليك ، باستعمال تقواه ، التى أنت أولى بها من غيرك ، والتى يجب عليك منها ، أعظم من سواك .

فامتثل أوامره ونواهيه ، وبلغ رسالاته ، وأدّ إلى عباده وحيه ، وابذل النصيحة للخلق .

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد ، ولا يردك عنه راد .

فلا تطع كل كافر ، قد أظهر العداوة لله ولرسوله ، ولا منافق ، قد استبطن التكذيب والكفر ، وأظهر ضده .

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة ، فلا تطعهم فى بعض الأمور ، التى تنقض التقوى ، وتناقضها ، ولا تتبع أهواءهم ، فيضلوك عن الصواب .

وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

[و] لكن [اتبع ما أوحى إليك من ربك] فإنه هو الهدى والرحمة.

وَارْجُ بذلك ثواب ربك [إنه كان بما تعملون خبيراً] يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم ، من الخير والشر .

فإن وقع فى قلبك ، أنك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلة ، حصل عليك منهم ضرر ، أو حصل نقص فى هداية الخلق ، فادفع ذلك عن نفسك ، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره ، وهو التوكل على الله ، بأن تعتمد على ربك ، اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً ، فى سلامتك من شرهم ، وفى إقامة الدين ، الذى أمرت به ، وثق بالله فى حصول ذلك الأمر على أى حال كان .

[وكفى بالله وكيلا] توكل إليه الأمور ، فيقوم بها ، وبما هو أصلح للعبد .

وذلك لعلمه بمصالح عبده ، من حيث لا يعلم العبد ، وقدرته على إيصالها إليه ، من حيث لا يقدر عليها العبد ، وأنه أرحم بعبده من نفسه ، ومن والديه ، وأرأف به من كل أحد ، خصوصاً خواص عبيده ، الذين لم يزل يربيهم ببره ، ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة .

خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ، ووعده أن يقوم بها .

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر ، وصعب يتسهل ، وخطوب تهون

۞ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ

وكروب تزول ، وأحوال وحوائج تقضى ، وبركات تنزل ، ونقم تدفع وشرور ترفع .

وهناك ترى العبد الضعيف ، الذى يفوض أمره لسيده ، قد قام بأمور ، لا تقوم بها أمة من الناس ، وقد سهل الله عليه ، ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان .

* يعاتب تعالى عباده ، عن التكلم بما لا حقيقة له ، من الأقوال ، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا ، فإن ذلك القول منهم ، كذب وزور ، يترتب عليه منكرات من الشرع .

وهذه قاعدة عامة في التكلم فى كل شىء ، والإخبار بوقوع ووجود ، ما لم يجعله الله تعالى .

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة ، لوقوعها ، وشدة الحاجة إلى بيانها فقال :

[ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه] هذا لا يوجد .

فإياكم أن تقولوا عن أحد : إن له قلبين فى جوفه ، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية .

[وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن] بأن يقول أحدكم لزوجته « أنت عَلَّى كظهر أمى أو كأمى » ، فما جعلهن الله [أمهاتكم] ، أمك من ولدتك ، وصارت أعظم النساء عليك ، حرمة وتحريما .

أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ

وزوجتك أحل النساء لك ، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر ؟

هذا أمر لا يجوز ، كما قال تعالى « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » .

[وما جعل أدعياءكم أبناءكم] والأدعياء ، جمع «دَعِيّ» وهو : الولد الذى كان الرجل يدعيه ، وهو ليس له ، أو يُدْعَى إليه ، بسبب تبنيه إياه ، كما كان الأمر فى الجاهلية ، وأول الإسلام .

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله ، فقدم بين يدى ذلك بيان قبحه ، وأنه باطل وكذب .

وكل باطل وكذب ، لا يوجد فى شرع الله ، ولا يتصف به عباد الله .

يقول تعالى : فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم ، أو يدعون إليكم ، أبناءكم .

فإن أبناءكم فى الحقيقة ، من ولدتموهم ، وكانوا منكم .

وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم ، فلا جعل الله هذا كهذا .

[ذلكم] القول ، الذى تقولون فى الدعى : إنه ابن فلان ، الذى ادعاه ، أو والده فلان [قولكم بأفواهكم] أي : قول لا حقيقة له ولا معنى له .

[والله يقول الحق] أي : اليقين والصدق ، فلذلك أمركم باتباعه ، على قوله وشرعه .

يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

فقوله ، حق ، وشرعه حق ، والأقوال والأفعال الباطلة ، لا تنسب إليه بوجه من الوجوه وليست من هدايته ، لأنه لا يهدى إلا إلى السبيل المستقيمة ، والطرق الصادقة

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته ، فمشيئته عامة ، لكل ما وجد من خير وشر .

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى ، المتضمنة للقول الباطل فقال : [ادعوهم] أى الأدعياء [لآبائهم] الذين ولدوهم [هو أقسط عند الله] أى : أعدل ، وأقوم ، وأهدى .

[فإن لم تعلموا آباءهم] الحقيقيين [فإخوانكم فى الدين ومواليكم] أى : إخوتكم فى دين الله ، ومواليكم فى ذلك ، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة ، والموالاة على ذلك ، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم ، لا يجوز فعلها .

وأما دعاؤهم لآبائهم ، فإن علموا ، دعوا إليهم ، وإن لم يعلموا ، اقتصر على ما يعلم منهم ، وهو أخوة الدين والموالاة .

فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم ، عذر فى دعوتهم إلى من تبناهم ، لأن المحذور لا يزول بذلك .

جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ

[وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به] بأن سبق على لسان أحدكم ، دعوته إلى من تبناه ، فهذا غير مؤاخذ به ، أو علم أبوه ظاهراً ، فدعوتموه إليه وهو فى الباطن ، غير أبيه ، فليس فى ذلك حرج ، إذا كان خطأ .

[ولكن] يؤاخذكم فى [ما تعمدت قلوبكم] من الكلام ، بما لا يجوز .

[وكان الله غفورا رحيما] غفر لكم ، ورحمكم ، حيث لم يعاقبكم بما سلف ، وسمح لكم بما أخطأتم به ، ورحمكم حيث بيّن لكم أحكامه ، التى تصلح دينكم ودنياكم ، فله الحمد تعالى .

* يخبر تعالى المؤمنين ، خبرا يعرفون به حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرتبته ، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة فقال :

[النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم] أقرب ما للإنسان ، وأولى ما له نفسه .

فالرسول ، أولى بالمؤمن من نفسه ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، بذل لهم من النصح ، والشفقة ، والرأفة ، ما كان به أرحم الخلق ، وأرأفهم .

فرسول الله ، أعظم الخلق مِنّةً عليهم ، من كل احد ، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على يديه وبسببه .

. . . .

فلذلك ، وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس ، أو مراد أحد من الناس ، مع مراد الرسول ، أن يقدم مراد الرسول ، وأن لا يعارض قول الرسول ، بقول أحد ، كائنا من كان ، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ويقدموا محبته على الخلق كلهم ، وألا يقولوا حتى يقول ، ولا يتقدموا بين يديه .

وهو صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين ، كما فى قراءة بعض الصحابة ، بربيهم كما يربى الوالد أولاده .

فترتب على هذه الأبوة ، أن كان نساؤه أمهاتهم ، أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام ، لافى الخلوة والمحرمية ، وكأن هذا مقدمة ، لماسيأتى فى قصة زيد بن حارثة ، الذى كان يُدْعَى قَبْلُ « زيد بن محمد » حتى أنزل الله [ما كان محمد أبا أحد من رجالكم] .

فقطع نسبه ، وانتسابه منه .

فأخبر فى هذه الآية ، أن المؤمنين كلهم ، أولاد للرسول ، فلا مزية لأحد عن أحد .

وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة ، فإن النسب الإيمانى لم ينقطع عنه ، فلا يحزن ولا يأسف .

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين ، أنهن لا يحللن لأحد من بعده ، كما صرح بذلك فى قوله : [ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً] .

وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

[وأولو الأرحام] أى الأقارب ، قربوا أو بعدوا [بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] أى : فى حكمه ، فيرث بعضهم بعضا ، ويبر بعضهم بعضا ، فهم أولى من الحلف والنصرة .

والأدعياء الذين كانوا من قبل ، يرثون بهذه الأسباب ، دون ذوى الأرحام .

فقطع تعالى ، التوارث بذلك ، وجعله للأقارب ، لطفا منه وحكمة ، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة ، لحصل من الفساد والشر ، والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث ، شىء كثير .

[من المؤمنين والمهاجرين] أى : سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين ، أو غير مهاجرين ، فإن ذوى الأرحام مقدمون فى ذلك .

وهذه الآية حجة على ولاية ذوى الأرحام ، فى جميع الولايات ، كولاية النكاح ، والمال ، وغير ذلك .

[إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً] أى : ليس لهم حق مفروض ، وإنما هو بإرادتكم .

إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعا ، وتعطوهم معروفا منكم ، [كان] ذلك الحكم المذكور [فى الكتاب مسطورا] أى : قد سطر ، وكتب ، وقدره الله ، فلا بد من نفوذه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

---

* يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ، ومن أولى العزم — وهم هؤلاء الخمسة المذكورون — خصوصاً ، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد ، على القيام بدين الله والجهاد فى سبيله ، وأن هـذا سبيل ، قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون ، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر الناس بالاقتداء بهم .

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم ، عن هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه ، وصدقوا ؟ فيثيبهم جنات النعيم ؟ أم كفروا ، فيعذبهم العذاب الأليم ؟ قال تعالى : [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه] .

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، نعمته عليهم ، ويحثهم على شكرها ، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز ، من فوقهم ، وأهل نجد ، من أسفل منهم ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة ، وذلك فى وقعة الخندق .

ومالأتهم طوائف اليهود ، الذين حوالى المدينة ، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة .

إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على المدينة ، فحصروا المدينة ، واشتد الأمر ، وبلغت القلوب الحناجر ، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة ، والشدائد الشديدة ، فلم يزل الحصار على المدينة ، مدة طويلة ، والأمر كما وصف الله فى قوله :

[وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا].

أى : الظنون السيئة ، أن الله لا ينصر دينه ، ولا يتم كلمته .

[هنالك ابتلى المؤمنون] بهذه الفتنة العظيمة [وزلزلوا زلزالا شديدا] بالخوف والقلق ، والجوع ، ليتبين إيمانهم ، ويزيد إيقانهم .

فظهر — ولله الحمد — من إيمانهم ، وشدة يقينهم ، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين .

وعندما اشتد الكرب ، وتفاقمت الشدائد ، صار إيمانهم عين اليقين .

« فلما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

وهنالك تبين نفاق المنافقين ، وظهر ما كانوا يضمرون قال تعالى :

[وإذ يقول المنافقون] إلى [إلا غروراً].

۞ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

---

* وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة ، لا يثبت إيمانه ، وينظر بعقله القاصر ، إلى الحالة الحاضرة ، ويصدق ظنه .

[وإذ قالت طائفة منهم] أى : من المنافقين ، بعد ما جزعوا وقلّ صبرهم ، وصاروا أيضا من المخذولين ، فلا صبروا بأنفسهم ، ولا تركوا الناس من شرهم .

فقالت هذه الطائفة : [يا أهل يثرب] يريدون « يا أهل المدينة » .

فنادوهم باسم الوطن المنبىء عن التسمية فيه ، إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ، ليس لهما فى قلوبهم قدر ، وأن الذى حملهم على ذلك ، مجرد الخور الطبيعى .

[يا أهل يثرب لا مقام لكم] أى : فى موضعكم الذى خرجتم إليه خارج المدينة .

وكانوا عسكروا دون الخندق ، وخارج المدينة [فارجعوا] إلى المدينة .

فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد ، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ، ويأمرونهم بترك القتال .

فهذه الطائفة ، شر الطوائف وأضرها .

وطائفة أخرى دونهم ، أصابهم الجبن والجزع ، وأحبوا أن ينخذلوا عن الصفوف

ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ

فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة ، وهم الذين قال الله فيهم :[ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة] أى : عليها الخطر ، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ، ونحن غُيَّبٌ عنها ، فَأْذَنْ لنا نرجع إليها ، فنحرسها ، وهم كذبة فى ذلك .

[وما هى بعورة ، إن يريدون] أي : ما قصدهم [إلا فراراً] ولكن جعلوا هذا الكلام ، وسيلة وعذرا لهم .

فهؤلاء قل إيمانهم ، وليس لهم ثبوت عند اشتداد المحن .

[ولو دخلت عليهم] المدينة [من أقطارها] أى : لو دخل الكفار إليها من نواحيها ،واستولوا عليها [ثم] سئل هؤلاء [الفتنة] أى :الانقلاب عن دينهم ، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين [لأتوها] أى : لأعطوها مبادرين .

[وما تلبثوا بها إلا يسيرا] أى : ليس لهم منعة ولا تَصلُّبٌ على الدين ، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء ، يعطونهم ما طلبوا ، ويوافقونهم على كفرهم ، هذه حالهم .

والحال أنهم [كانوا عاهدوا الله من قبل ، لا يولون الأدبار ،وكان عهد الله مسئولا] سيسألهم عن ذلك العهد ، فيجدهم قد نقضوه ، فما ظنهم إذاً ، بربهم ؟

مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

[قل] لهم — لائما على فرارهم ، ومخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً : [لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل] فلو كنتم فى بيوتكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم .

والأسباب تنفع ، إذا لم يعارضها القضاء والقدر ، فإذا جاء القضاء والقدر ، تلاشى كل سبب ، وبطلت كل وسيلة ، ظنها الإنسان تنجيه .

[وإذاً] حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل ، ولتنعموا فى الدنيا فإنكم [لا تمتعون إلا قليلا] متاعا ، لا يسوى فراركم ، وترككم أمر الله ، وتفويتكم على أنفسكم ، التمتع الأبدى ، فى النعيم السرمدى .

ثم بين أن الأسباب كلها ، لا تغنى عن العبد شيئاً ، إذا أراده الله بسوء فقال :

[قل من ذا الذى يعصمكم] أى : يمنعكم من [الله إن أراد بكم سوءاً] أى : شرا .

[أو أراد بكم رحمة] فإنه هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذى لا يأتى بالخير إلا هو ، ولا يدفع السوء إلا هو .

[ولا يجدون لهم من دون الله وليا] يتولاهم ، فيجلب لهم المنافع [ولا نصيرا] ينصرهم ، فيدفع عنهم المضار .

سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى

فَلْيَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها ، الذى نفذت مشيئته ، ومضى قدره ، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ، وَلِيٌّ ولا ناصر .

ثم توعّد تعالى المخذلين المعوقين ، وتهددهم فقال :

[قد يعلم الله المعوقين منكم] عن الخروج ، لمن لم يخرجوا [والقائلين لإخوانهم] الذين خرجوا [هلم إلينا] أى : ارجعوا ، كما تقدم من قولهم « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » .

وهم مع تعويقهم وتخذيلهم [لا يأتون البأس] أى : القتال والجهاد ، بأنفسهم [إلا قليلا] فهم أشد الناس حرصا على التخلف ، لعدم الداعى لذلك ، من الإيمان والصبر .

ولوجود المقتضى للجبن ، من النفاق ، وعدم الإيمان .

[أشحة عليكم] بأبدانهم عند القتال ، وبأموالهم عند النفقة فيه ، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

[فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه] أى : نظر المغشى عليه [من الموت] من شدة الجبن ، الذى خلع قلوبهم ، والقلق الذي أذهلهم ، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون ، من القتال .

يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ

[فإذا ذهب الخوف] وصاروا فى حال الأمن والطمأنينة .

[سلقوكم بألسنة حداد] أى : خاطبوكم ، وتكلموا معكم ، بكلام حديد ، ودعاوى غير صحيحة .

وحين تسمعهم ، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ، [أشحة على الخير] الذى يراد منهم .

وهذا شر ما فى الإنسان ، أن يكون شحيحا بما أمر به ، شحيحا بماله أن ينفقه فى وجهه ، شحيحا فى بدنه أن يجاهد أعداء الله ، أو يدعو إلى سبيل الله ، شحيحا بجاهه ، شحيحا بعلمه ، ونصيحته ، ورأيه .

[أولئك] الذين بتلك الحالة [لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم] بسبب عدم إيمانهم ، [وكان ذلك على الله يسيرا] .

وأما المؤمنون ، فقد وقاهم الله ، شح أنفسهم ، ووفقهم لبذل ما أمروا به ، من بذل أبدانهم فى القتال فى سبيله ، وإعلاء كلمته ، وأموالهم ، للنفقة فى طرق الخير ، وجاههم وعلمهم .

[يحسبون الأحزاب لم يذهبوا] أى : يظنون أن هؤلاء الأحزاب ، الذين تحزبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لم يذهبوا حتى يستأصلوهم ، نخاب ظنهم ، وبطل حسبانهم .

ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ

[وإن يأت الأحزاب] مرة أخرى [يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم] أى : لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة ، ودَّ هؤلاء المنافقون ، أنهم ليسوا فى المدينة ، ولا فى القرب منها ، وأنهم مع الأعراب فى البادية ، يستخبرون عن أخباركم ، ويسألون عن أنبائكم ، ماذا حصل عليكم ؟

فتباً لهم . وبعدا ، فليسوا ممن يغالى بحضورهم [ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا] فلا تبالوهم ، ولا تأسوا عليهم .

* [لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة] حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة ، وباشر موقف الحرب ، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل .

فكيف تشحون بأنفسكم ، عن أمر جاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنفسه فيه ؟!!

فتأَسَّوْا به فى هذا الأمر وغيره .

واستدل الأصوليون فى هذه الآية ، على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن الأصل ، أن أمته أسوته فى الأحكام ، إلا ما دل الدليل الشرعى على الاختصاص به .

فالأسوة نوعان : أسوة حسنة ، وأسوة سيئة .

فالأسوة الحسنة ، فى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا

فإن المتأسِّى به ، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله ، وهو الصراط المستقيم .

وأما الأسوة بغيره ، إذا خالفه ، فهو الأسوة السيئة ، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسِّى بهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وهذه الأسوة الحسنة ، إنما يسلكها ويوفق لها ، من كان يرجو الله ، واليوم الآخر .

فإن ما معه من الإيمان ، وخوف الله ، ورجاء ثوابه ، وخوف عقابه ، يحثه على التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم .

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف ، ذكر حال المؤمنين فقال :

[ولما رأى المؤمنون الأحزاب] الذين تحزبوا ، ونزلوا منازلهم ، وانتهى الخوف .

[قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله] فى قوله « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

[وصدق الله ورسوله] ، فإنا رأينا ، ما أخبرنا به [وما زادهم] ذلك

وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ

الأمر [إلا إيمانا] فى قلوبهم [وتسليما] فى جوارحهم ، وانقياداً لأمر الله .

ولما ذكر أن المنافقين ، عاهدوا الله ، لا يولون الأدبار ، ونقضوا ذلك العهد ، ذكر وفاء المؤمنين به ، فقال :

[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله] أى : وفوا به ، وأتموه ، وأكملوه .

فبذلوا مهجهم فى مرضاته ، وسبَّلوا نفوسهم فى طاعته .

[فمنهم من قضى نحبه] أى : إرادته ومطلوبه ، وما عليه من الحق ، فقتل فى سبيل الله ، أو مات مؤديا لحقه ، لم ينقصه شيئا .

[ومنهم من ينتظر] تكميل ما عليه ، فهو شارع فى قضاء ما عليه ، ووفاء نحبه ولما يكمله ، وهو فى رجاء تكميله ، ساع فى ذلك ، مجد .

[وما بدلوا تبديلا] كما بدل غيرهم ، بل لم يزالوا على العهد ، لا يلوون ، ولا يتغيرون .

فهؤلاء ، هم الرجال على الحقيقة ، ومن عداهم ، فصورهم صور رجال ، وأما الصفات ، فقد قصرت عن صفات الرجال .

[ليجزى الله الصادقين بصدقهم] أى : بسبب صدقهم ، فى أقوالهم ،

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

وأحوالهم ، ومعاملتهم مع الله ، واستواء ظاهرهم وباطنهم ، قال الله تعالى :

« هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » الآية .

أى : قدرنا ما قدرنا ، من هذه الفتن والمحن ، والزلازل ، ليتبين الصادق من الكاذب .

فيجزى الله الصادقين بصدقهم [ويعذب المنافقين] الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم ، عند حلول الفتن ، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه .

[إن شاء] تعذيبهم ، بأن لم يشأ هدايتهم ، بل علم أنهم لا خير فيهم ، فلم يوفقهم .

[أو يتوب عليهم] بأن يوفقهم للتوبة والإنابة .

وهذ هو الغالب ، على كرم الكريم ، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة ، والفضل ، والإحسان فقال :

[إن الله كان غفورا] لذنوب المسرفين على أنفسهم ، ولو أكثروا من العصيان ، إذا أتوا بالمتاب .

[رحيما] بهم ، حيث وفقهم للتوبة ، ثم قبلها منهم ، وستر عليهم ما اجترحوه .

[ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا] أى : ردهم خائبين ، لم يحصل لهم الأمر الذى كانوا حريصين عليه ، مغتاظين قادرين عليه جازمين ،

كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ

بأن لهم الدائرة ، قد غرتهم جموعهم ، وأعجبوا بتحزبهم ، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ .

فأرسل الله عليهم ، ريحا عظيمة ، وهي ريح الصبا ، فزعزعت مراكزهم ، وقوّضت خيامهم ، وكفأت قدورهم وأزعجتهم ، وضربهم الله بالرعب ، فانصرفوا بغيظهم ، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين .

[وكفى الله المؤمنين القتال] بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية .

[وكان الله قويا عزيزا] لا يغالبه أحد . إلا غُلِبَ ، ولا يستنصره أحد ، إلا غَلَبَ ، ولا يعجزه أمر أراده ، ولا ينفع أهل القوة والعزة ، قوتهم وعزتهم ، إن لم يعنهم الله بقوته وعزته .

[وأنزل الذين ظاهروهم] أي عاونوهم [من أهل الكتاب] .

أي : من اليهود [من صاصيهم] أي : أنزلهم من حصونهم ، نزولا مظفورا بهم ، مجمولين تحت حكم الإسلام .

[وقذف فى قلوبهم الرعب] فلم يقووا على القتال ، بل استسلموا وخضعوا وذلوا .

[فريقا تقتلون] وهم الرجال المقاتلون [وتأسرون فريقا] مَنْ عدام من النساء والصبيان .

وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

[وأورثكم] أى : غنّمكم [أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها] .

أى : أرضا كانت من قبل،من شرفها وعزتها عند أهلها، لاتتمكنون من وطئها .

فمكنكم الله منها ، ومن أهلها ، وخذلهم ، وغنمتم أموالهم ،وقتلتموهم، وأسرتموهم .

[وكان الله على كل شيء قديرا] لا يعجزه شيء ، ومن قدرته ، قدّر لكم ما قدر .

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب ، هم بنو قريظة من اليهود ، فى قرية خارج المدينة ، غير بعيدة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، حين هاجر إلى المدينة ، وادعهم ، وهادنهم ، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه ، وهم باقون على دينهم ، لم يغير عليهم شيئا .

فلما رأوا يوم الخندق ، الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم ، وقلة المسلمين ، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين ، وساعد على ذلك ، تدجيل بعض رؤسائهم عليهم ، نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومالأوا المشركين على قتاله .

فلما خذل الله المشركين ، تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم،لقتالهم، فحاصرهم فى حصنهم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فحكم فيهم ، أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم .

فأتم الله لرسوله والمؤمنين ، المنة ، و أسبغ عليهم النعمة ، وأقرَّ أعينهم ، بخذلان من انخذل من أعدائهم ، وقتل من قتلوا ، وأسر من أسروا ، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرا .

* لما اجتمع نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغيرة،وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه فى كل وقت ، ولم يزلن فى طلبهن متفقات ، وفى مرادهن متعنتات ، شقَّ ذلك على الرسول ، حتى وصلت به الحال إلى أنه ، آلى منهن شهرا .

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله ، ، وأن يرفع درجة زوجاته ، ويُذْهِبَ عنهن كل أمر ينقص أجرهن ، فأمر رسوله أن يخيرهن فقال :

[يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها] أى : ليس لكن فى غيرها مطلب ، وصرتن ترضين لوجودها ، وتغضبن لفقدها ، فليس لى فيكن أرب وحاجة ، وأنتن بهذه الحال .

[فتعالين أمتعكن] شيئا مما عندى ، من الدنيا [وأسرحكن] .

أى : أفارقكن [سراحا جميلا] من دون مغاضبة ولا مشاتمة ، بل بسعة صدر ، وانشراح بال ، قبل أن تبلغ الحال إلى مالا ينبغى .

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

[وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة] أى : هذه الأشياء مرادكن ، وغاية مقصودكن ، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة ، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ، ويسرها وعسرها ، وقنعتن من رسول الله بما تيسر ، ولم تطلبن منه ما يشق عليه .

[فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما] رتب الأجر على وصفهن بالإحسان ، لأنه السبب الموجب لذلك ، لا لكونهن زوجات الرسول فإن مجرد ذلك ، لا يكفى ، بل لا يفيد شيئا ، مع عدم الإحسان .

فخيّرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فاخترن كلهن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، لم يتخلف منهن واحدة ، رضى الله عنهن .

وفى هذا التخيير فوائد عديدة :

منها : الاعتناء برسوله ، والغيرة عليه ، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية .

ومنها : سلامته صلى الله عليه وسلم ، بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى فى حرية نفسه ، إن شاء أعطى، وإن شاء منع « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له » .

ومنها : تنزيهه عما لو كان فيهن ، من تؤثر الدنيا على الله ورسوله ، والدار الآخرة ، وعن مقارنتها .

ومنها : سلامة زوجاته ، رضى الله عنهن ، عن الإثم ، والتعرض لسخط الله ورسوله .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ

لحسم الله بهذا التخيير عنهن ، التسخط على الرسول ، الموجب لسخطه ، المسخط لربه ، الموجب لعقابه .

ومنها : إظهار رفعتهن ، وعلو درجتهن ، وبيان علو هممهن ، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة ، مرادهن ومقصودهن ، دون الدنيا وحطامها .

ومنها : استعدادهن بهذا الاختيار ، للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة ، وأن يكنَّ زوجاته فى الدنيا والآخرة .

ومنها : ظهور المناسبة بينه وبينهن ، فإنه أكمل،وأراد الله أن تكون نساؤه ، كاملات مكملات ، طيبات مطيبات « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » .

ومنها : أن هذا التخيير داع ، وموجب للقناعة ، التى يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر ، ويزول عنهن جشع الحرص ، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه ، وهمه وغمه .

ومنها : أن يكون اختيارهن هذا ، سببا لزيادة أجرهن ومضاعفته ، وأن يكنَّ بمرتبة ، ليس فيها أحد من النساء ، ولهذا قال : [يا نساء النبى] إلى [رزقاً كريما] .

*لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ذكر مضاعفة أجرهن ، ومضاعفة وزرهن وإثمهن ، لو جرى منهن ، ليزداد حذرهن ، وشكرهن الله تعالى ، فجعل لمن أتى منهن بفاحشة ظاهرة ، العذاب ضعفين .

مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

[ومن يقنت منكن] أى : تطيع [لله ورسوله وتعمل صالحا] قليلا أو كثيرا .

[نؤتها أجرها مرتين] أى : مثل ما نعطى غيرها مرتين [وأعتدنا لها رزقا كريما] وهى الجنة .

فقنتن لله ورسوله ، وعملن صالحا ، فعلم بذلك أجرهن .

* يقول تعالى : [يا نساء النبى] خطاب لهن كلهن [لستن كأحد من النساء إن اتقيتن] الله ، فإنكن بذلك ، تفقن النساء ، ولا يلحقكن أحد من النساء ، فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها .

فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم فقال : [فلا تخضعن بالقول] أى : فى مخاطبة الرجال ، أو بحيث يسمعون فتلِنَّ فى ذلك ، وتتكلمن بكلام رقيق .

[فيطمع الذى فى قلبه مرض] أى : مرض شهوة الحرام،فإنه مستعد ، ينتظر أدنى محرك يحركه ، لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ، ليس فيه شهوة لما حرم الله ، فإن ذلك لاتكاد تُمِيلُه ولا تحركه الأسباب ، لصحة قلبه ، وسلامته من المرض .

. . . .

بخلاف مريض القلب ، الذى لا يتحمل ما يتحمل الصحيح ، ولا يصبر على ما يصبر عليه .

فأدنى سبب يوجد ، ويدعوه إلى الحرام ، يجيب دعوته ، ولا يتعاصى عليه .

فهذا دليل على أن الوسائل ، لها أحكام المقاصد .

فإن الخضوع بالقول ، واللين فيه ، فى الأصل مباح .

ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم ، منع منه .

ولهذا ينبغى للمرأة فى مخاطبة الرجال ، أن لا تَلِينَ لهم القول .

ولما نهاهن عن الخضوع فى القول ، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول ، دفع هذا بقوله : [وقلن قولا معروفا] أى : غير غليظ ، ولا جاف كما أنه ليس بِلَيِّنٍ خاضع .

وتأمل كيف قال : [فلا تخضعن بالقول] ولم يقل « فلا تَلِنَّ بالقول » وذلك لأن المنهى عنه ، القول اللين ، الذى فيه خضوع المرأة للرجل ، وانكسارها عنده .

والخاضع ، هو الذى يطمع فيه .

بخلاف من تكلم كلاما لينا ، ليس فيه خضوع ، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم ، فإن هذا ، لا يطمع فيه خصمه .

ولهذا مدح الله رسوله باللين فقال : « فبما رحمة من الله لنت لهم » وقال لموسى وهرون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ

ودل قوله [فيطمع الذى فى قلبه مرض] مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم ، والحافظات ، ونهيه عن قربان الزنا ، أنه ينبغى للعبد ، إذا رأى من نفسه هذه الحالة ، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى ، أو يسمع كلام من يهواه ، ويجد دواعى طمعه قد انصرفت إلى الحرام .

فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض .

فَلْيَجْتَهِدْ فى إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية ،ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر،وسؤال الله العصمة والتوفيق،وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به .

[وقرن فى بيوتكن] أى : اقررن فيها ، لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ .

[ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى] أى:لاتكثرن الخروج متجملات أو متطيبات ، كعادة أهل الجاهلية الأولى ، الذين لا علم عندهم ولا دين ، فكل هذا دفع للشر وأسبابه .

ولما أمرهن بالتقوى عموماً ، وبجزئيات من التقوى ، نص عليها لحاجة النساء إليها كذلك ، أمرهن بالطاعة ، خصوصا الصلاة والزكاة ، اللتان يحتاجهما ، ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات ، وأجل الطاعات .

وفى الصلاة ، الإخلاص للمعبود ، وفى الزكاة ، الإحسان إلى العبيد .

ثم أمرهن بالطاعة عموما ، فقال : [وأطعن الله ورسوله] يدخل فى طاعة الله ورسوله ، كل أمر ، أمِرَا به أمر إيجاب أو استحباب .

[إنما يريد الله] بأمركن بما أَمَرَكُنَّ به ، ونهيكن عما نهاكُنَّ عنه .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

[ليذهب عنكم الرجس] أى : الأذى ، والشر ، والخبث ، يا [أهل البيت ويطهركم تطهيرا] حتى تكونوا طاهرين مطهرين .

أى : فاحمدوا ربكم ، واشكروه على هذه الأوامر والنواهى ، التى أخبركم بمصلحتها ، وأنها محض مصلحتكم ، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجا ولا مشقة ، بل لتتزكى نفوسكم ، وتتطهر أخلاقكم ، وتحسن أعمالكم ويعظم بذلك أجركم .

ولما أمرهن بالعمل ، الذى هو فعل وترك ، أمرهن بالعلم ، وبين لهن طريقه فقال :

[واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة] والمراد بآيات الله ، القرآن ، والحكمة : أسراره ، وسنة رسوله .

وأمرهن بذكره ، يشمل ذكر لفظه ، بتلاوته ، وذكر معناه ، بتدبره والتفكر فيه ، واستخراج أحكامه وحكمه ، وذكر العمل به وتأويله .

[إن الله كان لطيفا خبيرا] يدرك سرائر الأمور ، وخفايا الصدور ، وخبايا السموات والأرض ، والأعمال التى تبين وتسر .

فلطفه وخبرته ، يقتضى حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال ، ومجازاة الله على تلك الأعمال .

ومن معانى « اللطيف » الذى يسوق عبده إلى الخير ، ويعصمه من

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

الشر ، بطرق خفية لا يشعر بها ، ويسوق إليه من الرزق ، مالا يدريه ، ويريه من الأسباب ، التى تكرهها النفوس : ما يكون ذلك طريقا له ، إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المنازل .

* لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعقابهن لو قدر عدم الامتثال ، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء ، ذكر بقية النساء غيرهن .

ولما كان حكمهن وحكم الرجال واحد ، جعل الحكم مشتركا فقال :

[إن المسلمين والمسلمات] وهذا فى الشرائع الظاهرة ، إذا كانوا قائمين بها .

[والمؤمنين والمؤمنات] وهذا فى الأمور الباطنة ، من عقائد القلب وأعماله .

[والقانتين] أى : المطيعين لله ولرسوله [والقانتات والصادقين] فى مقالهم وفعالهم [والصادقات] .

[والصابرين] على الشدائد والمصائب [والصابرات والخاشعين] فى جميع أحوالهم ، خصوصا فى عباداتهم ، ولا سيما فى صلواتهم [والخاشعات] .

[والمتصدقين] فرضا ونفلا [والمتصدقات والصائمين والصائمات] شمل ذلك ، الفرض والنفل .

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ

[والحافظين فروجهم] عن الزنا ومقدماته ، [والحافظات] .

[والذاكرين الله كثيرا] أى : فى أكثر الأوقات ، خصوصا أوقات الأوراد المقيدة ، كالصباح والمساء ، أو بالصلوات المكتوبات [والذاكرات] .

[أعد الله لهم] أى : لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة ، والمناقب الجليلة ، التى هى ، ما بين اعتقادات ، وأعمال قلوب ، وأعمال جوارح ، وأقوال لسان ، ونفع متعد وقاصر ، وما بين أفعال الخير ، وترك الشر ، الذى من قام بهن ، فقد قام بالدين كله ، ظاهره وباطنه ، بالإسلام والإيمان والإحسان .

فجازاهم على عملهم [مغفرة] لذنوبهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .

[وأجرا عظيما] لا يقدر قدره ، إلا الذى أعطاه ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

* [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة] أى : لا ينبغى ولا يليق ، من اتصف بالإيمان ، إلا الإسراع فى مرضاة الله ورسوله ، والهرب من سخط الله ورسوله ، وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما :

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة [إذا قضى الله ورسوله أمرا] من الأمور ،

أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ

وحتما به وألزما به [أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] أى : الخيار ، هل يفعلوه أم لا ؟

بل يعلم المؤمن والمؤمنة ، أن الرسول أولى به من نفسه .

فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله .

[ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا] أى : بَيِّناً ، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله ، إلى غيرها ، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم .

فذكر أولا ، السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله ، وهو الإيمان .

ثم ذكر المانع من ذلك ، وهو التخويف بالضلال ، الدال على العقوبة والنكال .

* وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن الله تعالى ، أراد أن يشرع شرعا عاما للمؤمنين ، أن الأدعياء ليسوا فى حكم الأبناء حقيقة ، من جميع الوجوه وأن أزواجهم ، لا جناح على من تبناهم ، فى نكاحهن .

وكان هذا من الأمور المعتادة ، التى لا تكاد تزول إلا بحادث كبير ، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله ، وفعلا ، وإذا أراد الله أمرا ، جعل له سببا .

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ

فكان زيد بن حارثة يدعى « زيد بن محمد » قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار يدعى إليه حتى نزل [ادعوهم لآبائهم] فقيل له « زيد ابن حارثة » .

وكانت تحته ، زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد وقع فى قلب الرسول ، لو طلقها زيد ، لتزوّجها .

فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة ، يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى فراقها .

قال الله :

[وإذ تقول للذى أنعم الله عليه] أى : بالإسلام [وأنعمت عليه] بالعتق والإرشاد ، والتعليم ، حين جاءك مشاورا فى فراقها :

فقلت له ـ ناصحا له ومخبرا بمصلحته ، مقدما لها على رغبتك ، مع وقوعها فى قلبك :

[أمسك عليك زوجك] أى : لا تفارقها ، واصبر على ما جاءك منها

[واتق الله] تعالى فى أمورك عامة ، وفى أمر زوجك خاصة فإن التقوى ، تحث على الصبر ، وتأمر به .

[وتخفى فى نفسك ما الله مبديه] والذى أخفاه ، أنه لو طلقها زيد ، لتزوجها صلى الله عليه وسلم .

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

[وتخشى الناس] فى عدم إبداء ما فى نفسك [والله أحق أن تخشاه]. فإن خشيته، جالبة لكل خير، مانعة من كل شر.

[فلما قضى زيد منها وطرا] أى : طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها.

[زوجناكها] وإنما فعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهى :

[لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم] حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذى كان من قبل، ينتسب إليك.

ولما كان قوله [لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم] عاما فى جميع الأحوال، وكان من الأحوال، مالا يجوز ذلك، وهى قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله : [إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولا] أى : لابد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفى هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد :

منها : الثناء على زيد ابن حارثة، وذلك من وجهين :

أحدها : أن الله سماه فى القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

والثانى : أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أى : بنعمة الإسلام والإيمان.

وهذه شهادة من الله له، أنه مسلم مؤمن، ظاهرا وباطنا، وإلا، فلا وجه

. . . .

لتخصيصه بالنعمة ، إلا أن المراد بها ، النعمة الخاصة .

ومنها : أن الْمُعتَق فى نعمة الْمُعْتِق .

ومنها : جواز تزوج زوجة الدَّعِىّ ، كما صرح به .

ومنها : أن التعليم الفعلى ، أبلغ من القولى ، خصوصا ، إذا اقترن بالقول ، فإن ذلك ، نور على نور .

ومنها : أن المحبة فى قلب العبد ، لغير زوجته ومملوكته ، ومحارمه ، إذا لم يقترن بها محذور ، لا يأثم عليها العبد ، ولو اقترن بذلك أمنيته ، أن لو طلقها زوجها ، لتزوجها من غير أن يسعى فى فرقة بينهما ، أو يتسبب بأى سبب كان .

لأن الله أخبر ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه أخفى ذلك فى نفسه .

ومنها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد بلغ البلاغ المبين ، فلم يدع شيئا مما أوحى إليه ، إلا وبلغه ، حتى هذا الأمر ، الذى فيه عتابه .

وهذا يدل ، على أنه رسول الله ، ولا يقول إلا ما أوحى إليه ، ولا يريد تعظيم نفسه .

ومنها : أن المستشار مؤتمن ، يجب عليه — إذا استشير فى أمر من الأمور — أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ، ولو لم يكن للمستشار حظ نفس ، بتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه .

ومنها : أن الرأى الحسن لمن استشار فى فراق زوجة أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال ، فهو أحسن من الفرقة .

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

ومنها : أنه يتعين ، أن يقدم العبد خشية الله ، على خشية الناس ، وأنها أحق منها وأولى .

ومنها : فضيلة أم المؤمنين ، زينب رضى الله عنها ، حيث تولى الله تزويجها ، من رسوله صلى الله عليه وسلم ، دون خطبة ولاشهود ، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

ومنها : أن المرأة ، إذا كانت ذات زوج ، لايجوز نكاحها ، ولا السعى فيه وفى أسبابه ، حتى يقضى زوجها وطره منها ، ولا يقضى وطره ، حتى تنقضى عدتها ، لأنها قبل انقضاء عدتها ، هى فى عصمته ، أو فى حقه الذى له وطر إليها ، ولو من بعض الوجوه .

* هذا دفع لطعن من طعن فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كثرة أزواجه ، وأنه طعن ، بما لا مطعن فيه فقال : [ما كان على النبى من حرج] أى : إثم وذنب .

[فيما فرض الله له] أى : قدر له من الزوجات ، فإن هذا ، قد أباحه الله له ، كما أباحه للأنبياء قبله ، ولهذا قال : [سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدوراً] أى : لا بد من وقوعه .

ثم ذكر من هم الذين قد خلوا من قبل ، وهذه سنتهم وعادتهم ، وأنهم .

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن

[الذين يبلغون رسالات الله] فيتلون على العباد آيات الله ، وحججه وبراهينه ، ويدعونهم إلى الله [ويخشونه] وحده لاشريك له [ولا يخشون أحداً] إلا الله .

فإذا كان هذا ، سنة فى الأنبياء المعصومين ، الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها ، أتم القيام ، وهو : دعوة الخلق إلى الله ، والخشية منه وحده التى تقتضى فعل كل مأمور ، وترك كل محظور .

[وكفى بالله حسيبا] محاسبا عباده ، مراقبا أعمالهم .

وعلم من هذا ، أن النكاح ، من سنن المرسلين .

* أى : [ما كان] الرسول [محمد] صلى الله عليه وسلم [أبا أحد من رجالكم] أيها الأمة .

فقطع انتساب زيد بن حارثة منه ، من هذا الباب .

ولما كان هذا النفى عاما فى جميع الأحوال ، إن ظاهر اللفظ على ظاهره ، أى : أى لا أبوة نسب ، ولا أبوة ادعاء ، وكان قد تقرر فيما تقدم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أب للمؤمنين كلهم ، وأزواجه أمهاتهم احترز أن يدخل هذا النوع ، بعموم النهى المذكور فقال :

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ

[ولكن رسول الله وخاتم النبيين] أى : هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع ، المهتدى به ، المؤمن له الذى يجب تقديم محبته ، على محبة كل كل أحد ، الناصح الذى لهم ، أى : للمؤمنين ، من بره ونصحه ، كأنه أب لهم .

[وكان الله بكل شىء عليما] أى : قد أحاط علمه بجميع الأشياء ، ويعلم حيث يجعل رسالاته ، ومن يصلح لفضله ، ومن لا يصلح .

* يأمر تعالى المؤمنين ، بذكره ذكرا كثيراً ، من تهليل ، وتحميد ، وتسبيح ، وتكبير وغير ذلك ، من كل قول فيه قربة إلى الله .

وأقل ذلك ، أن يلازم الإنسان ، أوراد الصباح ، والمساء ، وأدبار الصلوات الخمس ، وعند العوارض والأسباب .

وينبغى مداومة ذلك ، فى جميع الأوقات ، على جميع الأحوال .

فإن ذلك ، عبادة يسبق بها العامل ، وهو مستريح ، وداع إلى محبة الله ومعرفته ، وعون على الخير ، وكف اللسان عن الكلام القبيح .

[وسبحوه بكرة وأصيلا] أى : أول النهار وآخره ، لفضلهما ، وشرفهما ، وسهولة العمل فيهما .

[هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور

وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

وكان بالمؤمنين رحيما] .

أى : من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم ، أن جعل من صلاته عليهم ، وثنائه ، وصلاة ملائكته ودعائهم ، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل ، إلى نور الإيمان ، والتوفيق ، والعلم ، والعمل .

فهذه أعظم نعمة ، أنعم بها على العباد الطائعين ، تستدعى منهم شكرها ، والإكثار من ذكر الله ، الذى لطف بهم ورحمهم .

وجعل حملة عرشه ، أفضل الملائكة ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك . وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك الفوز العظيم » .

فهذه رحمته ونعمته عليهم فى الدنيا .

وأما رحمته بهم فى الآخرة ، فأجل رحمة ، وأفضل ثواب ، وهو الفوز برضا ربهم ، وتحيته ، واستماع كلامه الجليل ، ورؤية وجهه الجميل ، وحصول الأجر الكبير ، الذى لا يدريه ولا يعرف كنهه ، إلا من أعطاهم إياه ، ولهذا قال : [تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريماً] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

* هذه الأشياء ، التى وصف بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، هى المقصود من رسالته ، وزبدتها وأصولها ، التى اختص بها وهى خمسة أشياء :

أحدها كونه [شاهدا] أى : شاهدا على أمته بما عملوه ، من خير وشر ، كما قال تعالى « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا * وجئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

فهو صلى الله عليه وسلم شاهد عدل مقبول .

الثانى ، والثالث : كونه [مبشراً ونذيراً] وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر ، وما يبشر به وينذر ، والأعمال الموجبة لذلك .

فالمبشَّرون : المؤمنون المتقون ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وترك المعاصى .

لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، بكل ثواب دنيوى ودينى ، رتب على الإيمان والتقوى .

وفى الأخرى بالنعيم المقيم .

وذلك كله يستلزم ، ذكر تفصيل المذكور ، من تفاصيل الأعمال ، وخصال التقوى ، وأنواع الثواب .

والمُنْذَرون ، هم : المجرمون الظالمون ، أهل الظلم والجهل .

لهم النذارة فى الدنيا ، من العقوبات الدنيوية والدينية ، المترتبة على الجهل والظلم .

وفى الأخرى ، بالعقاب الوبيل ، والعذاب الطويل .

وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ

وهذه الجملة تفصيلها ، ما جاء به صلى الله عليه وسلم ، من الكتاب والسنة ، المشتمل على ذلك .

الرابع : كونه [داعيا إلى الله] أى : أرسله الله ، يدعو الخلق إلى ربهم ، ويشوقهم لكرامته ، ويأمرهم بعبادته ، التى خلقوا لها .

وذلك يستلزم استقامته ، على ما يدعو إليه ، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه ، بتعريفهم لربهم ، بصفاته المقدسة ، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله ، وذكر أنواع العبودية ، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وإخلاص الدعوة إلى الله ، لا إلى نفسه وتعظيمها ، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس فى هذا المقام .

وذلك كله [بإذنه] تعالى له فى الدعوة وأمره وإرادته وقدره .

الخامس : كونه [سراجاً منيراً] ، وذلك يقتضى أن الخلق فى ظلمة عظيمة ، لا نور ، يهتدى به فى ظلماتها ، ولا علم ، يستدل به فى جهالتها .

حتى جاء الله بهذا النبي الكريم ، فأضاء الله به تلك الظلمات ، وعلم به من الجهالات ، وهدى به ضُلَّالاً إلى الصراط المستقيم .

فأصبح أهل الاستقامة ، قد وضح لهم الطريق ، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، واستناروا به ، لمعرفة معبودهم ، وعرفوه بأوصافه الحميدة ، وأفعاله السديدة ، وأحكامه الرشيدة .

وقوله [وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً] ذكر فى هذه

ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

الجملة ، المبشَّرين ، وهم المؤمنون ، وعند ذكر الإيمان بمفرده ، تدخل فيه الأعمال الصالحة .

وذكر المبشَّر به ، وهو الفضل الكبير ، أى : العظيم الجليل ، الذى لا يقادر قدره ، من النصر فى الدنيا ، وهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وكشف الكروب ، وكثرة الأرزاق الدَّارَّة ، وحصول النعم السارة ، والفوز برضا ربهم وثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا مما ينشط العاملين ، أن يذكر لهم ، من ثواب الله على أعمالهم ، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم .

وهذا من جملة حكم المشرع ، كما أن من حكمه ، أن يذكر فى مقام الترهيب ، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه ، ليكون عوناً على الكف ، عما حرم الله .

ولما كان ثَمَّ طائفة من الناس ، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله ، من الرسل وأتباعهم ، وهم المنافقون ، الذين أظهروا الموافقة فى الإيمان ، وهم كفرة فجرة فى الباطن ، والكفار ظاهرا وباطناً ، نهى الله رسوله عن طاعتهم ، وحذره ذلك فقال :

[ولا تطع الكافرين والمنافقين] أى : فى كل أمر يصد عن سبيل الله.

ولكن لا يقتضى هذا أذاهم ، بل لا تطعهم [ودع أذاهم] فإن ذلك ، جالب لهم ، وداع إلى قبول الإسلام ، وإلى كف كثير من أذيتهم له ، ولأهله .

[وتوكل على الله] فى إتمام أمرك ، وخذلان عدوك .

وَكِيلاً ﴿٤٨﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ

[وكفى بالله وكيلا] تُوكَلُ إليه الأمور المهمة ، فيقوم بها ، ويسهلها على عبده .

* يخبر تعالى المؤمنين ، أنهم إذا نكحوا المؤمنات ، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن ، فليس عليهن فى ذلك ، عدة تعتدها أزواجهن عليهن .

وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة ، بشيء من متاع الدنيا ، الذى يكون فيه جبر لخواطرهن ، لأجل فراقهن ، وأن يفارقوهن فراقاً جميلا ، من غير مخاصمة ، ولا مشاتمة ، ولا مطالبة ، ولا غير ذلك .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الطلاق ، لا يكون إلا بعد النكاح .

فلو طلقها قبل أن ينكحها ، أو علق طلاقها على نكاحها ، لم يقع ، لقوله : [إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن] فجعل الطلاق بعد النكاح .

فدل على أنه قبل ذلك ، لا محل له .

وإذا كان الطلاق الذى هو فرقة تامة ، وتحريم تام ، لا يقع قبل النكاح ، فالتحريم الناقص ، لظهار ، أو إيلاء ونحوه ، من باب أولى وأحرى ، أن لا يقع قبل النكاح ، كما هو أصح قَوْلَىِ العلماء .

وعلى جواز الطلاق ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، على وجه لم يلمهم عليه ، ولم يؤنبهم ، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين .

وعلى جوازه قبل المسيس ، كما قال فى الآية الأخرى « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء من قبل أن تمسوهن » .

وعلى أن المطلقة قبل الدخول ، لا عدة لها ، بل بمجرد طلاقها ، يجوز لها التزوج ، حيث لا مانع .

وعلى أن عليها العدة ، بعد الدخول .

وهل المراد بالدخول والمسيس ، الوطء كما هو مجمع عليه ؟

أو ، وكذلك الخلوة ، ولو لم يحصل معها وطء ، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون ، وهو الصحيح .

فمتى دخل عليها ، وطئها ، أم لا ، إذا خلا بها ، وجب عليها العدة .

وعلى أن المطلقة قبل المسيس ، تمتع على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره .

ولكن هذا ، إذا لم يفرض لها مهر ، فإن كان لها مهر مفروض ، فإنه إذا طلق قبل الدخول ، تَنَصَّفَ المهر ، وكفى عن المتعة .

وعلى أنه ينبغى لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده ، أن يكون الفراق جميلا ، يحمد فيه كل منهما الآخر .

ولا يكون غير جميل ، فإن فى ذلك ، من الشر المترتب عليه ، من قدح كل منهما بالآخر ، شىء كثير .

وعلى أن العدة حق للزوج .

إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَـكَتْ يَمِينُكَ مِمَّـآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً

فقوله [فما لـكم عليهن من عدة] دل مفهومه ، أن لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة .

وعلى أن المفارقة بالوفاة ، تعتد مطلقا ، لقوله [ثم طلقتموهن] الآية .

وعلى أن من عدا غير المدخول بها ، من المفارقات من الزوجات ، بموت أو حياة ، عليهن العدة .

* يقول تعالى ، ممتنا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك فيه ، هو والمؤمنون ، وما ينفرد به ، ويختص : [يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن] أى : أعطيتهن مهورهن ، من الزوجات .

وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين ، فإن المؤمنين كذلك ، يباح لهم من آتوهن أجورهن ، من الأزواج .

[و] كذلك أحللنا لك [ما ملـكت يمينك] أى الإماء التى ملـكت [مما أفاء الله عليك] من غنيمة الـكفار من عبيدهم ، والأحرار من لهن زوج منهم ، ومن لا زوج لهن ، وهذا أيضا مشترك .

وكذلك من المشترك ، قوله [وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك] شمل العم والعمة ، والخال والخالة ، القريبين والبعدين ، وهذا حصر المحللات .

إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَٰجِهِمْ

يؤخذ من مفهومه ، أن ما عداهن من الأقارب ، غير محلل ، كما تقدم في سورة النساء .

فإنه لا يباح من الأقارب من النساء ، غير هؤلاء الأربع ، وما عداهن من الفروع مطلقا ، والأصول مطلقا ، إلا فروع الأب والأم ، وإن نزلوا ، وفروع من فوقهم لصلبه ، فإنه لا يباح .

وقوله [اللائى هاجرن] قيد لحل هؤلاء للرسول ، كما هو الصواب من القولين ، فى تفسير هذه الآية .

وأما غيره عليه الصلاة والسلام ، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة .

[و] أحللنا لك [امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى] بمجرد هبتها نفسها .

[إن أراد النبي أن يستنكحها] أى : هذا تحت الإرادة والرغبة .

[خالصة لك من دون المؤمنين] يعنى : إباحة الموهوبة .

وأما المؤمنون ، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة ، بمجرد هبتها نفسها لهم .

[قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم] أى : قد علمنا ما على المؤمنين ، وما يحل لهم ، وما لا يحل ، من الزوجات وملك اليمين .

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ

وقد أعلمناهم بذلك ، وبينا فرائضه .

فما فى هذه الآية ، مما يخالف ذلك ، فإنه خاص ، لكون الله جعله خطابا للرسول وحده بقوله [يا أيها النبي إنا أحللنا لك] إلى آخر الآية .

وقوله [خالصة لك من دون المؤمنين] أى : وأبحنا لك يا أيها النبى ما لم نبح لهم ، ووسعنا عليك ما لم نوسع على غيرك .

[لكيلا يكون عليك حرج] وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم .

[وكان الله غفوراً رحيما] أى : لم يزل متصفا بالمغفرة والرحمة ، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته ، وجوده وإحسانه ، مااقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه .

* وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به ، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته ، على وجه الوجوب ، وأنه إن فعل ذلك ، فهو تبرع منه.

ومع ذلك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد فى القسم بينهن فى كل شيء ، ويقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك » .

فقال هنا : [ترجى من تشاء منهن] أى : تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك ، ولا تبيت عندها .

[وتؤوى إليك من تشاء] أى : تضمها وتبيت عندها .

وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾

[و] مع ذلك لا يتعين هذا الأمر [من ابتغيت] أى : أن تؤويها [ممن عزلت فلا جناح عليك] .

والمعنى أن الخيرة بيدك فى ذلك كله .

وقال كثير من المفسرين : إن هذا خاص بالواهبات ، له أن يرجى من يشاء ، ويؤوى من يشاء .

أى : إن شاء قبل من وهبت نفسها له ، وإن شاء لم يقبلها ،والله أعلم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال [ذلك] أى : التوسعة عليك ، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك ، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك [أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن] لعلمهن أنك لم تترك واجباً ، ولم تفرط فى حق لازم .

[والله يعلم ما فى قلوبكم] أى : ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة ، وعند المزاحمة فى الحقوق ، فلذلك شرع لك التوسعة يارسول الله ، لتطمئن قلوب زوجاتك .

[وكان الله عليما حكيما] أى : واسع العلم ، كثير الحلم .

ومن علمه ، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم ، وأكثر لأجوركم .

ومن حلمه ، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم ، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر .

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ

---

* وهذا شكر من الله ، الذى لم يزل شكوراً ، لزوجات رسوله ، رضى الله عنهن ، حيث اخترن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، أن رحمهن ، وقصر رسوله عليهن فقال :

[لا يحل لك النساء من بعد] زوجاتك الموجودات [ولا أن تبدل بهن من أزواج] أى : ولا أن تطلق بعضهن ، فتأخذ بدلها .

فحصل بهذا ، أمنهن من الضرائر ، ومن الطلاق ، لأن الله قضى أنهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، لا يكون بينه وبينهن فرقة .

[ولو أعجبك حسنهن] أى : حسن غيرهن ، فلا يحللن لك [إلا ما ملكت يمينك] أى السرارى ، فذلك جائز لك ، لأن المملوكات ، فى كراهة الزوجات ، لسن بمنزلة الزوجات ، فى الإضرار للزوجات .

[وكان الله على كل شىء رقيباً] أى : مراقباً للأمور ، وعالما بما إليه تئول ، وقائما بتدبيرها على أكمل نظام ، وأحسن أحكام .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بالتأدب مع رسول الله صل الله عليه وسلم ، فى دخول بيوته فقال :

[يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام] .

أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا

أي : لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها ، لأجل الطعام .

وأيضاً [غير : ناظرين إياه] أي : منتظرين استواءه ، ومتحينين نضجه ، أوسعة صدر بعد الفراغ منه .

والمعنى : إنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين :

الإذن لكم بالدخول ، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة ، ولهذا قال:

[ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث [أي : قبل الطعام و بعده .

ثم بين حكمة النهى وفائدته فقال : [إن ذلكم] أي : انتظاركم الزائد على الحاجة .

[كان يؤذى النبى] أي : يتكلف منه و يشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته ، وإشغاله فيه [فيستحى منكم] أن يقول لكم « اخرجوا » كما هو جارى العادة ، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم .

[و] لكن [الله لا يستحى من الحق] .

فالأمر الشرعى ، ولو كان يتوهم أن فى تركه أدبا وحياء ، فإن الحزم

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن

كل الحزم ، اتباع الأمر الشرعى ، وأن يجزم أن ما خالفه ، ليس من الأدب فى شىء .

والله تعالى لا يستحى أن يأمركم ، بما فيه الخير لكم ، والرفق لرسوله كائنا ما كان .

فهذا أدبهم فى الدخول فى بيوته .

وأما أدبهم معه فى خطاب زوجاته ، فإنه ، إما أن يحتاج إلى ذلك ، أو لا يحتج إليه .

فإن لم يحتج إليه ، فلا حاجة إليه ، والأدب تركه .

وإن احتيج إليه ، كأن يسألهن متاعا ، أو غيره من أوانى البيت أو نحوها ، فإنهن يسألن [من وراء حجاب] أى : يكون بينكم وبينهن ستر ، يستر عن النظر ، لعدم الحاجة إليه .

فصار النظر إليهن ممنوعا بكل حال ، وكلا مهن فيه التفصيل ، الذى ذكره الله .

ثم ذكر حكمة ذلك بقوله : [ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن] لأنه أبعد عن الريبة .

وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر ، فإنه أسلم له ، وأطهر لقلبه .

تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

فلهذا ، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها ، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ، ممنوعة ، وأنه مشروع ، البعد عنها ، بكل طريق .

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة : [وما كان لكم] يامعشر المؤمنين ، أى : غير لائق ولا مستحسن منكم ، بل هو أقبح شيء .

[أن تؤذوا رسول الله] أى : أذية قولية أو فعلية ، بجميع مايتعلق به .

[ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً] هذا من جملة ما يؤذيه ، فإنه صلى الله عليه وسلم ، له مقام التعظيم ، والرفعة والإكرام ، وتزوج زوجاته بعده ، مخل بهذا المقام .

وأيضاً ، فإنهن زوجاته فى الدنيا والآخرة ، والزوجية باقية بعد موته ، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده ، لأحد من أمته .

[إن ذلكم كان عند الله عظيما] وقد امتثلت هذه الأمة، هذا الأمر ، واجتنبت ما نهى الله عنه منه ، ولله الحمد والشكر .

ثم قال تعالى [إن تبدوا شيئاً أى تظهروه [أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما] يعلم ما فى قلوبكم ، وما أظهرتموه ، فيجازيكم عليه .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

لما ذكر أنهن لا يسألن متاعا إلا من وراء حجاب ، وكان اللفظ عاما لكل أحد ، احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون ، من المحارم ، وأنه [لا جناح عليهن] فى عدم الاحتجاب عنهم .

ولم يذكر فيها الأعمام ، والأخوال ، لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته وخالاته ، من أبناء الإخوة والأخوات ، مع رفعتهن عليهم ، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن ، من باب أولى ، ولأن منطوق الآية الأخرى ، المصرحة بذكر العم والخال ، مقدمة ، على مايفهم من هذه الآية .

وقوله [ولا نسائهن] أى اللاتى من جنسهن فى الدين ، فيكون ذلك مخرجا لنساء الكفار .

ويحتمل أن المراد جنس النساء ، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة .

[ولا ما ملكت إيمانهن] ما دام العبد فى ملكها جميعه .

ولما رفع الجناح عن هؤلاء ، شرط فيه وفى غيره ، لزوم تقوى الله ، وأن لا يكون فى ذلك محذور شرعى فقال :

[واتقين الله] أى : استعملن تقواه فى جميع الأحوال [إن الله كان على كل شىء شهيدا] يشهد أعمال العباد ، ظاهرها وباطنها ، ويسمع أقوالهم ، ويرى حركاتهم ، ثم يجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفعة درجته ، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ، ورفع ذكره .

و [إن الله] تعالى [وملائكته يصلون على النبى] أى : يثنى الله عليه بين الملائكة ، وفى الملأ الأعلى ، لمحبته تعالى إياه .

ويثنى عليه الملائكة المقربون . ويدعون له يتضرعون .

[يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما] اقتداء بالله وملائكته ، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم ، وتكميلا لإيمانكم ، وتعظيما له صلى الله عليه وسلم ، ومحبة وإكراما ، وزيادة فى حسناتكم ، وتكفيراً عن سيئاتكم .

وأفضل هيئات الصلاة عليه[1] عليه الصلاة والسلام ، ما علمه أصحابه « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع فى جميع الأوقات وأوجبه كثير من العلماء فى الصلاة .

---

(١) قوله « وأفضل هيئات الصلاة عليه الخ . » يعنى : كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ولكن الرواية التى ذكرها مبتورة والكيفية التى ذكرها البخارى في صحيحه هى « اللهم صلى على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

لما أمر تعالى بتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالصلاة والسلام عليه ، نهى عن أذيته ، وتوعد عليها فقال :

[إن الذين يؤذون الله ورسوله] وهذا يشمل كل أذية ، قولية أوفعلية ، من سب وشتم ، أو تنقص له ، أو لدينه ، أو ما يعود إليه بالأذى .

[لعنهم الله فى الدنيا] أى : أبعدهم وطردهم ، ومن لعنهم فى الدنيا ، أنه يتحتم قتل من شتم الرسول ، وآذاه .

[والآخرة وأعد لهم عذابا أليما] جزاء له على أذاه ، أن يؤذى بالعذاب الأليم .

فأذية الرسول ، ليست كأذية غيره ، لأنه لا يؤمن العبد بالله ، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم .

وله من التعظيم ، الذى هو من لوازم الإيمان ، ما يقتضى ذلك ، أن لا يكون مثل غيره .

وإن كان أذية المؤمنين عظيمة ، وإثمها عظيما ، ولهذا قال فيها :

[والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغيرما اكتسبوا] أى : بغير جناية منهم موجبة للأذى [فقد احتملوا] على ظهورهم [بهتانا] حيث آذوهم بغير سبب [وإثما مبينا] حيث تعدوا عليهم ، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ

ولهذا كان سب آحاد المؤمنين ، موجبا للتعزيز ، بحسب حالته وعلو مرتبته .

فتعزير من سب الصحابة أبلغ ، وتعزير من سب العلماء ، وأهل الدين ، أعظم من غيرهم .

* هذه الآية ، هى التي تسمى آية الحجاب ، فأمر الله نبيه ، أن يأمر النساء عموماً ، ويبدأ بزوجاته وبناته ، لأنهن آكد من غيرهن ، ولأن الآمر لغيره ، ينبغى أن يبدأ بأهله ، قبل غيرهم كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

أن [يدنين عليهن من جلابيبهن] وهن اللاتى[1] يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه ، أى : يغطين بها ، وجوههن وصدورهن .

ثم ذكر حكمة ذلك فقال : [ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين] دل على وجود أذية ، إن لم يحتجبن ، وذلك ، لأنهن إذا لم يحتجبن ، ربما ظن أنهن غير عفيفات ، فيتعرض لهن من فى قلبه مرض ، فيؤذيهن .

---

(١) قوله « وهن اللاتى الخ » الصواب أن يقال « وهى التى تكون فوق الثياب الخ » لأن كلمة « هن » لا تستعمل إلا فى العقلاء ، فلا يقال « الثياب اللاتى اشتريتهن والكتب اللاتى بعتهن » بل يقال : « الثياب التى اشتريتها والكتب التى بعتها » .

فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

وربما استهين بهن ، وظن أنهن إماء ، فتهاون بهن من يريد الشر .

فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن .

[وكان الله غفوراً رحيما] حيث غفر لكم ما سلف ، ورحمكم ، بأن بين لكم الأحكام ، وأوضح الحلال والحرام ، فهذا سد للباب من جهتهن .

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله [لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض] أى : مرض شك أو شهوة [والمرجفون فى المدينة] أى : المخوفون المرهبون الأعداء ، المتحدثون بكثرتهم وقوتهم ، وضعف المسلمين .

ولم يذكر المعمول الذى ينتهون عنه ، ليعم ذلك ، كل ما توحى به أنفسهم إليهم ، وتوسوس به ، وتدعو إليه من الشر ، من التعريض بسب الإسلام وأهله ، والإرجاف بالمسلمين ، وتوهين قواهم ، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة ، وغير ذلك من المعاصى الصادرة ، من أمثال هؤلاء .

[لنغرينك بهم] أى : نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ، ونسلطك عليهم .

ثم إذا فعلنا ذلك ، لا طاقة لهم بك ، وليس لهم قوة ولا امتناع .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ

ولهذا قال : [ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا] أى : لا يجاورونك فى المدينة إلا قليلا ، بأن تقتلهم أو تنفيهم .

وهذا فيه دليل ، لنفى أهل الشر ، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين ، فإن ذلك أحسم للشر ، وأبعد منه ، ويكونون [ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا] .

أى مبعدين ، حيث وجدوا ، لا يحصل لهم أمن ، ولا يقر لهم قرار ، يخشون أن يقتلوا ، أن يحبسوا ، أو يعاقبوا .

[سنة الله فى الذين خلوا من قبل] أن من تمادى فى العصيان ، وتجرأ على الأذى ، ولم ينته منه ، فإنه يعاقب عقوبة بليغة .

[ولن تجد لسنة الله تبديلا] أى تغييراً ، بل سنته تعالى وعادته ، جارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها .

* أى يستخبرك الناس عن الساعة ، استعجالا لها ، وبعضهم ، تكذيبا لوقوعها ، وتعجيزا للذى أخبر بها .

[قل] لهم : [إنما علمها عند الله] أى : لا يعلمها إلا الله ، فليس لى ، ولا لغيرى بها علم .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ

ومع هذا ، فلا تستبطئوها .

[وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً] ومجرد مجيء الساعة ، قرباً وبعداً ، ليس تحته نتيجة ولا فائدة ، وإنما النتيجة والخسار ، والربح ، والشقاوة والسعادة ، هل يستحق العبد العذاب ، أو يستحق الثواب ؟ فهذه سأخبركم بها ، وأصف لكم مستحقها .

فوصف مستحق العذاب ، ووصف العذاب ، لأن الوصف المذكور ، منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة فقال :

[إن الله لعن الكافرين] أى : الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، فأبعدهم الله فى الدنيا والآخرة من رحمته ، وكفى بذلك عقاباً .

[وأعد لهم سعيرا] أى : نارا موقدة ، تسعر فى أجسامهم ، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم ، ويخلدون فى ذلك العذاب الشديد ، فلا يخرجون منه ، ولا يُفَتَّر عنهم ساعة .

[ولا يجدون لهم وليا] فيعطيهم ما طلبوه [ولا نصيرا] يدفع عنهم العذاب.

بل قد تخلى عنهم إلى النصير ، وأحاط بهم عذاب السعير ، وبلغ منهم مبلغاً عظيما .

ولهذا قال : [يوم تقلب وجوههم فى النار] فيذوقون حرها ، ويشتد

يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

عليهم أمرها ، ويتحسرون على ما أسلفوا .

[يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا] فسلمنا من هذا العذاب ، واستحققنا ، كالمطيعين ، جزيل الثواب .

ولكن أمنية فات وقتها ، فلم تفدهم إلا حسرة وندما ، وهما ، وغما ، وألما .

[وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا] وقلدناهم على ضلالهم .

[فأضلونا السبيلا] .

كقوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر » الآية .

ولما علموا أنهم ، وكبراءهم ، مستحقون للعقاب ، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم ، فقالوا :

[ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا] فيقول الله لكل ضعف ، فكلكم اشتركتم فى الكفر والمعاصى ، فتشتركون فى العقاب ، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

---

* يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، النبي الكريم ، الرءوف الرحيم ، لئلا يقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام ، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران ، كليم الرحمن ، فبرأه الله مما قالوا من الأذية ، أى أظهر الله لهم براءته .

والحال أنه عليه الصلاة والسلام ، ليس محل التهمة والأذية ، فإنه كان وجيها عند الله ، مقربا لديه ، من خواص المرسلين ، ومن عباد الله المخلصين .

فلم يزجرهم ماله ، من الفضائل ، عن أذيته ، والتعرض له بما يكره .

فاحذروا أيها المؤمنون ، أن تتشبهوا بهم فى ذلك .

والأذية المشار إليها هى قول بنى إسرائيل عن موسى ، لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم : « إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر » أى كبير الخصيتين ، واشتهر ذلك عندهم .

فأراد أن يبرئه منهم ، فاغتسل يوما ، ووضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فأهوى موسى عليه السلام فى طلبه ، فمر به على مجالس بنى إسرائيل ، فرأوه أحسن خلق الله ، فزال عنه ما رموه به .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

---

* يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ، فى جميع أحوالهم ، فى السر والعلانية ، ويخص منها ، ويندب للقول السديد ، وهو القول الموافق للصواب ، أو المقارب له ، عند تعذر اليقين ، من قراءة ، وذكر ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وتعلم علم وتعليمه ، والحرص على إصابة الصواب ، فى المسائل العلمية ، وسلوك كل طريق يوصل لذلك ، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد ، لين الكلام ولطفه ، فى مخاطبة الأنام ، والقول المتضمن للنصح والإشارة ، بما هو الأصلح .

ثم ذكر ما يترتب على تقواه ، وقول القول السديد فقال :

[يصلح لكم أعمالكم] أى يكون ذلك سببا لصلاحها ، وطريقا لقبولها ، لأن استعمال التقوى ، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح ، ويصلح الله الأعمال أيضا ، بحفظها عما يفسدها ، وحفظ ثوابها ومضاعفته .

كما أن الإخلال بالتقوى ، والقول السديد سبب لفساد الأعمال ، وعدم قبولها ، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها .

[ويغفر لكم] أيضاً [ذنوبكم] التى هى السبب فى هلاككم .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

فبالتقوى تستقيم الأمور ، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال : [ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما] .

* يعظم تعالى شأن الأمانة ، التى ائتمن الله عليها المكلفين ، التى هى امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، فى حال السر والخفية ، كحال العلانية .

وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة ،السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم ، وأنك إن قمت بها وأدَّيتهاَ . على وجهها ، فلك الثواب ، وإن لم تقومى بها ، ولم تؤديها ، فعليك العقاب .

[فأبين أن يحملنها وأشفقن منها] أى : خوفا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ ، لا عصيانا لربهن ، ولا زهدا فى ثوابه .

وعرضها الله على الإنسان ، على ذلك الشرط المذكور ، فقبلها ، وحملها مع ظلمه وجهله ، وحمل هذا الحمل الثقيل .

فانقسم الناس ــ بحسب قيامهم بها وعدمه ــ إلى ثلاثة أقسام .

منافقون ، قاموا بها ظاهراً لا باطنا ، ومشركون ، تركوها ظاهرا وباطنا .

وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

ومؤمنون ، قائمون بها ظاهرا وباطنا .

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة ، وما لهم من الثواب والعقاب فقال :

[ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما] .

فله تعالى الحمد ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ، الدالين على تمام مغفرة الله ، وسعة رحمته ، وعموم جوده .

مع أن المحكوم عليهم ، كثير منهم ، لم يستحق المغفرة والرحمة ،لنفاقه وشركه .

تم تفسير سورة الأحزاب ــ بحمد الله وعونه

تفســـير

سُورَةُ سَبَأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ

---

* الحمد : الثناء بالصفات الحميدة ، والأفعال الحسنة ، فلله تعالى الحمد ، لأن جميع صفاته ، يحمد عليها ، لكونها صفات كمال ، وأفعاله ، يحمد عليها ، لأنها دائرة بين الفضل الذى يحمد عليه ويشكر ، والحمد الذى يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه .

وحمد نفسه هنا ، على أن [له ما فى السموات وما فى الأرض] ملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم بحمده .

[وله الحمد فى الآخرة] لأن فى الآخرة ، يظهر من حمده ، والثناء عليه، ما لا يكون فى الدنيا .

فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ، ورأى الناس والخلق كلهم ، ما حكم به ، وكمال عدله وقسطه ، وحكمته فيه ، حمدوه كلهم على ذلك .

. . . .

حتى أهل العقاب ما دخلوا النار ، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده ، وأن عذابهم من جراء أعمالهم ، وأنه عادل فى حكمه بعقابهم .

وأما ظهور حمده فى دار النعيم والثواب ، فذلك شيء ، قد تواردت وتواترت به الأخبار ، وتوافق عليه الدليل السمعى والعقلى .

فإنهم فى الجنة ، يرون من توالى نعم الله ، وإدرار خيره ، وكثرة بركاته ، وسعة عطاياه ، التى لا يبقى فى قلوب أهل الجنة أمنية ، ولا إرادة، إلا وقد أعطى منها كل واحد منهم ، فوق ما تمنى وأراد .

بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيهم ، ولم يخطر بقلوبهم .

فما ظنك بحمدهم لربهم فى هذه الحال ، مع أن فى الجنـــة ، تضمحل العوارض والقواطع ، التى تقطع عن معرفة الله ، ومحبته ، والثناء عليه ، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم ، وألذ عليهم من كل لذة .

ولهذا إذا رأوا الله تعالى ، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم ، أذهلهم ذلك عن كل نعيم ، ويكون الذكر لهم فى الجنة ، كالنَّفَس ، متواصلا فى جميع الأوقات .

هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة ، في الجنة ، كل وقت ، من عظمة ربهم ، وجلاله ، وجماله ، وسعة كماله ، ما يوجب لهم كمال الحمد ، والثناء عليه .

[وهو الحكيم] فى ملكه وتدبيره ، الحكيم فى أمره ونهيه .

[الخبير] المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله .

فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

[يعلم ما يلج فى الأرض] أى : من مطر ، وبذر ، وحيوان [ومايخرج منها] من أنواع النباتات ، وأصناف الحيوانات [وما ينزل من السماء] من الأملاك والأرزاق ، والأقدار [وما يعرج فيها] من الملائكة والأرواح وغير ذلك .

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها ، وعلمه بأحوالها ، ذكر مغفرته ورحمته لها ، فقال :

[وهو الرحيم الغفور] أى : الذى الرحمة والمغفرة وصفه ، ولم تزل آثارهما تنزل على العباد كل وقت بحسب ما قاموا به ، من مقتضياتهما .

* لما بين تعالى ، عظمته ، بما وصف به نفسه ، وكان هذا موجبا لتعظيمه وتقديسه ، والإيمان به ، ذكر أن من أصناف الناس ، طائفة لم تقدر ربها حق قدره ، ولم تعظمه حق عظمته ، بل كفروا به ، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات ، وقيام الساعة ، وعارضوا بذلك رسله فقال :

[وقال الذين كفروا] أى بالله ورسله ، وبما جاءوا به .

فقالوا بسبب كفرهم : [لا تأتينا الساعة] أى : ما هى ، إلا هذه الحياة الدنيا ، نموت ونحيا .

فأمر الله رسوله ، أن يرد قوله ويبطله ، ويقسم على البعث ، وأنه سيأتيهم فقال :

لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم

[قل بلى وربى لتأتينكم] ، واستدل على ذلك بدليل من أقرّ به ، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة ، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال :

[عالم الغيب] أى : الأمور الغائبة عن أبصارنا ، وعن علمنا، فكيف بالشهادة ؟!! .

ثم أكد علمه فقال : [لا يعزب عنه] أى : لا يغيب عن علمه [مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض] أى : جميع الأشياء بذواتها وأجزائها ، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء ، وهى المثاقيل منها .

[ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين] أى : قدأحاط به علمه ، وجرى به قلمه ، وتضمنه الكتاب المبين ، الذى هو اللوح المحفوظ.

فالذى لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه ، فى جميع الأوقات ، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات ، وما يبقى من أجسادهم ، قادر على بعثهم ، من باب أولى ، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط .

ثم ذكر المقصود من البعث فقال :

[ليجزى الذين آمنوا] بقلوبهم ، وصدقوا الله،وصدقوا رسله تصديقاً جازماً [وعملوا الصالحات] تصديقاً لإيمانهم .

[أولئك لهم مغفرة] لذنوبهم ، بسبب إيمانهم وعملهم ، يندفع بها كل شر وعقاب .

مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

[ورزق كريم] بإحسانهم ، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب ، وأمنية .

[والذين سعوا فى آياتنا معاجزين] أى : سعوا فيها كفراً بها ، وتعجيزا لمن جاء بها ، وتعجيزا لمن أنزلها ، كما عجزوه فى الإعادة بعد الموت.

[أولئك لهم عذاب من رجز أليم] أى مؤلم لأبدانهم ، وقلوبهم .

* لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث ، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق.

ذكر حالة الموفقين من العباد ، وهم أهل العلم ، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله ، من الكتاب ، وما اشتمل عليه من الأخبار ، هو الحق ، منحصر فيه ، وما خالفه وناقضه ، فإنه باطل ، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين

ويرون أيضاً أنه فى أوامره ونواهيه [يهدى إلى صراط العزيز الحميد] وذلك لأنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة .

من جهة علمهم ، بصدق من أخبر به .

ومن جهة موافقته للأمور الواقعة ، والكتب السابقة .

. . . .

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها ، التي تقع عياناً .

ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها فى الآفاق ، وفى أنفسهم .

ومن جهة موافقتها ، لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه .

ويرون فى الأوامر والنواهى ، أنها تهدى إلى الصراط المستقيم ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ونحو ذلك .

وتنهى عن كل صفة قبيحة ، تدنس النفس ، وتحبط الأجر ، وتوجب الإثم والوزر ، من الشرك ، والزنا ، والربا ، والظلم في الدماء والأموال ، والأعراض .

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة ، وعلامة لهم ، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول ، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه ، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول ، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين ، كما في هذه الآية وغيرها .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

---

* أى : [وقال الذين كفروا] على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد .

أى : قال بعضهم لبعض : [هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد] يعنون بذلك الرجل ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه ، حتى صار — بزعمهم — فرجة يتفرجون عليه ، وأعجوبة يسخرون منه .

وأنه كيف يقول « إنكم مبعوثون » بعد ما مزقكم البلى ، وتفرقت أوصالكم ، واضمحلت أعضاؤكم ؟! .

فهذا الرجل الذى أتى بذلك، هل [افترى على الله كذباً] فتجرأ عليه وقال ما قال ، [أم به جنة] ؟ فلا يستغرب منه ، فإن الجنون فنون .

وكل هذا منهم ، على وجه العناد والظلم ، ولقد علموا ، أنه أصدق خلق الله وأعقلهم ، ومن علمهم ، أنهم أبدأوا وأعادوا فى معاداتهم ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم ، فى صد الناس عنه .

فلو كان كاذباً مجنونا — يا أهل العقول غير الزاكية — لم ينبغ أن تصغوا لما قال ، ولا أن تحتفلوا بدعوته .

فإن المجنون ، لا ينبغى للعاقل أن يلفت إليه نظره ، أو يبلغ قوله منه ، كل مبلغ .

ولولا عنادكم وظلمكم ، لبادرتم لإجابته ، ولبيتم دعوته ، ولكن « ما

كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ

تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ولهذا قال تعالى :

[بل الذين لا يؤمنون بالآخرة] ومنهم الذين قالوا تلك المقالة .

[فى العذاب والضلال البعيد] أى : فى الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذى ليس بقريب من الصواب .

وأى شقاء وضلال ، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله ، الذى جاء به ، واستهزائهم به ، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق ، فرأوا الحق باطلا ، والباطل والضلال ، حقا وهدى .

ثم نبههم على الدليل العقلى ، الدال على عدم استبعاد البعث ، الذى استبعدوه ، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، من السماء والأرض لرأوا من قدرة الله فيهما ، ما يبهر العقول ، ومن عظمته ما يذهل العلماء الفحول ، وأن خلقهما وعظمتهما ، وما فيهما من المخلوقات ، أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم .

فما الحامل لهم ، على ذلك التكذيب مع التصديق ، بما هو أكبر منه؟

نعم ذاك خبر غيبي إلى الآن ، ما شاهدوه ، فلذلك كذبوا به .

قال الله : [إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء].

أى : من العذاب ، لأن الأرض والسماء ، تحت تدبيرنا ، فإن أمرناهما ، لم يستعصيا .

فاحذروا إصراركم على تكذيبكم ، فنعاقبكم أشد العقوبة .

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ

[إن فى ذلك] أى : خلق السموات والأرض ، ومافيهما من المخلوقات [لآية لكل عبد منيب] راجع إلى ربه ، مطيع له ، فيجزم بأن الله قادر على البعث .

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله ، كان انتفاعه بالآيات أعظم ، لأن المنيب مقبل إلى ربه ، قد توجهت إراداته وهماته لربه ، ورجع إليه فى كل أمر من أموره ، فصار قريبا من ربه ، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته .

فيكون نظره للمخلوقات ، نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة غير نافعة .

* أى ولقد مننا على عبدنا ورسولنا ، داود عليه الصلاة والسلام ، وآتيناه فضلا من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والنعم الدينية والدنيوية .

ومن نعمه عليه ، ما خصه من أمره تعالى الجمادات ، كالجبال والحيوانات ، من الطيور ، أن تُؤَوِّب معه ، وتُرَجِّع التسبيح بحمد ربها ، مجاوبة له .

وفى هذا من النعمة عليه ، أن كان ذلك من خصائصه التى لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وأن ذلك يكون منهضا له ولغيره ، على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات ، تتجاوب بتسبيح ربها ، وتمجيده ، وتكبيره ، وتحميده ، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى .

ومنها : أن ذلك ـ كما قال كثير من العلماء ، أنه طرب لصوت داود .

وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

فإن الله تعالى ، قد أعطاه من حسن الصوت ، ما فاق به غيره ، وكان إذا رجّع التسبيح والتهليل والتمجيد بذلك الصوت الرخيم الشجيّ المطرب ، طرب كل من سمعه ، من الإنس ، والجن ، حتى الطيور والجبال ، وسبحت بحمد ربها .

ومنها : أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها ، لأنه سبب ذلك ، وتسبح تبعاً له .

ومن فضله عليه ، أن ألان له الحديد ، ليعمل الدروع السابغات ، وعلمه تعالى كيفية صنعته ، بأن يقدره فى السرد ، أي : يقدره حلقا ، ويصنعه كذلك ، ثم يدخل بعضها ببعض .

قال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » .

ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله ، أمره بشكره ، وأن يعملوا صالحا ، ويراقبوا الله تعالى فيه ، بإصلاحه وحفظه من المفسدات ، فإنه بصير بأعمالهم ، مطلع عليهم ، لا يخفى عليه منها شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟

---

* لما ذكر فضله على داود عليه السلام ، ذكر فضله على ابنه سليمان ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الله سخر له الريح تجرى بأمره ، وتحمله ، وتحمل جميع ما معه ، وتقطع المسافة البعيدة جدا ، فى مدة يسيرة ، فتسير فى اليوم ، مسيرة شهرين .

[غدوها شهر] أى : أول النهار إلى الزوال [ورواحها شهر] من الزوال ، إلى آخر النهار [وأسلنا له عين القطر] أى : سخرنا له عين النحاس ، وسهلنا له الأسباب ، فى استخراج ما يستخرج منها من الأوانى وغيرها .

وسخر الله له أيضا ، الشياطين والجن ، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره ، « ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » وأعمالهم ، كل ما شاء سليمان ، عملوه .

[من محاريب] وهو : كل بناء يعقد ، وتحكم به الأبنية ، فهذا فيه ، ذكر الأبنية الفخمة .

[وتماثيل] أى : صور الحيوانات والجمادات ، من إتقان صنعتهم ، وقدرتهم على ذلك .

[وجفان كالجواب] أى : كالبرك الكبار ، يعملونها لسليمان للطعام ،

ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا

لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره .

[و] يعملون له من [قدور راسيات] لا تزول عن أماكنها ، من عظمها .

فلما ذكر منته عليهم ، أمرهم بشكرها فقال : [اعملوا آل داود] وهم داود ، وأولاده ، وأهله ، لأن المنة على الجميع ، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم .

[شكراً] لله على ما أعطاهم ، ومقابلة لما أولاهم .

[وقليل من عبادى الشكور] فأكثرهم ، لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم ، من النعم ، ودفع عنهم من النقم .

والشكر : اعتراف القلب بمنة الله تعالى ، وتلقيها افتقارا، إليها، وصرفها فى طاعة الله تعالى ، وصونها عن صرفها فى المعصية .

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان ، عليه الصلاة والسلام ، كل بناء .

وكانوا قد موهوا على الإنس ، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ، ويطلعون على المكنونات .

فأراد الله تعالى أن يُرِىَ العباد كذبهم فى هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم .

وقضى الله بالموت على سليمان عليه السلام ، واتكأ على عصاه ، وهى المنسأة .

فصاروا إذا مروا به وهو متكىء عليها ، ظنوه حيا ، وهابوه .

عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل ، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه ، فلم تزل ترعاها ، حتى بادت ، وسقطت ، فيسقط سليمان وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن [أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين] وهو العمل الشاق عليهم .

فلو علموا الغيب ، لعلموا موت سليمان ، الذى هم أحرص شىء عليه ، ليسلموا مما هم فيه .

* سبأ قبيلة معروفة فى أدانى اليمن ، ومسكنهم بلدة يقال لها « مأرب » .

ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً ، وبالعرب خصوصا ، أنه قص فى القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ، ممن كان يجاور العرب ، ويشاهد آثارهم ، ويتناقل الناس أخبارهم ، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق ، وأقرب للموعظة فقال :

[لقد كان لسبأ فى مسكنهم] أى : محلهم الذى يسكنون فيه [آية] .

والآية هنا : ما أدرّ الله عليهم من النعم ، وصرف عنهم من النقم ، الذى يقتضى ذلك منهم ، أن يعبدوا الله ويشكروه .

ثم فسر الآية بقوله [جنتان عن يمين وشمال] وكان لهم واد عظيم ، تأتيه سيول كثيرة ، وكانوا بنوا سدا محكما ، يكون مجمعا للماء .

وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ

فكانت السيول تأتيه ، فيجتمع هناك ماء عظيم ،فيفرقونه على بساتينهم، التى عن يمين ذلك الوادى وشماله .

وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان ، من الثمار ، ما يكفيهم ، ويحصل لهم الغبطة والسرور .

فأمرهم الله بشكر نعمه ، التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة .

منها : هاتان الجنتان ، اللتان غالب أقواتهم منهما .

ومنها : أن الله جعل بلدهم ، بلدة طيبة ، لحسن هوائها ، وقلة وخمها ، وحصول الرزق الرغد فيها .

ومنها : أن الله تعالى وعدهم — إن شكروه — أن يغفر لهم وَيرحمهم، ولهذا قال : [بلدة طيبة ورب غفور] .

ومنها : أن الله لما علم احتياجهم فى تجارتهم ومكاسبهم ، إلى الأرض المباركة ، الظاهر أنها : قرى صنعاء ، كما قاله غير واحد من السلف ، وقيل: إنها الشام ، هيأ لهم[1] من الأسباب ، ما به يتيسر وصولهم إليها ، بغاية السهولة ، من الأمن ، وعدم الخوف ، وتواصل القري بينهم وبينها ، بحيث لا يكون عليهم مشقة ، بحمل الزاد والمزاد .

---

(١) قوله « هيأ لهم » جملة فعلية فى محل رفع خبر « أن » فى قوله « أن الله لما علم الخ » .

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ

ولهذا قال : [وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير] أى : سيراً مقدراً يعرفونه ، ويحكمون عليه ، بحيث لا يتيهون عنه [سيروا فيها ليالى وأياماً] [آمنين] أى : مطمئنين فى السير، فى تلك الليالى والأيام ، غير خائفين .

وهذا من تمام نعمة الله عليهم ، أن أمنهم من الخوف .

فأعرضوا عن المنعم ، وعن عبادته ، وبطروا النعمة ، وملوها .

حتى إنهم طلبوا وتمنوا ، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى ، التى كان السير فيها متيسراً .

[وظلموا أنفسهم] بكفرهم بالله وبنعمته ، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التى أطغتهم ، فأبادها عليهم ، فأرسل عليها سيل العرم ، أى : السيل المتوعر، الذى خرب سدهم ، وأتلف جناتهم ، وخرب بساتينهم .

فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة ، والأشجار المثمرة ، وصار بدلها ، أشجار لا نفع فيها ، ولهذا قال :

[وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل] أى : شىء قليل من الأكل

أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

الذى لا يقع منهم موقعا [خمط[١] وأثل[٢] وشىء من سدر[٣] قليل] وهذا

---

(١) خمط : أى : ثمر بشع ، مر ، أو حامض ، لا يمكن أكله .

وقيل : هو ثمرة شجرة يقال لها « فسوة الضبع » على صورة الخشخاش ، لا ينتفع بها ، أو كل شجر ذى شوك ، مر ، بشع ، وقيل : شجر الأراك .

(٢) أثل ، أى : شجر لا ثمر له ، شبيه بالطرفاء .

(٣) سدر ، أى : شجر قليل الغناء عند الأكل وهو نوع من الضال (نوع من الشجر) لا ينتفع به .

وفى المصباح : « قال الحجة فى التفسير: والسدر نوعان ، أحدهما : ينبت فى الأرياف : فينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته طيبة .

والآخر ، ينبت فى البر ، ولا ينتفع بورقه فى الغسل ، وثمرته عفصة » اهـ .

وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا بدليل ما قال أبو السعود فى تفسيره « قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه [أى : ثمرته] وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس فى البساتين .

والصحيح أن السدر صنفان ، صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد ، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ، ولا ينتفع بورقه ، وهو الضال، والمراد ههنا : هو الثانى حتما .

وقال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم ، وتسمية البدل « جنتين » للمشاكلة والتهكم » اهـ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

كله شجر معروف ، وهذا من جنس عملهم .

فكما بدلوا الشكر الحسن ، بالكفر القبيح ، بدلوا تلك النعمة بما ذكر ، ولهذا قال :

[ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور] أى: وهل نجازى جزاء العقوبة — بدليل السياق — إلا من كفر بالله وبطر النعمة ؟

فلما أصابهم ما أصابهم ، تفرقوا وتمزقوا ، بعد ما كانوا مجتمعين ، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم ، وأسماراً للناس ، وكان يضرب بهم المثل فيقال « تفرقوا أيدى سبا » فكل أحد ، يتحدث بما جرى لهم .

ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيهم [إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور] صبار على المكاره والشدائد ، يتحملها لوجه الله ، ولا يتسخطها بل يصبر عليها .

شكور لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ، ويعترف ، ويثنى على من أولاها ، ويصرفها فى طاعته .

فهذا إذا سمع بقصتهم ، وما جرى منهم وعليهم ، عرف بذلك أن تلك العقوبة ، جزاء لكفرهم نعمة الله ، وأن من فعل مثلهم ، فُعِلَ به ، كما فعل بهم .

وأن شكر الله تعالى ، حافظ للنعمة ، دافع للنقمة .

وأن رسل الله ، صادقون فيما أخبروا به .

وأن الجزاء حق ، كما رأى أنموذجه فى دار الدنيا .

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه ، حيث قال لربه : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين » .

وهذا ظن من إبليس ، لا يقين ، لأنه لا يعلم الغيب ، ولم يأته خبر من الله ، أنه سيغويهم أجمعين ، إلا من استثنى .

فهولاء وأمثالهم ، ممن صدق عليه إبليس ظنه ، ودعاهم وأغواهم [فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين] ممن لم يكفر بنعمة الله ، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس .

ويحتمل أن قصة سبأ ، انتهت عند قوله [إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور] .

ثم ابتدأ فقال : [ولقد صدق عليهم] أى على جنس الناس ، فتكون الآية عامة ، فى كل من اتبعه .

ثم قال تعالى : [وما كان له] أى : لإبليس [عليهم من سلطان] أى : تسلط ، وقهر ، وقسر على ما يريده منهم ، ولكن حكمة الله تعالى ، اقتضت تسليطه ، وتسويله لبنى آدم .

[لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك] أى : ليقوم سوق الامتحان ، ويعلم به الصادق من الكاذب ، ويعرف من كان إيمانه صحيحا ، يثبت عند الامتحان والاختبار ، وإلقاء الشبه الشيطانية ، ممن إيمانه غير

فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ

ثابت ، يتزلزل بأدنى شبهة ، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده .

فالله تعالى جعله امتحاناً ، يمتحن به عباده ، ويظهر الخبيث من الطيب .

[وربك على كل شيء حفيظ] يحفظ العباد ، ويحفظ عليهم أعمالهم ، ويحفظ تعالى جزاءها ، فيوفيهم إياها ، كاملة موفرة .

* أى : [قل] ياأيها الرسول ، للمشركين بالله غيره من المخلوقات ، التى لا تنفع ولا تضر ، ملزما لهم بعجزها ، ومبينا بطلان عبادتها :

[ادعوا الذين زعمتم من دون الله] أى : زعمتموهم شركاء لله ، إن كان دعاؤكم ينفع .

فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز ، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه .

فإنهم ليس لهم أدنى ملك [لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض] على وجه الاستقلال ، ولا على وجه الاشتراك ، ولهذا قال :

[وما لهم] أى : لتلك الآلهة الذين زعمتم [فيهما] أى : فى السموات والأرض .

[من شرك] أى : لا شرك قليل ولا كثير ، فليس لهم ملك ، ولا شركة ملك .

وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ

بقى أن يقال : ومع ذلك ، فقد يكونون أعواناً للمالك ، ووزراء له ، فدعاؤهم يكون نافعاً ، لأنهم — بسبب حاجة الملك إليهم — يقضون حوائج من تعلق بهم .

فنفى تعالى هذه المرتبة فقال : [وماله] أى : لله تعالى الواحد القهار [منهم] أى : من هؤلاء المعبودين [من ظهير] أى : معاون ووزير ، يساعده على الملك والتدبير .

فلم يبق إلا الشفاعة ، فنفاها بقوله : [ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له] .

فهذه أنواع التعلقات ، التى يتعلق بها المشركون بأندادهم ، وأوثانهم ، من البشر ، والشجر ، وغيرهم ، قطعها الله وبين بطلانها ، تبيينا حاسماً لمواد الشرك ، قاطعاً لأصوله .

لأن المشرك ، إنما يدعو ويعبد غير الله ، لما يرجو منه من النفع ، فهذا الرجاء ، هو الذى أوجب له الشرك .

فإذا كان من يدعوه غير الله ، لا مالكا للنفع والضر ، ولا شريكا للمالك ، ولا عونا وظهيرا للمالك ، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك ، كان هذا الدعاء ، وهذه العبادة ، ضلالا فى العقل ، باطلة فى الشرع .

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ، ومقصوده ، فإنه يريد منها النفع .

فبيَّن الله بطلانه ، وعدمه ، وبين فى آيات أخر ، ضررها على عابديها ، وأنه يوم القيامة ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ومأواهم

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

النار « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

والعجب ، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل ، بزعمه أنهم بشر ، ورضى أن يعبد ويدعو الشجر ، والحجر ، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان ، ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه ، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان .

وقوله [حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير] .

يحتمل أن الضمير فى هذا الموضع ، يعود إلى المشركين ، لأنهم مذكورون فى اللفظ .

والقاعدة فى الضمائر ، أن تعود إلى أقرب مذكور .

ويكون المعنى « إذا كان يوم القيامة ، وفزع عن قلوب المشركين ، أى : زال الفزع ، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم ، عن حالهم فى الدنيا ، وتكذيبهم للحق الذى جاءت به الرسل ، أنهم يقرون ، أن ما هم عليه من الكفر والشرك ، باطل ، وأن ما قال الله ، وأخبرت به عنه رسله ، هو الحق « فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » وعلموا أن الحق لله ، واعترفوا بذنوبهم .

[وهو العلى] بذاته ، فوق جميع المخلوقات ، وقهره لهم ، وعلو قدره ، بما له من الصفات العظيمة ، الجليلة المقدار [الكبير] فى ذاته وصفاته .

. . . .

ومن علوه ، أن حكمه تعالى ، يعلو ، وتذعن له النفوس ، حتى نفوس المتكبرين والمشركين .

وهذا المعنى ، أظهر ، وهو الذى يدل عليه السياق .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة ، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمعته الملائكة ، فصعقوا ، وخروا لله سجدا .

فيكون أول من يرفع رأسه ، جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد .

فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة ، وزال الفزع ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام ، الذى صعقوا منه : ماذا قال ربكم ؟

فيقول بعضهم لبعض : قال الحق ، إما إجمالا ، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا .

وإما أن يقولوا : قال كذا وكذا ، للكلام الذى سمعوه منه ، وذلك من الحق .

فيكون المعنى على هذا : أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة ، التى وصفنا لكم عجزها ونقصها ، وعدم نفعها بوجه من الوجوه ، كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم ، العلى الكبير ، الذى — من عظمته وجلاله — أن الملائكة الكرام ، والمقربين من الخلق ، يبلغ بهم الخضوع والصعق ، عند سماع كلامه هذا المبلغ ، ويقرون كلهم لله ، أنه لا يقول إلا الحق .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ

فما بال هؤلاء المشركين ، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه ، وعظمة ملكه وسلطانه .

فتعالى العلى الكبير ، عن شرك المشركين ، وإفكهم ، وكذبهم .

* يأمر تعالى ، نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن صحة شركه :

[قل من يرزقكم من السموات والأرض] فإنهم ، لا بد أن يقروا أنه الله .

ولئن لم يقروا [قل الله] فإنك لا تجد من يدفع هذا القول .

فإذا تبين أن الله وحده ، الذى يرزقكم من السموات والأرض ، وينزل لكم المطر ، وينبت لكم النبات ، ويفجر لكم الأنهار ، ويطلع لكم من ثمار الأشجار ، وجعل لكم الحيوانات جميعها ، لنفعكم ورزقكم ، فلم تعبدون من لا يرزقكم شيئاً ، ولا يفيدكم نفعا ؟

وقوله [وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين] أى : إحدى الطائفتين ، منا ومنكم ، على الهدى ، مستعلية عليه ، أو فى ضلال بيّن ، منغمرة فيه .

وهذا الكلام ، يقوله من تبين له الحق ، واتضح له الصواب ، وجزم بالحق الذى هو عليه ، وبطلان ما عليه خصمه .

أى : قد شرحنا من الأدلة الواضحة ، عندنا وعندكم ، ما به يعلم علماً

. . . .

يقينيا لاشك فيه ، من المحق منا ، ومن المبطل ، ومن المهتدى ومن الضال ؟ حتى إنه يصير اليقين بعد ذلك ، لا فائدة فيه .

فإنك إذا وازنت[١] بين من يدعو إلى عبادة الخالق ، بسائر المخلوقات المتصرف فيها ، بجميع أنواع التصرفات ، المسدى جميع النعم ، الذى رزقهم ، وأوصل إليهم كل نعمة ، ودفع عنهم كل نقمة ، الذى له الحمد كله ، والملك كله ، وكل أحد من الملائكة فمن دونهم ، خاضعون لهيبته ، متذللون لعظمته ، وكل الشفعاء تخافه ، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه .

العلى الكبير ، فى ذاته ، وأوصافه ، وأفعاله ، الذى له كل كمال ، وكل جلال ، وكل جمال ، وكل حمد وثناء ومجد .

يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه ، وإخلاص العمل له ، وينهى عن عبادة من سواه ، وبين[٢] من يتقرب إلى أوثان ، وأصنام ، وقبور ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك لأنفسها ، ولا لمن عبدها ، نفعاً ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا .

بل هى جمادات ، لا تعقل ، ولا تسمع دعاء عابديها ، ولو سمعته ، ما استجابت لهم .

ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، ويتبرأون منهم ، ويتلاعنون بينهم .

ليس لهم قسط من الملك ، ولا شركة فيه ، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله .

---

(١) فعل الشرط لـ « إذا » .

(٢) قوله «وبين» معطوف على قوله السابق «فإذا وازنت بين الخ» .

عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ

فهو يدعو ، مَنْ هذا وصفه ، ويتقرب إليه مهما أمكنه ، ويعادى من أخلص الدين لله ، ويحاربه ، ويكذب رسل الله ، الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده .

تبين لك[1] أى الفريقين ، المهتدى من الضال ، والشقى من السعيد؟ .

ولم يحتج[2] إلى أن يعين لك ذلك ، لأن وصف الحال ، أوضح من لسان المقال .

[قل] لهم [لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون] أى : كل منا ومنكم ، له عمله .

أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ، ونحن لا نسأل عن أعمالكم .

فليكن المقصود مناومنكم ، طلب الحق[3] ، وسلوك طريق الإنصاف.

ودعوا ما كنا نعمل ، ولا يكون مانعا لكم من اتباع الحق .

فإن أحكام الدنيا ، تجرى على الظواهر ، ويتبع فيها الحق ، ويجتنب الباطل

---

(١) جواب الشرط . لـ « إذا » فى قوله المتقدم « فإذا وازنت الخ » .

(٢) قوله « ولم يحتج الخ » الأرشق فى الأسلوب أن يقال « ولم يحتج إلى أن يبين لك بلسانه ذلك لأن لسان الحال أفصح وأوضح من لسان المقال »

(٣) فى الأصل « الحقائق » وهو غير متلائم بما بعده فلذا أبدلناها بـ « الحق » .

يَفتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

وأما الأعمال، فلها دار أخرى ، يحكم فيها أحكم الحاكمين ، ويفصل بين المختصين ، أعدل العادلين .

ولهذا قال : [قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا] أى : يحكم بيننا حكما ، يتبين به الصادق من الكاذب ، والمستحق للثواب ، من المستحق للعقاب [وهو الفتاح] أى : الحاكم فى القضايا المنغلقة [العليم] . بما ينبغى أن يقضى به .

[قل] لهم يا أيها الرسول ، ومن ناب منابك : [أرونى الذين ألحقتم به شركاء] أى : أين هم ؟ وأين السبيل إلى معرفتهم ؟ وهل هم فى الأرض ، أم فى السماء ؟

فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس فى الوجود له شريك .

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم » الآية « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

وكذلك خواص خلقه ، من الأنبياء والمرسلين ، لا يعلمون له شريكا .

فيا أيها المشركون .

أرونى الذين ألحقتم بزعمكم الباطل [به] أى : بالله [شركاء] .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه ، ولهذا قال :

[كلا] أى ليس لله شريك ، ولا ند ، ولا ضد .

[بل هو الله] الذى لا يستحق التأله والتعبد، إلا هو

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ

[العزيز] الذى قهر كل شىء فكل ما سواه ، فهو مقهور له ، مسخر مدبر .

[الحكيم] الذى أتقن ما خلقه ، وأحسن ما شرعه .

ولو لم يكن فى حكمته فى شرعه إلا أنه أمر بتوحيده ، وإخلاص الدين له ، وأحب ذلك ، وجعله طريقاً للنجاة ، ونهى عن الشرك به ، واتخاذ الأنداد من دونه ، وجعل ذلك طريقا للشقاء والهلاك ، لكفى بذلك برهانا على كمال حكمته .

فكيف ، وجميع ما أمر به ونهى عنه ، مشتمل على الحكمة ؟ ! !

* يخبر تعالى ، أنه ما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك .

وينذرهم عقاب الله ، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ، فليس لك من الأمر شىء .

وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد ، فليس من وظيفتك ، إنما ذلك بيد الله تعالى .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أى : ليس لهم علم صحيح ، بل إما جهال ، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم ، فكأنهم لا علم لهم .

ومن عدم علمهم ، جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول ، موجبا لرد دعوته .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

فما اقترحوه ، استعجالهم العذاب ، الذى أنذرهم به فقال : [ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] وهذا ظلم منهم .

فأى ملازمة بين صدقه ، وبين الإخبار بوقت وقوعه ؟

وهل هذا ، إلا رد للحق ، وسفه فى العقل ؟

أليس النذير فى أمر من أحوال الدنيا ، لو جاء قوماً ، يعلمون صدقه ونصحه ، ولهم عدو ، ينتهز الفرصة منهم ويُعِدُّ لهم فقال لهم : تركت عدوكم قد سار ، يريد اجتياحكم واستئصالكم .

فلو قال بعضهم : إن كنت صادقاً ، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا ، وأين مكانه الآن ؟

فهل يعد هذا القائل عاقلا ، أم يحكم بسفهه وجنونه ؟

هذا ، والمخبر يمكن صدقه وكذبه ، والعدو ، قد يبدو له غيرهم ، وقد تنحل عزيمته .

وهم قد يكون بهم منعة ، يدافعون بها عن أنفسهم .

فكيف بمن كذب أصدق الخلق ، المعصوم فى خبره ، الذى لا ينطق عن الهوى ، بالعذاب اليقين ، الذى لا مدفع له ، ولا ناصر منه ؟ ! !

أليس رد خبره ، بحجة عدم بيان وقت وقوعه ، من أسفه السفه ؟ ! !

[قل] لهم ـ مخبرا بوقت وقوعه ، الذى لا شك فيه ـ : [لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ولا تستقدمون] فاحذروا ذلك اليوم ، وأعدوا له عدته .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم

---

* لما ذكر تعالى ، أن ميعاد المستعجلين بالعذاب ، لا بد من وقوعه عند حلول أجله .

ذكر هنا ، حالهم فى ذلك اليوم ، وأنك لو رأيت حالهم ، إذ وقفوا عند ربهم ، واجتمع الرؤساء والأتباع فى الكفر والضلال ، لرأيت أمرا عظيما وهولا جسيما .

ورأيت كيف يتراجعون ، ويرجع بعضهم الى بعض ، القول .

[يقول الذين استضعفوا] وهم الأتباع [للذين استكبروا] وهم القادة .

[لولا أنتم لكنا مؤمنين] ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان ، وزينتم لنا الكفران ، فتبعناكم على ذلك .

ومقصودهم بذلك ، أن يكون العذاب على الرؤساء ، دونهم .

[وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا] مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون فى الجزم :

[أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم] أى : بقوتنا وقهرنا إياكم .

بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ

[بل كنتم مجرمين] أى : مختارين للإجرام ، لستم مقهورين عليه ، وإن كنا قد زينا لكم ، فما كان لنا عليكم من سلطان .

[وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا] أى : بل الذى دهانا منكم ، ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر ، فى الليل والنهار ، إذ تُحَسِّنون لنا الكفر ، وتدعوننا إليه ، وتقولون : إنه الحق ، وتقدحون فى الحق ، وتهجنونه ، وتزعمون أنه الباطل .

فما زال مكركم بنا ، وكيدكم إيانا ، حتى أغويتمونا وفتنتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئا إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة ، ولهذا قال :

[وأسروا الندامة لما رأوا العذاب] أى : زال عنهم ذلك الاحتجاج الذى احتج به بعضهم ، لينجو من العذاب ، وعلم أنه ظالم مستحق له .

فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذى أوصله إلى هذا العذاب ، سرا فى أنفسهم ، لخوفهم من الفضيحة فى إقرارهم على أنفسهم .

وفى بعض مواقف القيامة ، وعند دخولهم النار ، يظهرون ذلك الندم جهرا .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » الأيات « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

[وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا] يغلون كما يغل المسجون ، الذى سيهان فى سجنه كما قال تعالى « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون » الآيات .

[هل يجزون] فى هذا العذاب والنكل ، وتلك الأغلال الثقال [إلاما كانوا يعملون] من الكفر والفسوق والعصيان .

* يخبر تعالى . عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل ،أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله إذا أرسل رسولا فى قرية من القرى ، كفر به مترفوها ، وأبطرتهم نعمتهم ، ونخروا بها .

[وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا] أى : ممن اتبع الحق [وما نحن بمعذبين] .

أى: أولا ، لسنا بمبعوثين ، فإن بعثنا،فالذى أعطانا الأموال والأولاد فى الدنيا ، سيعطينا أكثر من ذلك فى الآخرة ولا يعذبنا .

وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ

فأجابهم الله تعالى ، بأن بسط الرزق وتضييقه ، ليس دليلاعلى مازعمتم.

فإن الرزق تحت مشيئة الله ، إن شاء بسطه لعبده ، وإن شاء ضيقه .

[وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم إلى الله زلفى] وتدنى إليه .

وإنما الذى يقرب منه زلفى ، الإيمان بما جاء به المرسلون ، والعمل الصالح الذى هو من لوازم الإيمان ، فإن أولئك ، لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، لا يعلمها إلا الله .

[وهم فى الغرفات آمنون] أى : فى المنازل العاليات المرتفعات جدا ، ساكنين فيها ، مطمئنين ، آمنين من المكدرات والمنغصات ، لما فيه من اللذات ، وأنواع المشتهيات ، وآمنين من الخروج منها ، او الحزن فيها .

[والذين يسعون فى آياتنا معجزين] أى : على وجه التعجيز لنا ، ولرسلنا ، والتكذيب .

فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

[أولئك فى العذاب محضرون] تحضرهم الزبانية فلا يجديهم ما عولوا عليه نفعاً .

ثم أعاد تعالى أنه [يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له] ليرتب عليه قوله :

[وما أنفقتم من شىء] نفقة واجبة ، أو مستحبة ، على قريب ،أوجار، أو مسكين ، أو يتيم ، أو غير ذلك .

[فهو] تعالى [يخلفه] فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق ، بل وعد بالخلف للمنفق ، الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر [وهو خير الرازقين] فاطلبوا الرزق منه ، واسعوا فى الأسباب التى أمركم بها .

[ويوم يحشرهم جميعاً] أى : العابدين لغير الله والمعبودين ، من دونه ، من الملائكة .

[ثم يقول] الله [للملائكة] على وجه التوبيخ لمن عبدهم .

[أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون] فتبرأوا من عبادتهم .

و [قالوا سبحانك] أى: تنزيها لك وتقديسا،أن يكون لك شريك ،أوند [أنت ولينا من دونهم] أى:أنت الذى نواليه من دونهم،لاموالاة بيننا وبينهم .

بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

فنحن مفتقرون إلى ولايتك ، مضطرون إليها ، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا ؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء ؟!!

[بل] هؤلاء المشركون [كانوا يعبدون الجن] أى : الشياطين ، يأمرونهم بعبادتنا[١] أو عبادة غيرنا ، فيطيعونهم بذلك .

وطاعتهم ، هى عبادتهم ، لأن العبادة ، الطاعة ، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » .

[أكثرهم بهم مؤمنون] أى : مصدقون للجن ، منقادون لهم ، لأن الإيمان هو : التصديق الموجب للانقياد .

فلما تبرأوا منهم ، قال تعالى مخاطبا لهم : [فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً] تقطعت بينكم الأسباب ، وانقطع بعضكم من بعض .

[ونقول للذين ظلموا] بالكفر والمعاصى ـ بعد ما ندخلهم النار ـ

---

(١) قوله « بعبادتنا أو عبادة غيرنا » تعبيرغامض غيرواضح . والأصح الأوضح أن يقال « يأمرونهم بأن يعبدونا أو يعبدوا غيرنا » حتى ينجلى المعنى للقراء على اختلاف طبقاتهم العلمية .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ

[ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون] فاليوم عاينتموها، ودخلتموها ، جزاء لتكذيبكم ، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب ، من عدم الهرب من أسبابها .

* يخبر تعالى عن حالة المشركين ، عندما تتلى عليهم آيات الله البينات ، وحججه الظاهرات ، وبراهينه القاطعات ، الدالة على كل خير ، الناهية عن كل شر ، التى هى أعظم نعمة جاءتهم ، ومِنَّةٍ وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق ، والانقياد ، والتسليم ، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغى ، ويكذبون من جاءهم بها ويقولون :

[ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم] أى : هذا قصده ، حين يأمركم بالإخلاص لله ، لتتركوا عوائد آبائكم ، الذين تعظمونهم، وتمشون خلفهم .

فردوا الحق ، بقوة الضالين ، ولم يوردوا برهانا ، ولا شبهة .

فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين ، باتباع الحق ، فادّعوا أن إخوانهم ، الذين على طريقتهم ، لم يزالوا عليه ؟ .

وهذه السفاهة ، ورد الحق ، بأقوال الضالين ، إذا تأملت كل حق رد ، فإذا هذا ، مآله لا يرد ، إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة ، والصابئين ، والملحدين فى دين الله ، المارقين ، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة .

إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ

ولما احتجوا بفعل آبائهم ، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا ، بالحق .

[وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى] أى : كذب افتراه هذا الرجل ، الذى جاء به .

[وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين] أى : سحر ظاهر لكل أحد ، تكذيباً بالحق ، وترويجا على السفهاء .

ولما بين ما ردوا به الحق ، وأنها أقوال ، دون مرتبة الشبهة ، فضلا عن أن تكون حجة ، ذكر أنهم ، وإن أراد أحد أن يحتج لهم ، فإنهم لا مستند لهم ، ولا لهم شيء يعتمد عليه أصلا ، فقال :

[وما آتيناهم من كتب يدرسونها] حتى تكون عمدة لهم [وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير] حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ، ما يدفعون به ، ما جئتهم به .

فليس عندهم علم ، ولا أثارة من علم .

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم فقال : [وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا] .

أى : ما بلغ هؤلاء المخاطبون [معشار ما آتيناهم] أى : الأمم الذين من قبلهم .

مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

[فكذبوا رسلي فكيف كان نكير] أي : إنكاري عليهم ، وعقوبتي إياهم .

وقد أعلمنا ما فعل بهم من النكال ، وأن منهم ، من أغرقه ، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم ، وبالصيحة ، وبالرجفة ،وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء .

فاحذروا ياهؤلاء المكذبون ، أن تدوموا على التكذيب ، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ، ويصيبكم ما أصابهم .

* أي [قل] ياأيها الرسول ، لهؤلاء المكذبين المعاندين ، المتصدين لرد الحق وتكذيبه ، والقدح بمن جاء به :

[إنما أعظكم بواحدة] أي : بخصلة واحدة ، أشير عليكم بها، وأنصح لكم فى سلوكها .

وهى طريق نصف ، لست أدعوكم بها ، إلى اتباع قولى ، ولا إلى ترك قولكم ، من دون موجب لذلك ، وهى :

[أن تقوموا لله مثنى وفرادى] أي : تنهضوا بهمة ، ونشاط ، وقصد لاتباع الصواب ، وإخلاص لله ، مجتمعين ، ومتباحثين فى ذلك، ومتناظرين، وفرادى ، كل واحد يخاطب نفسه بذلك .

. . . .

فإذا قمتم لله ، مثنى وفرادى ، استعملتم فكركم ، وأجلتموه ، وتدبرتم أحوال رسولكم : هل هو مجنون ، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته ؟.

أم هو نبي صادق ، منذر لكم ما يضركم ، مما أمامكم من العذاب الشديد ؟

فلو قبلوا هذه الموعظة ، واستعملوها ، لتبين لهم أكثر من غيرهم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمجنون ، لأن هيئته ، ليست كهيئة المجانين ، فى خنقهم ، واختلاجهم ، ونظرهم .

بل هيئته أحسن الهيئات ، وحركاته ، أجل الحركات ، وهو أكمل الخلق ، أدباً ، وسكينة ، وتواضعاً ، ووقارا ، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلا .

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ، ولفظه المليح ، وكلماته التى تملأ القلوب ، أمنا ، وإيمانا ، وتزكى النفوس ، وتطهر القلوب،وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم ، وتزجر عن مساوىء الأخلاق ورذائلها .

إذا تكلم ، رمقته العيون ، هيبة وإجلالا ، وتعظيما .

فهل هذا يشبه هذيان المجانين ، وعربدتهم ، وكلامهم الذى يشبه أحوالهم ؟!!

فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا ؟ سواء تفكر وحده ، أم معه غيره ، جزم بأنه رسول الله حقًّا ، ونبيه صدقا ، خصوصاً المخاطبين ، وهو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره .

لَكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

وثَمّ مانع للنفوس آخر ، عن اتباع الداعى إلى الحق ، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له ، ويأخذ أجره على دعوته .

فبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر فقال : [قل ما سألتكم من أجر] أى : على اتباعكم للحق [فهو لكم] أى : فأشهدكم أن ذلك الأجر ـ على التقدير ـ أنه لكم .

[إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد] أى : محيط علمه مما أدعو اليه .

فلو كنت كاذباً ، لأخذنى بعقوبته .

وشهيد أيضا على أعمالكم ، سيحفظها عليكم ، ثم يجازيكم بها .

* ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق، وبطلان الباطل ، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن [يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق] ، لأنه بين من الحق فى هذا الموضع ، ورد به أقوال المكذبين ، ما كان عبرة للمعتبرين ، وآية للمتأملين .

فإنك كما ترى ، كيف اضمحلت أقوال المكذبين ، وتبين كذبهم وعنادهم ، وظهر الحق وسطع ، وبطل الباطل وانقمع .

وذلك بسبب بيان [علام الغيوب] الذى يعلم ما تنطوى عليه القلوب ، من الوساوس والشبه ، ويعلم ما يقابل ذلك ، ويدفعه من الحجج .

فيعلم بها عباده ، ويبينها لهم ، ولهذا قال :

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

[قل جاء الحق] أي : ظهر وبان ، وصار بمنزلة الشمس ، وظهر سلطانه .

[وما يبدىء الباطل وما يعيد] أي : اضمحل وبطل أمره ، وذهب سلطانه ، فلا يبدىء ولا يعيد .

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول ، وكان المكذبون له ، يرمونه بالضلال ، أخبرهم بالحق ، ووضحه لهم ، وبين لهم عجزهم عن مقاومته ، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ، ليس بضائر الحق شيئا ، ولا دافع ما جاء به .

وأنه إن ضل ـ وحاشاه من ذلك ، لكن على سبيل التنزل فى المجادلة ـ فإنما يضل على نفسه ، أي : ضلاله قاصر على نفسه ، غير متعد إلى غيره .

[وإن اهتديت] فليس ذلك من نفسى ، وحولى ، وقوتى ، وإنما هدايتى بما [يوحى إلى ربى] فهو مادة هدايتي ، كما هو مادة هداية غيرى .

إن ربى [سميع] للأقوال والأصوات كلها [قريب] ممن دعاه ، وسأله ، وعبده .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ

---

* يقول تعالى [ولو ترى] أيها الرسول ، ومن قام مقامك ، حال هؤلاء المكذبين .

[إذ فزعوا] حين رأوا العذاب ، وما أخبرتهم به الرسل ، وما كذبوا به ، لرأيت أمرا هائلا ، ومنظرا مفظعا ، وحالة منكرة ، وشدة شديدة ، وذلك حين يحق عليهم العذاب .

[فلا فوت] لهم وليس لهم عنه مهرب .

[وأخذوا من مكان قريب] أى : ليس بعيدا عن محل العذاب ، بل يؤخذون ، ثم يقذفون فى النار .

[وقالوا] فى تلك الحال : [آمنا بالله] وصدقنا ، ما به كذبنا [و] لكن [أنى لهم التناوش] أى: تناول الإيمان [من مكان بعيد] قد حيل بينهم وبينه ، وصار من الأمور المحالة فى هذه الحالة .

فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان ، لكان إيمانهم مقبولا .

ولكنهم [كفروا به من قبل ويقذفون] أى : يرمون [بالغيب من مكان بعيد] بقذفهم الباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولكن لا سبيل إلى ذلك ، كما لا سبيل للرامى ، من مكان بعيد إلى إصابة الغرض .

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

فكذلك الباطل ، من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه ، وإنما يكون له صولة ، وقت غفلة الحق عنه ، فإذا برز الحق ، وقاوم الباطل ، قمعه .

[وحيل بينهم وبين ما يشتهون] من الشهوات واللذات ، والأولاد ، والأموال ، والخدم ، والجنود .

وقد انفردوا بأعمالهم ،وجاءوا فرادى ، كما خلقوا ، وتركوا ما خولوا ، وراء ظهورهم .

[كما فعل بأشياعهم من قبل] أى : من الأمم السابقين ، حين جاءهم الهلاك ، حيل بينهم وبين ما يشتهون .

[إنهم كانوا فى شك مريب] أى : يحدث الريبة وقلق القلب ،فلذلك ، لم يؤمنوا ، ولم يعتبوا حين استعتبوا .

تم تفسير سورة سبأ ـ ولله الحمد والمنة ، والفضل ، ومنه العون ، وعليه التوكل ، وبه الثقة .

تفســـــير

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

يمدح تعالى نفسه الكريمة المقدسة، على خلقه السموات والأرض، وما اشتملتا عليه، من المخلوقات، لأن ذلك، دليل على كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده، ما يتضمن الأمر، وهو: أنه [جاعل الملائكة رسلا] في تدبير أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينية.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلا، ولم يستثن منهم أحدا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره، كما قال تعالى: « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ».

ولما كانت الملائكة مدبرات، بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه،

رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

ذكر قوتهم على ذلك ، وسرعة سيرهم ، بأن جعلهم [أولى أجنحة] تطير بها ، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به .

[مثنى وثلاث ورباع] أى : منهم من له جناحان ، وثلاثة ، وأربعة ، بحسب ما اقتضته حكمته .

[يزيد فى الخلق ما يشاء] أى : يزيد بعض مخلوقاته على بعض ، فى صفة خلقها ، وفى القوة ، وفى الحسن ، وفى زيادة الأعضاء المعهودة ، وفى حسن الأصوات ، ولذة النغمات .

[إن الله على كل شىء قدير] فقدرته تعالى ، تأتى على ما يشاؤه ، ولا يستعصى عليها شىء ، ومن ذلك ، زيادة مخلوقاته ، بعضها على بعض .

ثم ذكر انفراده تعالى ، بالتدبير ، والعطاء ، والمنع فقال :

[ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك] من رحمته عنهم [فلا مرسل له من بعده] فهذا يوجب التعلق بالله تعالى ، والافتقار إليه من جميع الوجوه ، وأن لا يدعى إلا هو ، ولا يخاف ويرجى ، إلا هو .

[وهو العزيز] الذى قهر الأشياء كلها [الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى ، جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم .

وهذا شامل لذكرها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ثناء ، وبالجوارح انقيادا ، فإن ذكر نعمه تعالى ، داع لشكره .

ثم نبههم على أصول النعم ، وهى : الخلق ، والرزق فقال : [هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض] .

ولما كان من المعلوم ، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله ، نتج من ذلك ، أن كان ذلك ، دليلا على ألوهيته وعبوديته ، ولهذا قال :

[لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون] أى : تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق .

[وإن يكذبوك] يا أيها الرسول ، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين .

[فقد كذبت رسل من قبلك] فأهلك المكذبون ، ونجى الله الرسل وأتباعهم .

[وإلى الله ترجع الأمور] فى الآخرة ، فيجازى المكذبين ، وينصر المرسلين وأتباعهم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

* يقول تعالى : [يا أيها الناس إن وعد الله] بالبعث ، والجزاء على الأعمال [حق] أى : لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا تردد،قد دلت على ذلك الأدلة السمعية ، والبراهين العقلية .

فإذا كان وعده حقا ، فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة ، بالأعمال الصالحة ، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع .

[فلا تغرنكم الحياة الدنيا] بلذاتها وشهواتها ، ومطالبها النفسية ، فتلهيكم عما خلقتم له .

[ولا يغرنكم بالله الغرور] الذى هو : [الشيطان] وهو [لكم عدو] فى الحقيقة [فاتخذوه عدوا] أى : لتكن منكم عداوته ،ولا تهملوا محاربته كل وقت ، فإنه يرا كم ، وأنتم لا ترونه ، وهو دائما لكم بالمرصاد .

[إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير]هذا غايته ومقصوده، ممن تبعه ، أن يهان غاية الإهانة ، بالعذاب الشديد .

ثم ذكر أن الناس ، انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها ، إلى قسمين ، وذكر جزاء كل منهما فقال : [الذين كفروا] أى : جحدوا ما جاءت به الرسل ، ودلت عليه الكتب [لهم عذاب شديد] فى نار جهنم ،

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

شديد فى ذاته ، ووصفه ، وأنهم خالدون فيها أبدا .

[والذين آمنوا] بقلوبهم ، بما دعا الله إلى الإيمان به [وعملوا] بمقتضى ذلك الإيمان ، بجوارحهم ، الأعمال [الصالحات لهم مغفرة] لذنوبهم ، يزول بها عنهم الشر والمكروه [وأجر كبير] يحصل به المطلوب .

☆ يقول تعالى : [أفمن زين له سوء عمله] القبيح ، زينه له الشيطان ، وحسنه فى عينه .

[فرآه حسنا] أى : كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، فهل يستوى هذا وهذا ؟

فالأول : عمل السيىء ورأى الحق باطلا ، والباطل حقا .

والثانى : عمل الحسن ، ورأى الحق حقا ، والباطل باطلا .

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى .

[فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم] أى على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم ، وصدهم الشيطان عن الحق [حسرات] أى : فلا تهلك نفسك حزنا على الضالين وحسرة عليهم .

فليس عليك إلا البلاغ ، وليس عليك من هداهم ، من شىء ، والله هو الذى يجازيهم بأعمالهم [إن الله عليم بما يصنعون] فيجازيهم عليها .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ

---

* يخبر تعالى عن كمال اقتداره ، وسعة جوده ، وأنه الذى [أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت] فأنزله الله عليها [فأحيينا به الأرض بعد موتها] .

فحييت البلاد والعباد ، وارتزقت الحيوانات ، ورتعت فى تلك الخيرات .

[كذلك] الذى أحيا الأرض بعد موتها ، ينشر الأموات من قبورهم ، بعد ما مزقهم البلاء ، فيسوق إليهم مطرا ، كما ساقه إلى الأرض الميتة ، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ، ويكون [النشور] فيأتون للقيام بين يدى الله ليحكم بينهم ، ويفصل بحكمه العدل .

* أى : يا من يريد العزة ، اطلبها ممن هى بيده ، فإن العزة بيد الله ، ولا تنال إلا بطاعته .

وقد ذكرها بقوله : [إليه يصعد الكلم الطيب] من قراءة ، وتسبيح، وتحميد ، وتهليل ، وكل كلام حسن طيب ، فيرفع إلى الله ، ويعرض عليه ، ويثنى الله على صاحبه، بين الملأ الأعلى ، [والعمل الصالح] من أعمال القلوب وأعمال الجوارح [يرفعه] الله تعالى إليه أيضا ، كالكلم الطيب .

وقيل : العمل الصالح ، يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة ، فهى التى ترفع كلمه الطيب .

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ

فإذا لم يكن له عمل صالح ، لم يرفع له قول إلى الله تعالى .

فهذه الأعمال ، التى ترفع إلى الله تعالى ، ويرفع الله صاحبها ويعزه .

وأما السيئات ، فإنها بالعكس،يريد صاحبها الرفعة بها ، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه ، ولا يزداد إلا هوانا ، ونزولا ، ولهذا قال :[والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد] يهانون فيه غاية الإهانة .

[ومكر أولئك هو يبور] أى : يهلك ويضمحل ، ولا يفيدهم شيئا ، لأنه مكر بالباطل ، لأجل الباطل .

يذكر تعالى خلقه الآدمى،وتنقله فى هذه الأوطار ، من تراب إلى نطفة وما بعدها .

* [ثم جعلكم أزواجا] أى : لم يزل ينقلكم ، طورا بعد طور ، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجا ، ذكر يتزوج أنثى ، ويراد بالزواج ، الذرية والأولاد .

فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه ، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره ، وعلمه .

[وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه] وكذلك أطوار الآدمى ، كلها ، بعلمه وقضائه .

مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

[وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره] أى : عمر الذى كان معمرا ، عمرا طويلا [إلا] بعلمه تعالى ، أو ما ينقص من عمر الإنسان الذى هو بصدد أن يصل إليه ، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر ، كالزنا ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام ، ونحو ذلك ، مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر .

والمعنى : أن طول العمر وقصره ، بسبب ، وبغير سبب ، كله بعلمه تعالى ، وقد أثبت ذلك [فى كتاب] حوى ما يجرى على العبد ، فى جميع أوقاته ، وأيام حياته .

[إن ذلك على الله يسير] أى : إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة ، وإحاطة كتابه بها .

فهذه ثلاثة أدلة ، من أدلة البعث والنشور ، كلها عقلية ، نبه الله عليها فى هذه الآيات : إحياء الأرض بعد موتها ، وأن الذى أحياها سيحيى الموتى وتنقل الآدمى فى تلك الأطوار .

فالذى أوجده ونقله ، طبقا بعد طبق ، وحالا بعد حال ، حتى بلغ ما قدر له ، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى ، أقدر ، وهو أهون عليه ، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم ، العلوى ، والسفلى ، دقيقها ، وجليلها ، الذى فى القلوب ، والأجنة ، التى فى البطون ، وزيادة الأعمار ونقصها ، وإثبات ذلك كله فى كتاب .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ

فالذى كان هذا يسيرا عليه ، فإعادته للأموات ، أيسر وأيسر .

فتبارك من كثر خيره ، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم ، فى معاشهم ، ومعادهم .

* هذا إخبار عن قدرته ، وتوالى حكمته ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضى كلهم ، وأنه لم يسوِّ بينهما ، لأن المصلحة تقتضى أن تكون الأنهار ، عذبة فراتا ، سائغا شرابها ، لينتفع بها الشاربون ، والغارسون ، والزارعون .

وأن يكون البحر ، ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض ، بروائح ما يموت فى البحر ، من الحيوانات ، ولأنه ساكن لا يجرى ، فملوحته ، تمنعه من التغير ، ولتكون حيواناته ، أحسن وألذ ، ولهذا قال :

[ومن كل] من البحر الملح والعذب [تأكلون لحما طريا] وهو السمك المتيسر صيده فى البحر .

[وتستخرجون حلية تلبسونها] من لؤلؤ ، ومرجان ، وغيره ، مما يوجد فى البحر .

فهذه مصالح عظيمة للعباد .

ومن المصالح أيضا والمنافع فى البحر ، أن سخره الله تعالى لحمل الفلك ،

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

من السفن، والمراكب،فتراها تمخر البحر وتشقه،فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم، وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه، شيء كثير، ولهذا قال :

[ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون] على النعم المتقدم ذكرها .

ومن ذلك أيضا إيلاجه تعالى ، الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، يدخل هذا على هذا ، كلما أتى أحدهما ، ذهب الآخر،ويزيد أحدهما ، وينقص الآخر، ويتساويان فيقوم بذلك ، ما يقوم من مصالح العباد فى أبدانهم،وحيواناتهم وأشجارهم ، وزروعهم .

وكذلك ماجعل الله فى تسخير الشمس والقمر،من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون ، وانتشار العباد فى طلب فضله ، وما فيهما من إنضاج الثمار وتجفيف ما يجفف ، وغير ذلك ، مما هو من الضروريات ، التى لوفقدت لَلَحِقَ الناس الضرر .

وقوله [كل يجرى لأجل مسمى] أى : كل من الشمس والقمر،يسيران فى فلكهما ، ما شاء الله أن يسيرا .

فإذا جاء الأجل،وقرب انقضاه الدنيا ، انقطع سيرهما،وتعطل سلطانهما وخسف القمر ، وكورت الشمس ، وانتثرت النجوم .

فلما بين تعالى ؛ ما بيّن من هذه المخلوقات العظيمة ، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه ، قال:

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ

[ذلكم الله ربكم له الملك] أى : الذى انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها ، هو الرب المألوه المعبود ، الذى له الملك كله .

[والذين تدعون من دونه] من الأوثان والأصنام [لا يملكون من قطميرا[1]] أى لا يملكون شيئا ، لا قليلا ، ولا كثيرا ؛ حتى ولا القطمير الذى هو أحقر الأشياء .

وهذا من تنصص النفى وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ ، وهم غير مالكين لشىء ، من ملك السموات والأرض ؟

ومع هذا [إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم] لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم .

[ولو سمعوا] على وجه الفرض والتقدير [ما استجابوا لكم] لأنهم لا يملكون شيئا ، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ، ولهذا قال :

[ويوم القيامة يكفرون بشرككم] أى : يتبرأون منكم ؛ ويقولون « سبحانك أنت ولينا من دونهم » .

---

(١) القطمير : القشرة الرقيقة على نواة التمر : أو بتعبير آخر : « لفافة نواة التمر » .

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ

[ولا ينبئك مثل خبير] أى : لا أحد ينبئك ؛ أصدق من الله العليم الخبير .

فاجزم بأن هذا الأمر ، الذى نبأ به ؛ كأنه رَأْىُ عين ؛ فلا تشك ولا تمتر .

فتضمنت هذه الآيات ؛ الأدلة والبراهين الساطعة ، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود ؛ الذى لا يستحق شيئا من العبادة سواه،وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل ؛ لا تفيد عابده شيئا .

* يخاطب تعالى ؛ جميع الناس ؛ ويخبرهم بحالهم ووصفهم ؛ وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه :

فقراء فى إيجادهم ، فلولا إيجاده إياهم ؛ لم يوجدوا .

فقراء فى إعدادهم ؛ بالقوى ؛ والأعضاء ؛ والجوارح ؛ التى لولا إعداده إياهم بها ؛ لما استعدوا لأى عمل كان .

فقراء فى إمدادهم ؛ بالأقوات ؛ والأرزاق والنعم ؛ الظاهرة والباطنة . فلولا فضله وإحسانه ، وتيسيره الأمور ، لما حصل لهم من الرزق والنعم ، شىء .

فقراء فى صرف النقم عنهم ، ودفع المكاره ، وإزالة الكروب والشدائد .

فلولا دفعه عنهم ، وتفريجه لكرباتهم ، وإزالته لعسرهم ، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد .

فقراء إليه فى تربيتهم بأنواع التربية ، وأجناس التدبير .

فقراء إليه ، فى تألههم له وحبهم له ، وتعبدهم ، وإخلاص العبادة له تعالى .

فلو لم يوفقهم لذلك ، لهلكوا ، وفسدت أرواحهم ، وقلوبهم ، وأحوالهم .

فقراء إليه ، فى تعليمهم مالا يعلمون ، وعملهم بما يصلحهم .

فلولا تعليمه ، لم يتعلموا ، ولولا توفيقه ، لم يصلحوا .

فهم فقراء بالذات إليه ، بكل معنى ، وبكل اعتبار،سواء شعروا ببعض أنواع الفقر ، أم لم يشعروا .

ولكن الموفق منهم ، الذى لا يزال يشاهد فقره فى كل حال من أمور دينه ودنياه ، ويتضرع له ، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين ، وأن يعينه على جميع أموره ، ويستصحب هذا المعنى فى كل وقت ، فهذا حَرِىٌّ بالإعانة التامة من ربه وإلهه ، الذى هو أرحم به من الوالدة بوالدها .

[والله هو الغنى الحميد] أى : الذى له الغنى التام ، من جميع الوجوه ، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه ، ولا يفتقر إلى شىء مما يفتقر إليه الخلق ، وذلك لكمال صفاته ، وكونها كلها ، صفات كمال ؛ ونعوت جلال .

ومن غناه تعالى ، أن قد أغنى الخلق فى الدنيا والآخرة .

فهو الحميد فى ذاته ، وأسمائه ، لأنها حسنى ، وأوصافه ، لكونها عليا وأفعاله ، لأنها فضل وإحسان ، وعدل ، وحكمة ، ورحمة .

عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ

وفى أوامره ونواهيه ، فهو الحميد على ما فيه من الصفات ،وعلى مامنه من الفضل والإنعام ، وعلى الجزاء بالعدل ، وهو الحميد فى غناه ، الغنى فى حمده .

[إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد] يحتمل أن المراد : إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بغيركم من الناس ، أطوع لله منكم .

ويكون فى هذا ، تهديد لهم بالهلاك والإبادة ، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك،إثبات البعث والنشور ، وأن مشيئة الله تعالى ، نافذة فى كل شىء ، وفى إعادتكم بعد موتكم ، خلقا جديدا ، ولكن لذلك الوقت أجل ، قدره الله ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

[وما ذلك على الله بعزيز] أى : بممتنع ، ولا معجز له

ويدل على المعنى الأخير ، ما ذكره بعده فى قوله : [ولا تزر وازرة وزو أخرى] أى : فى يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله ، ولا يحمل أحد ذنب أحد .

[وإن تدع مثقلة] أى : نفس مثقلة بالخطايا والذنوب [إلى حملها] أى : تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها [لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى] فإنه لا يحمل قريب عن قريب .

فليست حال الآخرة ، بمنزلة حال الدنيا ، يساعد الحميم حميمه ، والصديق صديقه .

إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

بل يوم القيامة ، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ، ولو على والديه وأقاربه .

[إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة] أى : هؤلاء الذين يقبلون النذارة ، وينتفعون بها ، هم أهل الخشية لله بالغيب ، الذين يخشونه فى حال السر والعلانية ، والمشهد والمغيب ، وأهل إقامة الصلاة ، بحدودها ، وشروطها ، وأركانها ، وواجباتها ، وخشوعها .

لأن الخشية لله ، تستدعى من العبد ، العمل بما يخشى من تضييعه العقاب والهرب ، مما يخشى من ارتكابه العذاب .

والصلاة تدعو إلى الخير ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

[ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه] أى : ومن زكى نفسه بالتنقِّى من العيوب ، كالرياء والكبر ، والكذب والغش ، والمكر والخداع ، والنفاق ، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة ، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة ، من الصدق ، والإخلاص والتواضع ، ولين الجانب ، والنصح للعباد ، وسلامة الصدر ، من الحقد والحسد ، وغيرهما من مساوىء الأخلاق ، فإن تزكيته ، يعود نفعها إليه ، ويصل مقصودها إليه ، ليس يضيع من عمله شىء .

[وإلى الله المصير] فيجازى الخلائق على ما أسلفوه ، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ

---

* يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد فى حكمة الله ، وفيما أودعه فى فطر عباده .

[وما يستوى الأعمى] فاقد البصر [والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات] .

فكما أنه من المتقرر عندكم ، الذى لا يقبل الشك ، أن هذه المذكورات لا تتساوى ، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوى المتضادات المعنوية ، أولى وأولى .

فلا يستوى المؤمن والكافر ، ولا المهتدى والضال ، ولا العالم والجاهل ، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ولا أحياء القلوب وأمواتها ، فإن بين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ، ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

فإذا علمت المراتب ، وميزت الأشياء ، وبان الذى ينبغى أن يتنافس فى تحصيله من ضده ، فليختر الحازم لنفسه ، ما هو أولى به ، وأحق بالإيثار .

[إن الله يسمع من يشاء] سماع فهم وقبول ، لأنه تعالى هو الهادى للوفق .

[وما أنت بمسمع من فى القبور] أى : أموات القلوب .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً ، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً .

ولكن وظيفتك النذارة ، وإبلاغ ما أرسلت به ، قبل منك ، أم لا .

ولهذا قال : [إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق] أى : مجرد إرسالنا إياك بالحق ، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل،وطموس من السبل ، واندراس من العلم ، وضرورة عظيمة إلى بعثك ، فبعثك الله رحمة للعالمين .

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم . والصراط المستقيم ، حق لا باطل .

وكذلك ما أرسلناك به ، من هذا القرآن العظيم ، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم ، حق وصدق .

[بشيرا] لمن أطاعك بثواب الله ، العاجل والآجل .

[ونذيراً] لمن عصاك ، بعقاب الله العاجل والآجل ، ولست ببدع من الرسل .

[وإن من أمة] من الأمم الماضية والقرون الخالية [إلا خلا فيها نذير[1]] يقيم عليهم حجة الله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

---

(١) أى : وما من أمة من الأمم فيما سلف ومضى إلا جاءها من قبل الله من يحذرها عقابه ، ويخوفها وخامة الطغيان ، وسوء عاقبة الكفران .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* أى وإن يكذبك أيها الرسول ، هؤلاء المشركون ، فلست أول رسول كذب .

[فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات] على الحق ، وعلى صدقهم ، فيما أخبروهم به [والزبر] أى الكتب المكتوبة ، المجموع فيها كثير من الأحكام .

[والكتاب المنير] أى : المضىء فى أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة .

فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه ، أو قصور بما جاءتهم به الرسل ، بل بسبب ظلمهم وعنادهم .

[ثم أخذت الذين كفروا] بأنواع العقوبات [فكيف كان نكير[1]] عليهم ؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل .

فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم ، فيصيبكم كما أصاب أولئك ، من العذاب الأليم ، والخزى الوخيم .

---

(١) أى : فانظر كيف كان إنكارى لعملهم ، وغضبى عليهم وتعذيبى إياهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

* يذكر تعالى خلقه للأشياء والمتضادات ، التى أصلها واحد ، ومادتها واحدة ، وفيها من التفاوت والفرق ، ما هو مشاهد معروف ،ليدل العباد، على كمال قدرته ، وبديع حكمته .

فمن ذلك : أن الله تعالى أنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات المختلفات ، والنباتات المتنوعات ، ما هو مشاهد للناظرين ، والماء واحد ، والأرض واحدة .

ومن ذلك ، الجبال التى جعلها الله أوتادا للأرض ، تجدها جبالا مشتبكة ، بل جبلا واحدا .

وفيها ألوان متعددة ، فيها جدد بيض أى : طرائق بيض،وفيها طرائق صفر وحمر ، وفيها غرابيب سود أى : شديدة السواد جدا .

ومن ذلك ، الناس والدواب ، والأنعام ، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف ، والأصوات ، والهيئات ، ما هو مرئى بالأبصار ، مشهود للنظار ، والكل ، من أصل واحد ، ومادة واحدة .

فتفاوتها دليل عقلى على مشيئة الله تعالى ، التى خصصت ما خصصت منها ، بلونه ، ووصفه ، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك ، وحكمته ورحمته ، حيث كان ذلك الاختلاف ، وذلك التفاوت ، فيه من المصالح والمنافع ، ومعرفة الطرق ، ومعرفة الناس بعضهم بعضا ، ما هو معلوم .

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

وذلك أيضاً ، دليل على سعة علم الله تعالى ، وأنه يبعث من فى القبور .

ولـكن الغافل ، ينظر فى هذه الأشياء وغيرها ، نظر غفلة ، لا تحدث له تذكرا .

وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ، ويعلم بفـكره الصائب ، وجه الحـكمة فيها .

ولهذا قال : [إنما يخشى الله من عباده العلماء] فـكل من كان بالله أعلم ، كان أكثر له خشية .

وأوجبت له خشية الله ، الانـكفاف عن المعاصى ، والاستعداد للقاء من يخشاه .

وهذا دليل على فضيلة العلم ، فإنه داع إلى خشية الله .

وأهل خشيته هم أهل كرامته كما قال تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

[إن الله عزيز] كامل العزة ، ومن عزته ، خلق هذه المخـلوقات المتضادات .

[غفور] لذنوب التائبين .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* إن الذين يتلون كتاب الله] أى : يتبعونه فى أوامره ، فيمتثلونها ، وفى نواهيه ، فيتركونها،وفى أخباره ، فيصدقونها ويعتقدونها،ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال .

ويتلون أيضا ألفاظه ، بدراسته ، ومعانيه ، بتتبعها واستخراجها .

ثم خص من التلاوة بعد ما عم ، الصلاة التى هى عماد الدين ، ونور المسلمين ، وميزان الإيمان ، وعلامة صدق الإسلام ، والنفقة على الأقارب والمساكين ، واليتامى ، وغيرهم ، من الزكاة والكفارات ، والنذور ، والصدقات [سرا وعلانية] فى جميع الأوقات .

[يرجون] بذلك [تجارة لن تبور] أى : لن تكسد وتفسد . بل تجارة ، هى أجل التجارات ، وأعلاها ، وأفضلها ، ألا وهى رضا ربهم ، والفوز بجزيل ثوابه ، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا فيه الإخلاص بأعمالهم ، وأنهم لا يرجون بها ، من المقاصد السيئة ، والنيات الفاسدة ، شيئا .

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال :[ليوفيهم أجورهم] أى : أجور أعمالهم ، وعلى حسب قلتها ، وكثرتها ، وحسنها ، وعدمه[ويزيدهم من فضله] زيادة عن أجورهم .

[إنه غفور شكور] غفر لهم السيئات ، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا

---

* يذكر تعالى أن الكتاب الذى أوحاه إلى رسوله [هو الحق] من كثرة ما اشتمل عليه ، من الحق ، وإحاطته بأصوله ، كأن الحق منحصر فيه ، فلا يكن فى قلوبكم حرج منه ، ولا تتبرموا منه ، ولا تستهينوا به .

فإذا كان هو الحق ، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية ، والغيبية وغيرها ، مطابق لما فى الواقع ، فلا يجوز أن يراد به ، ما يخالف ظاهره ، وما دل عليه .

[مصدقا لما بين يديه] من الكتب والرسل ، لأنها أخبرت به ، فلما وجد وظهر ، ظهر به صدقها .

فهى بشرت به وأخبرت ، وهو مصدقها ، ولهذا لا يمكن أحدا ، أن يؤمن بالكتب السابقة ، وهو كافر بالقرآن أبدا .

لأن كفره به ، ينقض إيمانه بها ، لأن من جملة أخبارها ، الخبر عن القرآن ، ولأن أخبارها ، مطابقة لأخبار القرآن .

[إن الله بعباده لخبير بصير] فيعطى كل أمة ، وكل شخص ، ما هو اللائق بحاله .

ومن ذلك ، أن الشرائع السابقة ، لا تليق إلا بوقتها وزمانها .

ولهذا ، ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول ، حتى ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فجاء بهذا الشرع ، الذى يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة ويتكفل بما هو الخير فى كل وقت .

ٱلْـكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

ولهذا لما كانت هذه الأمة ، أكمل عقولا ، وأحسنهم أفكارا ، وأرقهم قلوباً ، وأزكاهم أنفساً .

اصطفاهم تعالى ، واصطفى لهم دين الإسلام ، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب ، ولهذا قال :

[ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا] وهم هذه الأمة .

[فمنهم ظالم لنفسه] بالمعاصى ، التي هى دون الكفر .

[ومنهم مقتصد] مقتصر على ما يجب عليه ، تارك للمحرم .

[ومنهم سابق بالخيرات] أى : سارع فيها واجتهد ؛ فسبق غيره ؛ وهو المؤدى للفرائض ، المكثر من النوافل ، التارك للمحرم والمكروه .

فكلهم اصطفاه الله تعالى ، لوراثة هذا الكتاب ، وإن تفاوتت مراتبهم ، وتميزت أحوالهم .

فلكل منهم ، قسط من وراثته ، حتى الظالم لنفسه ، فإن ما معه من أصل الإيمان ، وعلوم الإيمان ، وأعمال الإيمان ، من وراثة الكتاب .

لأن المراد بوراثة الكتاب ، وراثة علمه وعمله ، ودراسة ألفاظه ، واستخراج معانيه .

وقوله [بإذن الله] راجع إلى السابق إلى الخيرات ، لئلا يغتر بعمله ، بل ما سبق إلى الخيرات ، إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته ، فينبغى له أن يشتغل بشكر الله تعالى ، على ما أنعم به عليه .

ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

[وذلك هو الفضل الكبير] أى : وراثة الكتاب الجليل،لمن اصطفى تعالى من عباده ، هو الفضل الكبير ، الذى جميع النعم بالنسبة إليه ، كالعدم .

فأجل النعم على الإطلاق ، وأكبر الفضل ، وراثة هذا الكتاب .

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال : [جنات عدن يدخلونها] أى : جنات مشتملات ، على الأشجار ، والظل ، والظليل ، والحدائق الحسنة ، والأنهار المتدفقة ، والقصور العالية ، والمنازل المزخرفة ، فى أبد لا يزول ، وعيش لا ينفد .

والعدن « الإقامة » فجنات عدن أى : جنات إقامة ، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود ، وصفها ووصف أهلها .

[يحلون فيها من أساور من ذهب] وهو الحلى الذى يجعل فى اليدين ، على ما يحبون ، ويرون أنه أحسن من غيره ، الرجال والنساء فى الحلية فى الجنة سواء .

[و] يحلون فيها [لؤلؤا] ينظم فى ثيابهم وأجسادهم .

[ولباسهم فيها حرير] من سندس ، ومن إستبرق أخضر .

[و] لما تم نعيمهم ، وكملت لذتهم [قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن] وهذا يشمل كل حزن ، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص فى جمالهم ،

ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

ولا فى طعامهم وشرابهم ، ولا في لذاتهم ولا فى أجسادهم ، ولا فى دوام لبثهم .

فهم فى نعيم ، ما يرون عليه مزيدا ، وهو فى تزايد أبد الآباد .

[إن ربنا لغفور] حيث غفر لنا الزلات [شكور] حيث قبل منا الحسنات ، وضاعفها ، وأعطانا من فضله ، ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا .

فبمغفرته نجوا ، من كل مكروه ومرهوب .

وبشكره وفضله . حصل لهم كل مرغوب محبوب .

[الذى أحلنا] أى : أنزلنا نزول حلول واستقرار ، لا نزول معبر واعتبار .

[دار المقامة] أى : الدار التى تدوم فيها الإقامة ، والدار التى يرغب فى المقام فيها ، لكثرة خيراتها ، وتوالى مسراتها ؛ وزوال كدوراتها .

وذلك الإحلال [من فضله] علينا ، وكرمه ؛ لا بأعمالنا .

فلولا فضله ؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه .

[لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب] أى : لا تعب فى الأبدان ولا فى القلب والقوى ؛ ولا فى كثرة التمتع .

وهذا يدل ؛ على أن الله تعالى يجعل أبدانهم ؛ فى نشأة كاملة ؛ ويهيء

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

لهم من أسباب الراحة على الدوام ، ما يكونون بهذه الصفة ، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب ؛ ولا هم ولا حزن .

ويدل على أنهم ؛ لا ينامون فى الجنة ؛ لأن النوم فائدته؛زوال التعب ؛ وحصول الراحة به .

وأهل الجنة ؛ بخلاف ذلك .

ولأنه موت أصغر ؛ وأهل الجنة لا يموتون ؛ جعلنا الله منهم ؛ بمنه وكرمه .

* لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم ، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال :

[والذين كفروا] أى : جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات ؛ وأنكروا لقاء ربهم .

[لهم نار جهنم] يعذبون فيها أشد العذاب ؛ وأبلغ العقاب .

[لا يقضى عليهم] بالموت [فيموتوا] فيستريحوا .

[ولا يخفف عنهم من عذابها] فشدة العذاب وعظمه ؛ مستمر عليهم فى جميع الآناء واللحظات .

[كذلك نجزى كل كفور] أى : كذلك نجزى به كل متمادٍ فى الكفر ، مصر عليه [وهم يصطرخون فيها] أى يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون : [ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل] .

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

فاعترفوا بذنبهم ، وعرفوا أن الله عدل فيهم ، ولكن سألوا الرجعة فى غير وقتها .

فيقال لهم : [أولم نعمركم ما] أى : دهراً وعمرا [يتذكرفيه من تذكر] أى : يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل ؛ متعناكم فى الدنيا ؛ وأدررنا عليكم الأرزاق ؛ وقيضنا لكم أسباب الراحة ؛ ومددنا لكم فى العمر ؛ وتابعنا عليكم الآيات [وجاءكم النذير] وواصلنا إليكم النذر؛ وابتليناكم بالسراء والضراء ، لتنيبوا إلينا ، وترجعوا إلينا .

فلم ينجع فيكم إنذار ، ولم تفد فيكم موعظة ، وأخرنا عنكم العقوبة ، حتى إذا انقضت آجالكم ، وتمت أعماركم ، ورحلتم عن دارالإمكان ،بأشر الحالات ، ووصلتم إلى هذه الدار ، دار الجزاء على الأعمال ، سألتم الرجعة .

هيهات هيهات ، فات وقت الإمكان ، وغضب عليكم الرحيم الرحمن ، واشتد عليكم عذاب النار ، ونسيكم أهل الجنة ، فامكثوا فى جهنم ، خالدين مخلدين ، وفى العذاب مهانين ، ولهذا قال :

[فذقوا فما للظالمين من نصير] ينصرهم ، فيخرجهم منها ، أو يخفف عنهم من عذابها .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

---

* لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السموات والأرض، التى غابت عن أبصار الخلق، وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوى عليه الصدور، من الخير والشر، والزكاء وغيره، فيعطى كلا، مايستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

* يخبر تعالى عن كمال حكمته، ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم، يخلف بعضاً فى الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم، النذر، فينظر كيف يعملون.

فمن كفر بالله، وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته.

ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره، إلا مقت ربه له، وبغضه إياه.

وأى عقوبة، أعظم من مقت الرب الكريم؟!

[ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا] أى: يخسرن أنفسهم، وأهليهم، وأعمالهم، ومنازلهم فى الجنة.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

فالكافر لا يزال فى زيادة من الشقاء والخسران ، والخزى عندالله ، وعند خلقه والحرمان .

* يقول تعالى ، مُعجِّزاً لآلهة المشركين ، ومبينا نقصها ، وبطلان شركهم من جميع الوجوه .

[قل] يا أيها الرسول لهم : [أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله] أى : أخبرونى عنهم ، هل هم مستحقون للدعاء والعبادة .

[أرونى ماذا خلقوا من الأرض] هل خلقوا بحراً ، أم خلقوا جبالا ، أو خلقوا حيوانا ، أو خلقوا جماداً ؟ .

سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء ، هو الله تعالى .

[أم لهم] أى : لشركائكم [شرك فى السموات] أى : مشاركة فى خلقها وتدبيرها ؟ .

سيقولون : ليس لهم شركة فى ذلك .

فإذا لم يخلق شيئا ، ولم يشركوا الخالق فى خلقه ، فلم عبدتموهم ، ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم ؟

فانتفى الدليل العقلى ، على صحة عبادتهم ، ودل على بطلانها .

ثم ذكر الدليل السمعى ، وأنه أيضا منتف ، فلهذا قال :

أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

[أم آتيناهم كتابا] يتكلم بما كانوا به يشركون ، يأمرهم بالشرك ، وعبادة الأوثان .

[فهم] فى شركهم [على بينة منه] أى : من ذلك الكتاب الذى نزل عليهم فى صحة الشرك ؟ .

ليس الأمر كذلك ؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله ، محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر نزول كتاب إليهم ، وإرسال رسول إليهم ، وزعموا أنه أمرهم بشركهم ، فإنا نجزم بكذبهم ، لأن الله قال :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

فالرسل والكتب ، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[فإن قيل : إذا كان الدليل العقلى ، والدليل النقلى ، قد دلا على بطلان الشرك ، فما الذى حمل المشركين على الشرك ، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة ؟ .

أجاب تعالى بقوله : [بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا] أي : ذلك الذى مشوا عليه ، ليس لهم فيه حجة ، وإنما ذلك ، توصية بعضهم لبعض به ، وتزيين بعضهم لبعض واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال ، وأمانىّ منّاها الشياطين ، وزينت لهم سوء أعمالهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

فنشأت فى قلوبهم ، وصارت صفة من صفاتها ، فعسر زوالها ، وتعسر انفصالها ، فحصل ما حصل ، من الإقامة على الكفر ، والشرك الباطل المضمحل .

* يخبر تعالى ، عن كمال قدرته ، وتمام رحمته ، وسعة حلمه ومغفرته ، وأنه تعالى ، يمسك السموات والأرض ، عن الزوال ، فإنهما لو زالتا ، ما أمسكهما أحد من الخلق ، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما .

ولكنه تعالى ، قضى أن يكونا كما وجدا ، ليحصل للخلق القرار ، والنفع ، والاعتبار .

وليعلموا من عظيم سلطانه ، وقوة قدرته ، مابه تمتلىءقلوبهم له ، إجلالا وتعظيما ، ومحبة ، وتكريما .

وليعلموا كمال حلمه ومغفرته ، بإمهال المذنبين ، وعدم معاجلته للعاصين .

مع أنه لو أمر السماء ، لحصبتهم ، ولو أذن للأرض ، لابتلعتهم .

ولكن وسعتهم مغفرته ، وحلمه ، وكرمه [إنه كان حليما] فى تأخير عقاب الكفار ، [غفوراً] لمن تاب .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن

---

* أى وأقسم هؤلاء ، الذين كذبوك يا رسول الله ، قسما اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة .

[لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم] أى : أهدى من اليهود والنصارى ، أهل الكتب ، فلم يفوا بتلك الأقسام والعهود .

[فلما جاءهم نذير] لم يهتدوا ، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم ، بل لم يدوموا على ضلالهم الذى كان .

بل [ما زادهم] ذلك [إلا نفوراً] وزيادة ضلال ، وبغى ، وعناد .

وليس إقسامهم المذكور ، لقصد حسن ، وطلب للحق ، وإلا لوفقوا له.

ولكنه صادر عن استكبار فى الأرض على الخلق ، وعلى الحق ، وبهرجة فى كلامهم هذا ، يريدون به المكر والخداع ، وأنهم أهل الحق ، الحريصون على طلبه ، فيغتر بهم المغترون ، ويمشى خلفهم المقتدون .

[ولا يحيق المكر السيىء] الذى مقصوده ، مقصود سيىء ، ومآله وما يرمى إليه ، سيىء باطل [إلا بأهله] ، فمكرهم إنما يعود عليهم .

وقد أبان الله لعباده فى هذه المقالات ، وتلك الأقسام ، أنهم كذبة فى ذلك ومزورون .

تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

فاستبان خزيهم ، وظهرت فضيحتهم ، وتبين قصدهم السيىء .

فعاد مكرهم فى نحورهم ، ورد الله كيدهم فى صدورهم .

فلم يبق لهم ، إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ، الذى هو سنة الله فى الأولين ، التى لا تبدل ولا تغير ، أن كل من سار فى الظلم ، والعناد ، والاستكبار على العباد ، أن تحل به نقمته ، وتسلب عنه نعمته ، فَلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء ، ما فعل بأولئك .

* يحض تعالى الناس ، على السير فى الأرض ، بالقلوب والأبدان ، للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة ، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ، ممن كذبوا الرسل ، وكانوا أكثر منهم أموالا وأولادا ، وأشد قوة ،وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء .

فلما جاءهم العذاب ، لم تنفعهم قوتهم ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته .

[وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض] لكمال علمه وقدرته [إنه كان عليما] بالأشياء كلها [قديراً] عليها .

ثم ذكر تعالى ، كمال حلمه ، وشدة إمهاله وإنظاره ، أرباب الجرائم

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

والذنوب فقال :

[ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا] من الذنوب [ما ترك على ظهرها من دابة] أي : لاستوعبت العقوبة ، حتى الحيوانات غير المكلفة .

[ولكن] يمهلهم تعالى ولا يهملهم [ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً] فيجازيهم بحسب ما علمه منهم ، من خير وشر .

تم تفسير سورة فاطر — والحمد لله رب العالمين

تفســـــير

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

---

* هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم ، الذى وصفه الحكمة ، وهى وضع كل شىء موضعه : وضع الأمر والنهى ، فى المحل اللائق بهما .

فأحكامه الشرعية والجزائية ، كلها ، مشتملة على غاية الحكمة .

ومن حكمة هذا القرآن ، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته ، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها .

[إنك لمن المرسلين] هذا هو المقسم عليه ، وهو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنك يا محمد ، من جملة المرسلين ، فلست ببدع من الرسل .

وأيضا فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية .

وأيضا فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم ، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم ، عرف أنك من خيار المرسلين ، بما فيك من الصفات الكاملة ، والأخلاق الفاضلة .

. . . .

ولا يخفى ما بين المقسم به ، وهو القرآن الحكيم ، وبين المقسم عليه ، وهو رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، من الاتصال ، وأنه لو لم يكن لرسالته ، دليل ولا شاهد ، إلا هذا القرآن الحكيم ، لكفى به دليلا وشاهدا، على رسالة محمد .

بل القرآن العظيم ، أقوى الأدلة المتصلة المستمرة ، على رسالة الرسول .

فأدلة القرآن كلها ، أدلة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم ، الدالة على رسالته ، وهو أنه [على صراط مستقيم] معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته .

وذلك الصراط المستقيم ، مشتمل على أعمال ، وهى الأعمال الصالحة ، المصلحة للقلب والبدن ، والدنيا والآخرة ، والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب ، المنمية للأجر .

فهذا الصراط المستقيم ، الذى هو وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصف دينه الذى جاء به .

فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم ، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام ، على أجل مقسم عليه .

وخبر الله وحده ، كاف ، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة فى هذا الموضع ، على صحة ما أقسم عليه ، من رسالة رسوله ، وما نبهنا عليه ، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه .

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ

وهذا الصراط المستقيم [تنزيل العزيز الرحيم] فهو الذى أنزل به كتابه ، وأنزله طريقاً لعباده ، موصلا لهم إليه .

فحماه بعزته ، عن التغيير والتبديل ؛ ورحم به عباده ، رحمة اتصلت بهم ، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته .

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين ، العزيز ، الرحيم .

فلما أقسم تعالى على رسالته ، وأقام الأدلة عليها ، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال :

[لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون] وهم العرب الأميون ، الذين لم يزالوا خالين من الكتب ، عادمين الرسل ، قد عمتهم الجهالة ، وغمرتهم الضلالة .

فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم ، يزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

فينذر العرب الأميين ، ومن لحق بهم من كل أمى .

ويذكر أهل الكتب ، بما عندهم من الكتب ، فنعمة الله به على العرب خصوصا ، وعلى غيرهم عموماً .

ولكن هؤلاء الذين بعثت لإنذارهم ، بعدما أنذرتهم ، انقسموا قسمين .

قسم رد لما جئت به ، ولم يقبل النذارة ، وهم الذين قال الله فيهم [لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون] أى : نفذ فيهم القضاء والمشيئة ، أنهم لا يزالون فى كفرهم وشركهم .

عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ

وإنما حق عليهم القول ، بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه ، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم .

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال :

[إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا] هى جمع « غل » و « الغل » ما يغل به العنق ، فهو للعنق ، بمنزلة القيد للرجل .

وهذه الأغلال ، التى فى الأعناق ، عظيمة [فهى] قد وصلت [إلى الأذقان] قد رفعت رءوسهم ، إلى فوق [فهم مقمحون] أى رافعوا رءوسهم من شدة الغل الذى فى أعناقهم ، فلا يستطيعون أن يخفضوها .

[وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا] أى : حاجزا يحجزهم عن الإيمان .

[فأغشيناهم فهم لا يبصرون] قد غمرهم الجهل والشقاء ، من جميع جوانبهم ، فلم تفد فيهم النذارة .

[وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون] وكيف يؤمن من طبع على قلبه ، ورأى الحق باطلا ، والباطل حقاً ؟!

والقسم الثانى : الذين قبلوا النذارة ، وقد ذكرهم بقوله :

ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ

[إنما تنذر] أى : إنما تنفع نذارتك ، ويتعظ بنصحك [من اتبع الذكر[1]] أى : من قصده اتباع الحق ، وما ذكر به [وخشى الرحمن بالغيب] أى : من اتصف بهذين الأمرين ، القصد الحسن فى طلب الحق ، وخشية الله تعالى ، فهم الذين ينتفعون برسالتك ، ويزكون بتعليمك .

ومن وفق لهذين الأمرين [فبشره بمغفرة] لذنوبه [وأجر كريم] لأعماله الصالحة ، ونيته الحسنة

[إنا نحن نحيي الموتى] أى : نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال .

[ونكتب ما قدموا] من الخير والشر ، وهو : أعمالهم التى عملوها وباشروها ، فى حال حياتهم .

[وآثارهم] وهى : آثار الخير ، وآثار الشر ، التى كانوا هم السبب فى إيجادها ، فى حال حياتهم ، وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التى نشأت من أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

فكل خير عمل به أحد من الناس ، بسبب علم العبد ، وتعليمه ، أو نصحه ، أو أمره بالمعروف ، أو نهيه عن المنكر ، أو علم أودعه عند المتعلمين ، أو فى كتب ينتفع بها فى حياته وبعد موته ، أو عمل خيرا ، من

(١] والمراد بالذكر هنا : القرآن .

أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا

صلاة ، أو زكاة ، أو صدقة ، أو إحسان ، فاقتدى به غيره ، أو عمل مسجداً ، أو محلا من المحال ، التى يرتفق بها الناس ، وما أشبه ذلك ، فإنها من آثاره ، التى تكتب له ، وكذلك عمل الشر .

ولهذا[1] « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

وهذا الموضع ، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سبيله ، بكل وسيلة ، وطريق موصل إلى ذلك ، ونزول درجة الداعى إلى الشر الإمام فيه ، وأنه أسفل الخليقة ، وأشدهم جرما ، وأعظمهم إثما .

[وكل شيء] من الأعمال والنيات وغيرها [أحصيناه فى إمام مبين] أى : كتاب هو أم الكتب ، وإليه مرجع الكتب ، التى تكون بأيدى الملائكة ، وهو اللوح المحفوظ .

* أى : واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك ، الرادين لدعوتك ، مثلا يعتبرون به ، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير .

وذلك المثل : أصحاب القرية ، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله ، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله .

وتعيين تلك القرية ، لو كان فيه فائدة ، لعينها الله ، فالتعرض لذلك ،

---

(١) قوله « ولهذا » أى : ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾

وما أشبهه من باب التكلف ، والتكلم بلا علم .

ولهذا إذا تكلم أحد فى مثل هذا الأمر ، تجد عنده من الخبط والخلط. والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ، ما تعرف به ، أن طريق العلم الصحيح ، الوقوف مع الحقائق ، وترك التعرض لما لا فائدة فيه .

وبذلك تزكو النفس ، ويزيد العلم ، من حيث يظن الجاهل ، أن زيادته ، بذكر الأقوال التى لا دليل عليها ، ولا حجة عليها ، ولا يحصل منها من الفائدة ، إلا تشويش الذهن ، واعتياد الأمور المشكوك فيها .

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله ، مثلا للمخاطبين .

[إذ جاءها المرسلون] من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وينهونهم عن الشرك والمعاصى .

[إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث] أى قويناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل ، اعتناء من الله بهم ، وإقامة للحجة ؛ بتوالى الرسل إليهم.

[فقالوا] لهم : [إنا إليكم مرسلون] فأجابوهم بالجواب ، الذى ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل .

[قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا] أى : فما الذى فضلكم علينا ، وخصكم من دوننا ؟

قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ

قالت الرسل لأممهم « إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

[وما أنزل الرحمن من شيء] أي : أنكروا عموم الرسالة .

ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم فقالوا : [إن أنتم إلا تكذبون] .

فقال هؤلاء الرسل الثلاثة : [ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون] فلو كنا كاذبين ، لأظهر الله خزينا ، ولبادرنا بالعقوبة .

[وما علينا إلا البلاغ المبين] أي : البلاغ المبين الذي يحصل به ، توضيح الأمور المطلوب بيانها .

وما عدا هذا من آيات الاقتراح ، أو من سرعة العذاب ، فليس إلينا .

وإنما وظيفتنا ، التي هي البلاغ المبين ، قمنا بها ، وبيناها لكم .

فإن اهتديتم ، فهو حظكم وتوفيقكم ، وإن ضللتم ، فليس لنا من الأمر شيء .

فقال أصحاب القرية لرسلهم : [إنا تطيرنا بكم] أي : لم نر على قدومكم علينا ، واتصالكم بنا ، إلا الشر .

وهذا من أعجب العجائب ، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد ، وأجل كرامة يكرمهم بها ، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة ، قد قدم بحالة شر ، زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها .

وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن

ولكن الخذلان ، وعدم التوفيق ، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه .

ثم توعدوهم فقالوا : [لئن لم تنتهوا لنرجمنكم] أى : لنقتلنكم رجما بالحجارة ، أشنع القتلات [وليمسنكم منا عذاب أليم] .

فقالت لهم رسلهم [طائركم معكم] وهو : ما معهم من الشرك والشر ، المقتضى لوقوع المكروه والنقمة ، وارتفاع المحبوب والنعمة .

[أإن ذكرتم] أى : بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم ، قلتم لنا ما قلتم .

[بل أنتم قوم مسرفون] متجاوزون للحد ، متجرهمون[1] فى قولكم ، فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورا واستكبارا .

[وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى] حرصا على نصح قومه ، حين سمع ما دعت إليه الرسل ، وآمن به وعلم ، ما رد به قومه عليهم فقال :

[يا قوم اتبعوا المرسلين] فأمرهم باتباعهم ، ونصحهم على ذلك ، وشهد لهم بالرسالة .

ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه ، فقال :

---

(١) متجرهمون . أى : أخذتكم الحدة فى ردكم قولنا .

لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ

[اتبعوا من لا يسألكم أجراً] أى : اتبعوا من نصحكم نصحا ، يعود عليكم بالخير ، وليس يريد منكم أموالكم ، ولا أجراً على نصحه لكم ، وإرشاده إياكم ، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه .

بقى أن يقال : فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة ، ولكنه ليس على الحق .

فدفع هذا الاحتراز بقوله : [وهم مهتدون] لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه ، ولا ينهون إلا عما يشهد العقل الصحيح بقبحه .

فكأن قومه لم يقبلوا نصحه ، بل عادوا لائمين له ، على اتباع الرسل ، وإخلاص الدين لله وحده فقال : [ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون] .

أى : وما المانع لى ، من عبادة من هو المستحق للعبادة ، لأنه الذى فطرنى ، وخلقنى ، ورزقنى ، وإليه مآل جميع الخلق ، فيجازيهم بأعمالهم .

فالذى بيده الخلق والرزق ، والحكم بين العباد ، فى الدنيا والآخرة ، هو الذى يستحق أن يعبد ، ويثنى عليه ويمجد ، دون من لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا عطاء ولا منعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشوراً ، ولهذا قال :

[أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً] لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ، فلا تغنى شفاعتهم عنى شيئاً [ولا هم ينقذون] من الضر الذى أراده الله بى .

بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ

[إنى إذا] أى : إن عبدت آلهة هذا وصفها [لفى ضلال مبين] فجمع فى هذا الكلام ، بين نصحهم ، والشهادة للرسل بالرسالة ، والاهتداء والإخبار ، بتعيُّن عبادة الله وحده .

وذكر الأدلة عليها ، وأن عبادة غيره باطلة ، وذكر البراهين عليها ، والإخبار بضلال من عبدها ، والإعلان بإيمانه جهراً ، مع خوفه الشديد من قتلهم فقال :

[إنى آمنت بربكم فاسمعون] فقتله قومه ، لما سمعوا منه ، وراجعهم بما راجعهم به .

[قيل] له فى الحال [ادخل الجنة ، قال] مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده ، وإخلاصه ، وناصحا لقومه بعد وفاته ، كما نصح لهم فى حياته .

[ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى] أى : بأي شيء غفر لى ، فأزال عنى أنواع العقوبات .

[وجعلنى من المكرمين] بأنواع المثوبات والمسرات .

أى : لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم ، لم يقيموا على شركهم .

ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

قال الله فى عقوبة قومه : [وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء] أى : ما احتجنا أن نتكلف فى عقوبتهم ، فننزل جندا من السماء لإتلافهم

[وما كنا منزلين] لعدم الحاجة إلى ذلك ، وعظمة اقتدار الله تعالى ، وشدة ضعف بنى آدم ، وأنهم أدنى شىء يصيبهم من عذاب الله ، يكفيهم .

[إن كانت] أى ما كانت عقوبتهم [إلا صيحة واحدة] أى : صوتا واحدا ، تكلم به بعض ملائكة الله [فإذا هم خامدون] قد تقطعت قلوبهم فى أجوافهم ، وانزعجوا لتلك الصيحة ، فأصبحوا خامدين ، لا صوت ولا حركة ، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ، ومقابلة أشرف الخلق ، بذلك الكلام القبيح ، وتجبرهم عليهم .

قال الله مترحما للعباد [ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون] أى : ما أعظم شقاءهم ، وأطول عنادهم ، وأشد جهلهم ، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة ، التى هى سبب لكل شقاء ، وعذاب ، ونكال ! !

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا

---

* يقول تعالى : ألم ير هؤلاء ، ويعتبروا بمن قبلهم ، من القرون المكذبة ، التى أهلكها تعالى ، وأوقع بها عقابه ، وأن جميعهم قد باد وهلك ، فلم يرجع إلى الدنيا ، ولن يرجع إليها .

وسيعيد الله الجميع ، خلقا جديدا ، ويبعثهم بعد موتهم ، ويحضرون بين يديه تعالى ، ليحكم بينهم بحكمه العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة « وإن تلك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

* أى [وآية لهم] على البعث والنشور ، والقيام بين يدى الله تعالى ، للجزاء على الأعمال ، هذه [الأرض الميتة] التى أنزل الله عليها المطر ، فأحياها بعد موتها .

[وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون] من جميع أصناف الزروع ، ومن جميع أصناف النبات ، التى تأكله أنعامهم [وجعلنا فيها] أى : فى تلك الأرض الميتة .

[جنات] أى : بساتين ، فيها أشجار كثيرة ، وخصوصا النخيل والأعناب ، اللذان هما أشرف الأشجار [وفجرنا فيها] أى : فى الأرض [من العيون] .

فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

جعلنا فى الأرض تلك الأشجار ، والنخيل ، والأعناب [ليأكلوا من ثمره] قوتا وفاكهة ، وأُدْماً ، ولذة .

[و] الحال أن ذلك الثمر [ما عملته أيديهم] وليس لهم فيه صنع ولا عمل ، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين ، وخير الرازقين .

وأيضاً لم تعمله أيديهم ، بطبخ ولا غيره ، بل أوجد الله هذه الثمار ، غير محتاجة لطبخ ، ولا شئٍ ، تؤخذ من أشجارها ، فتؤكل فى الحال .

[أفلا يشكرون] من ساق لهم هذه النعم ، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه ، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم .

أليس الذى أحيا الأرض بعد موتها ، فأنبت فيها الزروع والأشجار ، وأودع فيها لذيذ الثمار ، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون ، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ، إنه على كل شىء قدير .

[سبحان الذى خلق الأزواج كلها] أى : الأصناف كلها [مما تنبت الأرض] فنوع فيها من الأصناف ، ما يعسر تعداده .

[ومن أنفسهم] فنوعهم إلى ذكر وأنثى ، وفاوت بين خلقهم وخُلُقِهِمْ ، وأوصافهم الظاهرة والباطنة .

[ومما لا يعلمون] من المخلوقات ، التى قد خلقت ، وغابت عن علمنا ، والتى لم تخلق بعد .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

فسبحانه وتعالى ، أن يكون له شريك ، أو ظهير ، أو عوين ، أو وزير ، أو صاحبة ، أو ولد ، أو سَمِىٌّ ، أو شبيه ، أو مثيل فى صفات كماله ، ونعوت جلاله ، أو يعجزه شىء يريده .

* أى [وآية لهم] على نفوذ مشيئة الله ، وكمال قدرته ، وإحيائه الموتى بعد موتهم .

[الليل نسلخ منه النهار] أى : نزيل منه الضياء العظيم ، الذى طبق الأرض ، فنبدله بالظلمة ، ونحلها محله [فإذا هم مظلمون] .

وكذلك نزيل هذه الظلمة ، التى عمتهم وشملتهم ، فنطلع الشمس ، فتضىء الأقطار ، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم ، ولهذا قال :

[والشمس تجرى لمستقر لها] أى : دائما تجرى لمستقر لها ، قدره الله لها ، لا تتعداه ، ولا تقصر عنه ، وليس لها تصرف فى نفسها ، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى .

[ذلك تقدير العزيز] الذى بعزته ، دبر هذه المخلوقات العظيمة ، بأكمل تدبير ، وأحسن نظام .

[العليم] الذى بعلمه ، جعلها مصالح لعباده ، ومنافع فى دينهم ودنياهم .

[والقمر قدرناه منازل] ينزلها ، كل ليلة ، ينزل منها واحدة ، [حتى] صغر جدا و [عاد كالعرجون القديم] أى : عرجون النخلة ، الذى من

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قدمه ، نش ، وصغر حجمه ، وانحنى ، ثم بعد ذلك ، ما زال يزيد شيئا فشيئا ، حتى يتم نوره ، ويتسق ضياؤه .

[وكل] من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، قدره الله تقديرا لا يتعداه ، وكل له سلطان ووقت ، إذا وجد ، عدم الآخر ، ولهذا قال [لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر] أى : فى سلطانه الذى هو الليل ، فلا يمكن أن توجد الشمس فى الليل .

[ولا الليل سابق النهار] فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه .

[وكل من] الشمس والقمر والنجوم [فى فلك يسبحون] أى : يترددون على الدوام .

فكل هذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على عظمة الخالق ، وعظمة أوصافه .

خصوصا ، وصف القدرة والحكمة ، والعلم فى هذا الموضع .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ

---

* أى : ودليل لهم وبرهان ، على أن الله وحده المعبود ، لأنه المنعم بالنعم ، الصارف للنقم ، الذى من جملة نعمه [أنا حملنا ذريتهم] قال كثير من المفسرين : المراد بذلك : آباؤهم .

[وخلقنا لهم] أى : للموجودين من بعدهم [من مثله] أى : من مثل ذلك ، أى : جنسه [ما يركبون] به .

فذكر نعمته على الآباء ، بحملهم فى السفن ، لأن النعمة عليهم ، نعمة على الذرية .

وهذا الموضع من أشكل المواضع علىّ فى التفسير .

فإن ما ذكره كثير من المفسرين ، من أن المراد بالذرية الآباء ، مما لا يعهد فى القرآن إطلاق الذرية على الآباء .

بل فيه من الإبهام ، وإخراج الكلام عن موضوعه ، ما يأباه كلام رب العالمين ، وإرادته البيان والتوضيح لعباده .

وثَمَّ احتمال أحسن من هذا ، وهو أن المراد بالذرية ، الجنس ، وأنهم هم بأنفسهم ، لأنهم هم ، من ذرية بنى آدم .

ولكن ينقض هذا المعنى قوله [وخلقنا لهم من مثله ما يركبون] إن أريد : وخلقنا من مثل ذلك الفلك ، أى لهؤلاء المخاطبين ، ما يركبون من أنواع الفلك ، فيكون ذلك تكريراً للمعنى ، تأباه فصاحة القرآن .

فإن أريد بقوله [وخلقنا لهم من مثله ما يركبون] الإبل ، التى هى سفن البر ، استقام المعنى واتضح .

. . . .

إلا أنه يبقى أيضاً ، أن يكون الكلام فيه تشويش ، فإنه لو أريد هذا المعنى ، لقال: « وآية لهم أنا حملناهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

فأما أن يقول فى الأول : حملنا ذريتهم ، وفى الثانى : حملناهم ، فإنه لا يظهر المعنى .

إلا أن يقال : الضمير عائد إلى الذرية ، والله أعلم بحقيقة الحال .

فلما وصلت فى الكتابة إلى هذا الموضع ، ظهر لى معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى .

وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله ، وبيانه التام من كل وجه ، للأمور الحاضرة والماضية ، والمستقبلة ، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله ، وكانت الفلك من آياته تعالى ، ونعمه على عباده ، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة ، ولم تزل موجودة فى كل زمان ، إلى زمان المواجهين بالقرآن .

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن ، وذكر حالة الفلك ، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك ، فى غير وقتهم ، وفى غير زمانهم ، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية ، الشراعية منها والبخارية ، والجوية السابحة فى الجو ، كالطيور ونحوها ، والمراكب البرية ، مما كانت الآية العظمى فيه لا توجد إلا فى الذرية ، نبّه فى الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال : [وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون] أى المملوء ركبانا وأمتعة .

لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

لحملهم الله تعالى ، ونجاهم بالأسباب التى علمهم الله إياها ، من الغرق .

ولهذا نبههم على نعمته عليهم ، حيث أنجاهم من الغرق ، مع قدرته على ذلك فقال :

[وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم] أى : لا أحد يصرخ لهم ، فيعاونهم على الشدة ، ولا يزيل عنهم المشقة [ولا هم ينقذون] مما هم فيه .

[إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين] حيث لم نغرقهم ، لطفا بهم ، وتمتيعا لهم ، إلى حين ، لعلهم يرجعون ، أو يستدركون ما فرط منهم .

[وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم] أى : من أحوال البرزخ والقيامة ، وما فى الدنيا من العقوبات [لعلكم ترحمون] .

أعرضوا عن ذلك ، فلم يرفعوا به رأسا ، ولو جاءتهم كل آية ، ولهذا قال :

[وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين] .

وفى إضافة الآيات إلى ربهم ، دليل على كمالها ووضوحها ، لأنه ما أبين من آيات الله ، ولا أعظم بيانا .

وإن من جملة تربية الله لعباده ، أن أوصل إليهم الآيات التى يستدلون بها على ما ينفعهم ، فى دينهم ودنياهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

[وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله] أى : من الرزق الذى منّ به الله عليكم ، ولو شاء لسلبكم إياه .

[قال الذين كفروا للذين آمنوا] معارضين للحق ، محتجين بالمشيئة : [أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم] أيها المؤمنون [إلا فى ضلال مبين] حيث تأمروننا بذلك .

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم ، أو تجاهلهم الوخيم ، فإن المشيئة ، ليست حجة لعاص أبدا .

فإنه وإن كان ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإنه تعالى مكّن العباد ، وأعطاهم من القوة ، ما يقدرون على فعل الأمر ، واجتناب النهى .

فإذ تركوا ما أمروا به ، كان ذلك اختيارا منهم ، لا جبرا لهم ولا قهرا .

[ويقولون] على وجه التكذيب والاستعجال : [متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] .

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

قال الله تعالى : لايستبعدوا ذلك ، فإنه عن قريب [ماينظرون إلاصيحة واحدة] وهى نفخة الصور [تأخذهم] أى : تصيبهم [وهم يخصمون] أى : وهم لاهون عنها ، لم تخطر على قلوبهم فى حال خصومتهم ، وتشاجرهم فيما بينهم ، الذى لايوجد فى الغالب ، إلا وقت الغفلة .

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم،فإنهم لاينظرون ولايمهلون [فلا يستطيعون توصية] أى : لاقليلة ولا كثيرة [ولا إلى أهلهم يرجعون (١)] .

* النفخة الأولى ، نفخة الفزع والموت ، وهذه نفخة البعث والنشور .

فإذا نفخ فى الصور ، خرجوا من الأجداث والقبور ، ينسلون إلى ربهم أى يسرعون للحضور بين يديه ، لايتمكنون من التأنّى والتأخر .

وفى تلك الحال ، يحزن المكذبون ، ويظهرون الحسرة والندم ، ويقولون :

[ياويلنا من بعثنا من مرقدنا] أي : من رقدتنا فى القبور ، لأنه ورد

---

(١) قوله « ولا إلى أهلهم يرجعون » أى : من أسواقهم وأشغالهم ، بلى يموتون فيها .

ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

فى بعض الأحاديث ، أن لأهل القبور رقدة ، قبيل النفخ فى الصور .

فيجابون ، ويقال لهم : [هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون] .

أى : هذا الذى الذى وعدكم الله به ، ووعدتكم به الرسل ، فظهر صدقهم ، رَأْىَ العين .

ولاتحسب أن ذكر الرحمن فى هذا الموضع ، لمجرد الخبر عن وعده ، وإنما ذلك للإخبار ، بأنه فى ذلك اليوم العظيم ، سيرون من رحمته ، مالا يخطر فى الظنون ، ولا حسب الحاسبون ، كقوله « الملك يومئذ الحق للرحمن » ، « وخشعت الأصوات للرحمن » ونحو ذلك ، مما يذكر اسمه الرحمن ، فى هذا .

[إن كانت] أى : ما كانت البعثة من القبور [إلا صيحة واحدة] ينفخ إسرافيل فى الصور ، فتحيا الأجساد .

[فإذا هم جميع لدينا محضرون] الأولون والآخرون ، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم .

[فاليوم لا تظلم نفس شيئا] لاينقص من حسناتها ، ولا يزاد فى سيئاتها .

[ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون] من خير أو شر .

فمن وجد خيرا ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

---

* لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجزى إلا ما عمله ، ذكر جزاء الفريقين .

فبدأ بجزاء أهل الجنة،وأخبر أنهم فى ذلك اليوم [فى شغل فاكهون] .

أى : فى شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها ، من كل ما تهواه النفوس ، وتلذه العيون ، ويتمناه المتمنون .

ومن ذلك لقاء العذارى الجميلات ، كما قال : [هم وأزواجهم] من الحور العين ، اللاتى قد جمعن حسن الوجوه والأبدان ، وحسن الأخلاق .

[فى ظلال على الأرائك] أى : السرر المزينة ، باللباس المزخرف الحسن .

[متكئون] عليها ، اتكاء دالا على كمال الراحة ، والطمأنينة ، واللذة .

[لهم فيها فاكهة] كثيرة ، من جميع أنواع الثمار اللذيذة ، من عنب وتين ، ورمان ، وغيرها .

[ولهم ما يدعون] أى : يطلبون ، فمهما طلبوه وتمنوه ، أدركوه .

ولهم أيضاً [سلام] حاصل لهم [قولا من رب رحيم] .

ففى هذا ، كلام الرب تعالى لأهل الجنة ، وسلامه عليهم ، وأكده بقوله :

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ۞ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

[قولا] وإذا سلم عليهم الرب الرحيم ، حصلت لهم السلامة التامة ، من جميع الوجوه ، وحصلت لهم التحية ، التى لا تحية أعلى منها ، ولا نعيم مثلها .

فما ظنك بتحية ملك الملوك ، الرب العظيم ، الرءوف الرحيم ، لأهل دار كرامته ، الذين أحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبدا .

فلولا أن الله تعالى ، قدر أن يموتوا ، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح ، والبهجة ، والسرور ، لحصل ذلك .

فنرجو ربنا ، أن لايحرمنا ذلك النعيم ، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

* لما ذكر تعالى جزاء المتقين ، ذكر جزاء المجرمين [و] أنهم يقال لهم يوم القيامة :

[وامتازوا اليوم أيها المجرومون] أى : تميزوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة ، ليوبخهم ، ويقرعهم على رءوس الإشهاد ، قبل أن يدخلهم النار ، فيقول لهم :

[ألم أعهد إليكم] أى : ألم آمركم وأوصيكم ، على ألسنة رسلى ، وأقول لكم :

[يا بنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان] أى : لاتطيعوه ؟

مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ

وهذا التوبيخ ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصى ، لأنها كلها ، طاعة للشيطان ، وعبادة له .

[إنه لكم عدو مبين] فحذرتكم منه ، غاية التحذير ، وأنذرتكم عن طاعته ، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه ، [و] أمرتكم [أن اعبدونى] بامتثال أوامرى وترك زواجرى .

[هذا] أى : عبادتى وطاعتى ، ومعصية الشيطان [صراط مستقيم] .

فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ، ترجع إلى هذين الأمرين .

أى : فلم تحفظوا عهدى ، ولم تعملوا بوصيتى ، [ولقد] واليتم عدوكم ، وهو الشيطان ، الذى [أضل منكم جبلا كثيرا] أى : خلقا كثيرا .

[أفلم تكونوا تعقلون] .

أى : فلا كان لكم عقل ، يأمركم بموالاة ربكم ، ووليكم الحق ، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ، وليا ، فلو كان لكم عقل صحيح ، لما فعلتم ذلك .

فإذا أطعتم الشيطان ، وعاديتم الرحمن ، وكذبتم بلقائه ، ووردتم القيامة دار الجزاء ، وحق عليكم القول بالعذاب [هذه جهنم التى كنتم توعدون] وتكذبون بها ، فانظروا إليها عيانا ، فهناك تنزعج منهم القلوب ، وتزوغ الأبصار ، ويحصل الفزع الأكبر .

ثم يكمل ذلك ، بأن يؤمر بهم إلى النار ، ويقال لهم :

مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ

[اصلوها[1] اليوم بما كنتم تكفرون] أى : ادخلوها على وجه تصلاكم ، ويحيط بكم حرها ، ويبلغ منكم كل مبلغ ، بسبب كفركم بآيات الله ، وتكذيبكم لرسل الله .

قال تعالى فى بيان وصفهم الفظيع، فى دار الشقاء [اليوم نختم على أفواههم] بأن نجعلهم خرسا ، فلا يتكلمون ، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه ، من الكفر ، والتكذيب .

[وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون] أى : تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه ، وينطقها الذى أنطق كل شىء .

[فلو نشاء لطمسنا على أعينهم] بأن نُذْهِبَ أبصارهم ، كما طمسنا على نطقهم .

[فاستبقوا الصراط] أى : فبادروا إليه ، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة [فأنى يبصرون] وقد طمست أبصارهم .

[ولو نشاء لمسخناهم[2] على مكانتهم]أى لأذهبنا حركتهم [فما استطاعوا مضيا] إلى الأمام [ولا يرجعون] إلى ورائهم ، ليبعدوا عن النار .

---

(١) اصلوها . أى : قاسوا وذوقوا حرها الشديد .

(٢) قوله « لمسخناهم » أى : لَغيرّنا صورهم إلى صور قبيحة ، كالقردة والخنازير ونحوها من الصور القبيحة .

وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

والمعنى : أن هؤلاء الكفار ، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بدٌّ من عقابهم .

وفى ذلك الموطن ، ما ثَمّ إلا النار ، قد برزت ، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط .

وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان ، الذين يمشون فى نورهم .

وأما هؤلاء ، فليس لهم عند الله فى عهد فى النجاة من النار .

فإن شاء طمس أعينهم ، وأبقى حركتهم ، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه .

وإن شاء ، أذهب حراكهم ، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر .

والمقصود : أنهم لا يعبرونه ، فلا تحصل لهم النجاة .

* يقول تعالى : [ومن نعمره] من بنى آدم [ننكسه فى الخلق] .

أى : يعود إلى الحالة التى ابتدأ منها ، حالة الضعف ، ضعف العقل ، وضعف القوة .

[أفلا يعقلون] أن الآدمى ناقص من كل وجه ، فيتداركوا قولهم وعقولهم ، فيستعملوها فى طاعة ربهم .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* ينزه تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، عما رماه به المشركون ، من أنه شاعر ، وأن الذى جاء به شعر فقال :

[وما علمناه الشعر وما ينبغى له] أن : يكون شاعرا ، أى : هذا من جنس المحال ، أن يكون شاعرا ، لأنه رشيد مهتد ، والشعراء غاوون ، يتبعهم الغاوون .

ولأن الله تعالى ، حسم جميع الشبه ، التى يتعلق بها الضالون ، عن رسوله .

فحسم أن يكون ، يكتب أو يقرأ ، وأخبر أنه ، ما علمه الشعر ، وما ينبغى له[1] [إن هو إلا ذكر وقرآن مبين] أي : ما هذا الذى جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب ، جميع المطالب الدينية ، فهو مشتمل عليها ، أتم اشتمال وهو يذكر العقول ، ما ركز الله فى فطرها من الأمر ، بكل حسن ، والنهى عن كل قبيح .

[وقرآن مبين] أى مبين لما يطلب بيانه ، ولهذا حذف المعمول ،ليدل على أنه مبين لجميع الحق ، بأدلته التفصيلية ، والإجمالية ، والباطل وأدلة بطلانه ، أنزله الله كذلك على رسوله .

---

(١) أى : لا يصح ولا يليق ـ لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة ـ أن يكون شاعراً ، لأن الشعراء من الطبقة المنحطة الغاوية .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

[لينذر من كان حيا] أى : حى القلب واعيه ، فهو الذى يزكو على هذا القرآن ، وهو الذى يزداد من العلم منه والعمل ، ويكون القرآن لقلبه، بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية .

[ويحق القول على الكافرين] لأنهم قامت عليهم به حجة الله ، وانقطع احتجاجهم ، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها .

* يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذللها ، وجعلهم مالكين لها ، مطاوعة لهم فى كل أمر يريدونه منها ، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم ، وحمل أثقالهم ، ومحاملهم ، وأمتعتهم ، من محل إلى محل ، ومن أكلهم منها ، وفيها دفء ، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين .

وفيها زينة وجمال ، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها .

[أفلا يشكرون] الله تعالى الذى أنعم بهذه النعم ، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعا خاليا من العبرة والفكرة .

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾
فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

---

* هذا بيان لبطلان آلهة المشركين ، التي اتخذوها مع الله تعالى ، ورجوا نصرها وشفعها « أى : شفاعتها ووساطتها بينهم وبين الله » .

فإنها فى غاية العجز [لا يستطيعون نصرهم] ولا أنفسهم ينصرون .

فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم ، فكيف ينصرونهم ؟

والنصر له شرطان : الاستطاعة ، والقدرة .

فإذا استطاع ، يبقى ؛ هل يريد نصرة من عبده أم لا ؟
فَنَفْىُ الاستطاعة ،ينفى الأمرين كليهما .

[وهم لهم جند محضرون] أى : محضرون،هم وهم فى العذاب ،ومتبرئ، بعضهم من بعض .

أفلا تبرأوا فى الدنيا ، من عبادة هؤلاء ، وأخلصوا العبادة ، للذى بيده الملك والنفع والضر ، والعطاء والمنع ، وهو الولى النصير ؟

* أى فلا يحزنك ، يا أيها الرسول ، قول المكذبين ، والمراد بالقول : ما دل عليه السياق ، كل قول يقدحون به فى الرسول ، أو فيما جاء به .

أى : فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم [إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون] فنجازيهم على حسب علمنا بهم ، وإلا فقولهم لا يضرك شيئا .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ

---

* وهذه الآيات الكريمات ، فيها ، ذكر شبهة منكرى البعث، والجواب عنها ، بأتم جواب ، وأحسنه ، وأوضحه ، فقال تعالى :

[أو لم ير الإنسان] المنكر للبعث أو الشاك فيه ، أمرا يفيده اليقين التام بوقوعه وهو : [أنا خلقناه] ابتداء [من نطفة] ثم تنقله فى الأطوار شيئا فشيئا ، حتى كبر وشب ، وتم عقله ، واستتب .

[فإذا هو خصيم مبين] بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة .

فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين ، وليعلم أن الذى أنشأه من العدم ، قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق ، من باب أولى .

[وضرب لنا مثلا] لا ينبغى لأحد أن يضربه ، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق ، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق ، مستبعد على قدرة الخالق .

فسر هذا المثل بقوله [قال] ذلك الإنسان [من يحيى العظام وهى رميم] .

أى : هل أحد يحييها ؟ استفهام إنكار ، أى : لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت .

هذا وجه الشبهة والمثل ، وهو أن هذا أمر ، فى غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر .

وهذا القول الذى صدر من هذا الإنسان ، غفلة منه ، ونسيان لابتداء خلقه .

فلو فطن لخلقه ، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ، فوجد عيانا،لم يضرب هذا المثل .

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد ، بجواب شاف كاف فقال :

[قل يحييها الذى أنشأها أول مرة] وهذا بمجرد تصوره ، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه ، أن الذى أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ، ثانى مرة، وهو أهون على القدرة ، إذا تصوره المتصور [وهو بكل خلق عليم] .

هذا أيضا دليل ثان من صفات الله تعالى ، وهو أن علمه تعالى ، محيط بجميع مخلوقاته فى جميع أحوالها ، فى جميع الأوقات .

ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات ، وما يبقى ، ويعلم الغيب والشهادة

فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم ، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم .

* ثم ذكر دليلا ثالثا فقال : [الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون] فإذا أخرج النار اليابسة ، من الشجر الأخضر ، الذي هو غاية الرطوبة ، مع تضادها ، وشدة تخالفهما ، فإخراجه الموتى من قبورهم ، مثل ذلك .

ثم ذكر دليلا رابعا فقال : [أوليس الذى خلق السموات والأرض] على سعتهما وعظمهما [بقادر على أن يخلق مثلهم] أى : أن يعيدهم بأعيانهم .

عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى

[بلى] قادر على ذلك ، فإن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس .

[وهو الخلاق العليم] وهذا دليل خاص ، فإنه تعالى الخلاق، الذى جميع المخلوقات ، متقدمها ، ومتأخرها ، صغيرها ، وكبيرها - كلها أثر من آثار خلقه وقدرته ، وأنه لا يستعصى عليه مخلوق أراد خلقه .

فإعادته للأموات ، فرد من أفراد آثار خلقه ، ولهذا قال :

[إنما أمره إذا أراد شيئا] نكرة فى سياق الشرط ، فتعم كل شىء .

[أن يقول له كن فيكون] أى : فى الحال من غير تمانع .

[فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء] وهذا دليل سادس ، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شىء، الذى جميع ما سكن فى العالم العلوى والسفلى ملك له ، وعبيد مسخرون مدبرون ، يتصرف فيهم بأقداره الحكمية ، وأحكامه الشرعية ، وأحكامه الجزائية .

فإعادته إياهم بعد موتهم ، لينفذ فيهم حكم الجزاء ، من تمام ملكه ، ولهذا قال :

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[وإليه ترجعون] من غير امتراء ولا شك ، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة ، على ذلك .

فتبارك الذى جعل فى كلامه ، الهدى والشفاء ، والنور .

تم تفسير سورة « يس » فلله تعالى الحمد كما ينبغى لجلاله

وله الثناء كما يليق بكماله ، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه

وصل الله على محمد وآله وسلم

تفسير

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

---

* هذا قسم منه تعالى ، بالملائكة الكرام ، فى حال عباداتها ، وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها ، على ألوهيته تعالى ، وربوبيته فقال :

[والصافات صفا] أى : صفوفا فى خدمة ربهم ، وهم الملائكة .

[فالزاجرات زجرا] وهم الملائكة ، يزجرون السحاب وغيره ، بأمر الله .

[فالتاليات ذكرا] وهم : الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى .

فلما كانوا متألهين لربهم ، ومتعبدين فى خدمته ، ولا يعصونه طرفة عين ، أقسم بهم على ألوهيته فقال :

[إن إلهكم لواحد] ليس له شريك فى الإلهية ، فأخلصوا له الحب ، والخوف ، والرجاء ، وسائر أنواع العبادة .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ

[رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق] أى : هو الخالق لهذه المخلوقات ، الرازق لها ، المدبر لها .

فكما أنه لا شريك له فى ربوبيته إياها ، فكذلك لا شريك له فى ألوهيته .

وكثيرا ما يقرن تعالى ، توحيد الإلهية ، بتوحيد الربوبية ، لأنه دال عليه .

وقد أقر به أيضا المشركون فى العبادة ، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه .

وخص الله المشارق بالذكر ، لدلالتها على المغارب ، أو لأنها مشارق النجوم ، التى سيذكرها ، فلهذا قال :

[إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب*وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى] .

ذكر الله فى الكواكب ، هاتين الفائدتين العظيمتين :

إحداهما : كونها زينة للسماء ، إذ لولاها ، لكانت السماء مظلمة ، لاضوء فيها .

ولكن زينها بها لتستنير أرجاؤها ، وتحسن صورتها ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل .

عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن

والثانية : حراسة السماء ، عن كل شيطان مارد ، يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى ، وهم : الملائكة .

فإذا استمعوا [يقذفون] بالشهب الثواقب [من كل جانب] طردا لهم ، وإبعادا إياهم ، عن استماع ما يقول الملأ الأعلى .

[ولهم عذاب واصب] أى : دائم ، معد لهم ، لتمردهم عن طاعة ربهم .

ولولا أنه تعالى استثنى ، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئا أصلا ، ولكن قال :

[إلا من خطف الخطفة] أى : إلا من تلقف من الشياطين المردة ، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة [فأتبعه شهاب ثاقب] تارة ، يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه ، فينقطع خبر السماء .

وتارة يخبر بها ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيكذبون معها مائة كذبة ، يروجونها بسبب الكلمة ، التى سمعت من السماء .

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال : [فاستفتهم] أى : اسأل منكرى خلقهم بعد موتهم .

[أهم أشد خلقا] أى : إيجادهم بعد موتهم ، أشد خلقا وأشق ؟ .

[أم من خلقنا] من هذه المخلوقات ؟

فلا بد أن يقروا أن خلق السموات والأرض ، أكبر من خلق الناس .

فيلزمهم إذاً ، الإقرار بالبعث ، بل لو رجعوا إلى أنفسهم ، وفكروا

طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ

فيها ، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب ، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم ، ولهذا قال :

[إنا خلقناهم من طين لازب[1]] أى : قوى شديد كقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » .

* [بل عجبت] أيها الرسول ، أو أيها الإنسان ، من تكذيب من كذب بالبعث ، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة ، والأدلة المستقيمة .

وهو حقيقة ، محل عجب واستغراب ، لأنه مما لا يقبل الإنكار .

[و] أعجب من إنكارهم وأبلغ منه ، أنهم [يسخرون] ممن جاء بالخبر عن البعث .

فلم يكفهم مجرد الإنكار ، حتى زادوا السخرية ، بالقول الحق .

[و] من العجب أيضاً أنهم [إذا ذكروا] ما يعرفون فى فطرهم وعقولهم ، وفطنوا له ، ولفت نظرهم إليه [لا يذكرون] ذلك .

فإن كان جهلا ، فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة حيث ذكروا ما هو مستقر فى الفطرة ، معلوم بالعقل ، لا يقبل الإشكال

---

(١) لازب . أى : ملتزق بعض ببعضه ويلتزق باليد ، لاشتداده .

هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

وإن كان تجاهلا وعناداً ، فهو أعجب وأغرب .

ومن العجب أيضاً ، أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة . وذكروا الآيات التى يخضع لها فحول الرجال ، وألباب الألباء ، يسخرون منها ويعجبون .

ومن العجب أيضاً ، قولهم للحق لما جاءهم : [إن هذا إلا سحر مبين] .

فجعلوا أعلى الأشياء ، وأجلها ، وهو الحق ، فى رتبة أخس الأشياء وأحقرها .

ومن العجب أيضاً ، قياسهم قدرة رب الأرض والسموات ، على قدرة الآدمى الناقص من جميع الوجوه ، فقالوا استبعاداً وإنكارا :

[أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون] .

ولما كان هذا منتهى ما عندهم ، وغاية ما لديهم ، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم فقال :

[قل نعم] ستبعثون ، أنتم وآباؤكم الأولون [وأنتم داخرون] ذليلون صاغرون ، لا تمتنعون ، ولا تستعصون على قدرة الله .

[فإنما هى زجرة واحدة] ينفخ إسرافيل فيها فى الصور [فإذا هم] مبعوثون من قبورهم [ينظرون] كما ابتدىء خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم ، حفاة عراة غرلا .

وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

وفى تلك الحال ، يظهرون الندم ، والخزى ، والخسار ، ويدعون بالويل والثبور .

[وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين] « أى : هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال » فقد أقروا بما كانوا فى الدنيا به يهزأون .

فيقال لهم [هذا يوم الفصل] بين العباد فيما بينهم ، وبين ربهم من الحقوق ، وفيما بينهم ، وبين غيرهم من الخلق .

* أى إذا حضروا يوم القيامة ، وعاينوا ما به يكذبون ، ورأوا ما به يستسخرون ، يؤمر بهم إلى النار ؛ التى بها كانوا يكذبون ؛ فيقال :

[احشروا الذين ظلموا] أنفسهم بالكفر والشرك ؛ والمعاصى [وأزواجهم] الذين من جنس عملهم ، كل يضم إلى من يجانسه فى العمل.

[وما كانوا يعبدون من دون الله] من الأصنام والأنداد . التى زعموها .

اجمعوهم جميعاً [فاهدوهم إلى صراط الجحيم] أى : سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم .

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟

[و] بعد ما يتعين أمرهم إلى النار ، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار ، يقال : [وقفوهم] قبل أن توصلوهم إلى جهنم [إنهم مسئولون] عما كانوا يفترونه فى الدنيا ، ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم .

فيقال لهم : [مالكم لا تناصرون] أى : ما الذى جرى عليكم اليوم ؟ وما الذى طرقكم حتى لا ينصر بعضكم بعضا ، ولا يغيث بعضكم بعضا ، بعد ما كنتم تزعمون فى الدنيا ، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب ، وتغيثكم ، أو تشفع لكم عند الله .

فكأنهم لا يجيبون على هذا السؤال ، لأنهم قد علاهم الذل والصغار ، واستسلموا لعذاب النار ، وخشعوا وخضعوا ، وأبلسوا ، فلم ينطقوا .

ولهذا قال : [بل هم اليوم مستسلمون] « أى: منقادون أذلاء ، فكلهم مستسلم غير منتصر » .

* لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم ، وهدوا إلى صراط الجحيم ، ووقفوا ، فسئلوا ، فلم يجيبوا ، وأقبلوا فيما بينهم ، يلوم بعضهم بعضا ، على إضلالهم وضلالهم .

فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء : [إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين] أى : بالقوة والغلبة ، فتضلونا[1] ، ولو لا أنتم لكنا مؤمنين .

---

(١) يعنى أنكم كنتم تحملوننا على الضلال وتجبروننا ـ بالقوة ـ عليه .

إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[قالوا] لهم [بل لم تكونوا مؤمنين] أى : ما زلتم مشركين ، كما نحن مشركون .

فأى شىء فضلكم علينا ؟ وأى شىء يوجب لومنا [و] الحال أنه [ما كان عليكم من سلطان] أى قهر لكم على اختيار الكفر [بل كنتم قوما طاغين] متجاوزين للحق .

[فحق علينا] « فلزمنا جميعا » نحن وإياكم [قول ربنا إنا لذائقون] العذاب .

أى : حق علينا قدر ربنا ، وقضاؤه ، أنا وإياكم سنذوق العذاب ، ونشترك فى العقاب .

[ف] لذلك [أغويناكم إنا كنا غاوين] أى : دعوناكم إلى طريقتنا التى نحن عليها ، وهى الغواية ، فاستجبتم لنا ، فلا تلومونا ، ولوموا أنفسكم .

قال تعالى : [فإنهم يومئذ] أى يوم القيامة [فى العذاب مشتركون] وإن تفاوتت مقادير عذابهم ، بحسب جرمهم .

كما اشتركوا فى الدنيا على الكفر ، اشتركوا فى الآخرة بجزائه ، ولهذا قال :

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

[إنا كذلك نفعل بالمجرمين[1]] ثم ذكر أن إجرامهم ، قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال :

[إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله] فدعوا إليها ، وأمروا بترك إلهية ما سواه [يستكبرون] عنها ، وعلى من جاء بها .

[ويقولون] معارضة لها [أإنا لتاركو آلهتنا] التى لم نزل نعبدها ، نحن وآباؤنا [لقول شاعر مجنون] يعنون : محمد صلى الله عليه وسلم .

فلم يكفهم قبحهم الله ، الإعراض عنه ، ولا مجرد تكذيبه ، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام ، وجعلوه شاعرا مجنونا ، وهم يعلمون ، أنه لا يعرف الشعر والشعراء ، ولا وصفه وصفهم ، وأنه أعقل خلق الله ، وأعظمهم رأيا .

ولهذا قال تعالى ، ناقضا لقولهم : [بل جاء] محمد [بالحق] أى : مجيئه حقا ، وما جاء به من الشرع والكتاب حق .

[وصدّق المرسلين] أى : ومجيئه صدق المرسلين ، فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين ، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله ، لأنهم أخبروا به وبشروا ، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق ، لئن جاءهم ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأخذوا ذلك على أممهم .

---

(١) أى : إن مثل ذلك العذاب نفعل بالذين أجرموا فى حق الله بالشرك وفعل المعاصى .

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

فلما جاء ، ظهر صدق الرسل الذين قبله ، وتبين كذب من خالفهم .

فلو قدر عدم مجيئه ، وهم قد أخبروا به ، لكان ذلك قادحا فى صدقهم .

وصدق أيضاً المرسلين ، بأن جاء بما جاءوا به ، ودعا إلى ما دعو إليه ، وآمن بهم ، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم ، وشرعهم .

ولما كان قولهم السابق [إنا لذائقون] قولا صادراً منهم ، يحتمل أن يكون صدقا أو غيره ، أخبر تعالى بالقول الفصل الذى لا يحتمل غير الصدق واليقين ، وهو الخبر الصادق منه تعالى فقال :

[إنكم لذائقو العذاب الأليم] أى المؤلم الموجع [وما تجزون] فى إذاقة العذاب الأليم [إلا ما كنتم تعملون] فلم نظلمكم ، وإنما عدلنا فيكم ؟

ولما كان هذا الخطاب ، لفظه عاما ، والمراد به : المشركون ؛ استثنى تعالى المؤمنين فقال :

[إلا عباد الله المخلصين] إلى [مكنون] .

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

---

* يقول تعالى : [إلا عباد الله المخلصين] فإنهم غير ذائقى العذاب الأليم ، لأنهم أخلصوا لله الأعمال ، فأخلصهم ، واختصهم برحمته ، وجاد عليهم بلطفه .

[أولئك لهم رزق معلوم] أى : غير مجهول ، وإنما هو رزق عظيم جليل ، لا يجهل أمره ، ولا يبلغ كنهه .

فسره بقوله : [فواكه] من جميع أنواع الفواكه ، التى تتفكه بها النفس ، للذتها فى لونها وطعمها .

[وهم مكرمون] لا مهانون محتقرون ، بل معظمون مبجلون موقرون .

قد أكرم بعضهم بعضاً ، وأكرمتهم الملائكة الكرام ، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب ، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب .

وأكرمهم أكرم الأكرمين ، وجاد عليهم بأنواع الكرامات ، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان .

[فى جنات النعيم] أى : الجنات ، التى النعيم وصفها ، والسرور نعتها .

وذلك لما جمعته ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وسلمت من كل مايخل بنعيمها ، من جميع المكدرات والمنغصات .

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ

ومن كرامتهم عند ربهم ، وإكرام بعضهم بعضا ، أنهم على [سرور] وهى المجالس المرتفعة ، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة ، المزخرفة المجملة ، فهم متكئون عليها ، على وجه الراحة والطمأنينة ، والفرح .

[متقابلين] فيما بينهم .

قد صفت قلوبهم ، ومحبتهم فيما بينهم ، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض .

فإن مقابلة وجوههم ، تدل على تقابل قلوبهم ، وتأدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره ، أو يجعله إلى جانبه .

بل من كمال السرور والأدب ، ما دل عليه ذلك التقابل .

[يطاف عليهم بكأس من معين] أى : يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم ، بالأشربة اللذيذة ، بالكاسات الجميلة المنظر ، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك ، وهى كاسات الخمر .

وتلك الخمر ، تخالف خمر الدنيا من كل وجه ، فإنها فى لونها [بيضاء] من أحسن الألوان ، وفى طعمها [لذة للشاربين] يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده .

وأنها سالمة [لا فيها غول] العقل وذهابه ، ونزفه ، ونزف مال صاحبها ، وليس فيها صداع ولا كدر .

فلما ذكر طعامهم وشربهم ، ومجالسهم ، وعموم النعيم وتفاصيله ، داخلة فى قوله « جنات النعيم » .

قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

لكن فصل هذه الأشياء ، لتعلم ، فتشتاق النفوس إليها ، ذكر أزواجهم فقال :

[وعندهم قاصرات الطرف عين] أى : وعند أهل دار النعيم ، فى محلاتهم القريبة ، حور حسان ، كاملات الأوصاف ، قاصرات الطرف .

إما أنها قصرت طرفها على زوجها ، لعفتها ، وعدم مجاوزته لغيره ، ولجمال زوجها وكماله ، بحيث لا تطلب فى الجنة سواه ، ولا ترغب إلا به .

وإما ، لأنها قصرت طرف زوجها عليها ، وذلك يدل على كمالها ، وجمالها الفائق ، الذى أوجب لزوجها ، أن يقصر طرفه عليها .

وقصر الطرف أيضا ، يدل على قصر النفس والمحبة عليها .

وكلا المعنيين محتمل ، وكلاهما صحيح .

وكل هذا ، يدل على جمال الرجال والنساء فى الجنة ، ومحبة بعضهم بعضاً ، محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره .

ويدل على شدة عفتهم كلهم ، وأنه لاحسد فيها ولا تباغض ، ولا تشاحن وذلك لانتفاء أسبابه .

[عين] أى : حسان الأعين جميلاتها ، ملاح الحدق .

[كأنهن] أى : الحور [بيض مكنون] أى : مستور ، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها ، ليس فيه كدر ولاشين .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم

---

* لما ذكر تعالى نعيمهم ، وتمام سرورهم ، بالمآكل والمشارب ، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، وصف تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث ، عن الأمور الماضية ، وأنهم ما زالوا فى المحادثة والتساؤل ، حتى أفضى ذلك بهم ، إلى أن قال قائل منهم :

[إنى كان لى قرين] فى الدنيا ، ينكر البعث ، ويلومنى على تصديقى به و [يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون] أى : مجازون بأعمالنا ؟

أى : كيف تصدق بهذا الأمر البعيد ، الذى فى غاية الاستغراب ، وهو أننا ، إذا تمزقنا ، فصرنا ترابا وعظاما ، أننا نبعث ونعاد ، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا ؟!! .

أى : يقول صاحب الجنة لإخوانه : هذه قصتى ، وهذا خبرى ، أنا وقرينى .

مازلت أنا مؤمنا مصدقا ، وهو ما زال مكذبا منكرا للبعث ، حتى متنا ، ثم بعثنا .

فوصلت أنا إلى ما ترون ، من النعيم ، الذى أخبرتنا به الرسل ، وهو لا شك ، أنه قد وصل إلى العذاب .

مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ

[قال هل أنتم مطلعون] لننظر إليه ، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه ، ويكون ذلك رَأْيَ عين ؟

والظاهر من حال أهل الجنة ، وسرور بعضهم ببعض ، وموافقة بعضهم بعضاً ، أنهم أجابوه لما قال ، وذهبوا تبعاً له ، للاطلاع على قرينه .

[فاطلع فرآه] أى : رأى قرينه [فى سواء الجحيم] ، أى : فى وسط العذاب وغمراته ، والعذاب قد أحاط به .

[قال] له ، لائماً على حاله وشاكراً لله ، على أن نجاه من كيده .

[تالله إن كدت لتردينى] أى : تهلكنى بسبب ما أدخلت علىّ من الشُّبَه بزعمك .

[ولولا نعمة ربى] على أن ثبتنى على الإسلام [لكنت من المحضرين] فى العذاب معك [أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين] .

أى : يقوله المؤمن ، مبتهجا بنعمة الله ؛ على أهل الجنة ؛ بالخلود الدائم فيها ؛ والسلامة من العذاب : استفهام بمعنى الإثبات والتقرير .

وقوله [فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] وحذف المعمول ؛ والمقام مقام لذة وسرور ؛ يدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به ؛ والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال .

بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم ، والبحث عنه ، فوق اللذات الجارية فى أحاديث الدنيا ؛ فلهم من هذا النوع ، النصيب الوافر. ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية فى الجنة ، مالا يمكن التعبير عنه .

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة ، مدحه ، وشوّق العاملين ، وحثّهم على العمل له فقال :

[إن هذا لهو الفوز العظيم] الذى حصل لهم به كل خير،وكل ماتهوى النفوس وتشتهى ، واندفع عنهم به ، كل محذور ومكروه .

فهل فوز يطلب فوقه ؟ أم هو غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات ، وفرحوا بقربه ، وتنعموا بمعرفته وسروا برؤيته ، وطربوا لكلامه ؟ .

[لمثل هذا فليعمل العاملون] فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس .

والحسرة كل الحسرة ، أن يمضى على الحازم ، وقت من أوقاته ، وهو غير مشتغل بالعمل ، الذى يقرب لهذه الدار ، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار ؟!! .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ

---

* [أذلك خير نزلا] أى : ذلك النعيم الذى وصفناه لأهل الجنة ،خير ، أم العذاب الذى يكون فى الجحيم ، من جميع أصناف العذاب ؟ .

فأى الطعامين أولى ؟ الطعام الذى وصف فى الجنة [أم] طعام أهل النار ؟ وهو [شجرة الزقوم . إنا جعلنا فتنة] أى عذابا ونكالا [للظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى .

[إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم] أى : وسطه فهذا مخرجها ، ومعدنها شر المعادن وأسوأها .

وشر المغرس ، يدل على شر الغراس وخسته ، ولهذا نبهنا الله على شرها، بما ذكر أين تنبت به ، وبما ذكر من صفة ثمرتها .

وأن [طلعها كأنه رءوس الشياطين] فلا تسأل بعد هذا ، عن طعمها، وما تفعل فى أجوافهم وبطونهم ، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل .

ولهذا قال : [فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون] فهذا طعام أهل النار ، فبئس الطعام طعامهم ، ثم ذكر شرابهم فقال :

[ثم إن لهم عليها] أى : على أثر هذا الطعام [لشوبا من حميم] .
أى : ماء حارا ، قد تناهى حره ، كما قال تعالى « وإن يستغيثوا يغاثوا

مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ

بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » وكما قال تعالى « وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم » .

[ثم إن مرجعهم] أى مآلهم ومقرهم ومأواهم [لإلى الجحيم] ، ليذوقوا من عذابه الشديد ، وحره العظيم ، ما ليس عليه مزيد من الشقاء .

وكأنه قيل : ما الذى أوصلهم إلى هذه الدار ؟ فقال :

[إنهم ألفوا] أى وجدوا [آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون] أى . يسرعون فى الضلال .

فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين .

بل عارضوهم بأن قالوا « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

[ولقد ضل قبلهم] أى:قبل هؤلاء المخاطبين [أكثر الأولين] وقليل منهم ، من آمن واهتدى .

و[ولقد أرسلنا فيهم منذرين] ينذرونهم من غيهم وضلالهم [فانظر كيف كان عاقبة المنذرين] كانت عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم ، فيصيبهم مثل ما أصابهم .

عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾

ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين . بل منهم من آمن ، وأخلص الدين لله ، استثناهم الله من الهلاك فقال :

[إلا عباد الله المخلصين] أى : الذين أخلصهم الله ، وخصهم برحمته لإخلاصهم ، فإن عواقبهم صارت حميدة .

ثم ذكر نموذجا من عواقب الأمم المكذبين فقال : [ولقد نادانا نوح] إلى [ثم أغرقنا الآخرين] .

* يخبر تعالى عن عبده ورسوله ، نوح عليه السلام ، أول الرسل . أنه لما دعا قومه إلى الله ، تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه ، إلا فرارا ،أنه نادى ربه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » الآية .

وقال[رب انصرنى على القوم المفسدين] .

فاستجاب الله له ، ومدح تعالى نفسه فقال [فلنعم المجيبون] لدعاء الداعين ، وسماع تبتلهم وتضرعهم .

أجابه إجابة ، طابقت ما سأل ، فنجاه وأهله من الكرب العظيم ، وأغرق جميع الكافرين ، وأبقى نسله وذريته متسلسلين ، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام .

وجعل له ثناء حسنا مستمراً إلى وقت الآخرين ، وذلك لأنه محسن فى عبادة الخالق ، محسن إلى الخلق .

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً

وهذه سنته تعالى فى المحسنين ، أن ينشر لهم من الثناء ، على حسب إحسانهم .

ودل قوله : [إنه من عبادنا المؤمنين] أن الإيمان أرفع منازل العباد وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين ، وأصوله ، وفروعه ، لأن الله مدح به خواص خلقه .

* أي : وإن من شيعة نوح عليه السلام ، ومن هو على طريقته فى النبوة والرسالة ، ودعوة الخلق إلى الله ، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام [إذ جاء ربه بقلب سليم] من الشرك والشبه ، والشهوات المانعة من تصور الحق ، والعمل به .

وإذا كان قلب العبد سليما ، سلم من كل شر ، وحصل له كل خير .

ومن سلامته ، أنه سليم من غش الخلق وحسدهم ، وغير ذلك من مساوىء الأخلاق ، ولهذا نصح الخلق فى الله ، وبدأ بأبيه وقومه فقال:

[إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون] هذا استفهام على وجه الإنكار ، وإلزام لهم بالحجة .

دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾

[أإفكا آلهة دون الله تريدون] أى : أتعبدون من دون الله آلهة كذباً ، ليست بآلهة ، ولا تصلح للعبادة ، فما ظنكم برب العالمين ، أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره ؟

وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب ، على الإقامة على شركهم .

[فما ظنكم برب العالمين] أى : وما الذى ظننتم برب العالمين ، من النقص حتى جعلتم له أندادا وشركاء .

فأراد عليه السلام ، أن يكسر أصنامهم ، ويتمكن من ذلك ، فانتهز الفرصة ، فى حين غفلة منهم ، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم ، نخرج معهم [فنظر نظرة فى النجوم * فقال إنى سقيم] .

فى الحديث الصحيح « لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات : قوله « إنى سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله عن زوجته « إنها أختى » .

والقصد أنه تخلف عنهم ، ليتم له الكيد بآلهتهم [ف] لهذا [تولوا عنه مدبرين] فوجد الفرصة .

[فراغ إلى آلهتهم] أى : أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة .

[فقال] متهكما بها [ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون] أى : فكيف

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا

يليق أن تعبد ، وهى أنقص من الحيوانات ، التى تأكل وتتكلم ؟ وهذه جمادات لا تأكل ولا تتكلم .

[فراغ[1] عليهم ضربا باليمين] أى : جعل يضربها بقوته ونشاطه ، حتى جعلها جذاذا ، إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون .

[فأقبلوا إليه يزفون] أى: يسرعون ويهرعون ، ويريدون أن يوقعوا به ، بعد ما بحثوا وقالوا : « من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » .

وقيل لهم « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » يقول « تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فوبخوه ولاموه ، فقال « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم » الآية .

و[قال] هنا : [أتعبدون ما تنحتون] أى : تنحتونه بأيديكم وتصنعونه ؟

فكيف تعبدونهم ، وأنتم الذين صنعتموهم ، وتتركون الإخلاص لله؟.

[والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنيانا] أى . عاليا مرتفعاً ،

---

(١) فراغ . أى : مال إليها خفية ليحطمها .

فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

وأوقدوا فيه النار [فألقوه فى الجحيم] جزاء على ما فعل ، من تكسير آلهتهم .

[فأرادوا به كيدا] ليقتلوه ، أشنع قتلة [فجعلناهم الأسفلين] رد الله كيدهم فى نحورهم ، وجعل النار على إبراهيم بردا وسلاما .

[و] لما فعلوا فيه هذا الفعل ، وأقام عليهم الحجة ، وأعذر منهم [قال إنى ذاهب إلى ربى] أى : مهاجر إليه ، قاصد إلى الأرض المباركة ، أرض الشام .

[سيهدين] يدلنى على ما فيه الخير لى ، من أمر دينى ودنياي .

وقال فى الآية الأخرى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا » .

[رب هب لى] ولدا يكون [من الصالحين] وذلك ، عند ما أيس من قومه ، ولم يرفيهم خيراً ، دعا الله أن يهب له غلاما صالحا ، ينفع الله به فى حياته ، وبعد مماته .

فاستجاب الله له وقال : [فبشرناه بغلام حليم] وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك ، فإنه ذكر بعده البشارة ، وبإسحق ، ولأن الله تعالى قال فى بشراه بإسحق « فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب » .

فدل على أن إسحق غير الذبيح .

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم ، وهو يتضمن الصبر ، وحسن

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ

الخلق ، وسعة الصدر والعفو ، عمن جنى .

[فلما بلغ] الغلام [معه السعى] أى : أدرك أن يسعى معه ، وبلغ سنا يكون فى الغالب ، أحب ما يكون لوالديه ، قد ذهبت مشقته ، وأقبلت منفعته .

فقال له إبراهيم عليه السلام : [إنى أرى فى المنام أنى أذبحك] .

أى : قد رأيت فى النوم.والرؤيا ،أن الله يأمرنى بذبحك،ورؤيا الأنبياء وحى [فانظر ماذا ترى] فإن أمر الله تعالى ، لا بد من تنفيذه .

[قال] إسمعيل صابرا محتسبا ، مرضيا لربه ، وبارا بولده :

[يا أبت افعل ما تؤمر] أى : امض لما أمرك الله [ستجدنى إن شاء الله من الصابرين] .

أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر ، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى ، لأنه لا يكون شىء بدون مشيئة الله .

[فلما أسلما] أى : إبراهيم وابنه إسماعيل : إبراهيم جازما بقتل ابنه وثمرة فؤاده ، امتثالا لأمر ربه ، وخوفا من عتابه .

والابن قد وطَّن نفسه على الصبر ، وهانت عليه فى طاعة ربه ، ورضا والده .

أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ

[وتله[1] للجبين] أى : تل إبراهيم إسماعيل على جبينه ، ليضجعه فيذبحه ، وقد انكب لوجهه ، لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه .

[وناديناه] فى تلك الحال المزعجة ، والأمر المدهش [أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا] أى قد فعلت ما أمرت به ، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك ، وفعلت كل سبب ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه [إنا كذلك نجزى المحسنين] فى عبادتنا ، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم .

[إن هذا] الذى امتحنا به إبراهيم عليه السلام [لهو البلاء المبين] أى : الواضح ، الذى تبين به صفاء إبراهيم ، وكمال محبته لربه ، وخلته .

فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم ، أحبه حبا شديداً ، وهو خليل الرحمن ، والخلة أعلى أنواع المحبة ، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضى أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب .

فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه ، بابنه إسماعيل ، أراد تعالى أن يصفى وُدَّه ويختبر خلته .

فأمره أن يذبح ، من زاحم حبه ، حب ربه .

فلما قدم حب الله ، وآثره على هواه ، وعزم على ذبحه ، وزال ما فى القلب من المزاحم ، بقى الذبح لا فائدة فيه ، فلهذا قال : [إن هذا لهو البلاء المبين*وفديناه بذبح عظيم] أى:صار بدله ذبح من الغنم عظيم،ذبحه إبراهيم .

---

(١) تله . أى : صرعه وألقاه على إحدى جبينيه . ولكل إنسان جبينان ، بينهما الجبهة .

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

فكان عظيما من جهة أنه كان فداء لإسماعيل .

ومن جهة أنه ، من جملة العبادات الجليلة .

ومن جهة أنه كان قربانا وسنة إلى يوم القيامة .

[وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم] أى : وأبقينا عليه ثناء صادقا فى الآخرين ، كما كان فى الأولين .

فكل[1] وقت بعد إبراهيم عليه السلام ، فإنه فيه محبوب معظم مَثْنِىٌّ عليه .

[سلام على إبراهيم] أى : تحية عليه كقوله : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » .

[إنا كذلك نجزى المحسنين] فى عبادة الله ، ومعاملة خلقه ، أن نفرج عنهم الشدائد ، ونجعل لهم العاقبة ، والثناء الحسن .

[إنه من عبادنا المؤمنين] بما أمر الله بالإيمان به ، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين ، كما قال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

---

(١) قوله « فكل وقت الخ » تعبير فيه ارتباك ، ولو قال « فكل وقت يذكر فيه إبراهيم عليه السلام ، يذكر بالتعظيم والثناء الجميل لأنه محبوب ومعظم عند جميع الناس على اختلاف أديانهم وشرائهم » لكان أوضح للقراء ، على اختلاف طبقاتهم .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْـهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

[وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين] هذه البشارة الثانية بإسحاق ، الذى من ورائه يعقوب .

فبشر بوجوده وبقائه ، ووجود ذريته ، وكونه نبيا من الصالحين . فهى بشارات متعددة .

[وباركنا عليه وعلى إسحق] أى : أنزلنا عليهما البركة ، التى هى النمو والزيادة فى علمهما ، وعملهما وذريتهما ، فنشر الله من ذريتهما ، ثلاث أمم عظيمة .

أمه العرب من ذرية إسمعيل ، وأمة بنى إسرائيل ، وأمة الروم من ذرية إسحق .

[ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين] أى : منهم الصالح والطالح ، والعادل والظالم الذى تبين ظلمه ، بكفره وشركه .

ولعل هذا من باب دفع الإيهام ، فإنه لما قال « وباركنا عليهما » اقتضى ذلك ، البركة فى ذريتهما ، وأن من تمام البركة ، أن تكون الذرية كلهم محسنين .

فأخبر الله تعالى أن منهم محسنا ، وظالما . والله أعلم .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

---

* يذكر تعالى مِنّتَهُ على عبديه ، ورسوليه ، موسى ، وهرون ابنى عمران ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله تعالى ، ونجاتهما وقومهما من عدوهما ، فرعون ، ونصرهما عليه ، حتى أغرقه الله ، وهم ينظرون ، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين ، وهو التوراة التى فيها الأحكام ، والمواعظ ، وتفصيل كل شيء ، وأن الله هداهما الصراط المستقيم ، بأن شرع لهما دينا ، ذا أحكام وشرائع مستقيمة ، موصلة إلى الله ، ومَنّ عليهما بسلوكه .

[وتركنا عليهما فى الآخرين * وسلام على موسى وهرون] أى أبقى عليهما ، ثناء حسنا ، وتحية فى الآخرين ، ومن باب أولى وأحرى ، فى الأولين [إنا كذلك نجزى المحسنين[1] إنهما من عباد نا المؤمنين[2]] .

---

(١) المحسنين . أى : لأنفسهم ، اللذين هما من جملتهم ، لا جزاء قاصراً عنه .

(٢) أى : الراسخين فى الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان .

* وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

---

* يمدح تعالى ، عبده ورسوله ، إلياس عليه الصلاة والسلام ، بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى الله .

وأنه أمر قومه بالتقوى ، وعبادة الله وحده ، ونهاهم عن عبادتهم ،صنما لهم يقال له « بعل » وتركهم عبادة الله ، الذى خلق الخلق ، وأحسن خلقهم ، ورباهم فأحسن تربيتهم ، وأدرّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة .

وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة صنم ، لا يضر ، ولا ينفع ، ولا يخلق ، ولا يرزق ، بل لا يأكل ولا يتكلم ؟ ! ! وهل هذا إلا من أعظم الضلال ، والسفه ، والغى ؟ !!

[فكذبوه] فيما دعاهم إليه ، فلم ينقادوا له ، قال الله متوعدا له :

[فإنهم لمحضرون] أى يوم القيامة فى العذاب ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية .

[إلا عباد الله المخلصين] أى : الذين أخلصهم الله ، ومنّ عليهم باتباع نبيهم ، فإنهم غير محضرين فى العذاب ، وإنما لهم من الله ، جزيل الثواب.

[وتركنا عليه] أى : على إلياس [فى الآخرين] ثناء حسنا .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

[سلام على إلياسين] أى: تحية من الله، ومن عباده عليه .

[إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين] فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله ، لوط بالنبوة والرسالة ، ودعوته إلى الله قومه ، ونهيهم عن الشرك ، وفعل الفاحشة .

فلما لم ينتهوا ، نجاه الله وأهله أجمعين ، فسروا ليلا فنجوا .

[إلا عجوزا فى الغابرين] أى : الباقين المعذبين ، وهى زوجة لوط لم تكن على دينه .

[ثم دمرنا الآخرين] بأن قلبنا عليهم ديارهم « فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » حتى همدوا وخمدوا .

[إنكم لتمرون عليهم] أى : على ديار قوم لوط [مصبحين وبالليل] أى : فى هذه الأوقات ، يكثر ترددكم إليها ومروركم بها ، فلم تقبل الشك والمرية [أفلا تعقلون] الآيات والعبر ، وتنزجرون عما يوجب الهلاك ؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى

* وهذا ثناء منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله.

وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها، بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال:

[إذ أبق[1]] أى: من ربه مغاضبا له ظانا أنه لا يقدر عليه، ويحبسه فى بطن الحوت.

---

(١) قوله « إذ أبق » أى « من ربه مغاضبا له » إلى قوله « وهو مغاضبته لربه ».

أقول: ذكر المؤلف هنا كلاما، خلاف ما ذكره المفسرون.

فأوهم كلامه أن يونس عليه السلام هرب من ربه مغاضبا له، ظانا أن الله لا يقدر أن يدركه ولا يستطيع حبسه فى بطن الحوت، وأنه ارتكب ذنبا.

ومعلوم أن الإجماع قد انعقد على أن الأنبياء معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها.

والمؤلف هنا جعله مرتكبا ذنبا، مستندا إلى قوله تعالى (أبق) مع أن إباقه لم يكن عن قصد مخالفته الله بل كان لتأخر نزول العذاب الذى كان وعد قومه بنزوله عليهم، فلما تأخر نزول العذاب، أداه اجتهاده أن يهجر قومه ويعيش بعيدا عنهم، متيقنا أن الله لا يضيق عليهم فى حياته المعيشية.

وهذا من اجتهادات الأنبياء التى تحتمل الخطأ والصواب. =

. . . .

ولم يذكر الله ما غاضب عليه ، ولا ذنبه الذى ارتكبه ، لعدم فائدتنا بذكره .

= مع العلم بأن الوحى ينزل عليهم فورا ويردون إلى الصواب،ولا يقرون على الخطأ .

ومثاله : اجتهاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أمر أسرى « بدر » واجتهاده فى النهى عن تلقيح النخل .

فما قررنا يتضح أن يونس اجتهد فى هجران قومه ، لا أنه عمد إلى مخالفة أمر ربه حتى نقول : إنه ارتكب ذنبا كما صرح المؤلف هنا .

كما أنه فسر « الظن » فى قوله تعالى : (فظن أن لن نقدر عليه) على حقيقته وهو إدراك الطرف الراجح ، مع أن الظن هنا بمعنى اليقين .

ونظيره قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) أى : يعتقدون ويتيقنون .

وأيضاً فسر القدرة فى قوله تعالى (لن نقدر عليه) على حقيقته الذى هو ضد العجز .

مع أن معنى « لن نقدر » لن نضيق ، ونظيره قوله تعالى « ومن قدر عليه رزقه فل فَلْيُنْفِقْ مما آتاه الله » أى : من نضيق عليه رزقه .

وكذا فسر « مغاضبا » بقوله « مغاضبا له » (أى لربه) .

مع أن المعنى : مغاضبا لقومه أى : غضبان عليهم ، مما قاسى منهم ، من معاندتهم وعدم استجابتهم لدعوته . =

ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

وإنما فائدتنا بما ذكر لنا عنه ، أنه أذنب ، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام ، وأنه نجاه بعد ذلك ، وأزال عنه الملام ، وقيض له ما هو سبب صلاحه .

فلما أبق لجأ [إلى الفلك المشحون] بالركاب والأمتعة ، فلما ركب مع غيره ، والفلك شاحن ، ثقلت السفينة فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب ، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية فى ذلك ، فاقترعوا على أن من قرع وغلب ، ألقى فى البحر عدلا من أهل السفينة ، وإذا أراد الله أمرا ، هيأ أسبابه .

فلما اقترعوا ، أصابت القرعة يونس [فكان من المدحضين] .

أى: المغلوبين ، فألقى فى البحر [فالتقمه الحوت وهو] وقت التقامه [مليم] .

أى : فاعل ما يلام عليه ، وهو مغاضبته لربه .

[فلولا أنه كان من المسبحين] أى : فى وقته السابق[1] بكثرة عبادته

= ومن أراد الاستقصاء والوقوف على الحقيقة ، فليرجع إلى كتاب « عصمة الأنبياء » للرازى ، وإلى المفسرين ، كأبى السعود ، والنسفى ، وابن كثير . يجد ما يؤيد كلامنا وتعقيبنا هذا . وكم كنت أود أن أذكر خلاصة ما قاله المفسرون فى هذه الآية ، ولكن وجدت نفسى أمام كلام طويل وروايات شتى ، مما لا يتسع المقام هنا لاستيعابه واستقصائه .

(١) قوله فى وقته السابق . أى : قبل وقوعه فى بطن الحوت ، لأنه عليه السلام ، كان كثير الصلاة فى الرخاء .

ولا شك أن من أقبل على ربه فى السراء ، أخذ بيده عند الضراء .

وهذا ما يؤيده قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « تعرف إلى الله فى الرخاء ، يعرفك فى الشدة » .

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

لربه ، وتسبيحه ، وتحميده ، وفى بطن الحوت حيث قال « لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

[للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون] أى : لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله ، نجاه الله تعالى .

وكذلك ينجى الله المؤمنين ، عند وقوعهم فى الشدائد .

[فنبذناه بالعراء] بأن : قذفه الحوت من بطنه بالعراء ، وهى الأرض الخالية العارية من كل أحد ، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال [وهو سقيم] أى قد سقم ومرض ، بسبب حبسه فى بطن الحوت ، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة .

[وأنبتنا عليه شجرة من يقطين[1] تظله بظلها الظليل ، لأنها باردة الظلال ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهذا من لطفه به ، وبره .

---

(١) يقطين . أى: القرع كما ذهب إليه الجمهور . وفائدته ، أن الذباب لا يجتمع عنده . وأنه أسرع الأشجار نباتا وامتداداً ، وارتفاعاً ، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال : « أجل: هى شجرة أخى يونس » اهـ . تفسير النسفى .

وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

ثم لطف به لطفا آخر ، وامْتَنَّ عليه مِنةً عظمى ، وهو أنه أرسله [إلى مائة ألف] من الناس [أو يزيدون] عنها .

والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها ، لم ينقصوا ، فدعاهم إلى الله تعالى [فآمنوا] فصاروا فى موازينه ، لأنه الداعى لهم .

[فمتعناهم إلى حين] بأن صرف الله عنهم العذاب ، بعد ما انعقدت أسبابه .

قال تعالى . « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ».

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. [فاستفتهم] أى: اسأل المشركين بالله غيره ، الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنها بنات الله ، فجمعوا بين الشرك بالله ، ووصفه بما لا يليق بجلاله .

[ألربك البنات ولهم البنون] أى : هذه قسمة ضيزى . وقول جائر ، من جهة جعلهم الولد لله تعالى ، ومن جهة جعلهم، أردأ القسمين وأخسهما، له وهو البنات اللاتى لا يرضونهن لأنفسهم ، كما قال فى الآية الأخرى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » .

ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله ، وحكمهم بذلك .

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قال تعالى فى بيان كذبهم : [أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون] خلقهم ؟ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنهم ما شهدوا خلقهم .

فدل على أنهم قالوا هذا القول ، بلا علم ، بل افتراء على الله ، ولهذا قال تعالى :

[ألا إنهم من إفكهم] أى : كذبهم الواضح [ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون] « فى قولهم ذلك كذبا بيناً لا ريب فيه » .

[أصطفى] أى : اختار [البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون] هذا الحكم الجائر [أفلا تذكرون] وتميزون هذا القول الباطل الجائر .

[فإنكم لو تذكرتم ، لم تقولوا هذا القول .

[أم لكم سلطان مبين] أى : حجة ظاهرة على قولكم ، من كتاب ، أو رسول .

وكل هذا غير واقع ولهذا قال : [فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين] فإن من يقول قولا ، لا يقيم عليه حجة شرعية ، فإنه كاذب متعمد ، أو قائل على الله ، بلا علم .

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

---

* أى : جعل هؤلاء المشركون بالله ، بين الله وبين الجنة نسباً ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن أمهاتهم سروات الجن .

والحال أن الجنة ، قد علمت أنهم محضرون بين يدى الله ، ليجازيهم ، فهم عباد أذلاء فلو كان بينهم وبينه نسب ، لم يكونوا كذلك .

[سبحان الله] الملك العظيم ، والكامل الحليم [عما يصفون] به ربهم من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم .

[إلا عباد الله المخلصين] فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به ، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله ، وبذلك كانوا مخلصين .

* أى : إنكم أيها المشركون ، ومن عبدتموه مع الله ، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم ، فنفذ فيه القضاء الإلهى .

والمقصود من هذا ، بيان عجزهم وعجز آلهتهم ، عن إضلال أحد ، وبيان كمال قدرة الله تعالى .

أى : فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين .

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ

---

* هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام ، عما قاله فيهم المشركون . وأنهم عباد الله ، لا يعصونه طرفة عين .

فما منهم من أحد ، إلا وله مقام وتدبير ، قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه ، وليس لهم من الأمر شيء .

[وإنا لنحن الصافون[1]] في طاعة الله وخدمته [و[إنا لنحن المسبحون] « أي : والمقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه » .

فكيف ـ مع هذا ـ يصلحون أن يكونوا شركاء ؟! « تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً » .

* يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين ، يظهرون التمنى ، ويقولون : لو جاءنا من الذكر والكتب ، ما جاء الأولين ، لأخلصنا لله العبادة ، بل لكنا المخلصين على الحقيقة .

وهم كَذَبَة فى ذلك ، فقد جاءهم أفضل الكتب ، فكفروا به ، فعلم أنهم متمردون على الحق [فسوف يعلمون] العذاب ، حين يقع بهم .

ولا يحسبوا أيضا أنهم فى الدنيا غالبون ، بل قد سبقت كلمة الله ، التى لا مرد لها ولا مخالف لها ، لعباده المرسلين ، وجنده المفلحين ، أنهم الغالبون

---

(١) أى : نصطف فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة . أو نصفُّ حول العرش ، داعين للمؤمنين .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ

لغيرهم ، المنصورون من ربهم ، نصرا عزيزا ، يتمكنون فيه من إقامة دينهم .

وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله ، بأن كانت أحواله مستقيمة ، وقاتل من أمر بقتالهم ، أنه غالب منصور .

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ، ولم يقبلوا الحق ، وأنه مابقى إلا انتظار مايحل بهم من العذاب ، ولهذا ، قال :

[وأبصرهم فسوف يبصرون] من يحل به النكل ، فإنه سيحل بهم .
[فإذا نزل بساحتهم] أى : نزل عليهم ، وقريبا منهم [فساء صباح المنذرين] .
لأنه صباح الشر ، والعقوبة ، والاستئصال .

ثم كرر الأمر بالتولى عنهم ، وتهديدهم بوقوع العذاب .

ولما ذكر فى هذه السورة ، كثيرا من أقوالهم الشنيعة ، التى وصفوه بها ، نزه نفسه عنها فقال :

[سبحان ربك] أى : تنزه وتعالى [رب العزة] أى : الذى عز ، فقهر

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

كل شيء ، واعتز عن كل سوء يصفونه به .

[وسلام على المرسلين] لسلامتهم من الذنوب والآفات ، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات .

[والحمد لله رب العالمين] الألف واللام ، للاستغراق ، فجميع أنواع الحمد ، من الصفات الكاملة العظيمة ، والأفعال التى ربى بها العالمين ، وأدرّ عليهم فيها النعم ، وصرف عنهم بها النقم ، ودبرهم تعالى فى حركاتهم وسكونهم ، وفى جميع أحوالهم ، كلها لله تعالى .

فهو المقدس عن النقص ، المحمود بكل كمال ، المحبوب المعظم .

ورسله سالمون مسلم عليهم ، ومن اتبعهم فى ذلك ، له السلامة فى الدنيا والآخرة .

وأعداؤه ، لهم الهلاك والعطب ، فى الدنيا والآخرة .

تم تفسير سورة الصفات فى ٦ شوال سنة ١٣٤٣

على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدى

وصلى الله على محمد وسلم تسليما ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

تفسير

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

* هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن ، وحال المكذبين به معه ، ومع من جاء به فقال :

[ص ، والقرآن ذى الذكر] أى : ذى القدر العظيم ، والشرف ، المُذَكِّرِ للعباد ، كل ما يحتاجون إليه من العلم ، بأسماء الله وأفعاله ، ومن العلم ، بأحكام الله الشرعية ، ومن العلم ، بأحكام المعاد والجزاء .

فهو مذكر لهم ، فى أصول دينهم وفروعه .

وهنا لايحتاج إلى ذكر المقسم عليه ، فإن حقيقة الأمر ، أن المقسم به وعليه ، شىء واحد ، وهو : هذا القرآن ، الموصوف بهذا الوصف الجليل .

فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ

فإذا كان القرآن بهذا الوصف ، علم أن ضرورة العباد إليه ، فوق كل ضرورة .

وكان الواجب عليهم ، تلقيه بالإيمان ، والتصديق ، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه .

فهدي الله من هدى لهذا ، وأبى الكافرون به ، وبمن أنزله ، وصار معهم [فى عزة وشقاق] عزة وامتناع عن الإيمان به ، واستكبار وشقاق له ، أى : مشاقة ومخاصمة فى رده وإبطاله ، وفى القدح بمن جاء به .

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية ، المكذبة بالرسل ، وأنهم حين جاءهم الهلاك ، نادوا ، واستغاثوا فى صرف العذاب عنهم .

ولكن [لات حين مناص] أى : وليس الوقت ، وقت خلاص ، مما وقعوا فيه ، ولا فرج لما أصابهم .

فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم ، فيصيبهم ما أصابهم .

[وعجبوا أن جاءهم منذر منهم] أى : عجب هؤلاء المكذبون فى أمر ، ليس محل عجب ، أن جاءهم منذر منهم ، ليتمكنوا من التلقى عنه ، وليعرفوه حق المعرفة .

ولأنه من قومهم ، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه .

فهذا ، مما يوجب الشكر عليهم ، وتمام الانقياد له .

هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ

ولكنهم عكسوا القضية ، فتعجبوا تعجب إنكار [وقالوا] من كفرهم وظلمهم : [هذا ساحر كذاب] .

وذنبه ـ عندهم ـ أنه [جعل الآلهة إلها واحداً] أى : كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده .

[إن هذا] الذى جاء به [لشىء عجاب] أى : يقضى منه العجب ، لبطلانه وفساده عندهم .

[وانطلق الملأ منهم] المقبول قولهم ، محرضين قومهم على التمسك ، بما هم عليه من الشرك .

[أن امشوا واصبروا على آلهتكم] أى : استمروا عليها ، وجاهدوا نفوسكم فى الصبر عليها ، وعلى عبادتها ، ولا يردكم عنها راد ، ولا يصدنكم عن عبادتها ، صاد .

[إن هذا] الذى جاء به محمد ، من النهى عن عبادتها [لشىء يراد] أى : يقصد ، أى : له قصد ، ونية غير صالحة فى ذلك ، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء .

فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق ، لايرد قوله بالقدح فى نيته ، فنيته وعمله ، له .

إِلاَّ ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ

وإنما يرد بمقابلته ، بما يبطله ويفسده ، من الحجج والبراهين .

وهم قصدهم ، أن محمداً ، ما دعاكم إلى ما دعاكم ، إلا ليرأس فيكم ، ويكون معظما عندكم ، ومتبوعا .

[ماسمعنا بهذا] القول الذى قاله، والدين الذى دعا إليه [فى الملة الآخرة] أى : فى الوقت الأخير ، فلا أدركنا عليه آباءنا ، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه .

فامضوا على الذى مضى عليه آباؤكم ، فإنه الحق .

وما هذا الذى دعا إليه محمد ، إلا اختلاق اختلقه ، وكذب افتراه .

وهذه أيضاً شبهة ، من جنس شبهتهم الأولى ، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول ، وهو أنه ، قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون .

فأين فى هذا ؛ مايدل على بطلانه ؟ .

[أأنزل عليه الذكر من بيننا] أى : ما الذى فضله علينا ، حتى ينزل الذكر عليه ، من دوننا ، ويخصه الله به ؟

وهذه أيضاً شبهة ، أين البرهان فيها على رد ما قاله ؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف ، يَمُنُّ الله عليهم برسالته ، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله .

ولهذا ، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم ، لا يصلح شىء منها لرد ما جاء به الرسول ؛ أخبر تعالى ، من أين صدرت ، وأنهم [فى شك من ذكرى] ليس عندهم علم ولا بينة .

مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ

فلما وقعوا فى الشك ، وارتضوا به ، وجاءهم الحق الواضح ، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم ، قالوا ماقالوا ، من تلك الأقوال ، لدفع الحق لا عن بينة من أمرهم ، وإنما ذلك ، من باب الائتفاك منهم .

ومن المعلوم ، أن من هو بهذه الصفة ، يتكلم عن شك وعناد .

فإن قوله ، غير مقبول ، ولا قادح أدنى قدح فى الحق ، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم ، بمجرد كلامه ، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال :

[بل لما يذوقوا عذاب] أى : قالوا هذه الأقوال ، وتجرأوا عليها ، حيث كانوا ممتعين فى الدنيا ، لم يصبهم من عذاب الله شىء ، فلو ذاقوا عذابه ، لم يتجرأوا .

[أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب] فيعطون منها من شاءوا ، ويمنعون منها ، من شاءوا حيث قالوا : [أأنزل عليه الذكر من بيننا] أى : هذا فضله تعالى ورحمته ، وليس ذلك بأيديهم ، حتى يتجرأوا على الله .

[أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما] بحيث يكونون قادرين على ما يريدون .

[فليرتقوا فى الأسباب] الموصلة لهم إلى السماء ، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله .

مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

فكيف يتكلمون ، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم ، بما تكلموا به .؟!

أم قصدهم التحزب ، والتجند ، والتعاون على نصر الباطل ، وخذلان الحق ؟ وهو الواقع .

فإن هذا المقصود ، لا يتم لهم ، بل سعيهم خائب ، وجندهم مهزوم ولهذا قال :

[جند ما هنا لك مهزوم من الأحزاب] «أى : كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك ، وأولئك قد قهروا ، وأهلكوا ، فكذلك نهلك هؤلاء » .

* يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ، ما فعل بالأمم من قبلهم ، الذين كانوا أعظم قوة منهم ، وتحزبا على الباطل [قوم نوح وعاد] قوم هود [وفرعون ذو الأوتاد] أى : الجنود العظيمة ، والقوة الهائلة .

[وثمود] قوم صالح .

[وقوم لوط وأصحاب الأيكة] أى : الأشجار ، والبساتين الملتفة ، وهم قوم شعيب .

[أولئك الأحزاب] الذين اجتمعوا بقوتهم ، وعَدَدِهمْ وعُدَدِهمْ على رد الحق ، فلم تغن عنهم شيئا .

وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

[إن كل] من هؤلاء [إلا كذب الرسل فحق عليها عقاب] الله . وهؤلاء ، ماالذى يطهرهم ويزكيهم ، أن لا يصيبهم ، ماأصاب أولئك. فلينتظروا [وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق] . أى: من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم ، إن أقاموا على ما هم عليه.

* أى : قال هؤلاء المكذبون ، من جهلهم ، ومعاندتهم الحق ، مستعجلين للعذاب :

[ربنا عجل لنا قطنا] أى : قسطنا ، وما قسم لنا من العذاب عاجلا [قبل يوم الحساب] ولَجوا فى هذا القول، وزعموا أنك يا محمد ، إن كنت صادقاً ، فعلامة صدقك ، أن تأتيهم بالعذاب ، فقال الله لرسوله :

[اصبر على ما يقولون] كما صبر مَنْ قبلك من الرسل ، فإن قولهم لا يضر الحق شيئا ، ولا يضرونك فى شىء ، وإنما يضرون أنفسهم .

* لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، كما قال فى الآية الأخرى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

ومن أعظم العابدين ، نبى الله داود عليه الصلاة والسلام [ذا الأيد] أى : القوة العظيمة على عبادة الله تعالى ،فى بدنه وقلبه .

[إنه أواب] أى : رجّاع إلى الله فى جميع الأمور بالإنابة إليه ، بالحب والتأله ، والخوف ، والرجاء ، وكثرة التضرع ، والدعاء .

رجاع إليه ، عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع ، والتوبة النصوح .

ومن شدة إنابته لربه وعبادته ، أن سخر الله الجبال معه ، تسبح معه بحمد ربها .

[بالعشى والإشراق] أول النهار وآخره .

[و] سخر [الطير محشورة] معه مجموعة [كل] من الجبال والطير [له] تعالى [أواب] امتثالا لقوله تعالى: «يا جبال أوبى معه والطير » فهذه مِنّةُ الله عليه بالعبادة .

ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال : [وشددنا ملكه] أى :قويناه بما أعطيناه من الأسباب، وكثرة العَدَد والعُدَدِ التى بها قوّى الله ملكه .

ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال : [وآتيناه الحكمة] أى : النبوة والعلم العظيم [وفصل الخطاب] أى : الخصومات بين الناس .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ

---

* لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل فى الخطاب بين الناس ، وكان معروفاً بذلك ، مقصوداً ، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده ، فى قضية جعلها الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه ، وغفر له ، وقيض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

[وهل أتاك نبأ الخصم] فإنه نبأ عجيب [إذ تسوروا] على داود [المحراب] أى : محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ، ولم يدخلوا عليه من باب فلما دخلوا عليه بهذه الصورة ، فزع منهم وخاف فقالوا له : نحن [خصمان] فلا تخف [بغى بعضنا على بعض] بالظلم [فاحكم بيننا بالحق] أى : بالعدل ، ولا تمل مع أحدنا [ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط] .

والمقصود(١) من هذا ، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف وإذا كان ذلك كذلك ، فسيقصان عليه نبأهما بالحق ، فلم يشمئز نبى الله داود من وعظهما له ، ولم يؤنبهما .

فقال أحدهما : [إن هذا أخى] نص على الأخوة فى الدين أو النسب ، أو الصداقة ، لاقتضائها عدم البغى ، وأن بغيه الصادر منه ، أعظم من غيره .

---

(١) قوله « والمقصود » إلى « الصرف » تعبير غير منسجم مع المعنى المراد ولو قال « والمقصود أن داود عليه السلام قد عرف من حال الخصمين أنهما إنما يقصدان الحق الواضح الصرف » لكان أوضح للقارىء .

ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ

[له تسع وتسعون نعجة] أى : زوجة ، وذلك خير كثير ، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله .

[ولى نعجة واحدة] فطمع فيها [فقال أكفلنيها] أى : دعها لى ، وخلها فى كفالتى .

[وعزنى فى الخطاب] أى : غلبنى فى القول ، فلم يزل بى ، حتى أدركها أو كاد .

فقال داود ــ لما سمع كلامه ــ ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما ، أن هذا هو الواقع ، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر ، فلا وجه للاعتراض بقول القائل « لم حكم داود ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر» ؟

[لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه] وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم .

فقال : [وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض] لأن الظلم من صفة النفوس .

[إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات] فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح ، يمنعهم من الظلم .

[وقليل ما هم] كما قال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » .

دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ

[وظن[1] داود] حين حكم بينهما [أنما فتناه] أى : اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه .

[فاستغفر ربه] لما صدر منه [وخر راكعا] أى ساجدا [وأناب] لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة .

[فغفرنا له ذلك] الذى صدر منه ، وأكرمه الله بأنواع الكرامات فقال :

[وإن له عندنا لزلفى] أى : منزلة عالية ، وقربة منا [وحسن مآب] أى : مرجع .

وهذا الذنب الذى صدر من داود عليه السلام ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره ، فالتعرض له ، من باب التكلف .

وإنما الفائدة ، ما قصه الله علينا ، من لطفه به ، وتوبته ، وإنابته ، وأنه ارتفع محله ، فكان بعد التوبة ، أحسن منه قبلها .

[يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض] تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية .

[فاحكم بين الناس بالحق] أى : العدل .

وهذا لا يتمكن منه ، إلا بعلم بالواجب ، وعلم بالواقع ، وقدرة على تنفيذ الحق .

---

(١) وظن . أى : علم وتيقن .

فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ

[ولا تتبع الهوى] فتميل مع أحد ، لقرابة ، أو صداقة ، أو محبة ، أو بغض للآخر [فيضلك] الهوى [عن سبيل الله] ويخرجك عن الصراط المستقيم .

[إن الذين يضلون عن سبيل الله] خصوصا المتعمدين منهم .

[لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] « أى : بغفلتهم عن يوم الجزاء » .

فلو ذكروه ، ووقع خوفه فى قلوبهم ، لم يميلوا مع الهوى الفاتن .

* يخبر تعالى عن تمام حكمته ، فى خلقه السموات والأرض ، وأنه لم يخلقهما باطلا ، أى : عبثا ولعبا ، من غير فائدة ولا مصلحة .

[ذلك ظن الذين كفروا] بربهم ، حيث ظنوا مالا يليق بجلاله .

[فويل للذين كفروا من النار] فإنها التى تأخذ الحق منهم ، وتبلغ منهم كل مبلغ .

وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق ، فخلقهما ، ليعلم العباد كمال علمه وقدرته ، وسعة سلطانه ، وأنه تعالى وحده ، المعبود ، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السموات والأرض ، وأن البعث حق ، وسيفصل

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ...

الله بين أهل الخير والشر .

ولا يظن الجاهل بحكمة الله ، أن يسوى الله بينهما فى حكمه ، ولهذا قال : [أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار] هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا .

* [كتاب أنزلناه إليك مبارك] فيه خير كثير ، وعلم غزير .

فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ، ونور يستضاء به فى الظلمات .

وفيه كل حكم يحتاج إليه المكلفون ، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ، ما كان به أجل كتاب طرق العالم ، منذ أنشأه الله .

[ليدبروا آياته] أى : هذه الحكمة من إنزاله ، ليتدبر الناس آياته ، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها .

فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه ، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة ، تدرك بركته وخيره .

وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأن القراءة المشتملة على التدبر ، أفضل من سرعة التلاوة ، التى لا يحصل بها ، هذا المقصود .

[وليتذكر أولو الألباب] أى : أولو العقول الصحيحة ، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾

فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله ، يحصل له التذكر والانتفاع ، بهذا الكتاب .

* لما أثنى الله تعالى على داود ، وذكر ما جرى له ومنه ، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال : [ووهبنا لداود سليمان] أى : أنعمنا به عليه ، وأقررنا به عينه .

[نعم العبد] سليمان عليه السلام ، فإنه اتصف بما يوجب المدح ، وهو [أنه أواب] أى : رجَّاع إلى الله فى جميع أحواله ، بالتأله والإنابة ، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع ، والاجتهاد فى مرضاة الله ، وتقديمها على كل شىء .

ولهذا ، لما عرضت الخيل الجياد الصافنات أى : التى وصفها الصفون ، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف ، وكان لها منظر رائق ، وجمال معجب ، خصوصا للمحتاج إليها كالملوك .

فما زالت تعرض عليه ، حتى غابت الشمس فى الحجاب ، فألهته عن صلاة المساء وذكره .

فقال — ندما على ما مضى منه ، وتقربا إلى الله بما ألهاه عن ذكره ، وتقديما لحب الله على حب غيره — [إنى أحببت حب الخير] وضمن « أحببت » معنى « آثرت » .

أى : آثرت حب الخير ، الذى هو المال عموما ، وفى هذا الموضع المراد : الخيل [عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب] « أى : غابت عن عينيه » .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى

---

* [ردوها على] فردوها [فطفق] أى : « شرع » فيها [مسحا بالسوق والأعناق] أى جعل[1] يعقرها بسيفه ، فى سوقها وأعناقها .

[ولقد فتنا سليمان] أى : ابتليناه واختبرناه ، بذهاب ملكه وانفصاله عنه ، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية [وألقينا على كرسيه جسدا] أى: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسى ملكه ، ويتصرف فى الملك فى مدة فتنة سليمان [ثم أناب] سليمان إلى الله تعالى وتاب .

---

(١) قوله « أى جعل الخ » كلام فيه ما فيه من المؤاخذات فإن التاريخ حفظ لنا أحوال الصالحين من هذه الأمة وشدة حرصهم على امتثال الأوامر الإلهية وعدم انحرافهم فى تيار الخواطر الدنيوية حينما تحين أوقات العبادة ، فإذا كان هذا شأن الصالحين فما بالك بالأنبياء الذين هم أعلى درجة من الصالحين ولا شك أن تلك الروايات الملصقة بسليمان لا تليق بعصمة الأنبياء ثم ما ذنب الخيل حتى تعرقب أرجلها وتقطع أيديها ولقد فطن لهذا الإمام الرازى ففند هذه المزاعم كلها فى تفسيره وفى كتابه « عصمة الأنبياء » وذكر أن معنى « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » أنه لما أجرى السباق وردت إليه الخيل جعل يمسح أعناقها وسوقها متحببا إليها ، لأنها أهم عدة للجهاد .

مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

[قال ربى اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب] .

فاستجاب الله له وغفر له ، ورد عليه ملكه ، وزاده ملكا لم يحصل لأحد من بعده ، وهو تسخير الشياطين له ، يبنون ما يريد ، ويغوصون له فى البحر ، يستخرجون الدر والحلى ، ومن عصاه منهم ، قرنه فى الأصفاد وأوثقه .

وقلنا له . [هذا عطاؤنا] فقرَّ به عيناً [فامنن] على من شئت .

[أو أمسك] من شئت [بغير حساب] أى : لا حرج عليك فى ذلك ولا حساب ، لعلمه تعالى بكمال عدله ، وحسن أحكامه .

ولا تحسبن هذا لسليمان فى الدنيا دون الآخرة ، بل له فى الآخرة خير عظيم .

ولهذا قال : [وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب] أى : هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله .

. . . .

فصـــل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم فى قصة داود وسليمان عليهما السلام .

فمنها : أن الله تعالى ، يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أخبار من قبله ، ليثبت فؤاده ، وتطمئن نفسه .

ويذكر من عبادتهم وشدة صبرهم ، وإنابتهم ، ما يشوقه إلى منافستهم ، والتقرب إلى الله ، الذى تقربوا له ، والصبر على أذى قومه .

ولهذا — في هذا الموضع — لما ذكر الله ما ذكر ، من أذية قومه وكلامهم فيه ، وفيما جاء به ، أمره بالصبر ، وأن يذكر عبده داود ، فيتأسّى به .

ومنها : أن الله تعالى ، يمدح ، ويحب القوة فى طاعته ، قوة القلب والبدن .

فإنه يحصل منها ، من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة .

وأن العبد ، ينبغى له ، تعاطى أسبابها ، وعدم الركون إلى الكسل ، والبطالة المخلة بالقوة ، المضعفة للنفس .

ومنها : أن الرجوع إلى الله فى جميع الأمور ، من أوصاف أنبياء الله ، وخواص خلقه ، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك .

فليقتد بهما المقتدون ، وليهتد بهداهم السالكون « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .

. . . .

ومنها : ما أكرم الله به نبيه داود ، عليه السلام ، من حسن الصوت العظيم ، الذى جعل الله بسببه ، الجبال الصم ، والطيور البهم ، يجاوبنه إذا رجّع صوته بالتسبيح ، ويسبحن معه بالعشى والإشراق .

ومنها : أن من أكبر نعم الله على عبده ، أن يرزقه العلم النافع ، ويعرف الحكم والفصل بين الناس ، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام .

ومنها : اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه ، عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم ، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور .

ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى ، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام .

ومنها : أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، معصومون من الخطأ[1] فيما يبلغون عن الله تعالى ، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك.

---

(١) قوله « معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى » .

أقول : ومعصومون أيضا من كبائر الذنوب وصغائرها كما انعقد الإجماع على ذلك . إلا فى المسائل الاجتهادية . فيجوز عليهم الخطأ ولكن لا يقرون عليه ، بل ينزل الوحى فوراً ، ويردهم الله إلى الصواب ، كما حصل للنبي فى أسرى « بدر » .

. . . .

وأنه قد يجرى[1] منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصى، ولـكن الله، يتداركهم ويبادرهم بلطفه .

ومنها : أن داود عليه السلام ، كان فى أغلب أحواله ملازماً محرابه ، لخدمة ربه ، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب ، لأنه كان ، إذا خلا فى محرابه ، لا يأتيه أحد .

فلم يجعل كل وقته للناس ، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام .

بل جعل له وقتا ، يخلو فيه بربه ، وتقر عينه بعبادته ، وتعينه على الإخلاص فى جميع أموره .

ومنها : أنه ينبغى استعمال الأدب ، فى الدخول على الحـكام وغيرهم .

فإن الخصمين ـــ لـمـا دخلا على داود ، فى حالة غير معتادة ، ومن غير الباب المعهود ، فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ، ورآه غير لائق بالحال .

ومنها : أنه لا يمنع الحاكم من الحـكم بالحق ، سوء أدب الخصم ، وفعله ما لا ينبغى .

ومنها : كمال حلم داود عليه السلام ، فإنه ماغضب عليهما ، حين جاءاه بغير استئذان ، وهو الملك ، ولا انتهرهما ، ولا وبخهما .

---

(١) قوله : وأنه قد يجرى منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصى الخ » غير صحيح لأن الأنبياء معصومون بعد النبوة من كافة الذنوب صغائرها وكبائرها كما أجمع على ذلك علماء التوحيد .

. . . .

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتنى» أو «ياظالم» أو «باغ على» ونحو ذلك لقولها: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر.

فإن الخصمين، نصحا داود، فلم يشمئز، ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادى بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يردع عن ذلك، إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء فى الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، مكفرات للذنوب، فإن الله، رتب مغفرة ذنب داود، على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما، منقص لدرجتهما عند الله تعالى.

وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم، وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع فى قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع فى قلوبهم، نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

. . . .

ومنها : أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ، وخواص خلقه .

وأن وظيفة القائم بها ، الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى .

فالحكم بالحق ، يقتضى العلم بالأمور الشرعية ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية إدخالها فى الحكم الشرعى .

فالجاهل بأحد الأمرين ، لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الإقدام عليه .

ومنها : أنه ينبغى للحاكم أن يحذر الهوى ، ويجعله منه على بال ، فإن النفوس لا تخلو منه .

بل يجاهد نفسه ، بأن يكون الحق مقصوده ، وأن يلقى عنه وقت الحكم ، كل محبة أو بغض لأحد الخصمين .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، من فضائل داود ، ومن منن الله عليه . حيث وهبه له .

وأن من أكبر نعم الله على عبده ، أن يهب له ولداً صالحا ، فإن كان عالما ، كان نورا على نور .

ومنها : ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه فى قوله [نعم العبد إنه أواب] .

ومنها : كثرة خير الله وبره بعبيده ، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، ثم يثنى عليهم بها ، وهو المتفضل الوهاب .

ومنها : تقديم سليمان ، محبة الله تعالى على محبة كل شىء .

ومنها : أن كل ما شغل العبد عن الله ، فإنه مشئوم مذموم ، فَلْيُفَارِقْ

. . . .

ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له .

ومنها : القاعدة المشهورة « من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيرا منه ».

فسليمان عليه السلام عقر الجياد[1] الصافنات المحبوبة للنفوس ، تقديما لمحبة الله ، فعوضه الله خيراً من ذلك ، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة ، التى تجرى بأمره إلى حيث أراد وقصد ، غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وسخر له الشياطين ، أهل الاقتدار على الأعمال ، التى لا يقدر عليها الآدميون .

ومنها : أن سليمان عليه السلام ، كان ملكا نبيا ، يفعل ما أراد ، ولكنه لا يريد إلا العدل .

بخلاف النبي العبد ، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله ، فلا يفعل ولا يترك ، إلا بالأمر ، كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الحال أكمل .

---

(١) « عقر الجياد الخ » هذا إنما يتمشى على الرواية غير الصحيحة كما قدمنا .

۞ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ

---

* أى : [واذكر] فى هذا الكتاب [عبدنا أيوب] بأحسن الذكر ، وأثن عليه بأحسن الثناء ، حين أصابه الضر ، فصبر على ضره ، فلم يشتك لغير ربه ، ولا لجأ إلا إليه .

[إذ نادى ربه] داعيا شاكيا إليه لا إلى غيره فقال : رب [أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب] أى بأمر مشق متعب معذب، وكان سلط على جسده فنفخ فيه ، حتى تقرح ، ثم تقيح[1] بعد ذلك ، واشتد به الأمر ، وكذلك هلك أهله وماله .

فقيل : [أركض برجلك] أى : اضرب الأرض بها ، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب ، فيذهب عنك الضر والأذى .

ففعل ذلك ، فذهب عنه الضر ، وشفاه الله تعالى .

[ووهبنا له أهله] قيل : إن الله تعالى أحياهم له [ومثلهم معهم] فى الدنيا ، وأغناه الله ، وأعطاه مالا عظيما .

---

(١) قوله « حتى تقرح وتقيح » كلام غير صحيح فإن الأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة بإجماع علماء التوحيد .
وما نسب إلى أيوب من تلك الأمراض المنفرة إنما سرت إلى بعض المفسرين الذين تجردوا من التحقيق العلمى ، من الأخبار الإسرائيلية وقد سبق تفنيدنا لهذا الكلام بما يكفى ويشفى فى الجزء الخامس فى صحيفة ٢٥٣ .

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

[رحمة منا] بعبدنا أيوب ، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ، ثواباً عاجلا وآجلا .

[وذكرى لأولى الألباب] أى : وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ، ويعتبروا ، فيعلموا أن من صبر على الضر ، فإن الله تعالى يثيبه ثوابا عاجلا وآجلا ، ويستجيب دعاءه إذا دعاه .

[وخذ بيدك ضغثاً] أى حزمة شماريخ [فاضرب به ولا تحنث] .

قال المفسرون : وكان فى مرضه وضره ، قد غضب على زوجته فى بعض الأمور .

فحلف : لئن شفاه الله ، ليضربنها مائة جلدة .

فلما شفاه الله ، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه ، رحمها الله ورحمه ، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ، ضربة واحدة ، فيبر فى يمينه .

[إنا وجدناه] أى : أيوب [صابراً] أى ابتليناه بالضر العظيم ، فصبر لوجه الله تعالى .

[نعم العبد] الذى كمل مراتب العبودية ، فى حال السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

[إنه أواب] أى : كثير الرجوع إلى الله ، فى مطالبه الدينية والدنيوية ، كثير الذكر لربه ، والدعاء . والمحبة ، والتأله .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [واذكر عبادنا] الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسنا . [إبراهيم] الخليل [و] ابنه [إسحق و] ابنه [يعقوب أولى الأيدى] أى : القوة على عبادة الله تعالى [والأبصار] أى : البصيرة فى دين الله .

فوصفهم بالعلم النافع ، والعمل الصالح الكثير .

[إنا أخلصناهم بخالصة] عظيمة ، وخصيصة جسيمة وهى : [ذكرى الدار] جعلنا ذكرى الدار الآخرة فى قلوبهم ، والعمل لها صفوة وقتهم ، والإخلاص والمراقبة لله ، وصفهم الدائم ، وجعلناهم ذكرى الدار ، يتذكر بأحوالهم المتذكر ، ويعتبر بهم المعتبر ، ويذكرون بأحسن الذكر .

[وإنهم عندنا لمن المصطفين] الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه .

[الأخيار] الذين لهم خلق كريم ، وعمل مستقيم .

* أى: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء .

فإن كلا منهم ، من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق ، واختار لهم أكمل الأحوال ، من الأعمال ، والأخلاق والصفات الحميدة ، والخصال السديدة .

۞ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ

[هذا ذكر] أى ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ، ذكر فى هذا القرآن ذى الذكر ، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة ، المقتدون ، ويعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزكية ، وما نشر لهم من الثناء بين البرية .

فهذا نوع من أنواع الذكر ، وهو ذكر أهل الخير ، ومن أنواع الذكر ، ذكر جزاء أهل الخير ، وأهل الشر ، ولهذا قال :

* أى : [وإن للمتقين] ربهم ، بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، من كل مؤمن ومؤمنة .

[لحسن مآب] أى : لمآبا حسنا ، ومرجعاً مستحسناً .

ثم فسره وفصله فقال : [جنات عدن] أى : جنات إقامة ، لا يبغى صاحبها بدلا منها ، من كمالها ، وتمام نعيمها ، وليسوا بخارجين منها ، ولا بمخرجين .

[مفتحة لهم الأبواب] أى : مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها ، بل هم مخدومون .

وهذا دليل أيضاً ، على الأمان التام ، وأنه ليس فى جنات عدن ، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها .

[متكئين فيها] على الأرائك المزينات ، والمجالس المزخرفات .

[يدعون فيها] أى : يأمرون خدامهم ، أن يأتوا [بفاكهة كثيرة وشراب] من كل ما تشتهيه نفوسهم ، وتلذه أعينهم :

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

وهذا يدل على كمال النعيم ، وكمال الراحة والطمأنينة ، وتمام اللذة .

[وعندهم] من أزواجهم ، الحور العين [قاصرات الطرف] على أزواجهن ، وطرف أزواجهن عليهن ، لجمالهم كلهم ، ومحبة كل منهما للآخر ، وعدم طموحه لغيره ، وأنه لا يبغى بصاحبه بدلا ، وعنه عوضاً .

[أتراب] أى : على سن واحد ، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه .

[هذا ماتوعدون] أيها المتقون [ليوم الحساب] جزاء على أعمالكم الصالحة .

[إن هذا لرزقنا] الذى أوردناه على أهل النعيم [ماله من نفاد] أى : انقطاع ، بل هو دائم مستقر فى جميع الأوقات ، متزايد فى جميع الآنات .

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم ، الرءوف الرحيم ، البر الجواد ، الواسع الغنى ، الحميد اللطيف الرحمن ، الملك الديان ، الجليل الجميل المنان ، ذى الفضل الباهر ، والكرم المتواتر ، الذي لاتحصى نعمه ، ولا يحاط ببعض بره .

﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ

---

* [هذا] الجزاء للمتقين ، ما وصفناه [وإن للطاغين] أى : للمتجاوزين للحد فى الكفر والمعاصى [لشر مآب] أى: لشر مرجع و منقلب،ثم فصله فقال:

[جهنم] التى جمع فيها كل عذاب واشتد حرها ، وانتهى قرها[1]

[يصلونها] أى : يعذبون فيها عذاباً ، يحيط بهم من كل وجه ، لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل .

[فبئس المهاد] المعد لهم مسكناً ومستقراً [هذا] المهاد ، وهذا العذاب الشديد ، والخزى ؛ والفضيحة ، والنكال .

[فليذوقوه حميم] ماء حار ، قد اشتد حره ، يشربونه ، فَقَطَعُ أمعاءهم .

[وغساق] وهو أكره ما يكون من الشراب ، من قيح وصديد ، مر المذاق ، كريه الرائحة .

[وآخر من شكله] أى : من نوعه [أزواج] أى : عدة أصناف ، من أصناف العذاب ، يعذبون بها ، ويخزون بها .

وعند تواردهم على النار ، يشتم بعضهم بعضاً ، ويقول بعضهم لبعض :

---

(١) قوله « وانتهى قرها » أى : بردها بلغ النهاية فى الشدة .

إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾

[وهذا فوج مقتحم معكم] النار [لامرحبا بهم إنهم صالو النار] .

[قالوا] أى : الفوج المقبل المقتحم : [بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدمتموه] أى : العذاب [لنا] بدعوتكم لنا ، وفتنتكم ، وإضلالكم ، وتسببكم .

[فبئس القرار] قرار الجميع ، قرار السوء والشر .

ثم دعوا على المغوين لهم ، و [قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار] .

وقال فى الآية الأخرى « قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون » .

[وقالوا] وهم فى النار [مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار] أى : كنا نزعم أنهم من الأشرار ، المستحقين لعذاب النار ، وهم المؤمنون تفقدهم أهل النار ، قبحهم الله ، هل يرونهم فى النار؟

[اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار] أى : عدم رؤيتنا لهم ، دائر بين أمرين .

إما أننا غالطون فى عدنا إياهم من الأشرار ، بل هم من الأخيار ، وإنما كلامنا لهم ، من باب السخرية والاستهزاء بهم .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

وهذا هو الواقع ، كما قال تعالى لأهل النار « إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون » .

والأمر الثانى : أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا فى العذاب ، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا .

فيحتمل أن هذا الذى فى قلوبهم ، فتكون العقائد ؛ التى اعتقدوها فى الدنيا ، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صبغة لها ، فدخلوا النار ، وهم بهذه الحالة ، فقالوا ما قالوا .

ويحتمل أن كلامهم هذا ، كلام تمويه ، كما موهوا فى الدنيا ، موهوا حتى فى النار .

ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

قال تعالى مؤكداً ما أخبره به ، وهو أصدق القائلين .

[إن ذلك] الذى ذكرت لكم [لحق] ما فيه شك ولا مريه [تخاصم أهل النار] أى : « هو تخاصم ونزاع أهل النار بعضهم مع بعض » .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

[قل] يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك، ما ليس لك، ولا بيدك:

[إنما أنا منذر] هذا نهاية ما عندى، وأما الأمر، فلله تعالى، ولكنى آمركم، وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأزجركم عن الشر «فمن اهتدى، فلنفسه ومن ضل، فعليها».

[وما من إله إلا الله] أى: ما أحد يؤله ويعبد بحق، إلا الله [الواحد القهار].

هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء.

فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهاران، متساويين فى قهرهما أبداً.

فالذى يقهر جميع الأشياء، هو الواحد، الذى لا نظير له، وهو الذى يستحق أن يعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك بتوحيد الربوبية فقال:

[رب السموات والأرض وما بينهما] أى: خالقهما، ومربيهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدابير.

[العزيز] الذي له القوة، التى بها خلق المخلوقات العظيمة.

[الغفار] لجميع الذنوب؛ صغيرها؛ وكبيرها، لمن تاب إليه، وأقلع منها.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا

فهذا الذى يجب ويستحق أن يعبد ، دون من لايخلق ، ولا يرزق ، ولا يضر ؛ ولاينفع ، ولايملك من الأمر شيئاً ، وليس له قوة الاقتدار ، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار .

[قل] لهم ، محذرا ؛ ومخوفا ، ومنهضا لهم ومنذرا : [هو نبأ عظيم] أى : ما أنبأتكم به من البعث ، والنشور ، والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم ينبغى الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغى إغفاله .

ولكن [أنتم عنه معرضون] كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ، ولا ثواب .

فإن شككتم فى قولى ، وامتريتم فى خبرى ، فإنى أخبركم بأخبار ، لا علم لى بها ، ولا درستها فى كتاب .

فإخبارى بها على وجهها ، من غير زيادة ولا نقص ، أكبر شاهد لصدق ، وأدل دليل على حقية ما جئتكم به ، ولهذا قال :

[ما كان لى من علم بالملأ الأعلى] أى : الملائكة [إذ يختصمون] لولا تعليم الله إياى ، وإيحاؤه إلى ، ولهذا قال :

[إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين] أي : ظاهر النذارة ، جليها ، فلا نذير أبلغ من نذارته صلى الله عليه وسلم .

مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

ثم ذكر اختصام الملأ الأعلى فقال :

[إذ قال ربك للملائكة] على وجه الإخبار [إنى خالق بشراً من طين] أى : مادته من طين [فإذا سويته] أى: سويت جسمه ، وتمّ [ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين] .

فوطّن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك ، حين يتم خلقه ، ونفخ الروح فيه ، امتثالا لربهم ، وإكراما لآدم عليه السلام .

فلما تم خلقه ، فى بدنه وروحه ، وامتحن الله آدم والملائكة فى العلم ، وظهر فضله عليهم ، أمرهم الله بالسجود .

[فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس] لم يسجد [استكبر] عن أمر ربه ، واستكبر على آدم [وكان من الكافرين] فى علم الله تعالى.

[قال] الله موبخا ومعاتبا : [يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى] أى : شرفته ، وكرمته ، واختصصته بهذه الخصيصة ، التى اختص بها عن سائر الخلق ، وذلك يقتضى عدم التكبر عليه .

[استكبرت] فى امتناعك [أم كنت من العالين] .« أى ممن علوت على العالمين » .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

[قال] إبليس معارضا لربه ، ومناقضاً : [أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين] .

وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين ، وهذا من القياس الفاسد ، فإن عنصر النار ، مادة الشر والفساد ، والعلو والطيش ، والخفة .

وعنصر الطين ، مادة الرزانة ، والتواضع ، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات ، وهو يغلب النار ، ويطفئها .

والنار ، تحتاج إلى مادة تقوم بها ، والطين قائم بنفسه .

فهذا قياس شيخ القوم ، الذى عارض به الأمر الشفاهى من الله ، قد تبين غاية بطلانه وفساده .

فما بالك بأقيسة التلاميذ ، الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟! فإنها كلها ، أعظم بطلاناً ، من هذا القياس .

[قال] الله له : [فاخرج منها] أى : من السماء والمحل الكريم .

[فإنك رجيم] أى : مبعد مدحور .

[وإن عليك لعنتى] أى : طردى وإبعادى [إلى يوم الدين] دائماً أبدا .

[قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون] لشدة عداوته لآدم وذريته ، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه .

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ

(قال) الله مجيبا لدعوته ، حيث اقتضت حكمته ذلك : [إنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم] حين تستكمل الذرية ، يتم الامتحان .

فلما علم أنه منظر ، بادى ربه ، من خبثه ، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته ، فقال :

[فبعزتك لأغوينهم أجمعين] .« أى : بعظمتك وجلالك » .

يحتمل أن الباء للقسم ، وأنه أقسم بعز الله ، ليغوينهم كلهم أجمعين .

[إلا عبادك منهم المخلصين] .

« أى : هم الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الغواية لكمال إيمانهم ، وبذلهم أقصى مافى وسعهم فى طاعة ربهم »[1] .

علم « إبليس » أن الله سيحفظهم من كيده .

ويحتمل أن الباء للاستعانة ، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه ، وأنه لا يضل أحدا إلا بمشيئة الله تعالى،استعان بعزة الله ، على إغواء ذرية آدم ، هذا ، وهو عدو الله حقا .

ونحن ياربنا العاجزون المقصرون ، المقرون لك بكل نعمة ، ذرية من شرفته وكرمته .

---

(١) ما بين القوسين من زيادتنا ، لأن المقام يقتضى ذلك حتى ،يكون معنى « المخلصين » واضحاً للقارىء .

وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

فنستعين بعزتك العظيمة ، وقدرتك ، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق ، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ، ما عنا صرفت من النقم ، أن تعيننا على محاربته وعداوته ، والسلامة من شره ، وشركه .

ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا ، ونؤمن بوعدك الذى قلت لنا : « وقال ربكم ادعونى استجب لكم » فقد دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا . « إنك لا تخلف الميعاد » .

[قال] الله تعالى [فالحق والحق أقول] أى : الحق وصفى ، والحق قولى [لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين] « من ذرية آدم » .

[قل ما أسألكم عليه] أى : على دعائى إياكم (من أجر وما أنا من المتكلفين[1]) أدعى أمرا ، ليس لى ، وأقفوا ما ليس لى به علم ،

---

(١) من المتكلفين . أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن اهـ . أبو السعود .

وقال النسفى : « وما أنا من المتكلفين » أى : لست من الذين يتصنعون ، ويتحلّون بما ليسوا من أهله .

وما عرفتمونى قط متصنعاً ولا مدعيا بما ليس عندى حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . للمتكلف ثلاث علامات ، ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول مالا يعلم اهـ . بتصرف يسير .

ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

لا أتبع إلا ما يوحى إلىّ .

[إن هو] أى: ماهذا الوحى والقرآن [إلا ذكر للعالمين] يتذكرون به كل ما ينفعهم ، من مصالح دينهم ودنياهم ، فيكون شرفا ورفعة . للعالمين به ، وإقامة حجة على المعاندين .

فهذه السورة العظيمة ، مشتملة على الذكر الحكيم ، والنبأ العظيم ، وإقامة الحجج والبراهين ، على من كذب بالقرآن وعارضه ، وكذب من جاء به ، والإخبار عن عباد الله المخلصين ، وجزاء المتقين والطاغين .

فلهذا أقسم فى أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه فى آخرها ، بأنه ذكر للعالمين .

وأكثر التذكير بها ، فيما بين ذلك كقوله [واذكر عبدنا ـ واذكر عبادنا ـ رحمة من عندنا وذكرى ـ هذا ذكر] .

اللهم علمنا منه ما جهلنا ، وذكرنا منه ما نسينا ، نسيان غفلة ، ونسيان ترك .

[ولتعلمن نباه] أى: أخبره [بعد حين] وذلك حين يقع عليهم العذاب وتنقطع عنهم الأسباب .

تم تفسير سورة ص ـ بمنه تعالى وعونه

تفسير

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

---

* يخبر تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالة من تكلم به ، ونزل منه .

وأنه نزل من الله العزيز الحكيم . أى الذى وصفه الألوهية للخلق ، وذلك لعظمته وكماله والعزة التى قهر بها كل مخلوق ، وذل له كل شىء ، والحكمة فى خلقه وأمره .

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه ، والكلام ، وصف للمتكلم ، والوصف يتبع الموصوف .

فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه ، الذى لا مثيل له ، فكذلك كلامه ، كامل من كل وجه ، لا مثيل له ، فهذا وحده ، كاف فى وصف القرآن ، دال على مرتبته .

ولكنه — مع هذا — زاد بيانا ، لكماله ، بمن نزل عليه ، وهو

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب ، وبما نزل به ، وهو الحق .

فنزل بالحق ، الذى لا مرية فيه ، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور .

ونزل مشتملا على الحق فى أخباره الصادقة ، وأحكامه العادلة .

فكل ما دل عليه ، فهو أعظم أنواع الحق ، من جميع المطالب العلمية ، وما بعد الحق إلا الضلال .

ولما كان نازلا من الحق ، مشتملا على الحق لهداية الخلق ، على أشرف الخلق ، عظمت فيه النعمة ، وجلّت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص الدين لله ، فلهذا قال :

[فاعبد الله مخلصا له الدين] أى : أخلص لله تعالى جميع دينك ، من الشرائع الظاهرة ، والشرائع الباطنة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان — بأن تفرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه ، لا غير ذلك من المقاصد .

[ألا لله الدين الخالص] هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص ، الصافى من جميع الشوائب .

فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به ، لأنه متضمن للتأله لله فى حبه ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، فى تحصيل مطالب عباده .

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

وذلك الذى يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها ، دون الشرك به فى شىء من العبادة .

فإن الله برىء منه ، وليس لله فيه شىء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك .

وهو مفسد للقلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة مُشْقٍ ، للنفوس غاية الشقاء .

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص ، نهى عن الشرك به ، وأخبر بذم من أشرك به فقال :

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] أى : يتولونهم بعبادتهم ودعائهم ، معتذرين عن أنفسهم وقائلين :

[ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى] أى : لترفع حوائجنا لله ، وتشفع لنا عنده .

وإلا ، فنحن نعلم أنها ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك من الأمر شيئاً .

أى : فهؤلاء ، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص ، وتجرأوا على أعاظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذى ليس كمثله شىء ، الملك العظيم ، بالملوك .

وزعموا — بعقولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء ، وشفعاء ، ووزراء يرفعون إليهم حوائج

. . . .

رعاياهم ، ويستعطفونهم عليهم ، ويمهدون لهم الأمر فى ذلك ـ أن الله تعالى كـذلك .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلا ، ونقلاً ، وفطرة .

فإن الملوك ، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم ،لأنهم لا يعلمون أحوالهم .

فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم ، وربما لا يـكون فى قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة .

فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمه لهم ، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ، ويخافون منهم ، فيقضون حوائج من توسطوا لهم ، مراعاة لهم ، ومداراة لخواطرهم .

وهم أيضاً فقراء ، قد يمنعون ، لما يخشون من الفقر .

وأما الرب تعالى ، فهو الذى أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ، الذى لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده .

وهو تعالى ، أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، يجعله راحما لعباده ، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم

وهو الذى يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب ، التى ينالون بها رحمته .

وهو يريد من مصالحهم ، مالا يريدونه لأنفسهم .

وهو الغنى ، الذى له الغنى التام المطلق ، الذى لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم فى صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى ،

فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

لم ينقصوا من غناه شيئاً ، ولم ينتقصوا مما عنده ، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط[1] .

وجميع الشفعاء يخافونه ، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه ، وله الشفاعة كلها .

فهذه الفروق ، يعلم جهل المشركين به ، وسفههم العظيم ، وشدة جراءتهم عليه .

ويعلم أيضاً ، الحكمة فى كون الشرك لا يغفره الله تعالى ، لأنه يتضمن القدح فى الله تعالى .

ولهذا قال — حاكما بين الفريقين ، المخلصين والمشركين ، وفى ضمنه التهديد للمشركين — : [إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون] .

وقد علم أن حكمة أن المؤمنين المخلصين فى جنات النعيم ، أن من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنه ، ومأواه النار .

[إن الله لا يهدى] أى : لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم .

[من هو كاذب كفار] أى : وصفه الكذب أو الكفر ، بحيث تأتيه المواعظ والآيات ، ولا يزول عنه ، ما اتصف به ، ويريه الله الآيات ، فيجحدها ، ويكفر بها ، ويكذب .

فهذا أنَّى له الهدى ، وقد سد على نفسه الباب ، وعوقب بأن طبع الله على قلبه ، فهو لا يؤمن ؟ ! ! .

---

(١) المخيط . أى . الإبرة .

﴿ لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

---

* أى : [لو أراد الله أن يتخذ ولدا] كما زعم ذلك من زعمه ، من سفهاء الخلق .

[لّا صطفى مما يخلق ما يشاء] أى : لا صطفى من مخلوقاته ، الذى يشاء اصطفاءه ، واختصه لنفسه ، وجعله بمنزلة الولد ، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة .

[سبحانه] أى : تنزه عما ظن به الكافرون ، أو نسبه إليه الملحدون .

[هو الله الواحد القهار] أى : الواحد فى ذاته ، وفى أسمائه ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

فلا شبيه له فى شىء من ذلك ، ولا مماثل .

فلو كان له ولد ، لاقتضى أن يكون شبيها له ، فى وحدته ، لأنه بعضه ، وجزء منه .

القهار لجميع العالم ، العلوى والسفلى .

فلو كان له ولد ، لم يكن مقهورا ، ولكان له إدلال على أبيه ، ومناسبة منه .

ووحدته تعالى ، وقهره متلازمان .

فالواحد لا يكون إلا قهارا ، والقهار لا يكون إلا واحدا ، وذلك ينفى الشركة له من كل وجه .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

* يخبر تعالى أنه [خلق السموات والأرض بالحق] أى . بالحكمة والمصلحة. وليأمر العباد وينهاهم ، ويثيبهم ويعاقبهم .

[يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل] أى: يدخل كلا منهما على الآخر ، ويحل محله فلا يجتمع هذا وهذا ، بل إذا أتى أحدهما ، انعزل الآخر عن سلطانه .

[وسخر الشمس والقمر] بتسخير منظم ، وسير مقنن .

[كل] من الشمس والقمر [يجرى] متأثراً عن تسخيره تعالى [لأجل مسمى] وهو انقضاء هذه الدار وخرابها ، فيخرب الله آلاتها ، وشمسها ، وقمرها ، وينشىء الخلق نشأة جديدة ، ليستقروا فى دار القرار ، الجنة ، أو النار .

[ألا هو العزيز] الذى لا يغالب ، القاهر لكل شىء ، الذى لا يستعصى عليه شىء .

الذى من عزته ، أوجد هذه المخلوقات العظيمة ، وسخرها تجرى بأمره .

[الغفار] لذنوب عباده التوابين المؤمنين ، كما قال تعالى « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

الغفار لمن أشرك به ، بعد ما رأى من آياته العظيمة ، ثم تاب وأناب .

وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ

ومن عزته أن [خلقكم من نفس واحدة] على كثرتكم وانتشاركم ، فى أنحاء الأرض .

[ثم جعل منها زوجها] وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه ، وتتم بذلك النعمة .

[وأنزل لكم من الأنعام] أى : خلقها بقدر نازل منه ، رحمة بكم .

[ثمانية أزواج] وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » .

وخصها بالذكر ، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم ، غيرها ، لكثرة نفعها ، وعموم مصالحها ، ولشرفها ، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها ، كالأضحية والهدى ، والعقيقة ، ووجوب الزكاة فيها ، واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أبينا وأمنا ، ذكر ابتداء خلقنا فقال :

[يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق] أى : طورا بعد طور ، وأنتم فى حال لا يد مخلوق تمسكم ، ولا عين تنظر إليكم .

وهو قد رباكم فى ذلك المكان الضيق [فى ظلمات ثلاث] ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم ، ثم ظلمة للشيمة .

[ذلكم] الذى خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ،

تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

وخلقكم ، وخلق لكم الأنعام والنعم [الله ربكم] أى : المألوه المعبود ، الذى رباكم ، ودبركم .

فكما أنه الواحد فى خلقه وتربيته لا شريك له فى ذلك ، فهو الواحد فى ألوهيته ، لا شريك له .

ولهذا قال : [له الملك لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون] . بعد هذا البيان أتبعه ببيان استحقاقه تعالى لإخلاص العبادة له دون عبادة الأوثان ، التى لا تدبر شيئا ، وليس لها من الأمر شىء فقال :

* [إن تكفروا فإن الله غنى عنكم] لا يضره كفركم ، كما لا ينتفع بطاعتكم .

ولكن أمره ونهيه لكم ، محض فضله وإحسانه عليكم .

[ولا يرضى لعباده الكفر] لكمال إحسانه بهم ، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة ، لا يسعدون بعدها .

ولأنه خلقهم لعبادته ، فهى الغاية التى خلق لها الخلق ، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله .

[وإن تشكروا] لله تعالى بتوحيده ، وإخلاص الدين له [يرضه لكم] لرحمته بكم ، ومحبته للإحسان عليكم ، ولفعلكم ما خلقكم لأجله .

وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم ، كذلك كل أحد منكم له عمله ، من خير وشر « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا

[ثم إلى ربكم مرجعكم] في يوم القيامة [فينبئكم بما كنتم تعملون] .

إخباراً أحاط به علمه ، وجرى عليه قلمه ، وكتبته عليكم الحفظة الكرام ، وشهدت به عليكم الجوارح ، فيجازى كلا منكم بما يستحقه .

[إنه عليم بذات الصدور] أى : بنفس الصدور ، وما فيها من وصف بِرٍّ أو فجور .

والمقصود من هذا ، الإخبار بالجزاء ، بالعدل التام .

* يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره ، وقلة شكر عبده ، وأنه حين يمسه الضر ، من مرض ، أو فقر ، أو وقوع فى كربة بَحْرٍ أو غيره ، أنه يعلم أنه لا ينجيه فى هذه الحال ، إلا الله .

فيدعوه متضرعا منيبا[1] ، ويستغيث به فى كشف ما نزل به ويلح فى ذلك .

---

(١) منيبا . أى : راجعا إلى الله بالدعاء ولا يدعو غيره اهـ . نسفى .

وقال أبو السعود : راجعاً إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء ، لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره : اهـ

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

[ثم إذا خوله[1]] الله [نعمة منه] بأن كشف ما به من الضر والكربة .

[نسي ما كان يدعو إليه من قبل] أي : نسي ذلك الضر ، الذي دعا الله لأجله ، ومر ، كأنه ما أصابه ضر ، واستمر على شركه .

[وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله] .

أي : ليضل بنفسه ، ويضل غيره ، لأن الإضلال ، فرع عن الضلال ، فأتى بالملزوم ، ليدل على اللازم .

[قل] لهذا العاتي ، الذي بدل نعمة الله كفرا : [تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار] فلا يغنيك ، ما تتمتع به إذا كان المآل النار .

« أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » .

---

(١) خوله . أي : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ، من التخول وهو التعهد .

أي : جعله خائل مال ، من قولهم « فلان خائل مال » إذا كان متعهداً له ، حسن القيام به .

أو من « الخول » وهو الافتخار . أي : جعله يخول ، أي : يختال ويفتخر . اهـ أبو السعود .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

---

* هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره ، وبين العالم والجاهل ، وأن هذا من الأمور ، التى تقرر فى العقول ، تباينها ، وعلم علما يقينا تفاوتها .

فليس المعرض عن طاعة ربه ، المتبع لهواه ، كمن هو قانت أى : مطيع لله ، بأفضل العبادات ، وهى الصلاة ، وأفضل الأوقات ، وهى أوقات الليل

فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء .

وذكر أن متعلق الخوف ، عذاب الآخرة ، على ما سلف من الذنوب وأن متعلق الرجاء ، رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن .

[قل هل يستوى الذين يعلمون] ربهم ويعلمون دينه الشرعى ، ودينه الجزائى ، وما له فى ذلك من الأسرار والحكم [والذين لا يعلمون] شيئا من ذلك ؟

لا يستوى هؤلاء ، ولا هؤلاء ، كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء والظلام ، والماء والنار .

[إنما يتذكر] إذا ذكروا [أولو الألباب] أى : أهل العقول الزكية الذكية .

فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى ، فيؤثرون العلم على الجهل ، وطاعة الله على مخالفته ، لأن لهم عقولا ، ترشدهم للنظر فى العواقب .

بخلاف من لا لب له ولا عقل ، فإنه يتخذ إلهه هواه .

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

---

* أى : قل مناديا لأشرف الخلق ، وهم المؤمنون ، آمراً لهم بأفضل الأوامر ، وهى : التقوى ذا كراً لهم السبب الموجب للتقوى ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ، ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى .

كما تقول : أيها الكريم تصدق ، وأيها الشجاع ، قاتل .

وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا فقال : [للذين أحسنوا فى هذه الدنيا] بعبادة ربهم [حسنة] ولهم رزق واسع ، ونفس مطمئنة ، وقلب منشرح .

كما قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .

[وأرض الله واسعة] إذا منعتم من عبادته فى أرض ، فهاجروا إلى غيرها ، تعبدون فيها ربكم ، وتتمكنون من إقامة دينكم .

ولما قال [للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة] كان لبعض النفوس مجال فى هذا الموضع وهو أن النص عام ، أنه كل من أحسن ، فله فى الدنيا حسنة ، فما بال من آمن فى أرض يضطهد فيها ويمتهن ، لا يحصل له ذلك ؟

دفع هذا الظن بقوله : [وأرض الله واسعة] وهنا بشارة ، نص عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، بقوله « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ

تشير إليه هذه الآية ، وترمى إليه من قريب ، وهو أنه تعالى ، أخبر أن أرضه واسعة .

فمهما منعتم من عبادته فى موضع ، فهاجروا إلى غيرها .

وهذا عام فى كل زمان ومكان ، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه ، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه .

[إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] وهـذا عام فى جميع أنواع الصبر :

الصبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها .

والصبر عن معاصيه ، فلا يرتكبها ، والصبر على طاعته ، حتى يؤديها .

فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب ، أى : بغير حد ، ولا عد ، ولا مقدار .

وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله ، وأنه معين على كل الأمور.

* أى [قل] يا أيها الرسول للناس :

إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين فى قوله فى أول السورة «فاعبد الله مخلصا له الدين » .

[وأمرت لأن أكون أول المسلمين] لأنى الداعى الهادى للخلق ، إلى ربهم ، فيقتضى أنى أول من ائتمر بما أمر به ، وأول من أسلم ، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وممن زعم أنه من أتباعه .

رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ

فلا بد من الإسلام فى الأعمال الظاهرة ، والإخلاص لله فى الأعمال الظاهرة والباطنة .

[قل إنى أخاف إن عصيت ربى] فيما أمرنى به من الإخلاص والإسلام .

[عذاب يوم عظيم] يخلد فيه من أشرك ، ويعاقب فيه من عصى .

[قل الله أعبد مخلصا له دينى * فاعبدوا ما شئتم من دونه] كما قال تعالى « قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين] .

[قل إن الخاسرين] حقيقة هم [الذين خسروا أنفسهم] حيث حرموها الثواب ، واستحقت بسببهم ، وخيم العقاب [وأهليهم يوم القيامة] أى : فرق بينهم وبينهم ، واشتد عليهم الحزن ، وعظم الخسران .

[ألا ذلك هو الخسران المبين] الذى ليس مثله خسران ، وهو خسران مستمر ، لا ربح بعده ، بل ولا سلامة .

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال :

[لهم من فوقهم ظلل من النار] أى : قطع عذاب كالسحاب العظيم

عِبَادَهُ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟

[ومن تحتهم ظلل] .

[ذلك] الوصف الذى وصفنا به عذاب أهل النار ، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته .

[يخوف الله به عباده ، ياعباد فاتقون] أى : جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب ، داعيا يدعو عباده إلى التقوى ، وزجرا عما يوجب العذاب .

فسبحان من رحم عباده فى كل شىء ، وسهل لهم الطرق الموصلة لله ، وحثهم على سلوكها ، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس ، وتطمئن له القلوب .

وحذرهم من العمل لغير ذلك غاية التحذير ، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه .

* ذكر تعالى هنا حال المنيبين وثوابهم فقال [والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها] .

والمراد بالطاغوت فى هذا الموضع ، عبادة غير الله ، فاجتنبوها فى عبادتها.

وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم ، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها فى عبادتها .

[وأنابوا إلى الله] بعبادته وإخلاص الدين له ، فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، ومن الشرك والمعاصى ، إلى التوحيد والطاعات .

إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

[لهم البشرى] التى لا يقادر قدرها ، ولا يعلم وصفها ، إلا من أكرمهم بها .

وهذا شامل للبشرى فى الحياة الدنيا بالثناء الحسن ، والرؤيا الصالحة ، والعناية الربانية من الله ، التى يرون فى خلالها ، أنه مريد لإكرامهم فى الدنيا والآخرة .

ولهم البشرى فى الآخرة عند الموت ، وفى القبر ، وفى القيامة .

وخاتمة البشرى ، ما يبشرهم به الرب الكريم ، من دوام رضوانه ، وبره ، وإحسانه ، وحلول أمانه فى الجنة .

ولما أخبر أن لهم البشرى ، أمره الله ببشارتهم ، وذكر الوصف الذى استحقوا به البشارة فقال : [فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه] .

وهذا جنس ، يشمل كل قول ، فهم يستمعون جنس القول ، ليميزوا بين ما ينبغى إيثاره ، مما ينبغى اجتنابه ، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم ، أنهم يتبعون أحسنه .

وأحسنه على الإطلاق ، كلام الله ، وكلام رسوله كما قال فى هذه السورة : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » الآية .

وفى هذه الآية ، نكتة ، وهى : أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين ، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كأنه قيل : هل من طريق إلى معرفة أحسنه ، حتى نتصف بصفات أولى الألباب ، وحتى نعرف أن من أثره فهو من أولى الألباب ؟

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن

قيل : نعم ، أحسنه ما نص الله عليه بقوله « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » الآية .

[أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله] لأحسن الأخلاق والأعمال [وأولئك هم أولو الألباب] أى العقول الزاكية .

ومن لبهم وحزمهم ، أنهم عرفوا الحسن وغيره ، وآثروا ما ينبغى إيثاره ، على ما سواه .

وهـذا علامة العقل ، بل لا علامة للعقل ، سوى ذلك ، فإن الذى لا يميز بين الأقوال ، حسنها ، وقبيحها ، ليس من أهل العقول الصحيحة ، أو الذى يميز .

لـكن لما غلبت شهوته على عقله ، فبقى عقله تابعاً لشهوته ، فلم يؤثر الأحسن ، كان ناقص العقل .

* أى : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه ، وعناده ، وكفره ، فإنه لا حيلة لك فى هدايته ، ولا تقدر أن تنقذ من فى النار لا محالة .

لـكن الغنى ، والفوز كل الفوز ، للمتقين الذين أعد لهم من الـكرامة وأنواع النعيم ، ما لا يقادر قدره .

فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

[لهم غرف] أى : منازل عالية مزخرفة ، من حسنها ، وبهائها ، وصفائها ، أنه يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

ومن علوها وارتفاعها ، أنها ترى كما يرى الكوكب الغابر ، فى الأفق الشرق أو الغربى .

ولهذا قال : [من فوقها غرف] أى : بعضها فوق بعض [مبنية] بذهب وفضة ، وملاطها المسك الأذفر .

[تجرى من تحتها الأنهار] المتدفقة ، التى تسقى البساتين الزاهرة ، والأشجار الطاهرة .

فتغل أنواع الثمار اللذيذة ، والفاكهة النضيجة .

[وعد الله لا يخلف الله الميعاد] وقد وعد المتقين هذا الثواب ، فلا بد من الوفاء به ، فليوفوا بخصال التقوى ، ليوفيهم أجورهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى أولى الألباب ، ما أنزله من السماء من الماء ، وأنه سلكه ينابيع فى الأرض ، أى : أودعه فيها ينبوعا ، يستخرج بسهولة ويسر .

[ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه] من بر[1] وذرة ، وشعير ، وأرز ، وغير ذلك .

[ثم يهيج] عند استكماله ، أو عند حدوث آفة فيه [فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما] متكسراً [إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب] يذكرون بها عناية ربهم ، ورحمته بعباده ، حيث يسر لهم هذا الماء ، وخزنه بخزائن الأرض ، تبعا لمصالحهم .

ويذكرون به كمال قدرته ، وأنه يحيي الموتى ، كما أحيا الأرض بعد موتها .

ويذكرون به أن الفاعل لذلك ، هو المستحق للعبادة .

اللهم اجعلنا من أولى الألباب ، الذين نوهت بذكرهم ، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول ، وأريتهم من أسرار كتابك ، وبديع آياتك ، ما لم يصل إليه غيرهم ، إنك أنت الوهاب .

---

(١) بر . أى : القمح .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ

---

* أى : أفيستوى من شرح الله صدره للإسلام ، فاتسع لتلقى أحكام الله ، والعمل بها ، منشرحا ، قرير العين ، على بصيرة من أمره ، وهو المراد بقوله [فهو على نور من ربه] .

كمن ليس كذلك ، بدليل قوله [فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله] .

أى : لا تلين لكتابه ، ولا تتذكر آياته ، ولا تطمئن بذكره ، بل هى معرضة عن ربها ، ملتفتة إلى غيره ، فهؤلاء لهم الويل الشديد ، والشر الكبير .

[أولئك فى ضلال مبين] وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه ؟ ومن كل السعادة فى الإقبال عليه ، وقسا قلبه عن ذكره ، وأقبل على كل ما يضره ؟ ! !

* يخبر تعالى عن كتابه الذى نزله أنه [أحسن الحديث] على الإطلاق .

فأحسن الحديث ، كلام الله ، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله ، هذا القرآن .

وإذا كان هو الأحسن ، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ ، وأوضحها ، وأن معانيه ، أجل المعانى ، لأنه أحسن الحديث ، فى لفظه ومعناه ، متشابها

. . . .

فى الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف ، بوجه من الوجوه .

حتى إنه كلما تدبره المتدبر ، وتفكر فيه المتفكر ، رأى من اتفاقه ، حتى فى معانيه الغامضة ، ما يبهر الناظرين ، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم ، هذا هو المراد بالتشابه فى هذا الموضع .

وأما فى قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » .

فالمراد بها ، التى تشتبه على فهوم كثير من الناس ، ولا يزول هذا الاشتباه ، إلا بردها إلى المحكم ، ولهذا قال : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » فجعل التشابه لبعضه .

وهنا جعله كله متشابها ، أى : فى حسنه ، لأنه قال : [أحسن الحديث] وهو سور وآيات ، والجميع يشبه بعضه بعضا ، كما ذكرنا .

[مثانى] أى : تثنى فيه القصص والأحكام ، والوعد والوعيد ، وصفات أهل الخير ، وصفات أهل الشر ، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته .

وهذا من جلالته ، وحسنه ، فإنه تعالى ، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب ، المكملة للأخلاق ، وأن تلك[1] المعانى للقلوب ، بمنزلة الماء لسقى الأشجار .

---

(١) قوله « وأن تلك المعانى الخ » المقام يقتضى أن يقال « جعل تلك المعانى للقلوب بمنزلة الماء لسقى الأشجار » حتى يتسق الكلام ويفهم جواب « لما » فى قوله « لما علم احتياج الخلق الخ » .

مِنْـهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقى الماء ، نقصت ، بل ربما تلفت ، وكلما تكرر سقيها ، حسنت ، وأثمرت أنواع الثمار النافعة .

فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معانى كلام الله تعالى عليه ، وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة فى جميع القرآن ، لم يقع منه موقعا ، ولم تحصل النتيجة منه .

ولهذا سلكت فى هذا التفسير هذا المسلك الكريم ، اقتداء بما هو تفسير له .

فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع .

بل كل موضع تجد تفسيره ، كامل المعنى ، غير مراع لما مضى مما يشبهه .

وإن كان بعض المواضع ، يكون أبسط من بعض ، وأكثر فائدة .

وهكذا ينبغى للقارىء للقرآن ، المتدبر لمعانيه ، أن لا يدع التدبر فى جميع المواضع منه .

فإنه يحصل له بسبب ذلك ، خير كثير ، ونفع غزير .

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة ، أثَّر فى قلوب أولى الألباب المهتدين فلهذا قال تعالى : [تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم] لما فيه من التخويف والترهيب المزعج .

[ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] أى : عند ذكر الرجاء والترغيب .

ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

فهو تارة يرغبهم لعمل الخير ، وتارة يرهبهم من عمل الشر .

[ذلك] الذى ذكره الله من تأثير القرآن فيهم .

[هدى لله] أى: هداية منه لعباده ، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم

[يهدى به] أى : بسبب ذلك [من يشاء من عباده] .

ويحتمل أن المراد بقوله [ذلك] أى : القرآن الذى وصفناه لكم .

[هدى الله] الذى لا طريق يوصل إلى الله إلا منه [يهدى به من يشاء من عباده] ممن حسن قصده ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » .

[ومن يضلل الله فما له من هاد] لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق بالإقبال على كتابه .

فإذا لم يحصل هذا ، فلا سبيل إلى الهدى ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* أى : هل يستوى هذا الذى هداه الله ، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته .

ومن كان فى الضلال ، واستمر على عناده ، حتى قدم القيامة ، لجاءه العذاب العظيم .

فجعل يتقى بوجهه الذى هو أشرف الأعضاء ، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه .

فهو يتقى فيه ، سوء العذاب لأنه قد غلت يداه ورجلاه .

[وقيل للظالمين] أنفسهم ، بالكفر والمعاصى ، توبيخا وتقريعا : [ذوقوا ما كنتم تكسبون] .

[كذب الذين من قبلهم] من الأمم كما كذب هؤلاء .

[فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون] جاءهم فى غفلة ، أو نهار ، أو هم قائلون .

[فأذاقهم الله] بذلك العذاب [الخزى فى الحياة الدنيا] فافتضحوا عند الله ، وعند خلقه .

[ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون] فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب ، فيصيبهم ما أصاب أولئك ، من التعذيب .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

---

* يخبر تعالى ، أنه ضرب فى القرآن من جميع الأمثال ، أمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر ، وأمثال التوحيد والشرك ، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء والحكمة فى ذلك [لعلهم يتذكرون] عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ، ويعملون .

[قرآنا عربيا غير ذى عوج] أى : جعلناه قرآنا عربيا ، واضح الألفاظ ، سهل المعانى ، خصوصا على العرب .

[غير ذي عوج] أى ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه ، لا فى ألفاظه ، ولا فى معانيه ، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما » .

[لعلهم يتقون] الله تعالى ، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى ، العلمية والعملية ، بهذا القرآن العربى المستقيم ، الذى ضرب الله فيه من كل مثل .

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال :

[ضرب الله مثلا رجلا] أى : عبدا [فيه شركاء متشا كسون] فهم كثيرون ، وليسوا متفقين على أمر من الأمور ، وحالة من الحالات ، حتى تمكن راحته ، بل هم متشا كسون متنازعون فيه ، كل له مطلب ، يريد تنفيذه ، ويريد الآخر غيره .

فما تظن حال هذا الرجل ، مع هؤلاء الشركاء المتشا كسين ؟

وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

[ورجلا سلما لرجل] أى : خالصا له ، قد عرف مقصود سيده ، وحصلت له الراحه التامة .

[هل يستويان] أى : هذان الرجلان [مثلا] ؟ لا يستويان .

كذلك المشرك ، فيه شركاء متشاكسون ، يدعو هذا ، ثم يدعو هذا .

فتراه لا يستقر له قرار ، ولا يطمئن قلبه فى موضع .

والموحد مخلص لربه ، قد خلصه الله من الشركة لغيره ، فهو فى أتم راحة ، وأكمل طمأنينة .

[هل يستويان مثلا ، الحمد لله] على تبيين الحق من الباطل ، وإرشاد الجهال .

[بل أكثرهم لا يعلمون] « ما يصيرون إليه من العذاب من جراء شركهم »

[إنك ميت وإنهم ميتون] أى : كلكم لا بد أن يموت « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » .

[ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون] فيما تنازعتم فيه ، فيفصل بينكم بحكمه العادل ، ويجازى كُلاً ما عمله « أحصاه الله ونسوه » .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

---

* يقول تعالى، محذراً، ومخبراً : إنه لا أظلم وأشد ظلماً [ممن كذب على الله] إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، وهو كاذب.

فهذا داخل فى قوله تعالى « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » إن كان جاهلا، وإلا فهو أشنع وأشنع.

[وكذب بالصدق لما جاءه] أى : ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات، فكذبه.

فتكذيبه، ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعد ما تبين له.

فإن كان جامعا بين الكذب على الله، والتكذيب بالصدق، كان ظلما على ظلم.

[أليس فى جهنم مثوى للكافرين] يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر :

« إن الشرك لظلم عظيم ».

ولما ذكر الكاذب المكذب، وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق، وثوابه.

فقال : [والذى جاء بالصدق] فى قوله وعمله، فدخل فى ذلك، الأنبياء

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

ومن مقامهم ، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه ، وفيما فعله من خصال الصدق .

[وصدق به] أي : بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق ، ولكن لا يصدق به ، بسبب استكباره ، أو احتقاره لمن قاله ، وأتى به ، فلا بد فى المدح من الصدق والتصديق .

فصدقه ، يدل على علمه . وعدله وتصديقه ، يدل على تواضعه ، وعدم استكباره .

[أولئك] أي : الذين وفقوا للجمع بين الأمرين [هم المتقون] ، فإن جميع خصال التقوى ، ترجع إلى الصدق بالحق ، والتصديق به .

[لهم ما يشاءون عند ربهم] من الثواب ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر عل قلب بشر .

فكل ماتعلقت به إرادتهم ومشيئتهم ، من أصناف اللذات والمشتهيات ، فإنه حاصل لهم ، معد مهيأ .

[ذلك جزاء المحسنين] الذين يعبدون الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم [المحسنين] إلى عباد الله .

[ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون] .

وعمل الإنسان ، له ثلاث حالات :

إما أسوأ ، أو أحسن ، أولا أسوأ ، ولا أحسن .

أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن

والقسم الأخير ، قسم المباحات ، ومالا يتعلق به ثواب ولا عقاب .

والأسوأ ، المعاصى كلها ، والأحسن ، الطاعات كلها .

فبهذا التفصيل، يتبين معنى الآية ، وأن قوله : [ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا] .

أى : ذنوبهم الصغار ، بسبب إحسانهم وتقواهم ، .

[ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون] أى : بحسناتهم وتقواهم .

[ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون] أى : بحسناتهم كلها .

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما » .

* [أليس الله بكاف عبده] أى : أليس من كرمه وجوده ، وعنايته بعبده ، الذى قام بعبوديته ، وامتثل أمره ، واجتنب ما نهى عنه ، خصوصا ، أكمل الخلق عبودية لربه ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى ، سيكفيه فى أمر دينه ودنياه ، ويدفع عنه من ناوأه بسوء .

[ويخوفونك بالذين من دونه] من الأصنام والأنداد ، أن تنالك بسوء ، وهذا من غيهم وضلالهم .

دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ

[ومن يضلل الله فماله من هاد[1] . ومن يهد الله فماله من مضل] لأنه تعالى ، الذى بيده الهداية والإضلال ، وهو الذى ما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن

[أليس الله بعزيز] له العزة الكاملة ، التي قهر بها كل شيء ، وبعزته ، يكفى عبده ، ويدفع عنه مكرهم .

[ذي انتقام] ممن عصاه ، فاحذروا موجبات نقمته .

* أى ولئن سألت هؤلاء الضلال ، الذين يخوفونك بالذين من دونه ، وأقمت عليهم ، دليلا من أنفسهم ، فقلت : [من خلق السموات والأرض] لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا .

[ليقولن الله] وحده ، الذى خلقها .

[قل] لهم مقررا عجز آلهتهم ، بعد ما تبينت قدرة الله :

[أفرأيتم] أى : أخبرونى [ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر] أىّ ضر كان .

---

(١) أى : ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره [فماله من هاد] من مؤثر فيه بشيء قط .

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ

[هل هن كاشفات ضره] بإزالته بالكلية ، أو بتخفيفه من حال إلى حال ؟ .

[أو أرادنى برحمة] يوصل إلىّ بها منفعة فى دينى أو دنياى .

[هل هن ممسكات رحمته] ومانعاتها عنى ؟ .

سيقولون : لا يكشفون الضر ، ولا يمسكون الرحمة .

قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع ، على أنه وحده ، المعبود ، وأنه الخالق للمخلوقات ، النافع الضار وحده ، وأن غيره عاجز من كل وجه . عن الخلق ، والضر ، مستجلبا كفايته ، مستدفعا مكرهم وكيدهم :

[قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون] أى : عليه يعتمد المعتمدون فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم .

فالذى بيده — وحده — الكفاية ، هو حسبى ، سيكفينى كل ما أهمنى ، وما لا أهتم به .

* أى [قل] لهم يا أيها الرسول [ياقوم اعملوا على مكانتكم] أى : على حالتكم التى رضيتموها لأنفسكم ، من عبادة من لا يستحق العبادة ، ولا له من الأمر شىء .

[إنى عامل] على ما دعوتكم إليه ، من إخلاص الدين لله تعالى وحده .

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

[فسوف تعلمون] لمن العاقبة و [من يأتيه عذاب يخزيه] فى الدنيا .

[ويحل عليه] فى الأخرى [عذاب مقيم] لا يحول عنه ، ولا يزول .

وهذا تهديد عظيم لهم ، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم ، ولـكن الظلم والعناد ، حال بينهم وبين الإيمان .

* يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الـكتاب المشتمل على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه ، الذى هو مادة الهداية ، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ، وأنه قامت به الحجة على العالمين .

[فمن اهتدى] بنوره واتبع أوامره [ف] إن نفع ذلك ، يعود [لنفسه ، ومن ضل] بعدما تبين له الهدى [فإنما يضل عليها] لا يضر الله شيئاً .

[وما أنت عليهم بوكيل] تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ، وتجبرهم على ما تشاء .

وإنما أنت مبلغ ، تؤدى إليهم ما أمرت به .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أنه المنفرد بالتصرف بالعباد ، فى حال يقظتهم ونومهم ، وفى حال حياتهم وموتهم .

فقال : [الله يتوفى الأنفس حين موتها] وهذه الوفاة ، الكبرى ، وفاة الموت .

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه ، لا ينافى أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه ، كما قال تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم*حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه ، باعتبار أنه الخالق المدبر .

ويضيفها إلى أسبابها ، باعتبار أن من سنته تعالى وحكمته ، أن جعل لكل أمر من الأمور سببا .

وقوله : [والتى لم تمت فى منامها] وهذه هى الموتة الصغرى ، أى : ويمسك النفس ، التى لم تمت فى منامها .

[فيمسك] من هاتين النفسين النفس [التى قضى عليها الموت] وهى نفس من كان مات ، أو قضى أن يموت فى منامه .

[ويرسل] النفس [الأخرى إلى أجل مسمى] أى : إلى استكمال رزقها وأجلها .

[إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون] على كمال اقتداره ، وإحيائه الموتى ، بعد موتهم .

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ

وفى هذه الآية ، دليل على أن الروح والنفس ، جسم قائم بنفسه ، مخالف جوهره ، جوهر البدن .

وأنها مخلوقة مدبرة ، يتصرف الله فيها ، بالوفاة ، والإمساك ، والإرسال .

وأن أرواح الأحياء ، تتلاقى فى البرزخ ، فتجتمع ، فتتحادث .

فيرسل الله أرواح الأحياء ، ويمسك أرواح الأموات .

* ينكر تعالى ، على من اتخذ من دونه شفعاء ، يتعلق بهم ، ويسألهم ويعبدهم .

[قل] لهم — مبيناً جهلهم ، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة — :

[أو لو كانوا] أى : من اتخذتم من الشفعاء [لا يملكون شيئاً] .

أى : لا مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

بل [ولا يعقلون] أى : وليس لهم عقل ، يستحقون أن يمدحوا به ، لأنها جمادات ، من أحجار ، وأشجار ، وصور ، وأموات .

فهل يقال : إن لمن اتخذها عقلا ؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم ، وأعظمهم ظلما ؟ .

[قل] لهم : [لله الشفاعة جميعا] لأن الأمر كله لله .

وكل شفيع ، فهو يخافه ، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ

فإذا أراد رحمة عبده ، أذن للشفيع الكريم عنده ، أن يشفع ، رحمة بالاثنين .

ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله [له ملك السموات والأرض] .
أى : جميع ما فيها من الذوات ، والأفعال ، والصفات .

فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها ، وتخلص له العبادة .

[ثم إليه ترجعون] فيجازى المخلص له بالثواب الجزيل ، ومن أشرك به ، بالعذاب الوبيل .

* يذكر تعالى حالة المشركين ، وما اقتضاه شركهم (و) أنهم [إذا اذكر الله وحده] توحيداً له ، وعملا بإخلاص الدين له ، وترك ما يعبدون من دونه ، يشمئزون ، وينفرون ، ويكرهون ذلك أشد الكراهة .

[وإذا ذكر الذين من دونه] من الأصنام والأنداد ، ودعا الداعى إلى عبادتها ومدحها [إذا هم يستبشرون] بذلك ، فرحا بذكر معبوداتهم ، ولكون الشرك موافقا لأهوائهم ، وهذه الحال ، شر الحالات وأشنعها ، ولكن موعدهم يوم الجزاء .

فهناك يؤخذ الحق منهم ، وينظر : هل تنفعهم آلتهم ، التى كانوا يدعون من دون الله شيئا ؟ .

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

ولهذا قال [قل اللهم فاطر السموات والأرض] أى : خالقهما ومدبرهما .

[عالم الغيب] الذى غاب عن أبصارنا وعلمنا [والشهادة] الذى نشاهده .

[أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون] وإن من أعظم الاختلاف ، اختلاف الموحدين المخلصين ، القائلين : إن ماهم عليه هو الحق ، وإن لهم الحسنى فى الآخرة دون غيرهم ، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان ، وسووا بك من لا يسوى شيئا ، وتنقصوك غاية التنقص ، واستبشروا عند ذكر آلهتهم ، واشمأزوا عند ذكرك ، وزعموا مع هذا ، أنهم على الحق ، وغيرهم على الباطل ، وأن لهم الحسنى .

قال تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيمة إن الله على كل شىء شهيد » .

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد » إلى أن قال : [إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير] .

وقال تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار »

ففى هذه الآية ، بيان عموم خلقه تعالى ، وعموم علمه ، وعموم حكمه بين عباده .

فقدرته التى نشأت عنها المخلوقات ، وعلمه المحيط بكل شىء ، دال على حكمه بين عباده ، وبعثهم ، وعلمه بأعمالهم ، خيرها وشرها ، وبمقادير جزائها ، وخلقه دال على علمه « ألا يعلم من خلق » .

* لما ذكر تعالى ، أنه الحاكم بين عباده ، وذكر مقالة المشركين وشناعتها ، كأن النفوس تشوفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة ، أخبر أن لهم [سوء العذاب] أى : أشده وأفظعه ، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه .

وأنهم على ـ الفرض والتقدير ـ لو كان لهم ما فى الأرض جميعاً ، من ذهبها ، وفضتها ، ولؤلؤها ، وحيواناتها ، وأشجارها ، وزروعها ، وجميع أوانيها ، وأثاثها ، ومثله معه ، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب ، وينجوا منه ، ما قبل منهم ، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئا ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم » .

[وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون] أى : يظنون من السخط

يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا

العظيم ، والمقت الكبير ، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك .

[وبدا لهم سيئات ما كسبوا] أى : الأمور التى تسوؤهم ، بسبب صنيعهم وكسبهم .

[وحاق[1] بهم ما كانوا به يستهزئون] من الوعيد والعذاب ، الذى نزل بهم ، وما حل عليهم ، من العقاب .

* يخبر تعالى ، عن حالة الإنسان وطبيعته ، أنه حين يمسه ضر ، من مرض ، أو شدة ، أو كرب .

[دعانا] ملحا فى تفريج ما نزل به [ثم إذا خولناه] « أى : أعطيناه » [نعمة منا] فكشفنا ضره وأزلنا مشقته ، عاد بربه كافرا ، ولمعروفه منكرا .

و [قال إنما أوتيته على علم] أى : علم من الله ، أنى له أهل ، وأنى مستحق له ، لأنى كريم عليه ، أو على علم منى ، بطرق تحصيله .

قال تعالى : [بل هى فتنة] يبتلى الله به عباده ، ليننظر من يشكره ممن يكفره .

---

(١) حاق ، أى : نزل وأحاط .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فلذلك يعدون الفتنة منحة .

ويشتبه عليهم الخير المحض ، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر .

قال تعالى : [قد قالها الذين من قبلهم] أى : قولهم [إنما أوتيته على علم] .

فما زالت متوارثة عند المكذبين ، لا يقرون بنعمة ربهم ، ولا يرون له حقا .

فلم يزل دأبهم ، حتى أهلكوا ، [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] حين جاءهم العذاب .

* [فأصابهم سيئات ما كسبوا] والسيئات فى هذا الموضع : العقوبات ، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه .

والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا] فليسوا خيرا من أولئك ولم يكتب لهم براءة فى الزبر .

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال ، وزعموا بجهلهم ، أنه يدل على حسن حال صاحبه .

أخبرهم تعالى ، أن رزقه ، لا يدل على ذلك ، و [أن الله يبسط الرزق لمن يشاء] من عباده ، سواء كان صالحا أو طالحاً [ويقدر] الرزق .

أى : يضيقه ، على من يشاء ، صالحا أو طالحا ، فرزقه مشترك بين البرية .

هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

والإيمان والعمل الصالح يخص به ، خير البرية .

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] أى : بسط الرزق وقبضه ، لعلمهم أن مرجع ذلك ، عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبيده .

فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه ، لبغوا فى الأرض ، فيكون تعالى مراعياً فى ذلك ، صلاح دينهم الذى هو مادة سعادتهم وفلاحهم ، والله أعلم .

* يخبر تعالى عباده المسرفين « أى : المكثرين من الذنوب » بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة ، قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال :

[قل] يا أيها الرسول ومن قام مقامه ، من الدعاة لدين الله ، مخبرا للعباد عن ربهم :

[ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم] باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب ، والسعى فى مساخط علام الغيوب .

[لا تقنطوا من رحمة الله] أى : لا تيأسوا منها ، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا ، وتراكمت عيوبنا ، فليس لها

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

طريق يزيلها ، ولا سبيل يصرفها ، فتبقون بسبب ذلك ، مصرين على العصيان ، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن .

ولكن اعرفوا ربكم ، بأسمائه الدالة على كرمه وجوده .

واعلموا [أن الله يغفر الذنوب جميعاً] من الشرك ، والقتل ، والزنا ، والربا ، والظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار .

[إنه هو الغفور الرحيم] أى ، وصفه المغفرة والرحمة ، وصفان لازمان ، ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما ، ولم تزل آثارهما ، سارية فى الوجود ، مالئة للموجود .

تسح يداه من الخيرات ، آناء الليل والنهار ، ويوالى النعم والفواضل على العباد فى السر والجهار ، والعطاء أحب إليه من المنع ، والرحمة ، سبقت الغضب وغلبته .

ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما ، أسباب إن لم يأت بها العبد ، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة ، أعظمها وأجلها .

بل لا سبب لها غيره ، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، والدعاء ، والتضرع ، والتأله ، والتعبد .

فهلم إلى هذا السبب الأجل ، والطريق الأعظم .

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه ، والمبادرة إليها فقال :

[وأنيبوا إلى ربكم] بقلوبكم [وأسلموا له] بجوارحكم .

إذا أفردت الإنابة ، دخلت فيها أعمال الجوارح ، وإذا جمع بينهما ، كما فى هذا الموضع ، كان المعنى ما ذكرنا .

ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

وفى قوله [إلى ربكم وأسلموا له] دليل على الإخلاص ، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة ، شيئاً .

[من قبل أن يأتيكم العذاب] مجيئا لا يدفع [ثم لا تنصرون(١)] .

فكأنه قيل : ما هى الإنابة والإسلام ؟ وما جزئياتهما وأعمالهما ؟

فأجاب تعالى بقوله:[واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم] مما أمركم من الأعمال الباطنة ، كمحبة الله ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضاد ذلك .

ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج،والصدقة، وأنواع الإحسان ، ونحو ذلك ، مما أمر الله به ، وهو : أحسن ما أنزل إلينا من ربنا .

فالمتبع لأوامر ربه فى هذه الأمور ونحوها ، هو المنيب المسلم .

[من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون(٢)] ، وكل هذا حثٌ على المبادرة ، وانتهاز الفرصة .

ثم حذرهم « ونصحهم » [أن] لا يستمروا على غفلتهم ، حتى يأتيهم يوم ، يندمون فيه ، ولا تنفع الندامة .

---

(١) أى : يمنع نزول العذاب ، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

(٢) أى : لا تشعرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له بل يفجأكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً ، لمزيد غفلتكم .

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ

« ولئلا » [تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت[1] فى جنب الله] أى : فى جانب حقه .

[وإن كنت] فى الدنيا [لمن الساخرين] فى إتيان الجزاء ، حتى رأيته عيانا .

[أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين[2]] و « لو » فى هذا الموضع للتمنى .

أى : ليت أن الله هدانى ، فأكون متقيا له ، فأسلم من العقاب ، وأستحق الثواب .

وليست « لو » هنا ، شرطية ، لأنها لو كانت شرطية ، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم ، وهى حجة باطلة ، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة .

[أو تقول حين ترى العذاب] وتجزم بوروده [لو أن لى كرة].

أى : رجعة إلى الدنيا [فأكون من المحسنين[3]] .

قال تعالى : إن ذلك غير ممكن ولا مفيد ، وأن هذه أمانى باطلة ،

---

(١) فرطت أى : قصرت « فى جنب الله » فى طاعته وحقه تعالى .

(٢) أى : الشرك والمعاصى .

(٣) أى : فى العقيدة والعمل .

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم

لا حقيقة لها ، إذ لا يتجدد للعبد لو رُدَّ ، بيان بعد البيان الأول .

[بلى قد جاءتك آياتى] الدالة على الحق ، دلالة لا يمترى فيها .

[فكذبت بها واستكبرت] عن اتباعها [وكنت من الكافرين] .

فسؤال الرد إلى الدنيا ، نوع عبث ، « فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

* يخبر تعالى ، عن خزى الذين كذبوا عليه ، وأن وجوههم تكون يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم ، يعرفهم بذلك أهل الموقف ، فالحق أبلج واضح ، كأنه الصبح .

فكما سوّدوا وجه الحق بالكذب ، سود الله وجوههم ، جزاء من جنس عملهم .

فلهم سواد الوجوه ، ولهم العذاب الشديد فى جهنم ، ولهذا قال :

[أليس فى جهنم مثوى[1] للمتكبرين] عن الحق ، وعن عبادة ربهم ، المفترين عليه ؟

بلى ، والله ، إن فيها لعقوبة وخزيا وسخطا ، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ ، ويؤخذ الحق منهم بهما .

---

(١) مثوى . أى : مقام ومنزل يكون لهم مأوى .

مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

والكذب على الله ، يشمل الكذب عليه ، باتخاذ الشريك والولد والصاحبة ، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله ، أو ادعاء النبوة ، أو القول فى شرعه بما لم يقله ، والإخبار بأنه قاله وشرعه .

ولما ذكر حالة المتكبرين ، ذكر حالة المتقين فقال : [وينجى الله[1] الذين اتقوا بمفازتهم[2]] أى بنجاتهم ، وذلك لأن معهم آلة النجاة ، وهى تقوى الله تعالى ، التى هى العدة ، عند كل هول وشدة .

[لا يمسهم السوء] أى : العذاب الذى يسوؤهم [ولا هم يحزنون] فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه ، وهذا غاية الأمان .

فلهم الأمن التام ، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام .

فحينئذ ، يأمنون من كل سوء ومكروه ، وتجرى عليهم نضرة النعيم .

ويقولون « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

---

(١) أى : من جهنم .

(٢) بمفازتهم . أى : بفوزهم وحصول أمنيتهم وهى الظفر بالجنة و« المفازة » مصدر ميمى . بمعنى الفوز يقال : فاز بكذا ، إذ أفلح به وظفر بمراده منه : وتفسير المفازة هو : أنه لا تمسهم النار التى تسوؤهم .

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ ﴿٦٢﴾

* يخبر تعالى عن عظمته وكماله ، الموجب لخسران من كفر به فقال :

[الله خالق كل شىء] هذه العبارة وما أشبهها ، مما هو كثير فى القرآن ، تدل على أن جميع الأشياء ـ غير الله وأسمائه وصفاته ـ مخلوقة .

ففيها رد على كل من قال ، بقدم بعض المخلوقات ، كالفلاسفة القائلين ، بقدم الأرض والسموات .

وكالقائلين بقدم الأرواح ، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل ، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه .

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة ، لأن الكلام صفة المتكلم .

والله ، تعالى بأسمائه وصفاته ، أول ، ليس قبله شىء .

فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها ، أن كلام الله مخلوق ، من أعظم الجهل .

فإنه تعالى ، لم يزل بأسمائه وصفاته ، ولم يحدث صفة من صفاته ، ولم يكن معطلا عنها ، بوقت من الأوقات .

والشاهد من هذا ، أن الله تعالى ، أخبر عن نفسه الكريمة ، أنه خالق لجميع العلوى والسفلى ، وأنه على كل شىء وكيل .

والوكالة التامة ، لا بد فيها من علم الوكيل ، بما كان وكيلا عليه ، وإحاطته بتفاصيله .

ومن قدرة تامة على ماهو وكيل عليه ، ليتمكن من التصرف فيه ، ومن حفظٍ ، لما هو وكيل عليه ، ومن حكمة ، ومعرفة ، بوجوه التصرفات ،

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

ليصرفها ويدبرها ، على ما هو الأليق ، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله ، فما نقص من ذلك ، فهو نقص فيها .

ومن المعلوم المتقرر ، أن الله تعالى منزه عن كل نقص ، فى أى صفة من صفاته .

فإخباره بأنه على كل شىء وكيل ، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وكمال قدرته على تدبيرها ، وكمال تدبيره ، وكمال حكمته ، التى يضع بها الأشياء مواضعها .

[له مقاليد السموات والأرض] أى : مفاتيحها ، علماً وتدبيرا ، فـ « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

فلما بين من عظمته ، ما يقتضى أن تمتلىء القلوب له إجلالا وإكراما ، ذكر حال من عكس القضية ، فلم يقدره حق قدره فقال :

[والذين كفروا بآيات الله] الدالة على الحق اليقين ، والصراط المستقيم .

[أولئك هم الخاسرون] خسروا ، ما به تصلح القلوب ، من التأله والإخلاص لله .

وما به تصلح الألسن ، من إشغالها بذكر الله ، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله .

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ

وتعوضوا عن ذلك ، كل مفسد للقلوب والأبدان ، وخسروا جنات النعيم ، وتعوضوا عنها ، بالعذاب الأليم .

* [قل] يا أيها الرسول ، لهؤلاء الجاهلين ، الذين دعوك إلى عبادة غير الله :

[أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون] أى : هذا الأمر صدر من جهلكم ، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى ، الكامل من جميع الوجوه ، مسدى جميع النعم ، هو المستحق للعبادة ، دون من كان ناقصا من كل وجه ، لا ينفع ، ولا يضر ، لم تأمرونى بذلك ؟ .

وذلك لأن الشرك بالله، محبط للأعمال ، مفسد للأحوال ، ولهذا قال :

[ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك] من جميع الأنبياء .

[لئن أشركت ليحبطن عملك] ، هذا مفرد مضاف ، يعم كل عمل .

ففى نبوة جميع الأنبياء ، أن الشرك محبط لجميع الأعمال ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام ـ لما عد كثيرا من أنبيائه ورسله قال عنهم :

« ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » .

[ولتكونن من الخاسرين] دينك وآخرتك .

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ

فبالشرك تحبط الأعمال ، ويستحق العقاب والنكال .

ثم قال : [بل الله فاعبد] لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك ، وأخبر عن شناعته ، أمره بالإخلاص فقال :

[بل الله فاعبد] أى : أخلص له العبادة ، وحده لا شريك له .

[وكن من الشاكرين] الله ، على توفيق الله تعالى .

فكما أنه يشكر على النعم الدنيوية ، كصحة الجسم وعافيته ، وحصول الرزق وغير ذلك .

كذلك يشكر ويثنى عليه ، بالنعم الدينية ، كالتوفيق للإخلاص ، والتقوى ، بل نعم الدين ، هى النعم على الحقيقة .

وفى تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها ، سلامة من آفة العجب ، التى تعرض لكثير من العاملين ، بسبب جهلهم .

وإلا ، فلو عرف العبد حقيقة الحال ، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر .

* يقول تعالى : وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدرة ، ولا عظموه حق تعظيمه ، بل فعلوا ما يناقض ذلك ، من إشراكهم به ، من هو ناقص فى أوصافه وأفعاله .

فأوصافه ناقصة من كل وجه ، وأفعاله ، ليس عنده نفع ولا ضر ، ولا عطاء ، ولا منع ، ولا يملك من الأمر شيئا .

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

فسووا هذا المخلوق الناقص ، بالخالق الرب العظيم ، الذى — من عظمته الباهرة ، وقدرته القاهرة — أن جميع الأرض يوم القيامة ، قبضة للرحمن ، وأن السموات — على سعتها وعظمها — مطويات بيمينه .

فلم يعظمه حق تعظيمه ، من سوّى به غيره ، وهل أظلم ممن فعل ذلك ؟.

[سبحانه وتعالى عما يشركون] أى : تنزه ، وتعاظم عن شركهم به .

☆ لما خوفهم تعالى من عظمته ، خوفهم بأحوال يوم القيامة ، ورغّبهم ورهّبهم فقال :

[ونفخ فى الصور] وهو قرن عظيم ، لا يعلم عظمته إلا خالقه ، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه .

فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . أحد الملائكة المقربين ، وأحد حملة عرش الرحمن .

[فصعق] أى : غشى عليه أو مات ، على اختلاف القولين .

[من فى السموات ومن فى الأرض] أى : كلهم ، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها ، وما يعلمون أنها مقدمة له .

[إلا من شاء الله] ممن ثبته الله عند النفخة ، فلم يصعق ، كالشهداء أو بعضهم ، وغيرهم .

يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ

وهذه النفخة الأولى ، نفخة الصعق ، ونفخة الفزع .

[ثم نفخ فيه] نفخة [أخرى] نفخة البعث [فإذا هم قيام] أى : قد قاموا من قبورهم ، لبعثهم وحسابهم ، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح ، وشخصت أبصارهم [ينظرون] ماذا يفعل الله بهم .

[وأشرقت الأرض بنور ربها] علم من هذا ، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضحمل ، وهو كذلك .

فإن الله أخبر أن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، والنجوم تنتثر ، ويكون الناس فى ظلمة ، فتشرق الأرض عند ذلك ، بنور ربها ، عندما يتجلى ، وينزل للفصل بينهم .

وفى ذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة . وينشئهم نشأة ، يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره ، ويتمكنون أيضا من رؤيته .

وإلا ، فنوره تعالى عظيم ، لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

[ووضع الكتاب] أى : كتاب الأعمال وديوانه ، وضع ونشر ، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات ، كما قال تعالى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً » .

وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

[وجيء بالنبين] ليسألوا عن التبليغ ، وعن أممهم ، ويشهدوا عليهم .

[والشهداء] من الملائكة ، وأعضاء الإنسان والأرض .

[وقضى بينهم بالحق] أى : العدل التام والقسط العظيم ، لأنه حساب صادر ، ممن لا يظلم مثقال ذرة ، ومن هو محيط بكل شيء .

وكتابه الذى ، هو اللوح المحفوظ ، محيط بكل ما عملوه .

والحفظة الكرام ، والذين لا يعصون ربهم ، قد كتبت عليهم ما عملوه .

وأعدل الشهداء ، قد شهدوا على ذلك الحكم .

فحكم بذلك ، من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب .

فيحصل حكم يقر به الخلق ، ويعترفون لله بالحمد والعدل ، ويعرفون به من عظمته ، وعلمه ، وحكمته ورحمته ، ما لم يخطر بقلوبهم ، ولا تعبر عنه ألسنتهم ، ولهذا قال :

[ووفيت كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١)] .

---

(١) لا يظلمون . أى : بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب ، على ما جرى به الوعد . اهـ . أبو السعود .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

---

* لما ذكر تعالى حكمه بين عباده ، الذين جمعهم فى خلقه ، ورزقه ، وتدبيره ، واجتماعهم فى الدنيا ، واجتماعهم فى موقف القيامة ، فرقهم تعالى عند جزائهم ، كما افترقوا فى الدنيا بالإيمان والكفر ، والتقوى والفجور ، فقال :

[وسيق الذين كفروا إلى جهنم] أى : سوقا عنيفا ، يضربون بالسياط الموجعة ، من الزبانية الغلاظ الشداد ، إلى شر محبس ، وأفظع موضع ، وهى : جهنم التى قد جمعت كل عذاب ، وحضرها كل شقاء ، وزال عنها كل سرور ، كما قال تعالى :

« يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » أى : يدفعون إليها دفعاً ، وذلك لامتناعهم من دخولها .

ويساقون إليها [زمراً] أى : فرقاً متفرقة ، كل زمرة مع الزمرة ، التى تناسب عملها ، وتشاكل سعيها ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويبرأ بعضهم من بعض .

[حتى إذا جاءوها] أى: وصلوا إلى ساحتها [فتحت] لهم أى لأجلهم [أبوابها] لقدومهم وقِرًى لنزولهم .

[وقال لهم خزنتها] مهنئين لهم بالشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى ، وموبخين لهم على الأعمال ، التى أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع :

[ألم يأتكم رسل منكم] أى : من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم ،

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

وتتمكنون من التلقى عنهم ؟ .

[يتلون عليكم آيات ربكم] التى أرسلهم الله بها ، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين .

[وينذرونكم[1] لقاء يومكم هذا] أى : وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم ، باستعمال تقواه ، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال ؟

[قالوا] مقرين بذنبهم ، وأن حجة الله قامت عليهم : [بلى] قد جاءتنا رسل ربنا ، بآياته وبيناته ، وبينوا لنا غاية التبيين وحذرونا من هذا اليوم .

[ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين] أى : بسبب كفرهم ، وجبت عليهم كلمة العذاب ، التى هى ، لكل من كفر بآيات الله ، وجحد ما جاء به المرسلون ، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم .

[قيل] لهم على وجه الإهانة والإذلال : [ادخلوا أبواب جهنم] كل طائفة ، تدخل من الباب الذى يناسبها ، ويوافق عملها .

---

(١) ينذرونكم . أى : يخوفونكم من لقاء هذا اليوم المهول الذى يجعل الولدان شيباً .

ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

[خالدين فيها] أبداً ، لا يظعنون عنها ، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا ينظرون .

[فبئس مثوى المتكبرين] أى : بئس المقر ، النار مقرهم ، وذلك لأنهم تكبروا على الحق ، فجازاهم الله من جنس عملهم ، بالإهانة ، والذل، والخزى .

ثم قال عن أهل الجنة : [وسيق الذين اتقوا ربهم]بتوحيده ، والعمل بطاعته ، سوق إكرام وإعزاز ، يحشرون وفدا على النجائب .

[إلى الجنة زمراً] فرحين مستبشرين ، كل زمرة مع الزمرة ، التى تناسب عملها ، وتشاكله .

[حتى إذا جاءوها] أى : وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة ، والمنازل الأنيقة ، وهبّ عليهم ريحها ونسيمها ، وآن خلودها ونعيمها .

[وفتحت] لهم [أبوابها] فتح إكرام ، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

[وقال لهم خزنتها] تهنئة لهم وترحيباً : [سلام عليكم] أى : سلام عليكم من كل آفة ، وشر حال .

[طبتم] أى : طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته ، وخشيته ، وألسنتكم بذكره ، وجوارحكم بطاعته .

« فـ » بسبب طيبكم [ادخلوها خالدين] لأنها الدار الطيبة ، ولا يليق بها ، إلا الطيبون .

. . . .

وقال فى النار [فتحت أبوابها] وفى الجنة [وفتحت] بالواو ، إشارة إلى أن أهل النار ، بمجرد وصولهم إليها ، فتحت لهم أبوابها ، من غير إنظار ولا إمهال .

وليكون[1] فتحها فى وجوههم ، وعلى وصولهم ، لحرها ، وأشد لعذابها.

وأما الجنة ، فإنها الدار العالية الغالية ، التى لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد ، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها ، ومع ذلك ، فيحتاجون لدخولها إلى الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه ، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها.

بل يستشفعون إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يشفع ، فيشفعه الله تعالى .

وفى الآيات ، دليل على أن النار والجنة ، لهما أبواب ، تفتح وتغلق ، وأن لكل منهما خزنة .

---

(١) قوله « وليكون فتحها » إلى « وأشد لعذابها » كلام غير مفهوم ولعل فى الأصل سقطا وأحسن ما يقال فى سبب الإتيان بالواو فى أهل الجنة « وفتحت أبوابها » وفى أهل النار « فتحت أبوابها » بدون الواو ، ما ذكره النسفى فى تفسيره بقوله « أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فتقدم فتحها لقوله تعالى « جنات عدن مفتحة لها الأبواب » فلذلك جىء بالواو ، كأنه قال [حتى إذا جاءوها] [و]قد[قد فتحت أبوابها] اهـ. فتكون الواو للحال أى : والحال كانت أبواب الجنة مفتوحة .

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ

وهما الداران الخالصتان ، اللتان لا يدخل فيهما ، إلا من استحقهما ، بخلاف سائر الأمكنه والدور .

[وقالوا] عند دخولهم فيها ، واستقرارهم ، حامدين ربهم على ماأولاهم ، ومنّ عليهم ، وهداهم :

[الحمد لله الذى صدقنا وعده] أى : وعدنا الجنة على ألسنة رسله ، إن امنا وصلحنا ، فوفّى لنا بما وعدنا ، وأنجز لنا ما منّانا .

[وأورثنا الأرض] أى : أرض الجنة [نتبوأ من الجنة حيث نشاء] أى ننزل منها أى مكان شئنا ، ونتناول منها ، أى نعيم أردنا ، ليس ممنوعا عنا شيء نريده .

[فنعم أجر العاملين] الذين اجتهدوا بطاعة ربهم ، فى زمن قليل منقطع ، فنالوا بذلك خيراً عظيما باقيا مستمراً .

وهذه الدار ، التى تستحق المدح على الحقيقة ، التى يكرم الله فيها خواص خلقه .

ورضيها الجواد الكريم لهم نزلا ، وبنى أعلاها وأحسنها ، وغرسها بيده ، وحشاها من رحمته وكرامته ، ما ببعضه ، يفرح الحزين ، ويزول الكدر ، ويتم الصفاء .

[وترى الملائكة] أيها الرائي ذلك اليوم العظيم [حافين من حول العرش] .

مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

أى : قد قاموا فى خدمة ربهم ، واجتمعوا حول عرشه ، خاضعين لجلاله ، معترفين بكماله ، مستغرقين بجماله .

[يسبحون بحمد ربهم] أى : ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله ، مما نسب إليه المشركون ، وما لم ينسبوا .

[وقضى بينهم] أى : بين الأولين والآخرين من الخلق [بالحق] الذى لا اشتباه فيه ولا إنـكار ، ممن عليه الحق .

[وقيل الحمد لله رب العالمين] لم يذكر القائل من هو ، ليدل ذلك على أن جميع الخلق ، نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة ، وأهل النار ، حمد فضل وإحسان ، وحمد عدل وحكمة .

تم تفسير سورة الزمر — بحمد الله وعونه

تفسير

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿٢﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله

---

* يخبر تعالى عن كتابه العظيم ، وأنه صادر ومنزل من الله ، المألوه المعبود ، لكماله ، وانفراده بأفعاله .

[العزيز] الذى قهر بعزته كل مخلوق [العليم] بكل شىء .

[غافر الذنب] للمذنبين [وقابل التوب] من التائبين .

[شديد العقاب] على من تجرأ على الذنوب ، ولم يتب منها [ذى الطول] أى : التفضل والإحسان الشامل .

فلما قرر ما قرر من كماله ، وكان ذلك موجبا لأن يكون وحده ، المألوه ، الذى تخلص له الأعمال قال : [لا إله إلا هو إليه المصير] .

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله ، الموصوف بهذه الأوصاف ، أن هذه الأوصاف ، مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن ، من المعانى .

إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

فإن القرآن : إما إخبار عن أسماء الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وهذه أسماء ، وأوصاف ، وأفعال .

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، فهى من تعليم العليم لعباده .

وإما إخبار عن نعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، ومايوصل إلى ذلك ، من الأوامر .

فذلك يدل عليه قوله [ذى الطول] .

وإما إخبار عن نقمه الشديدة ، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصى ، فذلك يدل عليه [شديد العقاب] .

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة ، والاستغفار فذلك يدل عليه قوله : [غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب] .

وإما إخبار بأنه وحده ، المألوه المعبود ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك ، والحث عليه ، والنهى عن عبادة ما سوى الله ، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها ، والترهيب منها ، فذلك يدل عليه قوله تعالى : [لا إله إلا هو] .

وإما إخبار عن حكمه الجزائى العدل ، وثواب المحسنين ، وعقاب العاصين ، فهذا يدل عليه قوله [إليه المصير] ، فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات .

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ

---

* يخبر تبارك وتعالى أنه [ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا] والمراد بالمجادلة هنا ، المجادلة لرد آيات الله ، ومقابلتها بالباطل فهذا من صنيع الكفار .

وأما المؤمنون ، فيخضعون للحق ، ليدحضوا به الباطل .

ولا ينبغى للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ، ويظن أن إعطاء الله إياه فى الدنيا ، دليل على محبته له ، وأنه على الحق ، ولهذا قال : [فلا يغررك تقلبهم فى البلاد] أى : ترددهم فيها ، بأنواع التجارات والمكاسب.

بل الواجب على العبد ، أن يعتبر الناس بالحق ، وينظر إلى الحقائق الشرعية ، ويزن بها الناس ، ولا يزن الحق بالناس ، كما عليه ، من لا علم ولا عقل له .

ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها ، كما فعل من قبله من الأمم من [قوم نوح] وعاد [والأحزاب من بعدهم] الذين تحزبوا ، وتجمعوا على الحق ليبطلوه ، وعلى الباطل لينصروه .

[و] أنه بلغت بهم الحال ، وآل بهم التحزب إلى أنه [همت كل أمة] من الأمم [برسولهم ليأخذوه] أى : يقتلوه .

وهذا أبلغ ما يكون للرسل ، الذين هم قادة أهل الخير ، الذين معهم الحق الصرف ، الذى لا شك فيه ، ولا اشتباه ، هموا بقتلهم .

لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

فهل بعد هذا البغى والضلال والشقاء ، إلا العذاب العظيم ، الذى لا يخرجون منه ؟

ولهذا قال فى عقوبتهم الدنيوية والأخروية : [فأخذتهم] أى : بسبب تكذيبهم وتحزبهم [فكيف كان عقاب] كان أشد العقاب وأفظعه ، إن هو إلا صيحة ، أو حاصب ينزل عليهم ، أو يأمر الأرض أن تأخذهم ، أو البحر أن يغرقهم ، فإذا هم خامدون .

[وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا] أى : كما حقت على أولئك ، حقت عليهم كلمة الضلال ، التى نشأت عنها كلمة العذاب ، ولهذا قال : [إنهم أصحاب النار] .

* يخبر تعالى ، عن كمال لطفه بعباده المؤمنين ، وماقيض لأسباب سعادتهم ، من الأسباب الخارجة عن قدرهم ، من استغفار الملائكة المقربين لهم ، ودعائهم لهم ، بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم .

وفى ضمن ذلك ، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله ، وقربهم من ربهم ، وكثرة عبادتهم ، ونصحهم لعباد الله ، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال :

[الذين يحملون العرش] أى : عرش الرحمن ، الذى هو سقف المخلوقات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحسنها ، وأقربها من الله تعالى ، الذى وسع

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ

الأرض والسموات، والكرسى .

وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة، وأعظمهم، وأقواهم .

واختيار الله إياهم، لحمل عرشه، وتقديمهم فى الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة، عليهم السلام، قال تعالى: « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

[ومن حوله] من الملائكة المقربين فى المنزلة والفضيلة [يسبحون بحمد ربهم] هذا مدح لهم، بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصا التسبيح والتحميد .

وسائر العبادات، تدخل فى تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له، عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد، هو العبادة لله تعالى .

وأما قول العبد « سبحان الله وبحمده » فهو داخل فى ذلك، وهو من جملة العبادات .

[ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا] وهذا من جملة فوائد الإيمان، وفضائله الكثيرة جدا، أن الملائكة الذين يؤمنون بالله، ولا ذنوب عليهم، يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه، تسبب لهذا الفضل العظيم .

ولما كانت المغفرة، لها لوازم، لا تتم إلا بها — غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها، غايته مجرد مغفرة الذنوب — ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به فقال :

كَلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

[ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً] فعلمك قد أحاط بكل شيء ، لا يخفى عليك منه خافية ، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ورحمتك وسعت كل شيء .

فالكون علويه وسفليه ، قد امتلأ برحمة الله تعالى ، ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه .

[فاغفر للذين تابوا] من الشرك والمعاصى [واتبعوا سبيلك] باتباع رسلك ، بتوحيدك وطاعتك .

[وقهم عذاب الجحيم] أى قهم العذاب نفسه ، وقهم أسباب العذاب.

[ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم] على ألسنة رسلك [ومن صلح] أى : صلح بالإيمان ، والعمل الصالح [من آبائهم وأزواجهم] زوجاتهم وأزواجهن ، وأصحابهم ، ورفقائهم [وذرياتهم] .

[إنك أنت العزيز] القاهر لكل شيء ، فبعزتك تغفر ذنوبهم ، وتكشف عنهم المحذور ، وتوصلهم بها إلى كل خير [الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فلا نسئلك ، ياربنا ، أمراً تقتضى حكمتك خلافه .

بل من حكمتك ، التى أخبرت بها ، على ألسنة رسلك ، واقتضاها فضلك ، المغفرة للمؤمنين .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

[وقهم السيئات] أى : جنبهم الأعمال السيئة وجزاءها ، لأنها تسوء صاحبها .

[ومن تق السيئات يومئذ] أى : يوم القيامة [فقد رحمته] لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد ، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم ، فمن وقيته السيئات فقد وفقته للحسنات ، وجزائها الحسن .

[وذلك] أى : زوال المحذور ، بوقاية السيئات ، وحصول المحبوب ، بحصول الرحمة .

[هو الفوز العظيم] الذى لا فوز مثله ، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه .

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة ، كمال معرفتهم بربهم ، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى ، التى يحب من عباده ، التوسل بها إليه ، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه .

فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة ، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية ، التى علم الله نقصها ، واقتضاءها لما اقتضته من المعاصى ، ونحو ذلك من المبادىء والأسباب ، التى قد أحاط الله بها علماً ، توسلوا بالرحيم العليم .

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم ، الربوبية العامة والخاصة ، وأنه ليس لهم من الأمر شىء ، وإنما دعاؤهم لربهم ، صدر من فقير بالذات ، من جميع الوجوه ، لا يُدْلِى على ربه ، بحالة من الأحوال ،

. . . .

إن هو إلا فضل الله ، وكرمه وإحسانه .

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة ، بمحبة ما يحبه ، من الأعمال ، التى هى العبادات ، التى قاموا بها ، واجتهدوا ، اجتهاد المحبين ، ومن العمال ، الذين هم المؤمنون ، الذين يحبهم الله تعالى ، من بين خلقه .

فسائر الخلق المكلفين ، يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم .

فمن محبة الملائكة لهم ، دعوا الله ، واجتهدوا فى صلاح أحوالهم ، لأن الدعاء للشخص ، من أدل الدلائل على محبته ، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه .

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله [ويستغفرون للذين آمنوا] التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه ، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده .

بل ينبغى له أن يتدبر معنى اللفظ ، فإذا فهمه فهما صحيحا على وجهه ، نظر بعقله إلى ذلك الأمر ، والطرق الموصلة إليه ، وما لا يتم إلا به ، وما يتوقف عليه .

وجزم بأن الله أراده ، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص ، الدال عليه اللفظ .

والذى يوجب الجزم له ، بأن الله أراده أمران :

أحدهما : معرفته وجزمه ، بأنه من توابع المعنى ، والمتوقف عليه .

والثانى : علمه بأن الله بكل شىء عليم ، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر فى كتابه .

. . . .

وقد علم تعالى ، ما يلزم من تلك المعانى ، وهو المخبر بأن كتابه هدى ، ونور ، وتبيان لكل شىء ، وأنه أفصح الكلام ، وأجله إيضاحاً .

فبذلك يحصل للعبد ، من العلم العظيم ، والخير الكثير ، بحسب ما وفقه الله له .

وقد كان في تفسيرنا هذا ، كثير مَنّ هذا من به الله علينا .

وقد يخفى فى بعض الآيات ، مأخذه على غير المتأمل ، صحيح الفكرة .

ونسأله تعالى ، أن يفتح علينا من خزائن رحمته ، ما يكون سببا لصلاح أحوالنا ، وأحوال المسلمين .

فليس لنا ، إلا التعلق بكرمه ، والتوسل بإحسانه ، الذى لا نزال نتقلب فيه ، فى كل الآنات ، وفي جميع اللحظات .

ونسأله من فضله ، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق ، لوصول رحمته ، إنه الكريم الوهاب ، الذى تفضل بالأسباب ومسبباتها .

وتضمن ذلك ، أن المقارن ، من زوج ، وولد ، وصاحب ، يسعد بقرينه ، ويكون اتصاله به ، سببا لخير يحصل له ، خارج عن عمله ، وسبب عمله ، كما كانت الملائكة ، تدعو للمؤمنين ، ولمن صلح من آبائهم ، وأزواجهم ، وذرياتهم .

وقد يقال : إنه لا بدّ من وجود صلاحهم لقوله : [ومن صلح] فحينئذ يكون ذلك ، من نتيجة عملهم ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

---

* يخبر تعالى ، عن الفضيحة والخزى ، الذى يصيب الكافرين ، وسؤالهم الرجعة ، والخروج من النار ، وامتناع ذلك عليهم ، وتوبيخهم ، فقال :

[إن الذين كفروا] أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها ، من الكفر بالله ، أو بكتبه ، أو برسله ، أو باليوم الآخر ، حين يدخلون النار ، ويقرون أنهم يستحقونها ، لما فعلوه من الذنوب والأوزار ، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ، ويغضبون عليها غاية الغضب ، فينادون عند ذلك .

ويقال لهم [لمقت الله] أى : إياكم [إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون] أى : حين دعتكم الرسل وأتباعهم ، إلى الإيمان ، وأقاموا لكم من البينات ، ما تبين به الحق ، فكفرتم ، وزهدتم فى الإيمان ، الذى خلقكم الله له ، وخرجتم من رحمته الواسعة ، فمقتكم وأبغضكم .

فهذا [أكبر من مقتكم أنفسكم] أى : فلم يزل هذا المقت ، مستمراً عليكم ، والسخط من الكريم ، حالاً بكم ، حتى آلت بكم الحال ، إلى ما آلت .

فاليوم حلّ عليكم غضب الله وعقابه ، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه .

فتمنوا الرجوع ، و [قالوا ربنا أمتنا اثنتين] يريدون الموتة الأولى ، وما بين النفختين على ما قيل ، أو العدم المحض قبل إيجادهم ، ثم أماتهم بعد ما أوجدهم .

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

[وأحييتنا اثنتين] الحياة الدنيا ، والحياة الأخرى .

[فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل] أى : تحسروا وقالوا ذلك ، فلم يفد ولم ينجع ، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة ، فقيل لهم:

[ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده] أى: إذا دعى لتوحيده ، وإخلاص العمل له ، ونهى عن الشرك به [كفرتم] به ، واشمأزت لذلك قلوبكم ، ونفرتم غاية النفور .

[وإن يشرك به تؤمنوا] أى : هذا الذى أنزلكم هذ المنزل وبوأكم ، هذا المقيل والمحل ، أنكم تكفرون بالإيمان ، وتؤمنون بالكفر .

ترضون بما هو شر وفساد فى الدنيا والآخرة ، وتكرهون ما هو خير وصلاح ، فى الدنيا والآخرة .

تؤثرون سبب الشقاوة ، والذل ، والغضب ، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر « وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » .

[فالحكم لله العلى الكبير] العلى : الذى له العلو المطلق ، من جميع الوجوه ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر .

ومن علو قدره ، كمال عدله تعالى ، وأنه يضع الأشياء مواضعها ، ولا يساوى بين المتقين والفجار .

[الكبير] الذى له الكبرياء والعظمة والمجد ، فى أسمائه ، وصفاته ،

وأفعاله ، المتنزه عن كل آفة ، وعيب ، ونقص .

فإذا كان الحكم له تعالى ، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم ، فحكمه لا يغير ولا يبدل .

* يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده ، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِى عباده من آياته النفسية ، والآفاقية ، والقرآنية ، الدالة على كل مطلوب مقصود ، الموضحة للهدى من الضلال ، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها ، والمتأمل لها ، أدنى شك فى معرفة الحقائق .

وهذا من أكبر نعمه على عباده ، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبها ، ولا الصواب ملتبسا .

بل نوَّع الدلالات ، ووضح الآيات ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

وكلما كانت المسائل أجل وأكبر ، كانت الدلائل عليها ، أكثر وأيسر .

فانظر إلى التوحيد ، لما كانت مسألته من أكبر المسائل ، بل أكبرها ، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية ، وتنوعت ، وضرب الله لها الأمثال ، وأكثر لها من الاستدلال .

ولهذا ذكرها فى هذا الموضع ، ونبه على جملة من أدلتها فقال :

[فادعوا الله مخلصين له الدين] .

ولما ذكر أنه يُرِى عباده آياته ، نبه على آية عظيمة فقال :

[وينزل عليكم من السماء رزقاً] أى : مطراً ، به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم ، وذلك يدل على أن النعم كلها منه .

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ

فمنه نعم الدين ، وهى المسائل الدينية ، والأدلة عليها ، وما يتبع ذلك ، من العمل بها .

والنعم الدنيوية كلها ، كالنعم الناشئة عن الغيث ، الذى تحيا به البلاد والعباد .

وهذا يدل دلالة قاطعة ، أنه وحده ، هو المعبود ، الذى يتعين إخلاص الدين له ، كما أنه ـ وحده ـ المنعم .

[وما يتذكر] بالآيات ، حين يذكر بها [إلا من ينيب] إلى الله تعالى ، بالإقبال على محبته ، وخشيته ، وطاعته ، والتضرع إليه .

فهذا الذى ينتفع بالآيات ، وتصير رحمة فى حقه ، ويزداد بها بصيرة .

ولما كانت الآيات ، تثمر التذكر ، والتذكر يوجب الإخلاص لله ، رتب الأمر على ذلك بالفاء ، الدالة على السببية فقال : [فادعوا الله مخلصين له الدين] .

وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

والإخلاص ، معناه : تخليص القصد لله تعالى ، فى جميع العبادات ، الواجبة والمستحبة ، حقوق الله ، وحقوق عباده .

أى : أخلصوا لله تعالى ، فى كل ما تدينونه به ، وتتقربون به إليه .

[ولو كره الكافرون] لذلك ، فلا تبالوا بهم ، ولا يثنكم ذلك عن دينكم ، ولا تأخذكم بالله لومة لائم ، فإن الكافرين ، يكرهون الإخلاص

مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم

وحده ، غاية الكراهة كما قال تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

ثم ذكر من جلاله وكماله ، ما يقتضى إخلاص العبادة له فقال :

[رفيع الدرجات ذو العرش] أى : العلى الأعلى ، الذى استوى على العرش ، واختص به ، وارتفعت درجاته ارتفاعا ، باين به مخلوقاته ، وارتفع به قدره ، وجلت أوصافه ، وتعالت ذاته ، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكى الطاهر المطهر ، وهو الإخلاص ، الذى يرفع درجات أصحابه ، ويقربهم إليه ، ويجعلهم فوق خلقه .

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحى فقال :

[يلقى الروح] أى : الوحى الذى للأرواح والقلوب ، بمنزلة الأرواح للأجساد .

فكما أن الجسد بدون الروح ، لا يحيا ولا يعيش ، فالروح والقلب ، بدون روح الوحى ، لا يصلح ولا يفلح ، فهو تعالى [يلقى الروح من أمره] الذى فيه نفع العباد ومصلحتهم .

[على من يشاء من عباده] وهم الرسل ، الذين فضلهم ، واختصهم لوحيه ، ودعوة عباده .

والفائدة فى إرسال الرسل ، هو تحصيل سعادة العباد ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، وإزالة الشقاوة عنهم ، فى دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم ، ولهذا قال :

[لينذر] من ألقى إليه الوحى [يوم التلاق] أى : يخوف العباد بذلك،

بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ

ويحثهم على الاستعداد له ، بالأسباب المنجية مما يكون فيه .

وسماه « يوم التلاق » لأنه يلتقى فيه الخالق والمخلوق ، والمخلوقون بعضهم مع بعض ، والعاملون ، وأعمالهم وجزاؤهم .

[يوم هم بارزون] أى : ظاهرون على الأرض ، وقد اجتمعوا فى صعيد واحد ، لا عوج ولا أمت فيه ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر .

[لا يخفى على الله منهم شىء] لا من ذواتهم ، ولا من أعمالهم ، ولا من جزاء تلك الأعمال.

[لمن[1] الملك اليوم] أى : من هو المالك لذلك اليوم العظيم ، الجامع للأولين والآخرين،أهل السموات وأهل الأرض الذى انقطعت فيه الشركة فى الملك ، وتقطعت الأسباب ، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة ؟

الملك [لله الواحد القهار] أى : المنفرد فى ذاته وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، فلا شريك له فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

[القهار] لجميع المخلوقات ، الذى دانت له المخلوقات ، وذلت وخضعت، خصوصا فى ذلك اليوم ، الذى عنت فيه الوجوه ، للحى القيوم ، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه .

[اليوم تجزى كل نفس بما كسبت] فى الدنيا ، من خير وشر ، قليل وكثير .

[لا ظلم اليوم] على أحد ، بزيادة فى سيئاته ، أو نقص من حسناته .

---

(١) قوله « لمن الملك اليوم » يقوله تعالى ويجيب نفسه بقوله : « لله الواحد القهار » .

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ

[إن الله سريع الحساب] أى : لا تستبطوا ذلك اليوم ، فإنه آت ، وكل آت قريب .

وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده ، يوم القيامة لإحاطة علمه ، وكمال قدرته .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [وأنذرهم يوم الآزفة] أى يوم القيامة التى قد أزفت وقربت ، وآن الوصول إلى أهوالها ، وقلاقلها ، وزلازلها .

[إذ القلوب لدى الحناجر] أى : قد ارتفعت ، وبقيت أفئدتهم هواء ، ووصلت القلوب ، من الروع والكرب ، إلى الحناجر ، شاخصة أبصارهم .

[كاظمين] لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، وكاظمين على ما فى قلوبهم ، من الروع الشديد ، والمزعجات الهائلة .

[ما للظالمين من حميم] أى : قريب ولا صاحب [ولا شفيع يطاع] .

لأن الشفعاء لا يشفعون فى الظالم نفسه بالشرك ، ولو قدرت شفاعتهم ، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم ، فلا يقبلها .

[يعلم خائنة الأعين] وهو النظر الذى يخفيه العبد عن جليسه ، ومقارنه ، وهو نظر المسارقة .

ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

[وما تخفى الصدور] مما لم يبينه العبد لغيره ، فالله تعالى ، يعلم ذلك الخفى ، فغيره من الأمور الظاهرة ، من باب أولى وأحرى .

[والله يقضى بالحق] لأن قوله حق ، وحكمه الشرعى حق ، وحكمه الجزائى حق .

وهو المحيط علماً ، وكتابة ، وحفظاً بجميع الأشياء .

وهو المنزه عن الظلم والنقص ، وسائر العيوب .

وهو الذى يقضى قضاءه القدرى ، الذى إذا شاء شيئاً ، كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وهو الذى يقضى بين عباده المؤمنين والكافرين ، فى الدنيا ، ويفصل بينهم ، بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه .

[والذين يدعون من دونه] وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله [لا يقضون بشىء] لعجزهم ، وعدم إرادتهم للخير ، وعدم استطاعتهم لفعله .

[إن الله هو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[البصير] بما كان وما يكون ، وما يبصر ، وما لا يبصر ، وما يعلم العباد ، وما لا يعلمون .

قال فى أول هاتين الآيتين [وأنذرهم يوم الآزفة] ثم وصفها بهذه

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

الأوصاف ، المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم ، لاشتمالها على الترغيب والترهيب .

* يقول تعالى : [أو لم يسيروا فى الأرض] أى : بقلوبهم وأبدانهم ، سير نظر واعتبار ، وتفكر فى الآثار .

[فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم] من المكذبين ، فسيجدونها ، شر العواقب ح عاقبة الهلاك والدمار ، والخزى والفضيحة .

وقد [كانوا أشد منهم قوة] فى العَدَد والعُدَد وكبر الأجسام .

[و] أشد [آثارا فى الأرض] من البناء والغرس .

وقوة الآثار ، تدل على قوة المؤثر فيها ، وعلى تمنعه بها .

[فأخذهم الله] بعقوبته [بذنوبهم] حين أصروا ، واستمروا عليها .

[إنه قوى شديد العقاب] فلم تغن قوتهم ، عند قوة الله ، شيئا .

بل من أعظم الأمم قوة ، قوم عاد الذين قالوا « من أشد منا قوة » أرسل الله إليهم ريحاً ، أضعفت قواهم ، ودمرتهم كل تدمير .

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسل ، وهو فرعون وجنوده فقال :

[ولقد أرسلنا موسى] إلى قوله [أشد العذاب] .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ

---

* أى [ولقد أرسلنا] إلى جنس هؤلاء المكذبين [موسى] ابن عمران .

[بآياتنا] العظيمة ، الدالة دلالة قطعية ، على حقيقة ما أرسل به ، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم ، من الشرك ، وما يتبعه .

[وسلطان مبين] أى ، حجة بينة ، تتسلط على القلوب ، فتذعن لها ، كالحية ، والعصا ، ونحوهما من الآيات البينات ، التى أيد الله بها موسى ، ومكنه مما دعا إليه من الحق .

إلى المبعوث إليهم [فرعون وهامان] وزيره [وقارون] الذى كان من قوم موسى ، فبغى عليهم بماله .

وكلهم ردوا عليه ، أشد الرد [فقالوا ساحر كذاب] .

[فلما جاءهم بالحق من عندنا] وأيده الله بالمعجزات الباهرة ، الموجبة لتمام الإذعان ، لم يقابلوها بذلك ، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض ، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم .

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن [قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين] حيث كادوا هذه المكيدة ، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم ، لم يقووا ، وبقوا فى رقهم ، وتحت عبوديتهم .

نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ

[وما كيد الكافرين إلا فى ضلال] حيث لم يتم لهم ما قصدوا ، بل أصابهم ضد ما قصدوا ، أهلكهم الله ، وأبادهم عن آخرهم .

﴿ قاعدة ﴾

وتدبر هذه النكتة ، التى يكثر مرورها بكتاب الله تعالى ، إذا كان السياق فى قصة معينة ، أو على شىء معين ، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم ، لا يختص به ذكر الحكم ، وعلقه على الوصف العام ، ليكون أعم ، وتندرج فيه الصورة ، التى سيق الكلام لأجلها ، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين .

فلهذا لم يقل « وما كيدهم إلا فى ضلال » بل قال: [وما كيد الكافرين إلا فى ضلال] .

و [قال فرعون] متكبراً متجبرا ، مغررا لقومه السفهاء : [ذرونى أقتل موسى وليدع ربه] أى : زعم — قبحه الله — أنه لولا مراعاة خواطر قومه ، لقتله ، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه .

ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله ، وأنه نصح لقومه ، وإزالة للشر فى الأرض فقال :

[إنى أخاف أن يبدل دينكم] الذى أنتم عليه [أو أن يظهر فى الأرض الفساد] .

أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ

وهذا من أعجب ما يكون ، أن يكون شر الخلق ، ينصح الناس عن اتباع خير الخلق .

هذا من التمويه والترويج ، الذى لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم « فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

[وقال موسى] حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة ، التى أوجبها له طغيانه ، واستعان فيها بقوته واقتداره ، مستعينا موسى بربه :

[إنى عذت بربى وربكم] أى : امتنعت بربوبيته ، التى دبر بها جميع الأمور .

[من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب] أى : يحمله تكبره ، وعدم إيمانه بيوم الحساب ، على الشر والفساد .

يدخل فيه فرعون وغيره ، كما تقدم قريبا فى القاعدة .

فمنعه الله تعالى بلطفه ، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وقيض له من الأسباب ، ما اندفع به عنه شر فرعون وملاءه .

ومن جملة الأسباب ، هذا الرجل المؤمن ، الذى من آل فرعون ، من بيت المملكة ، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة ، وخصوصا إذا كان يظهر موافقتهم ، ويكتم إيمانه ، فإنهم يراعونه فى الغالب ، ما لا يراعونه لو خالفهم فى الظاهر .

كما منع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعمه أبى طالب من قريش

مُؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ

حيث كان أبو طالب ، كبيرا عندهم ، موافقا لهم على دينهم ، ولو كان مسلما ، لم يحصل منه ذلك المنع .

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم ، مقبحا فعل قومه ، وشناعة ما عزموا عليه :

[أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله] أى : كيف تستحلون قتله ، وهذا ذنبه وجرمه ، أن يقول ربى الله ، ولم يكن أيضاً قولا مجردا عن البينات ، ولهذا قال :

[وقد جاءكم بالبينات من ربكم] لأن بينته ، اشتهرت عندهم اشتهارا ، علم به الصغير والكبير ، أى : فهذا لا يوجب قتله .

فهلا أبطلتم قبل ذلك ، ما جاء به من الحق ، وقابلتم البرهان ببرهان يرده ، ثم بعد ذلك نظرتم ، هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا ؟

فأما وقد ظهرت حجته ، واستعلى برهانه ، فبينكم وبين حل قتله ، مفاوز تنقطع بها أعناق المطى .

ثم قال لهم مقالة عقلية ، تقنع كل عاقل ، بأى حالة قدرت فقال :

[وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم].

أى : موسى بين أمرين ، إما كاذب فى دعواه ، أو صادق فيها .

فإن كان كاذبا ، فكذبه عليه ، وضرره مختص به ، وليس عليكم في ذلك ضرر ، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه .

وإن كان صادقا ، وقد جاءكم بالبينات ، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه ، عذبكم الله عذاباً في الدنيا ، وعذاباً في الآخرة ، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وهو عذاب الدنيا .

وهذا من حسن عقله ، ولطف دفعه عن موسى ، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم ، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين وعلى كل تقدير ، فقتله سفه وجهل منكم .

ثم انتقل — رضى الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه — إلى أمر أعلى من ذلك ، وبيان قرب موسى من الحق فقال :

[إن الله لا يهدى من هو مسرف] أى : متجاوز الحد ، بترك الحق والإقبال على الباطل .

[كذاب] بنسبته ما أسرف فيه إلى الله ، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب ، لا في مدلوله ، ولا في دليله ، ولا يوفقه للصراط المستقيم .

أى : وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق ، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية ، والخوارق السماوية .

فالذى اهتدى هذا الهدى ، لا يمكن أن يكون مسرفا ، ولا كاذباً .

وهذا دليل على كمال علمه وعقله ، ومعرفته بربه .

ثم حذر قومه ، ونصحهم ، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر فقال :

ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

[يا قوم لكم الملك اليوم] أى : فى الدنيا [ظاهرين فى الأرض] على رعيتكم ، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير .

فهبكم حصل لكم ذلك وتم ، ولن يتم ، [فمن ينصرنا من بأس الله] أى : عذابه [إن جاءنا] ؟ .

وهذا من حسن دعوته ، حيث جعل الأمر مشتركا ، بينه وبينهم بقوله: [فمن ينصرنا] وقوله: [إن جاءنا] ليفهمهم أنه ينصح لهم ، كما ينصح لنفسه ، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه .

[قال فرعون] معارضا له فى ذلك ، ومغررا لقومه أن يتبعوا موسى :

[ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد] وصدق فى قوله « ما أريكم إلا ما أرى » ، ولكن ما الذى رأى ؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه ، ليقيم بهم رياسته ، ولم ير الحق معه ، بل رأى الحق مع موسى ، وجحد به ، مستيقنا له .

وكذب فى قوله : [وما أهديكم إلا سبيل الرشاد] فإن هذا ، قلب للحق .

فلو أمرهم باتباعه ، اتباعا مجردا على كفره وضلاله ، لكان الشر أهون .

ولكنه أمرهم باتباعه ، وزعم أن فى اتباعه ، اتباع الحق ، وفى اتباع الحق ، اتباع الضلال .

وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

[وقال الذى آمن] مكررا دعوة قومه ، غير آيس من هدايتهم ، كما هى حالة الدعاة إلى الله تعالى ، لا يزالون يدعون إلى ربهم ، ولا يردهم عن ذلك راد ، ولا يثنيهم عتو من دعوه ، عن تكرار الدعوة ، فقال لهم :

[ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب] يعنى الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم ، واجتمعوا على معارضتهم ، ثم بينهم فقال :

[مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم] أى : مثل عادتهم فى الكفر والتكذيب ، وعادة الله فيهم ، بالعقوبة العاجلة فى الدنيا، قبل الآخرة .

[وما الله يريد ظلما للعباد] فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ، ولا جرم أسلفوه .

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية ، خوفهم العقوبات الأخروية ، فقال :

[ياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد] أى : يوم القيامة ، حين ينادى أهل الجنة أهل النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » إلى آخر الآيات .

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » .

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

وحين ينادى أهل النار مالكا ليقض علينا ربك ، فيقول : « إنكم ما كثون » .

وحين ينادون ربهم « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » .

فيجيبهم « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

وحين يقال للمشركين: « ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » .

نخوفهم رضى الله عنه ، هذا اليوم المهول ، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك .

ولهذا قال : [يوم تولون مدبرين] أى : قد ذهب بكم إلى النار [مالكم من الله من عاصم] لا من أنفسكم قوة ، تدفعون بها عذاب الله ، ولا ينصركم من دونه من أحد « يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر » .

[ومن يضلل الله فما له من هاد] لأن الهدى بيد الله تعالى .

فإذا منع عبده الهدى ، لعلمه أنه غير لائق به ، لخبثه ، فلا سبيل إلى هدايته .

[ولقد جاءكم يوسف] بن يعقوب عليهما السلام [من قبل] إتيان موسى ، بالبينات الدالة على صدقه ، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له .

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

[فما زلتم فى شك مما جاءكم به] فى حياته [حتى إذا هلك] ازداد شككم وشرككم .

و [قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا] أى : ظنكم الباطل ، وحسبانكم الذى لا يليق بالله تعالى ، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى ، لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل إليهم رسله .

والظن بأن الله لا يرسل رسولا ، ظن ضلال ، ولهذا قال :

[كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب] وهذا هو وصفهم الحقيقى ، الذى وصفوا به موسى ، ظلما وعلوا .

فهم المسرفون ، بتجاوزهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الضلال .

وهم الكذبة ، حيث نسبوا ذلك إلى الله ، وكذبوا رسوله .

فالذى وصفه السرف والكذب ، لا ينفك عنهما ، لا يهديه الله ، ولا يوفقه للخير ، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه .

فجزاؤه أن يعاقبه ، بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * والله لا يهدى القوم الظالمين » .

ثم ذكر وصف المسرف المرتاب فقال : [الذين يجادلون فى آيات الله] التى بينت الحق من الباطل ، وصارت — من ظهورها — بمنزلة الشمس للبصر .

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ

فهم يجادلون فيها على وضوحها ، ليدفعوها ويبطلوها [بغير سلطان أتاهم] أى : بغير حجة وبرهان ، وهذا وصف لازم ، لكل من جادل فى آيات الله ، فإنه من المحال ، أن يجادل بسلطان ، لأن الحق لا يعارضه معارض ، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعى[1] أو عقلى أصلا .

[كبر] ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل [مقتا عند الله وعند الذين آمنوا] .

فالله أشد بغضاً لصاحبه ، لأنه تضمن التكذيب بالحق ، والتصديق بالباطل ، ونسبته إليه .

وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها ، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم ، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ، [كذلك] أى : كما طبع على قلوب آل فرعون [يطبع الله على كل قلب متكبر جبار] متكبر فى نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم ، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه .

[وقال فرعون] معارضا لموسى ، ومكذبا له فى دعوته إلى الإقرار

---

(١) قوله « بدليل شرعى الخ » أقول : لعل فى الأصل تحريفاً لأن الدليل الشرعى لا يكون خلاف الحق بل هو الحق نفسه وإلا فلا يكون شرعياً فكيف يتأتى أن يعارض الحق ، الدليل الشرعى وهو عين الحق ؟

ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ

برب العالمين ، الذى على العرش استوى ، وعلى الخلق اعتلى :

[يا هامان ابن لى صرحا] أى : بناء عظيما مرتفعا .

والقصد منه [لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه[١] كاذباً] فى دعواه أن لنا رباً ، وأنه فوق السموات .

ولـكنه يريد أن يحتاط فرعون ، ويختبر الأمر بنفسه ، قال الله تعالى فى بيان الذى حمله على هذا القول :

[وكذلك زين لفرعون سوء عمله] فزين له العمل السيء ، فلم يزل الشيطان يزينه ، وهو يدعو إليه ويحسنه ، حتى رآه حسنا ، ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين ، وهو من أعظم المفسدين .

[وصد عن السبيل] الحق ، بسبب الباطل الذى زين له .

[وما كيد فرعون] الذى أراد أن يكيد به الحق ، ويوهم به الناس أنه محق ، وأن موسى مبطل [إلا فى تباب] أى : خسار وبوار ، لا يفيده إلا الشقاء ، فى الدنيا والآخرة .

[وقال الذى آمن] معيدا نصيحته لقومه : [ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد] لا كما يقول لـكم فرعون ، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغى والفساد.

---

(٢) قوله « لأظنه كاذباً » أى : أنا متيقن أنه كاذب فالظن هنا بمعنى اليقين لا على حقيقته الذى هو إدراك الطرف الراجح .

ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَالِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ

[ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع] يتمتع بها ويتنعم قليلا ، ثم تنقطع وتضمحل .

فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له [وإن الآخرة هى دار القرار] التى هى محل الإقامة ، ومنزل السكون والاستقرار ، فينبغى لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها .

[من عمل سيئة] من شرك أو فسوق أو عصيان [فلا يجزى إلا مثلها] أى : لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه ، بقدر إساءته ، وما تستحقه ، لأن جزاء السيئة ، السوء .

[ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى] من أعمال القلوب والجوارح ، وأقوال اللسان [وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب] أى : يعطون أجرهم بلا حد ولا عد ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم .

[وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة] بما قلت لكم [وتدعوننى إلى النار] بترك اتباع نبى الله موسى عليه السلام . ثم فسر ذلك فقال :

[تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم] أنه يستحق أن

بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ

يعبد من دون الله ، والقول على الله بلا علم ، من أكبر الذنوب وأقبحها .

[وأنا أدعوكم إلى العزيز] الذى له القوة كلها ، وغيره ليس بيده من الأمر شيء .

[الغفار] الذى يسرف العباد على أنفسهم ويتجرأون على مساخطه .

ثم إذا تابوا ، وأنابوا إليه ، كفر عنهم السيئات والذنوب ، ودفع موجباتها ، من العقوبات الدنيوية والأخروية .

[لا جرم] أى : حقاً يقيناً [أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة] أى : لا يستحق الدعوة إليه ، والحث على اللجأ إليه ، في الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لعجزه ونقصه ، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً .

[وأن مردنا إلى الله] تعالى فسيجازى كل عامل بعمله .

[وأن المسرفين هم أصحاب النار] وهم الذين أسرفوا على أنفسهم ، بالتجرى على ربهم ، بمعاصيه ، والكفر به ، دون غيرهم .

فلما نصحهم وحذرهم ، وأنذرهم ، ولم يطيعوه ، ولا وافقوه ، قال لهم :

[فستذكرون ما أقول لكم] من هذه النصيحة ، وسترون مغبة عدم قبولها ، حين يحل بكم العقاب ، وتحرمون جزيل الثواب .

إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

[وأفوض أمرى إلى الله] أى : ألجأ إليه وأعتصم ، وألقى أمورى كلها لديه ، وأتوكل عليه فى مصالحى ، ودفع الضرر الذى يصيبنى منكم ، أو من غيركم .

[إن الله بصير بالعباد] يعلم أحوالهم وما يستحقون : يعلم حالى وضعفى فيمنعنى منكم ، ويكفينى شركم ، ويعلم أحوالكم ، فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته .

فإن سلطكم علىّ ، فبحكمة منه تعالى ، وعن إرادته ومشيئته ، صدر ذلك .

[فوقاه الله سيئات ما مكروا] أي : وقى الله القوىّ ، ذلك الرجل المؤمن الموفق ، عقوبات مامكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ، لأنه بادأهم بما يكرهون .

وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى .

وهذا أمر لايحتملونه ، وهم الذين لهم القدرة ، إذ ذاك ، وقد أغضبهم ، واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيدا لحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، وانقلب كيدهم ومكرهم ، على أنفسهم .

[وحاق بآل فرعون سوء العذاب] أغرقهم الله تعالى ، فى صيحة واحدة عن آخرهم :

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ

وفى البرزخ [النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب] فهذه العقوبات الشنيعة ، التى تحل بالمكذبين لرسل الله ، المعاندين لأمره .

* يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار ، وعتاب بعضهم بعضاً ، واستغاثتهم بخزنة النار ، وعدم الفائدة فى ذلك فقال :

[وإذ يتحاجون فى النار] يحتج التابعون بإغواء المتبوعين ، ويتبرأ المتبوعون من التابعين .

[فيقول الضعفاء] أى : الأتباع [للذين استكبروا] على الحق ، من القادة الذين دعوهم إلى ما استكبروا لأجله .

[إنا كنا لكم تبعا] أنتم أغويتمونا ، وأضللتمونا ، وزينتم لنا الشرك والشر .

[فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار] أى : ولو قليلا .

[قال الذين استكبروا] مبينين لعجزهم ، ونفوذ الحكم الإلهى فى الجميع :

[إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد] وجعل لكل قسطه من

بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

من العذاب ، فلا يزاد فى ذلك ، ولا ينقص منه ، ولا يغير ما حكم به الحكيم .

[وقال الذين فى النار] من المستكبرين والضعفاء [لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب] لعله تحصل بعض الراحة .

[قالوا] لهم موبخين ، ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم ، ودعاءهم لا يفيدهم شيئا :

[أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات] التى تبينتم بها الحق، والصراط المستقيم ، وما يقرب من الله ، وما يبعد منه ؟

[قالوا بلى] قد جاءونا بالبينات ، وقامت علينا حجة الله البالغة ، فظلمنا ، وعاندنا الحق بعد ما تبين .

[قالوا] أى الخزنة ، لأهل النار ، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة :

[فادعوا] أنتم ولكن هذا الدعاء ، هل يغنى شيئا أم لا ؟

قال تعالى : [وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال] أى : باطل لاغ ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال ، صادّ لإجابة الدعاء .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

* أى : جهنم لما ذكر عقوبة آل فرعون فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ، وذكر حالة أهل النار الفظيعة ، الذين نابذوا رسله ، وحاربوهم، قال:

[إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا] أى : بالحجة والبرهان ، والنصر .

[ويوم يقوم الأشهاد] أى : فى الآخرة بالحكم ، ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العذاب .

[يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم] حين يعتذرون [ولهم اللعنة ولهم سوء الدار] أى : الدار السيئة ، التى تسوء نازليها .

* لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون ، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ، ولأهل النار ، ذكر أنه أعطى موسى [الهدى] أى : الآيات ، والعلم ، الذى يهتدى به المهتدون .

[وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب] أى : جعلناه متوارثا بينهم ، من قرن إلى آخر ، وهو التوراة .

وذلك الكتاب مشتمل على [هدى] وهو : العلم بالأحكام الشرعية وغيرها .

ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ

[وذكرى] أى : التذكر للخير ، بالترغيب فيه ، وعن الشر ، بالترهيب عنه .

وليس ذلك لكل أحد ، وإنما هو [لأولى الألباب[1]] .

[فاصبر] يا أيها الرسول ، كما صبر من قبلك ، من المرسلين أولى العزم .

[إن وعد الله حق] أى : ليس مشكوكا فيه ، أو فيه ريب أو كذب ، حتى يعسر عليك الصبر .

وإنما هو الحق المحض ، والهدف الصرف ، الذى يصبر عليه الصابرون ، ويجتهد فى التمسك به ، أهل البصائر .

فقوله : [إن وعد الله حق] من الأسباب التى تحث على الصبر ، على طاعة الله ، والكف عن ما يكره الله .

[واستغفر لذنبك[2]] المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك .

---

(١) أى : لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه من الدفع إلى الأعمال الصالحة .

(٢) تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين اهـ . أبو السعود .

وفى الجلالين « ليستن بك » أى : لتقتدى أمتك بك .

وفى النسفى « لذنب أمتك » .

وفى «المنتخب فى تفسير القرآن » واطلب المغفرة من ربك لما قد يعد ذنبا بالنسبة إليك .

وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

فأمره بالصبر الذى فيه يحصل المحبوب ، وبالاستغفار ، الذى فيه دفع المحذور .

[وسبح بحمد ربك] خصوصا [بالعشى والإبكار] اللذين هما أفضل الأوقات ، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيها لأن فى ذلك عونا على جميع الأمور .

* يخبر تعالى أن من جادل فى آياته ليبطلها بالباطل ، بغير بينة من أمره ، ولا حجة ، إن هذا صادر ، من كبر فى صدورهم على الحق ، وعلى من جاء به ، يريدون الاستعلاء عليه ، بما معهم من الباطل ، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا ، لا يتم لهم ، وليسوا ببالغيه .

فهذا نص صريح ، وبشارة ، بأن كل من جادل الحق ، مغلوب ، وكل من تكبر عليه ، فهو فى نهايته ذليل .

[فاستعذ] أى : الجأ واعتصم [بالله] ولم يذكر ما يستعيذ منه ، إرادة للعموم .

أى : استعذ بالله ، من الكبر الذى يوجب التكبر على الحق .

واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن ، واستعذ بالله من جميع الشرور.

[إنه هو السميع] لجميع الأصوات على اختلافها .

[البصير] بجميع المرئيات ، بأى محل ، وموضع ، وزمان ، كانت .

۞ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا

---

* يخبر تعالى بما تقرر فى العقول ، أن خلق السموات والأرض — على عظمهما وسعتهما — أعظم وأكبر ، من خلق الناس ، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السموات والأرض — من أصغر ما يكون .

فالذى خلق الأجرام العظيمة وأتقنها ، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى .

وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث ، دلالة قاطعة ، بمجرد نظر العاقل إليها ، يستدل بها استدلالا ، لا يقبل الشك والشبهة ، بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث .

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك ، ويقبل على تدبره ، ولهذا قال :

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] ولذلك لا يعتبرون بذلك ، ولا يجعلونه منهم على بال ثم قال تعالى :

[وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء] .

أى : كما لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى من آمن بالله ، وعمل الصالحات ، ومن كان مستكبرا على عبادة ربه ، مقدما على معاصيه ، ساعيا فى مساخطه .

مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

[قليلا ماتتذكرون] أى : تذكركم قليل ، وإلا ، فلو تذكرتم مراتب الأمور ، ومنازل الخير والشر ، والفرق بين الأبرار والفجار ، وكانت لكم همة عليه ، لآثرتم النافع على الضار ، والهدى على الضلال ، والسعادة الدائمة ، على الدنيا الفانية .

[إن الساعة لآتية لا ريب فيها] قد أخبرت بها الرسل ، الذين هم أصدق الخلق .

ونطقت بها الكتب السماوية ، التى جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق ، وقامت عليها ، الشواهد المرئية ، والآيات الأفقية .

[ولكن أكثر الناس لا يؤمنون] مع هذه الأمور ، التى توجب كمال التصديق ، والإذعان .

* هذا من لطفه بعباده ، ونعمته العظيمة ، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

وأمرهم بدعائه ، دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، ووعدهم أن يستجيب لهم

وتوعد من استكبر عنها فقال : [إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين] أى : ذليلين حقيرين ، يجتمع عليهم العذاب والإهانة ، جزاء على استكبارهم .

☆ تدبر هذه الآيات الكريمات ، الدالة على سعة رحمة الله ، وجزيل فضله ، ووجوب شكره ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وسعة ملكه ، وعموم خلقه لجميع الأشياء ، وكمال حياته ، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به ، من الصفات الكاملة ، وما فعله من الأفعال الحسنة .

وتمام ربوبيته ، وانفراده فيها وأن جميع التدبير فى العالم العلوى والسفلى فى ماضى الأوقات وحاضرها ، ومستقبلها ، بيد الله تعالى ، ليس لأحد من الأمر شىء ، ولا من القدرة شىء .

فينتج من ذلك ، أنه تعالى ، المألوه المعبود وحده ، الذى لا يستحق أحد غيره ، من العبودية شيئا ، كما لم يستحق من الربوبية شيئا .

وينتج من ذلك ، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ، ومحبته ، وخوفه ، ورجائه .

وهذان الأمران — وهما معرفته وعبادته — هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما .

وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده .

وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح ، وسعادة دنيوية وأخروية .

وهما أشرف عطايا الكريم لعباده .

وهما أشرف اللذات على الإطلاق .

وهما اللذان إن فاتا ، فات كل خير ، وحضر كل شر .

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته ، وأن يجعل حركاتنا الباطنة

والظاهرة ، خالصة لوجهه ، تابعة لأمره ، إنه لا يتعاظمه سؤال ، ولا يحفيه نوال .

فقوله تعالى : [الله الذى جعل لكم الليل] أى : لأجلكم جعل الله الليل مظلماً .

[لتسكنوا فيه] من حركاتكم ، التى لو استمرت لضرت ، فتأوون إلى فرشكم .

ويلقى الله عليكم النوم ، الذى يستريح به القلب والبدن وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه .

ويسكن فيه أيضا ، كل حبيب إلى حبيبه ، ويجتمع الفكر ، وتقل الشواغل .

[و] جعل تعالى [النهار مبصراً] منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك .

فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية .

هذا لذكره وقراءته ، وهذا لصلاته ، وهذا لطلبة العلم ودراسته ، وهذا لبيعه وشرائه .

وهذا لبنائه أو حدادته ، أو نحوها من الصناعات .

وهذا لسفره برا وبحرا ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح[1] حيواناته .

---

(١) قوله « لتصليح حيواناته » لو عبر بـ « القيام بمصالح حيواناته ورعايتها » لكان أسلم من الانتقاد وأوضح للقارىء

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟

[إن الله لذو فضل] أى : عظيم ، كما يدل عليه التنكير [على الناس] .

حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النقم ، وهذا . يوجب عليهم ، تمام شكره وذكره.

[ولكن أكثر الناس لا يشكرون] بسبب جهلهم وظلمهم .

[وقليل من عبادى الشكور] الذين يقرون بنعمة ربهم ، ويخضعون لله ، ويحبونه ، ويصرفونها فى طاعة مولاهم ورضاه .

[ذلكم] الذى فعل ما فعل [الله ربكم] أى : المنفرد بالإلهية ، والمنفرد بالربوبية .

لأن انفراده بهذه النعم ، من ربوبيته ، وإيجابها للشكر ، من ألوهيته .

[خالق كل شىء] تقرير لربوبيته .

[لا إله إلا هو] تقرير أنه المستحق للعبادة وحده ، لا شريك له .

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال : [فأنى تؤفكون] أى : كيف تصرفون عن عبادته ، وحده لا شريك له ، بعد ما أبان لكم الدليل ، وأنار لكم السبيل ؟ ! !

[كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون] أى : عقوبة على جحدهم لآيات الله ، وتعديهم على رسله ، صرفوا عن التوحيد والإخلاص كما قال تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » .

[الله الذى جعل لكم الأرض قراراً] أى : قارة ساكنة ، مهيأة لكل مصالحكم ، تتمكنون من حرثها وغرسها ، والبناء عليها ، والسفر ، والإقامة فيها .

[والسماء بناء] سقفا للأرض ، التى أنتم فيها ، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات ، التى يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

[وصوركم فأحسن صوركم] فليس فى جنس الحيوانات، أحسن صورة من بنى آدم .

كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمى وكمال حكمة الله تعالى فيه ، فانظر إليه ، عضواً عضواً ، هل تجد عضواً من أعضائه ، يليق به ، ويصلح أن يكون فى غير محله ؟

وانظر أيضاً ، إلى الميل الذى فى القلوب ، بعضهم لبعض ، هل تجد ذلك فى غير الآدمين ؟

وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان ، والمحبة والمعرفة ، التى هى أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور .

[ورزقكم من الطيبات] وهذا شامل لكل طيب ، من مأكل ،

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

ومشرب ، ومنكح ، وملبس ، ومنظر ، ومسمع وغير ذلك ، من الطيبات التى يسرها الله لعباده ، ويسر لهم أسبابها .

ومنعهم من الخبائث ، التى تضادها ، وتضر أبدانهم ، وقلوبهم ، وأديانهم .

[ذلكم] الذى دبر الأمور ، وأنعم عليكم بهذه النعم [الله ربكم] .

[فتبارك الله رب العالمين] أى : تعاظم ، وكثر خيره وإحسانه ، المربى جميع العالمين بنعمه .

[هو الحى] الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية ، التى لا تتم حياته إلا بها ، كالسمع ، والبصر ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، وغير ذلك ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله .

[لا إله إلا هو] أى : لا معبود بحق ، إلا وجهه الكريم .

[فادعوه] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة [مخلصين له الدين] .

أى : اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل ، وجه الله تعالى .

فإن الإخلاص ، هو المأمور به كما قال تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

[الحمد لله رب العالمين] أى جميع المحامد والمدائح والثناء ، بالقول كنطق الخلق بذكره .

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

والفعل ، كعبادتهم له ، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له ، لكماله فى أوصافه وأفعاله ، وتمام نعمه .

* لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده ، وذكر الأدلة على ذلك والبينات ، صرح بالنهى عن عبادة ما سواه فقال :

[قل] يا أيها النبى [إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله] من الأوثان والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله .

ولست على شك من أمرى ، بل على يقين وبصيرة ، ولهذا قال :

[لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين] بقلبى ولسانى ، وجوارحى ، بحيث تكون منقادة لطاعته ، مستسلمة لأمره ، وهذا أعظم مأمور به ، على الإطلاق .

كما أن النهى عن عبادة ما سواه ، أعظم مَنْهِيٍّ عنه ، على الإطلاق .

ثم قرر هذا التوحيد ، بأنه الخالق لكم ، والمطور لخلقتكم .

فكما خلقكم وحده ، فاعبدوه وحده فقال :

[هو الذى خلقكم من تراب] وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم ، آدم ، عليه السلام .

[ثم من نطفة] وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنسانى ، ما دام فى بطن أمه .

يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

فنبه بالابتداء ، على بقية الأطوار ، من العلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فنفخ الروح .

[ثم يخرجكم طفلا ثم] هكذا تنتقلون فى الخلقة الإلهية .

[لتبلغوا أشدكم] من قوة العقل والبدن ، وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

[ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل] بلوغ الأشد [ولتبلغوا] بهذه الأطوار المقدرة [أجلا مسمى] تنتهى عنده أعماركم .

[ولعلكم تعقلون] أحوالكم ، فتعلمون أن المطور لكم فى هذه الأطوار ، كامل الاقتدار ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وأنكم ناقصون من كل وجه .

[هو الذى يحيي ويميت] أى هو المنفرد بالإحياء والإماتة ، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب ، إلا بإذنه .

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير » .

[فإذا قضى أمرا] جليلا أو حقيراً [فإنما يقول له كن فيكون] لا رد فى ذلك ، ولا مثنوية ، ولا تمنع .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ

* [ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله] الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة .

[أنى يصرفون] أى : كيف ينعدلون عنها ؟ وإلى أى شىء يذهبون بعد البيان التام ؟

هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله ؟ لا والله .

أم يجدون شبها توافق أهواءهم ، ويصولون بها ، لأجل باطلهم ؟

فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم ، بتكذيبهم بالكتاب ، الذى جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولا .

فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال :

[فسوف يعلمون[1] إذ الأغلال فى أعناقهم] التى لا يستطيعون معها حركة .

[والسلاسل] التى يقرنون بها ، هم وشياطينهم [يسحبون[2] فى الحميم] أى : الماء الذى اشتد غليانه وحره .

---

(١) أى : عقوبة تكذيبهم .

(٢) يسحبون . أى : يجرون فى الماء الحار . اهـ . نسفى .

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ

[ثم فى النار يسجرون] يوقد عليهم اللهب العظيم ، فيصلون بها ، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم .

[وقيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله] هل نفعوكم ، أو دفعوا عنكم بعض العذاب ؟ .

[قالوا ضلوا عنا] أي : غابوا ولم يحضروا ، ولو حضروا ، لم ينفعوا .

ثم إنهم أنكروا فقالوا : [بل لم نكن ندعو من قبل شيئا] يحتمل أن مرادهم بذلك ، الإنكار ، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم .

ويحتمل — وهو الأظهر — أن مرادهم بذلك ، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون ، وأنه ليس لله شريك فى الحقيقة ، وإنما هم ضالون مخطئون ، بعبادة معدوم الإلهية .

ويدل على هذا قوله تعالى « كذلك يضل الله الكافرين » .

أى : كذلك الضلال ، الذى كانوا عليه فى الدنيا ، الضلال الواضح لكل أحد ، حتى إنهم بأنفسهم ، يقرون ببطلانه يوم القيامة .

ويتبين لهم معنى قوله تعالى « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن » ويدل عليه قوله تعالى :

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » الآيات .

نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

ويقال لأهل النار [ذلكم] العذاب ، الذى نوع عليكم [بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون] أى : تفرحون بالباطل الذى أنتم عليه ، وبالعلوم التى خالفتم بها علوم الرسل .

وتمرحون على عباد الله ، بغيا ، وعدوانا ، وظلما ، وعصيانا ، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة .

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » .

وكما قال قوم قارون له « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب .

بخلاف الفرح الممدوح الذى قال الله فيه « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » .

وهو الفرح بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

[ادخلوا أبواب جهنم] كل بطبقة من طبقاتها ، على قدر عمله .

[خالدين فيها] لا يخرجون منها أبداً [فبئس مثوى المتكبرين] .

مثوى يخزون فيه ، ويهانون ، ويحبسون ، ويعذبون ، ويترددون بين حرها وزمهريرها .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا

أى [فاصبر] يا أيها الرسول ، على دعوة قومك ، وما ينالك منهم ، من أذى .

واستعن على صبرك بإيمانك [إن وعد الله حق] سينصر دينه ، ويُعْلِي كلمته ، وينصر رسله فى الدنيا والآخرة .

واستعن على ذلك أيضا ، بتوقيع العقوبة بأعدائك فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

[فإما نرينك بعض الذى نعدهم] فى الدنيا فذاك [أو نتوفينك] قبل عقوبتهم [فإلينا يرجعون] فنجازيهم بأعمالهم ، « فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

ثم سلاَّه وصبَّره ، بذكر إخوانه المرسلين فقال : [ولقد أرسلنا رسلا] إلى [المبطلون] .

* أى : [ولقد أرسلنا من قبلك رسلا] كثيرين إلى قومهم ، يدعونهم ويصبرون على أذاهم .

[منهم من قصصنا عليك] خبرهم [ومنهم من لم نقصص عليك] .

وكل الرسل مدبرون ، ليس بيدهم شيء من الأمر .

عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِئَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

[وما كان لرسول] منهم[أن يأتى بآية] من الآيات السمعية والعقلية [إلا بإذن الله]أى : بمشيئته وأمره .

فاقتراح المقترحين على الرسل ، الإتيان بالآيات ، ظلم منهم ، وتعنت ، وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم ، وصحة ما جاءوا به .

[فإذا جاء أمر الله] بالفصل بين الرسل وأعدائهم ، والفتح .

[قضى] بينهم [بالحق] الذى يقع الموقع[1] ، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك المكذبين ، ولهذا قال :

[وخسر هنالك] أى : وقت القضاء المذكور [المبطلون] الذين وصفهم الباطل ، وما جاءوا به من العلم والعمل ، باطل ، وغايتهم المقصودة لهم ، باطلة .

فَلْيَحْذَر هؤلاء المخاطبون ، أن يستمروا على باطلهم ، فيخسروا ، كما خسر أولئك .

فإن هؤلاء لا خير منهم ، ولا لهم براءة فى الكتب بالنجاة .

---

(١) قوله: يقع الموقع . أى : الصحيح ، الفاصل بين الحق والباطل .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

---

* يمتن تعالى على عباده ، بما جعل لهم من الأنعام ، التى بها ، جملة من المنافع .

منها : منافع الركوب عليها ، والحمل .

ومنها : منافع الأكل من لحومها ، والشرب من ألبانها .

ومنها : الدفء ، واتخاذ الآلات والأمتعة ، من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها ، إلى غير ذلك من المنافع .

[ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم] من الوصول إلى الأقطار البعيدة، وحصول السرور بها ، والفرح عند أهلها .

[وعليها وعلى الفلك تحملون] أى : على الرواحل البرية ، والفلك البحرية ، يحملكم الله الذى سخرها ، وهيأ لها ما هيأ ، من الأسباب ، التى لا تتم إلا بها .

[ويريكم آياته] الدالة على وحدانيته ، وأسمائه ، وصفاته .

وهذا من أكبر نعمه ، حيث أشهد عباده ، آياته النفسية ، وآياته الأفقية ، ونعمه الباهرة ، وعدّدها عليهم ، ليعرفوه ، ويشكروه ، ويذكروه .

[فأى آيات الله تنكرون] أى : أى آية من آياته ، لا تعترفون بها ؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

فإنكم ، قد تقرر عندكم ، أن جميع الآيات والنعم ، منه تعالى .

فلم يبق للإنكار محل ، ولا للإعراض عنها موضع .

بل أوجبت لذوى الألباب ، بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، للاجتهاد فى طاعته ، والتبتل فى خدمته ، والانقطاع إليه .

* يحث تعالى ، المكذبين لرسولهم ، على السير فى الأرض ، بأبدانهم ، وقلوبهم : وسؤال العالمين .

[فينظروا] نظر فكر واستدلال ، لا نظر غفلة وإهمال .

[كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] من الأمم السالفة ، كعاد ، وثمود وغيرهم ، ممن [كانوا أكثر منهم وأشدة قوة وآثاراً فى الأرض] من الأبنية الحصينة ، والغراس الأنيقة ، والزروع الكثيرة [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] حين جاءهم أمر الله .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا افتدوا بأموالهم ، ولا تحصنوا بحصونهم .

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال : [فلما جاءتهم رسلهم بالبينات] من الكتب الإلهية ، والخوارق العظيمة ، والعلم النافع المبين ، الهادى من الضلال ، والحق من الباطل [فرحوا بما عندهم من العلم] المناقض لدين الرسل .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ

ومن المعلوم ، أن فرحهم به ، يدل على شدة رضاهم به ، وتمسكهم ، ومعاداة الحق ، الذى جاءت به الرسل ، وجعل باطلهم حقا، وهذا عام لجميع العلوم ، التى نوقض بها ، ما جاءت به الرسل .

ومن أحقها بالدخول فى هذا ، علوم الفلسفة ، والمنطق اليونانى ، الذى رُدَّت به كثير من آيات القرآن ، ونقصت قدره فى القلوب ، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة ، أدلة لفظية ، لا تفيد شيئا من اليقين ، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل .

وهذا من أعظم الإلحاد فى آيات الله ، والمعارضة لها ، والمناقضة ، فالله المستعان .

[وحاق بهم] أى : نزل وأحاط بهم [ما كانوا به يستهزئون] من العذاب .

[فلما رأوا بأسنا] أى : عذابنا ، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار [قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين] من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل ، من علم أو عمل .

[فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا] أى : فى تلك الحال ، وهذه [سنة الله] وعادته [التى خلت فى عباده] أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا ، كان إيمانهم غير صحيح ، ولا منجيا لهم من العذاب .

بَأْسَنَا سُنَّتُ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

وذلك لأنه إيمان ضرورة ، قد اضطروا إليه وإيمان مشاهدة .

وإنما الإيمان الذى ينجى صاحبه ، هو الإيمان الاختيارى ، الذى يكون إيمانا بالغيب ، وذلك قبل وجود قرائن العذاب .

[وخسر هنالك] أى : وقت الإهلاك ، وإذاقة البأس [الكافرون] دينهم ودنياهم وأخراهم .

ولا يكفى مجرد الخسارة ، فى تلك الدار ، بل لا بد من خسران يشقى فى العذاب الشديد ، والخلود فيه ، دائما أبداً .

تم تفسير سورة غافر (المؤمن)

بحمد الله ولطفه ومعونته ، لا بحولنا وقوتنا ، فله الشكر والثناء

تفسير

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل [تنزيل] صادر [من الرحمن الرحيم] الذى وسعت رحمته كل شيء ، الذى من أعظم رحمته وأجلها ، إنزال هذا الكتاب ، الذى حصل به ، من العلم والهدى ، والنور ، والشفاء ، والرحمة ، والخير الكثير ، ما هو من أجل نعمه على العباد ، وهو الطريق للسعادة فى الدارين .

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال : [فصلت آياته] أى : فصل كل شيء من أنواعه على حدته ، وهذا يستلزم البيان التام ، والتفريق بين كل شيء ، وتمييز الحقائق .

[قرآناً عربياً] أى : باللغة الفصحى أكمل اللغات ، فصلت آياته وجعل عربياً .

فاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا

[لقوم يعلمون] أى : لأجل أن يتبين لهم معناه ، كما يتبين لفظه . ويتضح لهم الهدى من الضلال ، والْغَيِّ من الرشاد .

وأما الجاهلون ، الذين لا يزيدهم الهدي إلا ضلالا، ولا البيان إلا عَمًى فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم ، « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

[بشيراً ونذيراً] أى : بشيرا بالثواب العاجل والآجل ، ونذيرا بالعقاب العاجل والآجل وذكر تفصيلهما ، وذكر الأسباب والأوصاف التى تحصل بها البشارة والنذارة .

وهذه الأوصاف للكتاب ، مما يوجب أو يُتَلَقَّى بالقبول ، والإذعان ، والإيمان به ، والعمل به .

ولكن أعرض أكثر الخلق إعراض المستكبرين ، [فهم لا يسمعون] له سماع قبول وإجابة ، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً ، تقوم عليهم به الحجة الشرعية .

[وقالوا] أى : هؤلاء المعرضون عنه ، مبينين عدم انتفاعهم به ، بسد الأبواب الموصلة إليه :

[قلوبنا فى أكنة] أى : أغطية مغشاة [مما تدعونا إليه وفى آذننا وقر] أى : صمم فلا نسمع [ومن بيننا وبينك حجاب] فلا نراك .

القصد من ذلك ، أنهم أظهروا الإعراض عنه ، ومن كل وجه ، وأظهروا بغضه ، والرضا بما هم عليه ، ولهذا قالوا :

تَدْعُونَـآ إِلَيْـهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْـهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ

[فاعمل إننا عاملون] أى : كما رضيت بالعمل بدينك ، فإننا راضون كل الرضا ، بالعمل فى ديننا .

وهذا من أعظم الخذلان ، حيث رضوا بالضلال عن الهدى ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، وباعوا الآخرة بالدنيا .

[قل] لهم ، يا أيها النبى : [إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى] .

أى : هذه صفتى ووظيفتى ، أنى بشر مثلكم ، ليس بيدى من الأمر شىء ، ولا عندى ما تستعجلون به .

وإنما فضلنى الله عليكم ، وميَّزنى ، وخصَّنى ، بالوحى الذى أوحاه إلىَّ وأمرنى باتباعه ، ودعوتكم إليه .

[فاستقيموا إليه] أى . اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى ، بتصديق الخبر الذى أخبر به ، واتباع الأمر ، واجتناب النهى ، هذه حقيقة الاستقامة ، ثم الدوام على ذلك .

وفى قوله [إليه] تنبيه على الإخلاص ، وأن العامل ينبغى له أن يجعل مقصوده وغايته ، التى يعمل لأجلها ، الوصول إلى الله ، وإلى دار كرامته ، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعا ، وبفواته ، يكون عمله باطلا .

ولما كان العبد ، ولو حرص على الاستقامة ، لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور ، أو ارتكاب منهى ، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال :

[واستغفروه] ثم توعد من ترك الاستقامة فقال : [وويل للمشركين

لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

الذين لا يؤتون الزكاة] أي : الذين عبدوا من دونه ، من لا يملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً .

ودسوا أنفسهم ، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ، ولم يصلوا ولا زكوا ، فلا إخلاص منهم للخالق بالتوحيد والصلاة ، ولا نفع للخلق منهم بالزكاة وغيرها .

[وهم بالآخرة هم كافرون] أي : لا يؤمنون بالبعث ، ولا بالجنة والنار .

فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم ، أقدموا على ما أقدموا عليه ، مما يضرهم في الآخرة .

ولما ذكر الكافرين ، ذكر المؤمنين ، ووصفهم وجزاءهم ، فقال :

[إن الذين آمنوا] بهذا الكتاب ، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان ، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص ، والمتابعة .

[لهم أجر] أي : عظيم [غير ممنون] أي : غير مقطوع ولا نافد ، بل هو مستمر مدى الأوقات ، متزايد على الساعات ، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات .

* قُل أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ

---

* ينكر تعالى ويعجّب ، من كفر الكافرين به ، الذين جعلوا معه أندادا يشركونهم معه ، ويبذلون لهم ما يشاءون من عباداتهم ، ويسوونهم بالرب العظيم ، الملك الكريم ، الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة ، فى يومين ، ثم دحاها فى يومين ، بأن جعل فيها رواسى من فوقها ، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار .

فكمل خلقها ، ودحاها ، وأخرج أقواتها ، وتوابع ذلك [فى أربعة أيام سواء للسائلين] عن ذلك ، فلا ينبئك مثل خبير .

فهذا هو الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص .

[ثم] بعد أن خاق الأرض [استوى] أى : قصد [إلى] خلق [السماء وهى دخان] قد ثار على وجه الماء .

[فقال لها] ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص ، عطف عليه بقوله [وللأرض ائتيا طوعا أو كرها] أى : انقادا لأمرى ، طائعتين أو مكرهتين ، فلا بد من نفوذه .

[قالتا أتينا طائعين] أى : ليس لنا إرادة تخالف إرادتك .

سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

[فقضاهن سبع سموات فى يومين] فَتَمَّ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، مع أن قدرة الله ومشيئته ، صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة .

ولكن مع أنه قدير ، فهو حكيم رفيق .

فمن حكمته ورفقه ، أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة .

واعلم أن ظاهر هذه الآية ، مع قوله تعالى فى النازعات ، لما ذكر خلق السموات قال : « والأرض بعد ذلك دحاها » يظهر منهما التعارض ، مع أن كتاب الله ، لا تعارض فيه ولا اختلاف .

والجواب عن ذلك ، ما قاله كثير من السلف ، أن خلق الأرض وصورتها ، متقدم على خلق السموات كما هنا ، ودحى الأرض بأن « أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها » متأخر عن خلق السموات كما فى سورة النازعات ، ولهذا قال : « والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها » إلى آخره ولم يقل « والأرض بعد ذلك خلقها » .

وقوله [وأوحى فى كل سماء أمرها] أى : الأمر والتدبير اللائق بها ، الذى اقتضته حكمة أحكم الحاكمين .

[وزينا السماء الدنيا بمصابيح] هى : النجوم ، يستنار ، بها ، ويهتدى ، وتكون زينة وجمالا ، للسماء ظاهرا .

ٱلدُّنيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفظًا ذَٰلِكَ تَقدِيرُ ٱلعَزِيزِ ٱلعَلِيمِ ﴿١٢﴾

[وحفظا] لها ، باطنا ، بجعلها رجوما للشياطين ، لئلا يسترق السمع فيها .

[ذلك] المذكور ، من الأرض ، وما فيها ، والسماء وما فيها [تقدير العزيز] الذى عزته ، قهر بها الأشياء ودبرها ، وخلق بها المخلوقات .

[العليم] الذى أحاط علمه بالمخلوقات ، الغائب والشاهد .

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار ، الذى انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره ، من أعجب الأشياء .

واتخاذهم له أندادا يسوونهم به ، وهم ناقصون فى أوصافهم وأفعالهم ، أعجب ، وأعجب .

ولا دواء لهؤلاء ، إن استمر إعراضهم ، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية .

فلهذا خوفهم بقوله :

[فإن أعرضوا] إلى قوله [كافرون] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : فإن أعرض هؤلاء المكذبون ، بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ، ومن صفات الإله العظيم [فقل أنذرتكم صاعقة].

أى : عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم .

[مثل صاعقة عاد وثمود] القبيلتين المعروفتين ، حيث اجتاحهم العذاب ، وحل عليهم ، وبيل العقاب ، وذلك بظلمهم وكفرهم .

[إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم] أى : يتبع بعضهم بعضا متوالين ، ودعوتهم جميعا واحدة .

[أن لا تعبدوا إلا الله] أى : يأمرونهم بالإخلاص لله ، وينهونهم عن الشرك .

فردوا رسالتهم وكذبوهم [وقالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة] أى : وأما أنتم فبشر مثلنا [فإنا بما أرسلتم به كافرون] وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين ، من الأمم ، وهى من أوهى الشُّبَهِ .

فإنه ليس من شرط الإرسال ، أن يكون المرسل مَلَكاً .

وإنما شرط الرسالة ، أن يأتى الرسول بما يدل على صدقه .

فَلْيَقْدَحُوا ، إن استطاعوا بصدقهم ، بقادح عقلى أو شرعى ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

---

* هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين ، عاد ، وثمود .

[فأما عاد] فكانوا — مع كفرهم بالله ، وجحودهم بآيات الله ، وكفرهم برسله — مستكبرين فى الأرض ، قاهرين لمن حولهم من العباد ، ظالمين لهم ، قد أعجبتهم قوتهم .

[وقالوا من أشد منا قوة] قال تعالى رداً عليهم ، بما يعرفه كل أحد :

[أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة] فلولا خلقه إياهم ، لم يوجدوا .

فلو نظروا إلى هذه الحال نظرا صحيحا ، لم يغتروا بقوتهم .

فعاقبهم الله عقوبة ، تناسب قوتهم ، التي اغتروا بها .

[فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا] أى : ريحا عظيمة ، من قوتها وشدتها ، لها صوت مزعج ، كالرعد القاصف .

فسخرها الله عليهم [فى أيام نحسات] « سبع ليالى وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

فدمرتهم وأهلكتهم ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا

وقال هنا : [لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا] الذى اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة .

[ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون] أى : لا يمنعون من عذاب الله ، ولا ينفعون أنفسهم .

* وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه ، الذين أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام ، يدعوهم إلى توحيد ربهم ، وينهاهم عن الشرك .

وآتاهم الله الناقة ، آية عظيمة ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، يشربون لبنها يوما ، ويشربون من الماء يوما ، وليسوا ينفقون عليها ، بل تأكل من أرض الله .

ولهذا قال هنا : [وأما ثمود فهديناهم] أى : هداية بيان .

وإنما نص عليهم ، وإن كان جميع الأمم المهلكة ، قد قامت عليهم الحجة ، وحصل لهم البيان ، لأن آية ثمود ، آية باهرة ، قد رآها صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، وكانت آية مبصرة ، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى .

ولكنهم — من ظلمهم وشرهم — استحبوا العمى — الذى هو الكفر والضلال — على الهدى ، الذى هو : العلم والإيمان .

[فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون] لا ظلما من الله لهم .

ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا

[ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون] أى نجى الله صالحا عليه السلام، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك، والمعاصى.

* يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر، وبآياته، وتكذيب رسله، ومعاداتهم، ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة، حين يحشرون، أى: يجمعون.

[إلى النار فهم يوزعون] أى: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفا، لا يستطيعون امتناعا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

[حتى إذا ما جاءوها] أى: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصى.

[شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم] عموم بعد خصوص.

[بما كانوا يعملون] أى يشهد عليهم كل عضو من أعضائهم.

فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها.

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ

فإذا شهدت عليهم ، عاتبوها [وقالوا لجلودهم] هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا :

[لم شهدتم علينا] ونحن ندافع عنكن ؟ [قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء] .

فليس فى إمكاننا ، الامتناع عن الشهادة، حين أنطقنا الذى لا يستعصى شىء عن مشيئته .

[وهو خلقكم أول مرة] فكما خلقكم بذواتكم ، وأجسامكم ، خلق أيضا صفاتكم ، ومن ذلك ، الإنطاق .

[وإليه ترجعون] فى الآخرة ، فيجزيكم بما عملتم .

ويحتمل أن المراد بذلك ، الاستدلال على البعث ، بالخلق الأول ، كما هو طريقة القرآن .

[وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم] أى : وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ، ولا تحاذرون من ذلك .

[ولكن ظننتم] بإقدامكم على المعاصى [أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون] فلذلك صدر منكم ما صدر ، وهذا الظن ، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال :

كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى

[وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم] الظن السيء ، حيث ظننتم به ، مالا يليق بجلاله .

[أرداكم] أى : أهلككم [فأصبحتم من الخاسرين] لأنفسهم ، وأهلهم ، وأديانهم[1] بسبب الأعمال التى أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم .

فحقت عليكم ، كلمة العقاب والشقاء ، ووجب عليكم الخلود الدائم ، فى العذاب ، الذى لا يفتر عنهم[2] ساعة .

[فإن يصبروا فالنار مثوى لهم] فلا جَلَدَ عليها ، ولا صبر .

وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها ، فالنار لا يمكن الصبر عليها .

وكيف الصبر على نار ، قد اشتد حرها ، وزادت على نار الدنيا ، بسبعين ضعفا ، وعظم غليان حميمها ، وزاد نتن صديدها ، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها ، وكبرت مقامعها ، وغلظ خُزَّانها ، وزال ما فى قلوبهم من رحمتهم .

وختام ذلك سخط الجبار ، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

---

(١) قوله : « لأنفسهم وأهليهم ، وأديانهم » فالأنسب أن يقال « لأنفسكم ، وأهليكم ، وأديانكم » ليتلاءم مع ما بعده .

(٢) قوله « عنهم » الصواب أن يقال « عنكم » ليتناسب مع ما قبله .

لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

[وإن يستعتبوا] أى : يطلبوا أن يزال عنهم العتب ، فيرجعوا إلى الدنيا ، ليستأنفوا العمل .

[فما هم من المعتبين] لأنه ذهب وقته ، وعمروا ، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير .

وانقطعت حجتهم ، مع أن استعتابهم ، كذب منهم «فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

* [وقيضنا لهم[1]] أى : لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق [قرناء] من الشياطين كما قال تعالى : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » أى تزعجهم إلى المعاصى ، وتحثهم عليها .

[فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم] : فالدنيا زخرفوها بأعينهم ، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة ، حتى افتتنوا ، فأقدموا على معاصى الله ، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله والآخرة بَعّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها .

وربما أوقعوا عليهم الشُّبه ، بعدم وقوعها ، فترحّل خوفها من قلوبهم فقادوهم إلى الكفر ، والبدع ، والمعاصى .

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين ، بسبب إعراضهم

---

(١) قوله : وقيضنا . أى : هيأنا لهم قرناء فاسدين يوسوسون لهم ويستولون عليهم .

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟

عن ذكر الله وآياته ، وحجودهم الحق كما قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

[وحق عليهم القول] أى : وجب عليهم ، ونزل القضاء والقدر ، بعذابهم .

[فى] جملة [أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين] لأديانهم وآخرتهم ، ومن خسر ، فلا بد أن يذل ، ويشقى ، ويعذب .

* يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن ، وتواصيهم بذلك فقال :

[وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن] أى : أعرضوا عنه بأسماعكم ، وإياكم أن تلتفتوا ، أو تصغوا إليه وإلى من جاء به .

فإن اتفق أنكم سمعتموه ، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه ، عارضوه .

[والغوا فيه] أى : تكلموا بالكلام الذى لا فائدة فيه ، بل فيه المضرة ، ولا تمكنوا - مع قدرتكم - أحداً يملك عليكم الكلام به ، وتلاوة ألفاظه ومعانيه .

هذا لسان حالهم ، ولسان مقالهم ، فى الإعراض عن هذا القرآن .

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

[لعلكم] إن فعلتم ذلك [تغلبون[1]] وهذه شهادة من الأعداء ، وأوضح الحق ، ما شهدت به الأعداء ، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا فى حال الإعراض عنه والتواصى بذلك .

ومفهوم كلامهم ، أنهم إن لم يلغوا فيه ، بل استمعوا إليه ، وألقوا أذهانهم ، أنهم لا يغلبون ، فإن الحق ، غالب غير مغلوب ، يعرف هذا ، أصحاب الحق وأعداؤه .

ولما كان هذا ظلما منهم وعناداً ، لم يبق فيهم مطمع للهداية ، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، ولهذا قال : [فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كان يعملون] .

وهو الكفر والمعاصى ، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون ، لكونهم يعملون المعاصى وغيرها .

فالجزاء بالعقوبة ، إنما هو على عمل الشرك ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

[ذلك جزاء أعداء الله] الذين حاربوه ، وحاربوا أولياءه ، جزاؤهم [النار] بالكفر والتكذيب ، والمجادلة والمجالدة .

[لهم فيها دار الخلد] أى : الخلود الدائم ، الذى لا يفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا هم ينصرون .

---

(١) أى : فيسكت محمد صلى الله عليه وسلم عن القراءة ، بسبب تشويشكم عليه .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ

وذلك [جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون] فإنها آيات واضحة ، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين ، فأعظم الظلم وأكبر العناد ، جحدها ، والكفر بها .

[وقال الذين كفروا] أى : الأتباع منهم ، بدليل ما بعده ، على وجه الحنق ، على من أضلهم .

[ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس] أى : الصنفين اللذين ، قادانا إلى الضلال والعذاب ، من شياطين الجن ، وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم .

[نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين] أى : الأذلين المهانين كما أضلونا ، وفتنونا ، وصاروا سبباً لنزولنا .

فنى هذا ، بيان حنق بعضهم على بعض ، وتبرِّى بعضهم من بعض .

* يخبر تعالى عن أوليائه ، وفى ضمن ذلك ، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم ، فقال :

[إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] أي: اعترفوا ، ونطقوا ، ورضوا بربوبية الله تعالى ، واستسلموا لأمره ، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علما وعملا ، فلهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

[تتنزل عليهم الملائكة] الكرام ، أي : يتكرر نزولهم عليهم ، مبشرين لهم عند الاحتضار .

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا

[أن لا تخافوا] على ما يستقبل منه أمركم ، [ولا تحزنوا] على ما مضى .

فنفوا عنهم المكروه الماضى والمستقبل .

[وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون] فإنها قد وجبت لكم وثبتت ، وكان وعد الله مفعولا .

ويقولون لهم أيضا - مثبتين لهم ، ومبشرين - : [نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة] يحثونهم فى الدنيا على الخير ، ويزينونه لهم ، ويرهبونهم عن الشر ، ويقبحونه فى قلوبهم ، ويدعون الله لهم ، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف ، وخصوصا عند الموت وشدته ، والقبر وظلمته ، وفى القيامة وأهوالها على الصراط ، وفى الجنة ، يهنئونهم بكرامة ربهم ، ويدخلون عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ويقولون لهم أيضا : [ولكم فيها] أى : فى الجنة [ما تشتهى أنفسكم] قد أعد وهيىء .

[ولكم فيها ما تدعون] أى : تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

[نزلا من غفور رحيم] أى:هذا الثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ،نُزُلٌ وضيافة [من غفور] غفر لكم السيئات .

[رحيم] حيث وفقكم لفعل الحسنات ، ثم قبلها منكم .

فبمغفرته ، أزال عنكم المحذور ، وبرحمته ، أنا لكم المطلوب .

* هذا استفهام بمعنى النفى المتقرر أى : لا أحد أحسن قولا .

أى : كلاما وطريقة ، وحالة [ممن دعا إلى الله] بتعليم الجاهلين،ووعظ الغافلين والمعرضين ، ومجادلة المبطلين ، بالأمر بعبادة الله ، بجميع أنواعها ، والحث عليها ، وتحسينها مهما أمكن ، والزجر عما نهى الله عنه ، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه .

خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ، ومجادلة أعدائه بالتى هى أحسن ، والنهى عما يضاده من الكفر والشرك ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ومن الدعوة إلى الله ، تحبيبه إلى عباده ، بذكر تفاصيل نعمه ، وسعة جوده ، وكمال رحمته ، وذكر أوصاف كماله ، ونعوت جلاله .

ومن الدعوة إلى الله،الترغيب فى اقتباس العلم والهدى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، والحث على ذلك ، بكل طريق موصل إليه .

ومن ذلك ، الحث على مكارم الأخلاق ، والإحسان إلى عموم الخلق ، ومقابلة المسىء بالإحسان ، والأمر بصلة الأرحام ، وبر الوالدين .

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

ومن ذلك ، الوعظ لعموم الناس ، فى أوقات المواسم ، والعوارض ، والمصائب ، بما يناسب ذلك الحال ، إلى غير ذلك ، مما لا تنحصر أفراده ، بما تشمله الدعوة إلى الخير كله ، والترهيب من جميع الشر .

ثم قال تعالى : [وعمل صالحا] أى : مع دعوته الخلق إلى الله ، بادر هو بنفسه ، إلى امتثال أمر الله ، بالعمل الصالح ، الذى يُرْضِى ربه .

[وقال إننى من المسلمين] أى : المنقادين لأمره ، السالكين فى طريقه .

وهذه المرتبة ، تمامها للصديقين ، الذين عملوا على تكميل أنفسهم ، وتكميل غيرهم ، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل .

كما أن من أشر الناس ، قولا ، من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله .

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين ، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين ، ونزلت الأخرى ، إلى أسفل سافلين ، مراتب ، لا يعلمها إلا الله ، وكلها معمورة بالخلق « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » .

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ

---

* يقول تعالى : [ولا تستوى الحسنة ولا السيئة] أى : لا يستوى فعل الحسنات والطاعات ، لأجل رضا الله تعالى ، وفعل السيئات والمعاصى ، التى تسخطه ولا ترضيه .

ولا يستوى الإحسان إلى الخلق ، ولا الإساءة إليهم ، لا فى ذاتها ، ولا فى وصفها ، ولا فى جزائها « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ثم أمر بإحسان خاص ، له موقع كبير ، وهو : الإحسان إلى من أساء إليك فقال :

[ادفع بالتى هى أحسن] أى : فإذا أساء إليك مسيء من الخلق ، خصوصا من له حق كبير عليك ، كالأقارب ، والأصحاب ، ونحوهم ، إساءة بالقول أو بالفعل ، فقابله بالإحسان إليه .

فإن قطعك فَصِلْهُ ، وإن ظلمك ، فاعف عنه ، وإن تكلم فيك ، غائبا أو حاضرا ، فلا تقابله ، بل اعف عنه ، وعامله بالقول اللين .

وإن هجرك ، وترك خطابك ، فَطيِّبْ له الكلام ، وابذل له السلام .

فإذا قابلت الإساءة بالإحسان ، حصل فائدة عظيمة .

[فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم] أى: كأنه قريب شفيق .

[وما يلقاها] أى : وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة [إلا الذين صبروا] نفوسهم على ما تكره ، وأجبروها على ما يحبه الله .

عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ

فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه ، فكيف بالإحسان ؟!! .

فإذا صبر الإنسان نفسه ، وامتثل أمر ربه ، وعرف جزيل الثواب وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله ، لا تفيده شيئا ، ولا تزيد العداوة إلاشدة ، وأن إحسانه إليه ، ليس بواضع قدره ، بل من تواضع لله رفعه ، هان عليه الأمر ، وفعل ذلك ، متلذذا مستحليا له .

[وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] لكونها من خصال خواص الخلق ، التى ينال بها العبد ، الرفعة فى الدنيا والآخرة ، التى هى من أكبر خصال مكارم الأخلاق .

* لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس ، وهو مقابلة إساءته بالإحسان ، ذكر ما يدفع به العدو الجنى ، وهو الاستعاذة بالله ، والاحتماء من شره فقال :

[وإما ينزغنك من الشيطان نزغ] أى : أى وقت من الأوقات ، أحسست بشيء من نزغات الشيطان ، أى : من وساوسه ، وتزيينه للشر ، وتكسيله عن الخير ، وإصابة ببعض الذنوب ، وإطاعة له ببعض ما يأمر به [فاستعذ بالله] أى : اسأله ، مفتقراً إليه ، أن يعيذك ويعصمك منه .

[إنه هو السميع العليم] فإنه يسمع قولك وتضرعك ، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته .

وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ

ثم ذكر تعالى أن [من آياته] الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه ، ورحمته بعباده ، وأنه الله وحده لا شريك له [الليل والنهار] : هذا بمنفعة ضيائه ، وتصرف العباد فيه ، وهذا بمنفعه ظلمته ، وسكون الخلق فيه .

[والشمس والقمر] اللذان لا تستقيم معايش العباد ، ولا أبدانهم ، ولا أبدان حيواناتهم ، إلا بهما ، وبهما من المصالح ، ما لا يحصى عدده .

[لا تسجدوا للشمس ولا للقمر] فإنهما مدبران مسخران مخلوقان .

[واسجدوا لله] الذى خلقهن ، أى : اعبدوه وحده ، لأنه الخالق العظيم ، ودعوا عبادة ما سواه ، من المخلوقات ، وإن كبر ، جرمها وكثرت مصالحها ، فإن ذلك ليس منها ، وإنما هو من خالقها ، تبارك وتعالى .

[إن كنتم إياه تعبدون] فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له .

[فإن استكبروا] عن عبادة الله تعالى ، ولم ينقادوا لها ، فإنهم لن يضروا الله شيئا ، والله غنى عنهم ، وله عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ولهذا قال : [فالذين عند ربك] يعنى : الملائكة المقربين [يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون] أى : لايملون من عبادته ، لقوتهم ، وشدة الداعى القوى منهم إلى ذلك .

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

[ومن آياته] الدالة على كمال قدرته ، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية .

[أنك ترى الأرض خاشعة] لا نبات فيها [فإذا أنزلنا عليها الماء] أي : المطر [اهتزت] أي : تحركت بالنبات [وربت[1]] ثم : أنبتت من كل زوج بهيج ، تحيي بها العباد والبلاد .

[إن الذى أحياها] بعد موتها وهمودها ، [لمحيي الموتى] من قبورهم إلى يوم بعثهم ، فنشورهم [إنه على كل شيء قدير] فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها ، لا تعجز عن إحياء الموتى .

---

(١) ربت : أي : انتفخت وزادت قال : أبو السعود فى تفسيره « أى : تحركت بالنبات وانتفخت ، لأن النبت إذا دنا أن يظهر ، ارتفعت له الأرض ، وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ».

وقيل تزخرفت بالنبات . وقرىء « ربأت » أى : ارتفعت .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ

---

* الإلحاد فى آيات ألله : الميل بها عن الصواب ، بأى وجه كان :

إما بإنكارها وجحودها ، وتكذيب من جاء بها .

وإما بتحريفها عن معناها الحقيقى ، وإثبات معان لها ، ما أرادها الله منها .

فتوعَّد تعالى ، من ألحد فيها ، بأنه لا يخفى عليه ، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه ، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل ، ولهذا قال :

[أفمن يلقى فى النار] مثل الملحد بآيات الله [خير أم من يأتى آمنا يوم القيمة] من عذاب الله مستحقا لثوابه ؟ من المعلوم أن هذا خير .

لما تبين الحق من الباطل ، والطريق المنجى من عذابه من الطريق المهلك قال :

[اعملوا ما شئتم] ، إن شئتم ، فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته .

وإن شئتم ، فاسلكوا طريق الغىّ المسخطة لربكم ، الموصلة إلى دار الشقاء .

[إنه بما تعملون بصير] يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم ، كقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ثم قال تعالى:[إن الذين كفروا بالذكر] أى يجحدون القرآن الكريم

لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

الذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية ، المُعلِي لقدر من اتبعه .

[لما جاءهم] نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم .

[و] الحال [إنه لكتاب] جامع لأوصاف الكمال [عزيز] .

أى : منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء . ولهذا قال :

[لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه] أى : لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن ، لا بسرقة ، ولا بإدخال ما ليس منه به ، ولا بزيادة ولا نقص .

فهو محفوظ فى تنزيله ، محفوظة ألفاظه ومعانيه ، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

[تنزيل من حكيم] فى خلقه وأمره ، يضع كل شىء موضعه ، وينزله منازله .

[حميد] على ماله من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وعلى ماله من العدل والإفضال ، فلهذا كان كتابه ، مشتملا على تمام الحكمة ، وعلى تحصيل المصالح والمنافع ، ودفع المفاسد والمضار ، التى يحمد عليها .

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

* أى : [ما يقال لك] أيها الرسول من الأقوال الصادرة ، ممن كذبك وعاندك .

[إلا ما قيل للرسل من قبلك] أى : من جنسها .

بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد ، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل ، من دعوتهم إلى الإخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، وردهم هذا ، بكل طريق يقدرون عليه ، وقولهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » .

واقتراحهم على رسلهم الآيات،التى لا يلزمهم الإتيان بها ، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب ، لما تشابهت قلوبهم فى الكفر ، تشابهت أقوالهم .

وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم ، وتكذيبهم ، فاصبر كما صبر من قبلك .

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة ، وحذرهم من الاستمرار على الغىّ فقال :

[إن ربك لذو مغفرة] أى : عظيمة ، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب [وذو عقاب أليم] لمن : أصر واستكبر .

۞ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ

---

* يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، حيث أنزل كتابا عربيا ، على الرسول العربى ، بلسان قومه ، ليبين لهم .

وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به ، والتلقى له والتسليم .

وأنه لو جعله قرآنا أعجميا ، بلغة غير العرب ، لاعترض ، المكذبون وقالوا :

[لولا فصلت آياته] أي : هلا بينت آياته ، ووضحت وفسرت .

[أأعجمى وعربى] أي : كيف يكون محمد عربيا ، والكتاب أعجمى ؟ هذا لا يكون .

فنفى الله تعالى كل أمر ، يكون فيه شبهة لأهل الباطل ، عن كتابه ، ووصفه بكل وصف ، يوجب لهم الانقياد .

ولكن المؤمنون الموفقون ، انتفعوا به ، وارتفعوا ، وغيرهم بالعكس من أحوالهم .

ولهذا قال : [قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء] أي : يهديهم لطريق الرشد ، والصراط المستقيم ويعلمهم من العلوم النافعة ، ما به تحصل الهداية التامة .

وشفاء لهم من الأسقام البدنية ، والأسقام القلبية ، لأنه يزجر عن مساوى الأخلاق ، وأقبح الأعمال ، ويحث على التوبة النصوح ، التى تغسل الذنوب ، وتشفى القلب .

لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا

[والذين لا يؤمنون] بالقرآن [فى آذانهم وقر] **أى** : صمم عن استماعه وإعراض ، [وهو عليهم عمى] **أى** : لا يبصرون به رشدا ، ولا يهتدون به ، ولا يزيدهم إلا ضلالا .

فإنهم إذا ردوا الحق ، ازدادوا عمى إلى عماهم ، وغياً إلى غيِّهم .

[أولئك ينادون من مكان بعيد] أى : ينادون إلى الإيمان ، ويدعون إليه ، فلا يستجيبون .

بمنزلة الذى ينادى ، وهو فى مكان بعيد ، لا يسمع داعيا ولا يجيب منادياً .

والمقصود : أن الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لا ينتفعون بهداه ، ولا يبصرون بنوره ، ولا يستفيدون منه خيراً ، لأنهم سدوا على أنفسهم أَبواب الهدى ، بإعراضهم وكفرهم .

☆ يقول تعالى : [ولقد آتينا موسى الكتاب] كما آتيناك الكتاب ، فصنع به الناس ما صنعوا معك ، اختلفوا فيه :

فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع ، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به .

وإن الله تعالى ، لولا حلمه وكلمته السابقة ، بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر [لقضى بينهم] بمجرد ما يتميز المؤمنون من

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ

الكافرين ، بإهلاك الكافرين فى الحال ، لأن سبب الهلاك ، قد وجب وحق .

[وإنهم لفى شك منه مريب] أى : قد بلغ بهم إلى الريب الذى يقلقهم ، فلذلك كذبوه وجحدوه .

[من عمل صالحا] وهو العمل الذى أمر الله به ، ورسوله [فلنفسه] نفعه وثوابه فى الدنيا والآخرة [ومن أساء فعليها] ضرره وعقابه ، فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا ، حثٌّ على فعل الخير ، وترك الشر ، وانتفاع العاملين ، بأعمالهم الحسنة ، وضررهم بأعمالهم السيئة ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

[وما ربك بظلام للعبيد] فَيُحَمِّل أحدا فوق سيئاته .

* هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذى ، لا يطلع عليه سواه فقال :

[إليه يرد علم الساعة] أى : جميع الخلق يرد علمهم إلى الله تعالى ، ويقرون بالعجز عنه ، الرسل ، والملائكة ، وغيرهم .

[وما تخرج من ثمرات من أكمامها] أى : وعاؤها الذى تخرج منه .

أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التى فى البلدان والبرارى ، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار ، إلا وهو يعلمها تفصيليا .

[وما تحمل من أنثى] من بنى آدم وغيرهم ، من أنواع الحيوانات ، إلا بعلمه [ولا تضع إلا بعلمه] .

فكيف سوّى المشركون به تعالى ، من لا علم عنده ، ولاسمع ولا بصر ؟ .

[ويوم يناديهم] أى : المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم فيقول لهم :

[أين شركائى] الذين زعمتم أنهم شركائى ، فعبدتموهم ، وجادلتم على ذلك ، وعاديتم الرسل لأجلهم ؟ .

[قالوا] مقرين ببطلان إلهيتهم ، وشركتهم مع الله :

[آذناك ما منا من شهيد] أى : أعلمناك يا ربنا ، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم ، فكلنا الآن ، رجعنا إلى بطلان عبادتها ، وتبرأنا منها ، ولهذا قال :

[وضل عنهم ما كانوا يدعون] من دون الله ، أى : ذهبت عقائدهم وأعمالهم ، التى أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله ، وظنوا أنها تفيدهم ، وتدفع عنهم العذاب ، وتشفع لهم عند الله .

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَـآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ

نخاب سعيهم ، وانتقض ظنهم ، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئا [وظنوا] أى : أيقنوا فى تلك الحال [ما لهم من محيص] أى : منقذ ينقذهم ، ولا مغيث ، ولا ملجأ .

فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره ، بينها الله لعباده ، ليحذروا الشرك به .

* هذا إخبار عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وعدم صبره وجلده ، لا على الخير ، ولا على الشر ، إلا من نقله الله من هذه الحال ، إلى حال الكمال ، فقال :

[لا يسأم الإنسان من دعاء الخير] أى : لا يمل دائما ، من دعاء الله ، بالفوز ، والمال ، والولد ، وغير ذلك ، من مطالب الدنيا .

ولا يزال يعمل على ذلك ، ولا يقتنع بقليل ، ولا بكثير منها .

فلو حصل له من الدنيا ، ما حصل ، لم يزل طالباً للزيادة .

[وإن مسه الشر] أى : المكروه ، كالمرض ، والفقر ، وأنواع البلايا [فيئوس قنوط] أى : ييأس من رحمة الله تعالى ، ويظن أن هذا البلاء ، هو القاضى عليه بالهلاك ، ويتشوش من إتيان الأسباب ، على غير ما يحب ويطلب .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب ، شكروا الله تعالى ، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم ، استدراجا وإمهالا .

لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ

وإن أصابتهم مصيبة ، فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، صبروا ، ورجوا فضل ربهم ، فلم ييأسوا .

ثم قال تعالى : [ولئن أذقناه] أى : الإنسان الذى يسأم من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس [رحمة منا] أى : بعد ذلك الشر الذى أصابه ، بأن عافاه الله من مرضه ، أو أغناه من فقره ، فإنه لا يشكر الله تعالى ، بل يبغى ، ويطغى ، ويقول :

[هذا لى] أى : أتانى ، لأنى له أهل ، وأنا مستحق له [وما أظن الساعه قائمة] ، وهذا إنكار منه للبعث ، وكفر للنعمة والرحمة ، التى أذاقها الله له .

[ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى] أى : على تقدير إتيان الساعة ، وأنى سأرجع إلى ربى ، إن لى عنده ، للحسنى .

فكما حصلت لى النعمة فى الدنيا ، فإنها ستحصل لى فى الآخرة .

وهذا من أعظم الجرأة والقول على الله ، بلا علم ، فلهذا توعده بقوله :

[فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ] أى : شديد جداً .

[وإذا أنعمنا على الإنسان] بصحة ، أو رزق ، أو غيرهما [أعرض] عن ربه وعن شكره [ونأى] ترفع [بجانبه] عجبا وتكبراً .

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ

[وإن مسه الشر] أى : المرض ، أو الفقر ، أو غيرهما [فذو دعاء عريض] أى : كثير جدا ، لعدم صبره .

فلا صبر فى الضراء ، ولا شكر فى الرخاء ، إلا من هداه الله ومنّ عليه .

* أى [قل] لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران :

[أرأيتم إن كان] هذا القرآن [من عند الله] من غير شك ولا ارتياب .

[ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد] أى : معاندة لله ولرسوله ، لأنه تبين لكم الحق والصواب ، ثم عدلتم عنه ، لا إلى حق ، بل إلى باطل وجهل .

فإذاً تكونون أضل الناس وأظلمهم .

فإن قلتم ، أو شككتم بصحته وحقيقته ، فسيقيم الله لكم ، ويريكم من آياته ، حيث قال تعالى : [سنريهم آياتنا فى الآفاق] كالآيات التى فى السماء وفى الأرض ، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة ، الدالة للمستبصر على الحق .

وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

[وفى أنفسهم] مما اشتملت عليه أبدانهم ، من بديع آيات الله ، وعجائب صنعته ، وباهر قدرته ، وفى حلول العقوبات والمثلات فى المكذبين، ونصر المؤمنين .

[حتى يتبين لهم] من تلك الآيات ، بيانا لا يقبل الشك [أنه الحق] وما اشتمل عليه حق .

وقد فعل تعالى ، فإنه أرى عباده من الآيات ، ما به تبين أنه الحق ، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء ، والخاذل لمن يشاء .

[أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد] أى: أو لم يكفهم على أن القرآن حق ، ومن جاء به صادق ، بشهادة الله تعالى ، فإنه قد شهد له بالتصديق ، وهو أصدق الشاهدين ، وأيده ، ونصره نصراً متضمنا لشهادته القولية ، عند من شك فيها .

[ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم] أى: فى شك من البعث والقيامة ، وليس عندهم دار ، سوى الدار الدنيا ، فلذلك لم يعملوا للآخرة ، ولم يلتفتوا لها .

[ألا إنه بكل شىء محيط] علما وقدرة وعزة .

تم تفسير سورة « فصلت » (السجدة) — بمنه تعالى

تفســـــير

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ

---

* يخبر تعالى ، أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبى الكريم ، كماأوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين .

ففيه بيان فضله ، بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، سابقا ولاحقا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل .

وأن طريقته ، طريقة من قبله ، وأحواله تناسب أحوال من قبله ، من المرسلين .

وما جاء به ، يشابه ما جاءوا به ، لأن الجميع حق وصدق ، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية ، والعزة العظيمة ، والحكمة البالغة .

وأن جميع العالم ، العلوى والسفلى ، ملكه ، وتحت تدبيره القدرى والشرعى .

مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟

وأنه [العلى] بذاته ، وقدره ، وقهره .

[العظيم] الذى من عظمته [تكاد السموات يتفطرن[1] من فوقهن] على عظمها وكونها جماداً .

[والملائكة] الكرام المقربون ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزته ، مذعنون بربوبيته .

[يسبحون بحمد ربهم] ويعظمونه وينزهونه عن كل نقص ، ويصفونه بكل كمال .

[ويستغفرون لمن فى الأرض] عما يصدر منهم ، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه .

مع أنه تعالى [هو الغفور الرحيم] الذى لولا مغفرته ورحمته ، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة .

وفى وصفه تعالى بهذه الأوصاف ، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل عموما ، وإلى محمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — خصوصا ،

---

(١) يتفطرن . أى : تنشق كل واحدة فوق التى تليها من عظمة الله .

مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم ، فيه الأدلة والبراهين ، والآيات الدالة على كمال البارى تعالى ، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب ، من معرفته ، ومحبته ، وتعظيمه ، وإجلاله ، وإكرامه ، وصرف جميع أنواع العبودية ، الظاهرة ، والباطنة ، له تعالى .

وأن من أكبر الظلم ، وأفحش القول ، اتخاذ أنداد لله من دونه ، ليس بيدهم نفع ولا ضر .

بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله فى جميع أحوالهم ، ولهذا عقبه بقوله :

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] يتولونهم بالعبادة والطاعة ، كما يعبدون الله ويطيعونه ، فإنما اتخذوا الباطل ، وليسوا بأولياء على الحقيقة .

[الله حفيظ عليهم] يحفظ عليهم أعمالهم ، فيجازيهم بخيرها وشرها .

[وما أنت عليهم بوكيل] فتسأل عن أعمالهم ، وإنما أنت مبلغ ، أديت وظيفتك .

ثم ذكر منته على رسوله ، وعلى الناس ، حيث أنزل الله [قرآناً عربياً] بين الألفاظ والمعانى [لتنذر أم القرى] وهى مكة المكرمة [ومن حولها] من قرى العرب ثم يسرى هذا الإنذار ، إلى سائر الخلق .

[وتنذر] الناس [يوم الجمع] الذى يجمع الله به الأولين والآخرين ،

فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ

وتخبرهم أنه [لا ريب فيه] وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين [فريق فى الجنة] وهم الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، [وفريق فى السعير] وهم أصناف الكفرة المكذبين .

[و] مع هذا [لو شاء الله لجعلهم] أى : جعل الناس كلهم [أمة واحدة] على الهدى ، لأنه القادر ، الذى لا يمتنع عليه شىء ، ولكن أراد أن يدخل فى رحمته من شاء ، من خواص خلقه .

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح ، فإنهم محرومون من الرحمة ، فـ [ما لهم] من دون الله [من ولى] يتولاهم ، فيحصل لهم المحبوب [ولا نصير] يدفع عنهم المكروه .

[والذين اتخذوا من دونه أولياء] يتولونهم بعبادتهم إياهم ، فقد غلطوا أقبح غلط .

فالله ، هو الولى الذى يتولاه عبده بعبادته وطاعته ، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات ، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ، ونفوذ القدر فيهم .

ويتولى عباده المؤمنين خصوصا ، بإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتربيتهم بلطفه ، وإعانتهم فى جميع أمورهم .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

[وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير] أي : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، ونفوذ المشيئة والقدرة ، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده، لا شريك له .

* يقول تعالى : [وما اختلفتم فيه من شيء] من أصول دينكم وفروعه ، مما لم تتفقوا عليه [فحكمه إلى الله] يرد إلى كتابه ، وإلى سنة رسوله ، فما حكما به ، فهو الحق ، وما خالف ذلك ، فباطل .

[ذلكم الله ربى] أي : فكما أنه تعالى ، الرب الخالق الرازق المدبر ، فهو تعالى الحاكم بين عباده ، بشرعه فى جميع أمورهم .

ومفهوم الآية الكريمة ، أن اتفاق الأمة ، حجة قاطعة ، لأن الله تعالى، لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه .

فما اتفقنا عليه ، يكفى اتفاق الأمة عليه ، لأنها معصومة عن الخطأ .

ولا بد أن يكون اتفاقها ، موافقا لما فى كتاب الله وسنة رسوله .

وقوله : [عليه توكلت] أي : اعتمدت بقلبى عليه ، فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، واثقا به تعالى فى الإسعاف بذلك .

[وإليه أنيب] أي : أتوجه بقلبى وبدنى إليه ، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان ، كثيراً ما يذكرهما الله فى كتابه ، لأنهما يحصل

وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ

بمجموعهما ، كمال العبد ، ويفوته الكمال بفوتهما ، أو فوت أحدهما ، كقوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله « فاعبده وتوكل عليه » .

[فاطر السموات والأرض] أى : خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته .

[جعل لكم من أنفسكم أزواجاً] لتسكنوا إليها ، وتنتشر منكم الذرية ، ويحصل لكم من النفع ، ما يحصل .

[ومن الأنعام أزواجاً] أى : ومن جميع أصنافها ، نوعين ، ذكر ، وأنثى ، لتبقى ، وتنمو لمنافعكم الكثيرة ، ولهذا عداها باللام ، الدالة على التعليل : أى : جعل لكم من أنفسكم ، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً .

[ليس كمثله شيء] أى : ليس يشبهه تعالى ولا يماثله ، شيء ، من مخلوقاته ، لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، لأن أسماءه ، كلها حسنى ، وصفاته ، صفات كمال وعظمة ، وأفعاله تعالى ، أوجد بها المخلوقات العظيمة ، من غير مشارك .

فليس كمثله شيء ، لانفراده ، وتوحده بالكمال ، من كل وجه .

[وهو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[البصير] يرى دبيب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء .

مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ويرى سريان القوت فى أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا ، وسريان الماء فى الأغصان الدقيقة .

وهذه الآية ونحوها ، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة ، من إثبات الصفات ، ونفى مماثلة المخلوقات .

وفيها رد ، على المشبهة فى قوله [ليس كمثله شىء] وعلى المعطلة فى قوله [وهو السميع البصير] .

وقوله [لهمقاليد السموات والأرض] أى : له ملك السموات والأرض وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ، والنعم الظاهرة والباطنة .

فكل الخلق مفتقرون إلى الله ، فى جلب مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، فى كل الأحوال ليس بيد أحد ، من الأمر ، شىء .

والله تعالى هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذى ما بالعباد من نعمة ، إلا منه ، ولا يدفع الشر ، إلا هو و « ما يفتح الله للناس من رحمةفلاممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

ولهذا قال هنا : [يبسط الرزق لمن يشاء] أى : يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ، ما شاء [ويقدر] أى : يضيق على من يشاء ، حتى يكون بقدر حاجته ، لا يزيد عنها ، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ، فلهذا قال :

[إنه بكل شىء عليم] فيعلم أحوال عباده ، فيعطى كلا ، ما يليق بحكمته ، وتقتضيه مشيئته .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ

---

* هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده ، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها ، وأزكاها وأطهرها .

دين الإسلام ، الذى شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده .

بل شرعه الله لخيار الخيار ، وصفوة الصفوة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون فى هذه الآية أعلى الخلق درجة ، وأكملهم من كل وجه .

فالدين الذى شرعه الله لهم ، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم ، موافقاً لكمالهم ، بل إنما كملهم الله واصطفاهم ، بسبب قيامهم به .

فلولا الدين الإسلامى ، ما ارتفع أحد من الخلق ، فهو روح السعادة ، وقطب رحى الكمال ، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم ، ودعا إليه من التوحيد والأعمال ، والأخلاق ، والآداب .

قال : [أن أقيموا الدين] أى : أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه ، تقيمونه بأنفسكم ، وتجتهدون فى إقامته على غيركم ، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان .

[ولا تتفرقوا فيه] أى : ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه .

واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل ، وتحزبكم أحزاباً وشيعاً ، يعادى بعضكم بعضا ، مع اتفاقكم على أصل دينكم .

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة ، كاجتماع الحج والأعياد ، والجمع ، والصلوات الخمس ، والجهاد ، وغير ذلك ، من العبادات ، التي لا تتم ، ولا تكمل إلا بالاجتماع لها ، وعدم التفرق .

[كبر على المشركين ما تدعوهم إليه] أي : شق عليهم غاية المشقة ، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ، كما قال عنهم « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » وقولهم « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب » .

[الله يجتبي إليه من يشاء] أي : يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته .

ومنه ، أن اجتبى هذه الأمة ، وفضلها على سائر الأمم ، واختار لها أفضل الأديان وخيرها .

[ويهدى إليه من ينيب] هذا السبب الذى من العبد ، يتوصل به إلى هداية الله تعالى وهو : إنابته لربه ، وانجذاب دواعى قلبه إليه ، وكونه قاصدا وجهه .

فحسن مقصد العبد ، مع اجتهاده فى طلب الهداية ، من أسباب التيسير لها ، كما قال تعالى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » .

وفى هذه الآية ، أن الله [يهدى إليه من ينيب] مع قوله « واتبع سبيل من أناب إلىّ » مع العلم بأحوال الصحابة رضى الله عنهم ، وأن شدة

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

إنابتهم ، دليل على أن قولهم حجة ، خصوصا الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين .

* لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم ، ونهاهم عن التفرق ، أخبرهم أنهم ، ينبغى لهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب .

فإن أهل الكتاب ، لم يتفرقوا ، حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع ، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم ، وذلك كله ، بغيا وعدواناً منهم .

فإنهم تباغضوا وتحاسدوا ، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة ، فوقع الاختلاف .

فاحذروا ، أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم .

[ولولا كلمة سبقت من ربك] أى : بتأخير العذاب القاضى ، إلى أجل مسمى [لقضى بينهم] ولكن حكمته وحلمه ، اقتضى تأخير ذلك عنهم .

[وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم] أى : الذين ورثوهم ، وصاروا خلفاً لهم ، ممن ينتسب إلى العلم منهم .

[لفى شك منه مريب] أى : لفى اشتباه كثير ، يوقع فى الاختلاف ، حيث اختلف سلفهم ، بغياً وعناداً ، فإن خلفهم ، اختلفوا شكا وارتياباً ، والجميع ، مشتركون فى الاختلاف المذموم .

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُل

[فلذلك فادع] أى : فللدين القويم ، والصراط المستقيم ، الذى أنزل الله به كتبه ، وأرسل رسله ، فادع إليك أمتك ، وحضهم عليه ، وجاهد عليه ، من لم يقبله .

[واستقم] بنفسك [كما أمرت] أى : استقامة موافقة لأمر الله ، لا تفريط ولا إفراط ، بل امتثالا لأوامر الله ، واجتناباً لنواهيه ، على وجه الاستمرار على ذلك .

فأمره بتكميل نفسه ، بلزوم الاستقامة ، وبتكميل غيره ، بالدعوة إلى ذلك .

ومن المعلوم أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمر لأمته ، إذا لم يرد تخصيص له .

[ولا تتبع أهواءهم] أى : أهواء المنحرفين عن الدين ، من الكفرة والمنافقين .

إما باتباعهم على بعض دينهم ، أو بترك الدعوة إلى الله ، أو بترك الاستقامة .

فإنك إن اتبعت أهواءهم ، من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذاً لمن الظالمين .

ولم يقل « ولا تتبع دينهم » لأن حقيقة دينهم ، الذى شرعه الله لهم ، هو دين الرسل كلهم ، ولكنهم لم يتبعوه ، بل اتبعوا أهواءهم ، واتخذوا دينهم ، لهوا ولعبا .

ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا

[وقل] لهم ، عند جدالهم ومناظرتهم : [آمنت بما أنزل الله من كتاب] أى : لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم ، الدال على شرف الإسلام وجلالته ، وهيمنته على سائر الأديان ، وأن الدين الذى يزعم أهل الكتاب ، أنهم عليه ، جزء من الإسلام .

وفى هذا ، إرشاد إلى أن أهل الكتاب ، إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ، ببعض الكتب ، أو ببعض الرسل دون غيره ، فلا يسلم لهم ذلك .

لأن الكتاب الذى يدعون إليه ، والرسول الذى ينتسبون إليه ، من شرطه ، أن يكون مصدقاً بهذا القرآن ، وبمن جاء به .

فكتابنا ، ورسولنا ، لم يأمرانا ، إلا بالإيمان بموسى ، وعيسى ، والتوراة ، والإنجيل ، التى أخبر بها ، وصدق بها ، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته .

وأما مجرد التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى ، الذين لم يوصفوا لنا ، ولم يوافقوا لكتابنا ، فلم يأمرنا بالإيمان بهم .

وقوله [وأمرت لأعدل بينكم] أى : فى الحكم فيما اختلفتم فيه ، فلا تمنعنى عداوتكم وبغضكم ، يا أهل الكتاب ، من العدل بينكم ، ومن العدل فى الحكم ، بين أهل الأقوال المختلفة ، من أهل الكتاب وغيرهم ، أن يقبل ما معهم من الحق ، ويرد ما معهم من الباطل .

[الله ربنا وربكم] أى : هو رب الجميع ، لستم بأحق به منا .

وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ

[لنا أعمالنا ولكم أعمالكم] من خير وشر [لا حجة بيننا وبينكم] أى : بعد ما تبينت الحقائق ، واتضح الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، لم يبق للجدل والمنازعة محل .

لأن المقصود من الجدال ، إنما هو بيان الحق من الباطل ، ليهتدى الراشد ، ولتقوم الحجة على الغاوى .

وليس المراد بهذا ، أن أهل الكتاب لا يجادلون ، كيف والله يقول: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وإنما المراد ، ماذكرنا.

[الله يجمع بيننا وإليه المصير] يوم القيامة ، فيجزى كلا بعمله ، ويتبين حينئذ ، الصادق من الكاذب .

* وهذا تقرير لقوله [لا حجة بيننا وبينكم] .

فأخبر هنا أن [الذين يحاجون فى الله] بالحجج الباطلة ، والشبه المتناقضة [من بعد ما استجيب له] أى : من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول ، لما بين لهم من الآيات القاطعة ، والبراهين الساطعة .

فهؤلاء المجادلون للحق ، من بعد ما تبين [حجتهم داحضة] .

أى : باطلة مدفوعة [عند ربهم] لأنها مشتملة على رد الحق ، وكل ما خالف الحق ، فهو باطل .

حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنـدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلْـكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ

[وعليهم غضب] لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها .

[ولهم عذاب شديد] هو أثر غضب الله عليهم ، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل .

* لما ذكر تعالى ، أن حججه واضحة بينة ، بحيث استجاب لها كل من فيه خير ، ذكر أصلها وقاعدتها ، بل جميع الحجج التى أوصلها إلى العباد ، ترجع إليه فقال :

[الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان] فالكتاب ، هو هذا القرآن العظيم ، نزل بالحق ، واشتمل على الحق ، والصدق ، واليقين .

وكله آيات بينات ، وأدلة واضحات ، على جميع المطالب الإلهية ، والعقائد الدينية ، فجاء بأحسن المسائل ، وأوضح الدلائل .

وأما الميزان ، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح ، والعقل الرجيح.

فكل الدلائل العقلية ، من الآيات الأفقية والنفسية ، والاعتبارات الشرعية ، والمناسبات ، والعلل ، والأحكام ، والحكم ، داخلة فى الميزان ، الذى أنزله الله تعالى ، ووضعه بين عباده ، ليزنوا به ما أثبته ، وما نفاه ، من الأمور ، ويعرفوا به صدق ما أخبر به ، وأخبرت به رسله ، مما خرج عن هذين الأمرين — عن الكتاب والميزان — مما قيل : إنه حجة

لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ

أو برهان ، أو دليل ، أو نحو ذلك من العبارات ، فإنه باطل متناقض ، قد فسدت أصوله ، وانهدمت مبانيه وفروعه .

يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها ، وعرف التمييز بين راجح الأدلة ومرجوحها ، والفرق بين الحجج والشبه .

وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة ، والألفاظ المموهة ، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد ، فإنه ليس من أهل هذا الشأن ، ولا من فرسان هذا الميدان ، فوفاقه وخلافه ، سيان .

ثم قال تعالى — مخوفا للمستعجلين لقيام الساعة ، المنكرين لها : [وما يدريك لعل الساعة قريب] أى : ليس بمعلوم وقتها وبعدها ، ولا متى تقوم ، فهى فى كل وقت ، متوقع وقوعها ، مخوف وجبتها .

[يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها] عناداً وتكذيبا ، وتعجيزاً لربهم .

[والذين آمنوا مشفقون منها] أى : خائفون ، لإيمانهم بها ، وعلمهم بما اشتمل عليه من الجزاء بالأعمال .

وخوفهم ، لمعرفتهم بربهم ، أن لا تكون أعمالهم منجية ولا مسعدة ، ولهذا قال :

[ويعلمون أنها الحق] الذى لا مرية فيه ، ولا شك يعتريه .

يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ

[ألا أن الذين يمارون فى الساعة] أى : بعد ما امتروا فيها ، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها [لفى ضلال بعيد] فى غاية البعد عن الحق .

وأىُّ بعد ، أبعد ممن كذب بالدار ، التى هى الدار على الحقيقة ، وهى الدار التى خلقت للبقاء الدائم ، والخلود السرمد ، وهى دار الجزاء ، التى يظهر الله فيها عدله وفضله ؟ .

وإنما هذه الدار بالنسبة إليها ، كراكب قال[1] فى ظل شجرة ، ثم رحل وتركها ، وهى دار عبور وممر ، لا محل استقرار .

فصدقوا فى الدار المضمحلة الفانيـة ، حيث رأوها وشاهدوها ، وكذبوا بالدار الآخرة ، التى تواترت بالإخبار عنها ، الكتب الإلهية ، والرسل الكرام وأتباعهم ، الذين هم أكمل الخلق عقولا . وأغزرهم علما ، وأعظمهم فطنة ، وفهما .

* يخبر تعالى أنه [لطيف بعباده] ليعرفوه ويحبوه ، ويتعرضوا للطفه وكرمه .

واللطف ، من أوصافه تعالى ، معناه : الذي يدرك الضمائر والسرائر ، الذى يوصل عباده ـ وخصوصا المؤمنين ـ إلى ما فيه الخير لهم ، من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون .

---

(١) قال . أى : استراح ونام فى ظل شجرة وقت القيلولة وهو قبيل الظهر . وفعله من الباب الثانى . يعنى « قال يقيل » .

ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

فمن لطفه بعبده المؤمن ، أن هداه إلى الخير ، هداية لا تخطر بباله ، بما يسر له من الأسباب . الداعية إلى ذلك من فطرته ، على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى للملائكة الكرام ، أن يثبتوا عباده المؤمنين ، ويحثوهم على الخير ، ويلقوا فى قلوبهم ، من تزيين الحق ، ما يكون داعيا لاتباعه .

ومن لطفه أن أمر المؤمنين ، بالعبادات الاجتماعية ، التى بها ، تقوى عزائمهم ، وتنبعث هممهم ، ويحصل منهم التنافس على الخير ، والرغبة فيه ، واقتداء بعضهم ببعض .

ومن لطفه ، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصى .

حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها ، مما يتنافس فيه أهل الدنيا ، تقطع عبده عن طاعته ، أو تحمله على الغفلة عنه ، أو على معصيته ، صرفها عنه ، وقدر عليه رزقه ، ولهذا قال هنا :

[يرزق من يشاء] بحسب اقتضاء حكمته ولطفه [وهو القوى العزيز] الذى له القوة كلها ، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين ، إلا به ، الذى دانت له جميع الأشياء .

ثم قال تعالى : [من كان يريد حرث الآخرة] أى : أجرها وثوابها ، فآمن بها وصدق ، وسعى لها سعيها [نزد له فى حرثه] بأن نضاعف عمله وجزاءه ، أضعافا كثيرة .

كما قال تعالى: « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ومع ذلك ، فنصيبه من الدنيا ، لابد أن يأتيه .

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن

[ومن كان يريد حرث الدنيا] بأن : كانت الدنيا ، هى مقصوده ، وغاية مطلوبه ، فلم يقدم لآخرته ، ولا رجا ثوابها ، ولم يخش عقابها .

[نؤته منها] نصيبه الذي قسم له .

[وما له فى الآخرة من نصيب] قد حرم الجنة ونعيمها ، واستحق النار وجحيمها .

وهذه الآية ، شبيهة بقوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

* يخبر تعالى ، أن المشركين اتخذوا شركاء ، يوالونهم ويشتركون ، هم وإياهم ، فى الكفر وأعماله ، من شياطين الإنس ، الدعاة إلى الكفر [شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله] من الشرك والبدع ، وتحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك ، مما اقتضته أهواؤهم .

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى ، ليدين به العباد ، ويتقربوا به إليه .

فالأصل ، الحجر على كل أحد ، أن يشرع شيئا ، ما جاء عن الله ولا عن رسوله .

فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وهم ، على الكفر .

بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

[ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم] أى : لولا الأجل المسمى ، الذى ضربه الله فاصلا ، بين الطوائف المختلفة ، وأنه سيؤخرهم إليه ، لقضى بينهم فى الوقت الحاضر ، بسعادة المحق ، وإهلاك المبطل ، لأن المقتضى للإهلاك ، موجود ، ولكن أمامهم ، العذاب الأليم فى الآخرة ، هؤلاء وكل ظالم .

وفى ذلك اليوم [ترى الظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى [مشفقين] أى : خائفين وجلين [مما كسبوا] أن يعاقبوا عليه .

ولما كان الخائف قد يقع به ، ما أشفق منه وخافه ، وقد لا يقع ، أخبر أنه [واقع بهم] العقاب ، الذى خافوه ، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب ، من غير معارض ، من توبة ولا غيرها ، ووصلوا موضعا ، فات فيه الإنظار والإمهال .

[والذين آمنوا] بقلوبهم ، بالله ، وبكتبه ، ورسله وجاءوا به .

[وعملوا الصالحات] يشمل فيه ، كل عمل صالح من أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح من الواجبات ، والمستحبات .

فهؤلاء [فى روضات الجنات] أى : الروضات المضافة إلى الجنات ، والمضاف يكون ، بحسب المضاف إليه .

فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة ، وما فيها من الأنهار المتدفقة ،

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

والغياض المعشبة ، والمناظر الحسنة ، والأشجار المثمرة ، والطيور المغردة ، والأصوات الشجية المطربة ، والاجتماع بكل حبيب ، والأخذ من المعاشرة والمنادمة ، بأكمل نصيب .

رياض لا تزداد على طول المدى ، إلا حسنا وبهاء ، ولا يزداد أهلها ، إلا اشتياقاً إلى لذاتها وودادا .

[لهم ما يشاءون] فيها أى : فى الجنات [عند ربهم] .

فمهما أرادوا ، فهو حاصل ، ومهما طلبوا ، حصل ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[ذلك هو الفضل الكبير] وهل فضل أكبر من الفوز برضا الله تعالى ، والتنعم بقربه فى دار كرامته ؟ .

[ذلك الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات] .

أى : هذه البشارة العظيمة ، التى هى أكبر البشائر على الإطلاق ، بشر بها الرحيم الرحمن ، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح ، فهى أجل الغايات ، والوسيلة الموصلة إليها ، أفضل الوسائل .

[قل لا أسألكم عليه] أى : على تبليغى إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه .

[أجرا] فلست أريد أخذ أموالكم ، ولا التولى عليكم والترأس ، ولا غير ذلك من الأغراض [إلا المودة فى القربى] .

إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا

يحتمل أن المراد : لا أسألكم عليه أجراً واحداً هو لكم ، وعائد نفعه إليكم ، وهو . أن تودونى وتحبونى فى القرابة ، أى لأجل القرابة .

ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان ، فإن مودة الإيمان بالرسول ، وتقديم محبته على جميع المحاب ، بعد محبة الله ، فرض على كل مسلم .

وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك ، أن يحبوه ، لأجل القرابة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه .

حتى إنه قيل : إنه ليس فى بطون قريش أحد ، إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيه قرابة

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى ، الصادقة ، وهى التى يصحبها التقرب إلى الله ، والتوسل بطاعته ، الدالة على صحتها وصدقها ، ولهذا قال : [إلا المودة فى القربى] أى : فى التقرب إلى الله .

وعلى كلا القولين ، فهذا الاستثناء ، دليل على أنه لا يسألكم عليه أجراً بالكلية ، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم .

فهذا ليس من الأجر فى شىء ، بل هو من الأجر منه لهم صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » وقولهم « مالفلان عندك ذنب ، إلا أنه محسن إليك » .

[ومن يقترف حسنة] من صلاة ، أو صوم ، أو حج ، أو إحسان إلى الخلق [نزد له فيها حسناً] بأن يشرح الله صدره ، وييسر أمره ، ويكون

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ

سبباً للتوفيق لعمل آخر ، ويزداد بها عمل المؤمن ، ويرتفع عند الله ، وعند خلقه ، ويحصل له الثواب ، العاجل والآجل .

[إن الله غفور شكور] يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت ، عند التوبة منها ، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير .

فبمغفرته ، يغفر الذنوب ، ويستر العيوب ، وبشكره يتقبل الحسنات ، ويضاعفها ، أضعافاً كثيرة .

* يعنى أم يقول المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، جرأة منهم وكذباً : [افترى على الله كذباً] فرموك بأشنع الأمور وأقبحها ، وهو : الافتراء على الله ، بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ، ما هو برىء منه ، وهم يعلمون صدقك وأمانتك .

فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح ؟ .

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى ، فإنه قدح فى الله ، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة ، المتضمنة — على موجب زعمهم — أكبر الفساد فى الأرض ، حيث مكنه الله ، من التصريح بالدعوة ، ثم بنسبتها إليه ، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات ، والأدلة القاهرات ، والنصر المبين ، والاستيلاء على من خالفه .

وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها ، وهو أن يختم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل إليه خير .

عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

وإذا ختم على قلبه ، انحسم الأمر كله ، وانقطع .

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول ، وأقوى شهادة من الله له على ما قال ، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر .

ولهذا ، من حكمته ورحمته ، وسنته الجارية ، أنه يمحو الباطل ويزيله ، وإن كان له صولة فى بعض الأوقات ، فإن عاقبته الاضمحلال .

[ويحق الحق بكلماته] الكونية ، التى لاتبدل ولاتغير ، ووعده الصادق ، وكلماته الدينية التى تحقق ما شرعه من الحق ، وتثبته فى القلوب ، وتبصر أولى الألباب .

حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق ، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه .

فإذا قاومه ، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته ، فظهر من نوره وهداه ، ما به يضمحل الباطل ، وينقمع ، ويتبين بطلانه لكل أحد ، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد .

[إنه عليم بذات الصدور] أى : بما فيها ، وما اتصفت به ، من خير وشر ، وما أكنته ، ولم تبده .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

---

* هذا بيان لكمال كرم الله تعالى ، وسعة جوده ، وتمام لطفه ، إذ [يقبل التوبة] الصادرة [عن عباده] حين يقلعون عن ذنوبهم ، ويندمون عليها ، ويعزمون على أن لا يعاودوها ، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم ، فإن الله يقبلها ، بعد ما انعقدت سببا للهلاك ، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية .

[ويعفو عن السيئات] ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات .

ويعو التائب عنده ، كريما ، كأنه ما عمل سوءاً قط ، ويحبه ، ويوفقه ، لما يقر به إليه .

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة ، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها ، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة، إذا كان القصد منها ، بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية ، وكان محل ذلك ، القلب الذى لا يعلمه إلا الله ، ختم هذه الآية بقوله [ويعلم ما تفعلون]

فالله تعالى ، دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه ، والتوبة من التقصير ، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين :

مستجيبين وصفهم بقوله [ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات]

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ

أى : يستجيبون لربهم ، لما دعاهم إليه وينقادون له ، ويلبون دعوته ، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح ، يحملهم على ذلك .

فإذا استجابوا له ، شكر الله لهم ، وهو الغفور الشكور .

[ويزيدهم من فضله] توفيقا ونشاطاً على العمل ، وزادهم مضاعفة فى فى الأجر ، زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم .

وأما غير المستجيبين لله [و] هم المعاندون [الـكافرون] به وبرسله ، فإنهم [لهم عذاب شديد] فى الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ، من لطفه بعباده ، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة ، تضر بأديانهم فقال :

[ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض] أى : لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا ، فأوجبت لهم الانـكباب على ماتشتهيه نفوسهم ، ولو كان معصية وظلما .

[ولـكن ينزل بقدر ما يشاء] بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته [إنه بعباده خبير بصير] كما فى بعض الآثار أن الله تعالى يقول « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أمرضته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك ، إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم ، إنى خبير بصير » .

مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

[وهو الذى ينزل الغيث] أى : المطر الغزير الذى به يغيث البلاد والعباد .

[من بعد ما قنطوا] وانقطع عنهم مدة ، ظنوا أنه لا يأتيهم ، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالا ، فينزل الله الغيث [وينشر] به [رحمته] من إخراج الأقوات للآدميين ، وبهائمهم ، فيقع عندهم موقعا عظيما ، ويستبشرون بذلك ويفرحون .

[وهو الولى] الذى يتولى عباده ، بأنواع التدبير ، ويتولى القيام ، بمصالح دينهم ودنياهم .

[الحميد] فى ولايته وتدبيره ، الحميد على ما له من الكمال ، وما أوصله إلى خلقه ، من أنواع الأفضال .

* [ومن آياته] أى : ومن أدلة قدرته العظيمة ، وأنه سيحيى الموتى بعد موتهم .

[خلق] هذه [السموات والأرض] على عظمهما وسعتهما ، الدال على قدرته ، وسعة سلطانه ، وما فيهما ، من الإتقان والإحكام ، دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح ، دال على رحمته ، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها ، وأن إلهية ما سواه باطلة .

[وما بث فيهما من دابة] أى : ما نشر فى السموات والأرض من أصناف الدواب التى جعلها الله مصالح ومنافع لعباده .

مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

[وهو على جمعهم] أى : جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة [إذا يشاء قدير] .

فقدرته ومشيئته ، صالحان لذلك ، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق .

وقد علم ، أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم ، بوقوعه .

٭ يخبر تعالى ، أنه ما أصاب العباد من مصيبة ، فى أبدانهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وفيما يحبون ، ويكون عزيزاً عليهم ، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات ، وأن ما يعفو الله عنه ، أكثر ، فإن الله لا يظلم العباد ، ولكن أنفسهم يظلمون « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وليس إهمالا منه تعالى ، تأخير العقوبات ، ولا عجزا .

[وما أنتم بمعجزين فى الأرض] .

أى : معجزين قدرة الله عليكم ، بل أنتم عاجزون فى الأرض ، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم .

[وما لكم من دون الله من ولى] يتولاكم ، فيحصل لكم المنافع [ولا نصير] يدفع عنكم المضار .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

---

* أى : ومن أدلة رحمته ، وعنايته بعباده [الجوارى فى البحر] من السفن ، والمراكب البخارية ، والشراعية ، التى هى من عظمها [كالأعلام] وهى الجبال الكبار ، التي سخر لها البحر العجاج ، وحفظها من التطام الأمواج ، وجعلها تحملكم ، وتحمل أمتعتكم الكثيرة ، إلى البلدان والأقطار البعيدة ، وسخر لها من الأسباب ، ما كان معونة على ذلك .

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله [إن يشأ يسكن الريح] التى جعلها الله سببا لسيرها .

[فيظللن] أى : الجوارى « أى : السفن على اختلاف أنواعها » [رواكد] على ظهر البحر ،لا تتقدم ولا تتأخر ولا ينتقض هذا ، بالمراكب البخارية ، فإن من شرط مشيها ، وجود الريح .

وإن شاء الله تعالى ، أوبق الجوارى ، بما كسب أهلها ، أى : أغرقها في البحر ، وأتلفها ، ولكنه يحلم ، ويعفو عن كثير .

[إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور] أى : كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها ، فيكرهها عليه ، من مشقة طاعة ، أو ردع داع إلى معصية ، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط ، [شكور] .

فى الرخاء وعند النعم ، يعترف بنعمة ربه ويخضع له ، ويصرفها فى مرضاته .

فهذا الذى ينتفع بآيات الله .

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ

وأما الذى لا صبر عنده ، ولا شكر له عند نعم الله ، فإنه معرض أو معاند ، لا ينتفع بالآيات .

ثم قال تعالى : [ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا] ليبطلوها بباطلهم .

[مالهم من محيص] أى : لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة .

* هذا تزهيد فى الدنيا ، وترغيب فى الآخرة ، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال :

[فما أوتيتم من شىء] من ملك ورياسة ، وأموال ، وبنين ، وصحة ، وعافية بدنية .

[فمتاع الحياة الدنيا] لذة منغصة منقطعة .

[وما عند الله] من الثواب الجزيل ، والأجر الجليل ، والنعيم المقيم [خير] من لذات الدنيا ، خيرية لا نسبة بينهما [وأبقى] لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر ، ولا انتقال .

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال : [للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون] أى : جمعوا بين الإيمان الصحيح ، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة وبين التوكل ، الذى هو الآلة لكل عمل .

فكل عمل لا يصحبه التوكل ، فغير تام ، وهو « أى : التوكل » الاعتماد بالقلب على الله .

يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ

فى جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

[والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش] والفرق بين الكبائر والفواحش ـ مع أن جميعهما كبائر ـ أن الفواحش هى: الذنوب الكبار التى فى النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر، ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران.

وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر يدخل فيه.

[وإذا ما غضبوا هم يغفرون] أى: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم، سجية، وحسن الخلق لهم، طبيعة.

حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله، أو فعاله، كظموا ذلك الغضب، فلم ينفذوه، بلى غفروه، ولم يقابلوا المسىء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح، ودفع المفاسد فى أنفسهم وغيرهم، شىء كثير، كما قال تعالى: « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ».

[والذين استجابوا لربهم] أى: انقادوا لطاعته، ولبّوا دعوته، وصار قصدهم، رضوانه، وغايتهم، الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

فلذلك عطفها على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال:

شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

[وأقاموا الصلاة] أى : ظاهرها وباطنها ، فرضها ونفلها .

[ومما رزقناهم ينفقون] من النفقات الواجبة ، كالزكاة ، والنفقة على الأقارب ونحوهم ، والمستحبة ، كالصدقات على عموم الخلق .

[وأمرهم] الدينى والدنيوى [شورى بينهم] أى: لا يستبد أحدمنهم برأيه ، فى أمر من الأمور المشتركة بينهم ، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم ، وتوالفهم ، وتواددهم ، وتحاببهم .

فمن كمال عقولهم ، أنهم إذا أرادا أمرا من الأمور ، التى تحتاج إلى إعمال الفكر والرأى فيها ، اجتمعوا لها ، وتشاوروا ، وبحثوا فيها ، حتى إذا تبينت لهم المصلحة ، انتهزوها وبادروها .

وذلك ، كالرأى فى الغزو ، والجهاد ، وتولية الموظفين ، لإمارة ، أو قضاء ، أو غيرها .

وكالبحث فى المسائل الدينية عموماً ، فإنها من الأمور المشتركة ، والبحث فيها ، لبيان الصواب ، مما يحبه الله ، وهو داخل فى هذه الآية .

[والذين إذا أصابهم البغى[1]] أى : وصل إليهم من أعدائهم [هم ينتصرون] لقوتهم وعزتهم ، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار .

---

(١) البغى . أى : الظلم . يعنى : ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه . كما قال تعالى : [وجزاء سيئة مثلها] .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ

فوصفهم بالإيمان ، والتوكل على الله ، واجتناب الكبائر والفواحش الذى تكفر به الصغائر ، والانقياد التام ، والاستجابة لربهم ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى وجوه الإحسان ، والمشاورة فى أمورهم ، والقوة والانتصار على أعدائهم .

فهذه خصال الكمال قد جمعوها ، ويلزم من قيامها فيهم ، فعل ما هو دونها ، وانتفاء ضدها .

* ذكر الله فى هذه الآية ، مراتب العقوبات ، وأنها على ثلاث مراتب : عدل ، وفضل ، وظلم .

فمرتبة العدل ، جزاء السيئة بسيئة مثلها ، لا زيادة ولا نقص .

فالنفس بالنفس ، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها ، والمال يضمن بمثله .

ومرتبة الفضل : العفو والإصلاح عن المسيء ، ولهذا قال :

[فمن عفا وأصلح فأجره على الله] يجزيه أجراً عظيما ، وثوابا كثيراً .

وشرط الله فى العفو والإصلاح فيه،ليدل ذلك على أنه إذا كان الجانى لا يليق بالعفو عنه ، وكانت المصلحة الشرعية تقتضى عقوبته ، فإنه فى ـ هذه الحال ـ لا يكون مأمورا به .

وفى جعل أجر العافى على الله ، مما يهيج على العفو ، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به .

فكما يحب أن يعفو الله عنه ، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله،

فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

فليسامحهم ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله : [إنه لا يحب الظالمين] الذين يجنون على غيرهم ابتداء ، أو يقابلون الجانى بأكثر من جنايته ، فالزيادة ظلم .

[ولمن انتصر بعد ظلمه] أى : انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه [فأولئك ما عليهم من سبيل] أى : لا حرج عليهم فى ذلك .

ودل قوله: [والذين إذا أصابهم البغى] وقوله:[ولمن انتصر من بعد ظلمه] أنه لا بد من إصابة البغى والظلم ووقوعه .

وأما إرادة البغى على الغير ، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شىء ، فهذا لا يجازى بمثله ، وإنما يؤدب تأديباً ، يردعه عن قول ، أو فعل صدر منه .

[إنما السبيل] أى : إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية [على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق] وهذا شامل للظلم والبغى على الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

[أولئك لهم عذاب أليم] أى : موجع للقلوب والأبدان ، بحسب ظلمهم وبغيهم .

أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

[ولمن صبر] على ما يناله من أذى الخلق [وغفر] لهم ، بأن سمح لهم عما صدر منهم .

[إن ذلك لمن عزم الأمور] أى : الأمور التى حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة ، ومن الأمور التى لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم ، وذوو الألباب والبصائر .

فإن ترك الانتصار للنفس ، بالقول أو الفعل ، من أشق شىء عليها .

والصبر على الأذى ، والصفح عنه ، ومغفرته ، ومقابلته بالإحسان ، أشق وأشق .

ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به ، واستعان الله على ذلك .

ثم إذا ذاق العبد حلاوته ، ووجد آثاره ، تلقاه برحب الصدر ، وسعة الخلق ، والتلذذ فيه .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ

---

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإصلاح ، وأنه [من يضلل الله] بسبب ظلمه [فما له من ولى بعده] يتولى أمره ويهديه .

[وترى الظالمين لما رأوا العذاب] مرأى ومنظراً فظيعاً ، صعباً شنيعاً ، يظهرون الندم العظيم ، والحزن على ما سلف منهم [يقولون هل إلى مرد من سبيل] أى : هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، وهذا طلب للأمر المحال ، الذى لا يمكن .

[وتراهم يعرضون عليها] أى : على النار [خاشعين من الذل] .

أى : ترى أجسامهم خاشعة للذل ، الذى فى قلوبهم .

[ينظرون من طرف خفى] أى : ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً ، من هيبتها وخوفها .

[وقال الذين آمنوا] حين ظهرت عواقب الخلق ، وتبين أهل الصدق من غيرهم :

[إن الخاسرين] على الحقيقة [الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة] حيث فوتوا على أنفسهم جزيل الثواب ، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم ، فلم يجتمعوا بهم ، آخر ما عليهم .

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ

[ألا إن الظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى [فى عذاب أليم] .

أى : فى سوائه ووسطه ، منغمرون لا يخرجون منه أبدا ، ولا يفتر عنهم ، وهم فيه مبلسون .

[وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله] كما كانوا فى الدنيا يمنون أنفسهم بذلك .

ففى القيامة يتبين لهم ولغيرهم ، أن أسبابهم التى أملوها ، تقطعت ، وأنه حين جاءهم عذاب الله ، لم يدفع عنهم .

[ومن يضلل الله فما له من سبيل] تحصل به هدايته ، فهؤلاء ضلوا حين زعموا فى شركائهم النفع ، ودفع الضر ، فتبين حينئذ ، ضلالهم .

* يأمر تعالى عباده بالاستجابة له ، بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، وبالمبادرة بذلك ، وعدم التسويف .

[من قبل أن يأتى يوم] القيامة الذى إذا جاء ، لا يمكن رده ، واستدراك الفائت .

وليس للعبد فى ذلك اليوم ، ملجأ يلجأ إليه ، فيفوت ربه ، ويهرب منه .

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا

بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة ، من خلفهم ، ونودوا « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وليس للعبد فى ذلك اليوم ، نكير لما اقترفه وأجرمه ، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه .

وهذه الآية ونحوها ، فيها ذم الأمل ، والأمر بانتهاز الفرصة فى كل عمل يعرض للعبد .

فإن للتأخير ، آفات .

[فإن أعرضوا] عما جئتم به بعد البيان التام [فما أرسلناك عليهم حفيظا] تحفظ أعمالهم ، وتسأل عنها .

[إن عليك إلا البلاغ] فإذا أديت ما عليك ، فقد وجب أجرك على الله ، سواء استجابوا ، أم أعرضوا ، وحسابهم على الله الذى يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها ، وظاهرها وباطنها .

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان ، وأنه إذا أذاقه رحمة ، من صحة بدن ، ورزق رغد ، وجاه ونحوه [فرح بها] أى : فرح فرحاً مقصوراً عليها ، لا يتعداها ، ويلزم من ذلك ، طمأنينته بها ، وإعراضه عن المنعم .

[وإن تصبهم سيئة] أى : مرض ، أو فقر ، أو نحوها [بما قدمت

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

أيديهم فإن الإنسان كفور] أى : طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لمـا أصابه ، من السيئة .

* هذه الآية ، فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ، ونفوذ تصرفه فى الملك فى الخلق لمـا يشاء ، والتدبير لجميع الأمور .

حتى أن تدبيره تعالى ، من عمومه ، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب لولادة الأولاد ، فالله تعالى هو الذى يعطيهم من الأولاد ، ما يشاء .

فمن الخلق من يهب له إناثاً ، ومنهم من يهب له ذكوراً .

ومنهم من يزوجه ، أى يجمع له ذكوراً وإناثاً .

ومنهم من يجعله عقيما ، لا يولد له .

[إنه عليم] بكل شيء [قدير] على كل شيء ، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء ، بقدرته فى مخلوقاته .

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ

---

* لما قال المكذبون لرسل الله ، الكافرون بالله : [لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية] من كبرهم وتجبرهم ، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة ، وبين أن تكليمه تعالى ، لا يكون إلا لخواص خلقه ، للأنبياء والمرسلين ، وصفوته من العالمين ، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه .

إما [أن يكلمه الله وحيا] بأن يلقى الوحى فى قلب الرسول ، من غير إرسال ملك ، ولا مخاطبة منه شفاها .

[أو] يكلمه منه شفاها لكن [من وراء حجاب] كما حصل لموسى ابن عمران ، كليم الرحمن .

[أو] يكلمه الله بواسطة الرسول الملكى [يرسل رسولا] كجبريل أو غيره من الملائكة .

[فيوحى بإذنه] أى : بإذن ربه ، لا بمجرد هواه [ما يشاء] .

[إنه] تعالى [علىٌّ] الذات على الأوصاف ، عظيمها على الأفعال ، قد قهر كل شىء ، ودانت له المخلوقات .

[حكيم] فى وضعه كل شىء موضعه ، من المخلوقات والشرائع .

[وكذلك] حين أوحينا إلى الرسل قبلك [أوحينا روحا من أمرنا] وهو : هذا القرآن الكريم ، سماه روحا ، لأن الروح يحيا به الجسد والقرآن

تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

تحيا به القلوب والأرواح ، وتحيا به مصالح الدنيا والدين ، لما فيه من الخير الكثير ، والعلم الغزير .

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين ، من غير سبب منهم ، ولهذا قال :

[ما كنت تدرى] أى : قبل نزوله عليك [ما الكتاب ولاالايمان] أى : ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة ، ولاإيمان وعمل بالشرائع الإلهية ، بل كنت أميا ، لاتخط ولاتقرأ .

فجاءك هذا الكتاب الذي [جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا] يستضيئون به فى ظلمات الكفر والبدع ، والأهواء المردية ، ويعرفون به الحقائق ، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم .

وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم] أي : تبينه لهم وتوضحه ، وترغبهم فيه ، وتنهاهم عن ضده ، وترهبهم منه ثم فسر الصراط المستقيم فقال :

[صراط الله الذى له ما فى السوات وما فى الأرض] أى : الصراط الذى نصبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته .

[ألا إلى الله تصير الأمور] أى : ترجع جميع أمو الخير والشر ، فيجازى كُلاًّ بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

تم تفسير سورة الشورى ـ والحمد لله أولا وآخرا

تفسـير

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ

---

* هذا قسم بالقرآن ، فأقسم بالكتاب المبين ، وأطلق ، ولم يذكر المتعلق ، ليدل على أنه مبين لكل مايحتاج إليه العباد ، من أمور الدنيا والدين والآخرة .

[إنا جعلناه قرآنا عربيا] هذا هو المقسم عليه ، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها ، وأبينها ، وهذا من بيانه .

وذكر الحكمة فى ذلك فقال : [لعلكم تعقلون] ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان .

[وإنه] أى : هذا الكتاب [فى أم الكتاب لدينا] أى : فى الملأ الأعلى فى أعلى الرتب وأفضلها [لعلى حكيم] أى : لعلى فى قدره ، وشرفه ، ومحله ، حكيم فيما يشتمل عليه ، من الأوامر ، والنواهى ،

حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم

والأخبار ، فليس فيه حكم مخالف للحكمة ، والعدل ، والميزان .

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله ، تقتضى أن لا يترك عباده هملا ، لا يرسل إليهم رسولا ، ولا ينزل عليهم كتابا ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال :

[أفنضرب عنكم الذكر صفحا] أى : أفنعرض عنكم ، ونترك إنزال الذكر إليكم ونضرب عنكم صفحا ، لأجل إعراضكم ، وعدم انقيادكم ؟ بل ننزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شىء .

فإن آمنتم به واهتديتم ، فهو من توفيقكم ، وإلا ، فقد قامت عليكم الحجة وكنتم على بينة من أمركم .

* يقول تعالى : إن هذه سنتنا فى الخلق ، أن لا نتركهم هملا .

[كم أرسلنا من نبيٍّ فى الأولين] يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

ولم يزل التكذيب موجودا فى الأمم .

[وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون] جحدا لما جاء به ، وتكبرا على الحق .

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

[فأهلكنا أشد منهم] أى : من هؤلاء [بطشا] أى : قوة ، وأفعالاً وآثارا فى الأرض .

[ومضى مثل الأولين] أى : مضت أمثالهم ، وأخبارهم ، وبينا لكم منها ، مافيه عبرة ، ومزدجر عن التكذيب .

* يخبر تعالى عن المشركين ، إنك [لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم] أى : الله وحده لاشريك له ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات ، بظواهر الأمور ، وبواطنها ، وأوائلها ، وأواخرها .

فإذا كانوا مقرين بذلك ، فكيف يجعلون له الولد ، والصاحبة ، والشريك ؟! .

وكيف يشركون به ، من لايخلق ، ولا يرزق ، ولا يميت ، ولايحى ؟! .

ثم ذكر أيضا ، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره ، بما خلقه لعباده من الأرض ، التى مهدها ، وجعلها قرارا للعباد ، يتمكنون فيها من كل ما يريدون .

[وجعل لكم فيها سبلا] أى : جعل منافذ ، بين سلاسل الجبال المتصلة ، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار .

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

[لعلكم تهتدون] فى السير فى الطرق ولا تضيعون ، ولعلكم أيضا ، تهتدون فى الاعتبار بذلك ، والادكار فيه .

[والذى نزل من ماء بقدر] لايزيد ولا ينقص ، ويكون أيضا ، بمقدار الحاجة ، لاينقص ، بحيث لا يكون فيه نفع ولايزيد ، بحيث يضر العباد والبلاد .

بل أغاث به العباد ، وأنقذ به البلاد من الشدة ، ولهذا قال :

[فأنشرنا به بلدة ميتا] أى : أحييناها بعد موتها [كذلك تخرجون] أى : فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء ، كذلك يحييكم ، بعد ما تستكملون فى البرزخ ، ليجازيكم بأعمالكم .

[والذى خلق الأزواج كلها] أى : الأصناف جميعها ، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون ، من ليل ، ونهار ، وحر ، وبرد وذكر ، وأنثى ، وغير ذلك .

[وجعل لكم من الفلك] أى : السفن البحرية ، الشراعية والبخارية [و] من [الأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره] وهذا شامل لظهور الأنعام ، أى : لتستقروا عليها .

لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

[ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه] بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها ، والثناء عليه تعالى بذلك ولهذا قال :

[وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين] أى : لولا تسخيره لنا ما سخر ، من الفلك ، والأنعام ، ما كنا مطيقين لذلك ، وقادرين عليه .

ولكن من لطفه وكرمه تعالى ، سخرها ، وذللها ، ويسر أسبابها .

والمقصود من هذا ، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره ، من إفاضة النعم على العباد ، هو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد(١) .

---

(١) [وإنا إلى ربنا لمنقلبون] أى : وإنا إلى خالقنا لراجعون بعد هذه الحياة ليحاسب كلا بما قدمت يداه .

وفيه إيذان وإعلام ، بأن حق الراكب ، أن يتأمل فيما يلابسه ، من السير ، ويتذكر منه المسافرة العظمى ، التى هى الانقلاب والرجوع إلى الله تعالى :

فيبنى أموره فى مسيره ذلك ، على تلك الملاحظة

ولا يخطر بباله في شيء ، مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ، ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع .

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

---

* يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين ، الذى جعلوا لله تعالى ولداً ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً،ولم يكن له كفواً أحد . وإن ذلك باطل من عدة أوجه .

منها : أن الخلق كلهم عباده ، والعبودية ، تنافى الولادة .

ومنها : أن الولد جزء من والده ، والله تعالى بائن من خلقه ، مباين لهم فى صفاته ، ونعوت جلاله ، والولد جزء من الوالد ، فمحال أن يكون لله تعالى ولد .

ومنها : أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين .

فكيف يكون لله البنات ، ويصطفيهم بالبنين ، ويفضلهم بها ؟! .

فإذاً يكونون أفضل من الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنها : أن الصنف الذى نسبوه لله ، وهو البنات ، أدون الصنفين ، وأكرهها لهم ، حتى إنهم من كراهتهم لذلك « إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً » من كراهته وشدة بغضه ، فكيف يجعلون لله ما يكرهون ؟

ومنها : أن الأنثى ناقصة فى وصفها ، وفى منطقها وبيانها ، ولهذا قال تعالى :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ

[أو من ينشأ فى الحلية] أى : يجمل فيها ، لنقص جماله ، فيجمل بأمر خارج منه ؟ .

[وهو فى الخصام] أى : عند الخصام،الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام [غير مبين] أى : غير مبين لحجته ، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره ، فكيف ينسبونهن لله تعالى ؟

ومنها : أنهم [جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً] فتجرأوا على الملائكة ، العباد المقربين ، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل ، إلى مرتبة المشاركة لله ، فى شىء من خواصه ، ثم نزلوا بهم ، عن مرتبة الذكورية ، إلى مرتبة الأنوثية .

فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه ، وعاند رسله .

ومنها : أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله للملائكته .

فكيف يتكلمون بأمر ، من المعلوم عند كل أحد ، أنه ليس لهم به علم ؟ ! !

ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة ، وستكتب عليهم ، ويعاقبون عليها .

وقوله تعالى: [وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم] فاحتجوا على عبادتهم

سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ

الملائكة بالمشيئة ، وهى حجة ، لم يزل المشركون يطرقونها ، وهى حجة باطلة فى نفسها ، عقلا ، وشرعا .

فكل عاقل ، لايقبل الاحتجاج بالقدر ، ولو سلكه فى حالة من أحواله ، لم يثبت عليها قدمه .

وأما شرعا ، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به ، ولم يذكره عن غير المشركين به ، المكذبين لرسله ، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد ، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ، ولهذا قال هنا :

[ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون] أي : يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه ، ويتخبطون خبط عشواء .

ثم قال : [أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون] يخبرهم بصحة أفعالهم ، وصدق أقوالهم ؟ .

ليس الأمر كذلك ، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم ، وهم لم يأتهم نذير غيره .

أى : فلا عقل ، ولا نقل ، وإذا انتفى الأمران ، فلا ثمَّ إلا الباطل .

نعم لهم شبهة ، من أوهى الشُّبَه ، وهى : تقليد آبائهم الضالين ، الذين ما زال الكفرة ، يردون بتقليدهم ، دعوة الرسل ، ولهذا قال هنا :

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ

[بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة] أى : على دين وملة [وإنا على آثارهم مهتدون] أي : فلا نتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

[وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها] أى : منعموها ، وملأُها الذين أطغتهم الدنيا ، وغرتهم الأموال ، واستكبروا على الحق .

[إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون] أى : فهؤلاء ليسوا ببدع منهم ، وليس بأول من قال هذه المقالة .

وهذا الاحتجاج ، من هؤلاء المشركين الضالين ، بتقليدهم لآبائهم الضالين ، ليس المقصود به ، اتباع الحق والهدي ، وإنما هو تعصب محض ، يراد به نصرة ما معهم من الباطل .

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة [أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم] أى : أفتتبعونى لأجل الهدى .

[قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون] يعلم بهذا ، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى .

وإنما قصدهم ، اتباع الباطل والهوى .

أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً

[فانتقمنا منهم] بتكذيبهم الحق ، وردهم إياه ، بهذه الشبهة الباطلة .

[فانظر كيف كان عاقبة المكذبين] فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيصيبهم ما أصابهم .

* يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذى ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون ، وكلهم يزعم أنه على طريقته

فأخبر عن دينه الذى ورثه فى ذريته فقال : [وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه] الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ، ويتقربون إليهم :

[إننى براء مما تعبدون] أى : مبغض له، مجتنب معادٍ لأهله [إلا الذى فطرنى[1]] فإنى أتولاه ، وأرجو أن يهدينى للعلم بالحق ، والعمل بالحق .

فكما فطرنى ودبرنى بما يصلح بدنى ودنياى [فإنه سيهدين] لما يصلح دينى وآخرتى .

[وجعلها] أى : هذه الخصلة الحميدة ، التى هى أم الخصال وأساسها ، وهى إخلاص العبادة لله وحده ، والتبرِّى من عبادة ما سواه .

---

(١) فطرنى . أى : خلقنى ، وأبدعنى .

بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا

[كلمة باقية فى عقبه] أى : فى ذريته [لعلهم] إليها [يرجعون] لشهرتها عنه ، وتوصيته لذريته ، وتوصية بعض بنيه ، كإسحاق ، ويعقوب لبعض ، كما قال تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » إلى آخر الآيات .

فلم تزل هذه الكلمة موجودة فى ذريته عليه السلام ، حتى دخلهم الترف والطغيان .

فقال تعالى : [بل متعت هؤلاء وآباءهم] بأنواع الشهوات ، حتى صارت هى غايتهم ، ونهاية مقصودهم ، فلم تزل يتربى حبها فى قلوبهم ، حتى صارت صفات راسخة ، وعقائد متأصلة .

[حتى جاءهم الحق] الذى لا شك فيه ، ولا مرية ولا اشتباه .

[ورسول مبين] أى : بين الرسالة ، قامت أدلة رسالته ، قياماً باهراً ، بأخلاقه ، ومعجزاته ، وبما جاء به ، وبما صدق به المرسلين ، وبنفس دعوته صلى الله عليه وسلم .

[ولما جاءهم الحق] الذى يوجب على من له أدنى دين ومعقول ، أن يقبله وينقاد له .

[قالوا هذا سحر وإنا به كافرون] وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة .

ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه ، بل ولا جحده ، فلم يرضوا حتى قدحوا به ، قدحاً شنيعاً ، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل ، الذى لا يأتى به إلا أخبث الخلق ، وأعظمهم افتراء .

والذى حملهم على ذلك ، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم .

[وقالوا] مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة : [لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم] أى : معظم عندهم ، مبجل من أهل مكة ، وأهل الطائف ، كالوليد بن المغيرة ، ونحوه ، ممن هو عندهم عظيم .

قال الله رداً لاقتراحهم : [أهم يقسمون رحمة ربك) أى : أهم الخزان لرحمة الله ، وبيدهم تدبيرها ، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون ، ويمنعونها ممن يشاءون ؟

[نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات] أى : فى الحياة الدنيا ، [و] الحال أن [رحمة ربك خير مما يجمعون] من الدنيا .

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى ، وهو الذى يقسمها بين عباده ، فيبسط الرزق على من يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، بحسب حكمته ، فرحمته الدينية ، التى أعلاها ، النبوة والرسالة ، أولى وأحرى ، أن تكون بيد الله تعالى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ ، وأن التدبير للأمور كلها ، دينيها ودنيويها ، بيد الله وحده .

هذا إقناع لهم ، من جهة غلطهم فى الاقتراح ، الذى ليس فى أيديهم منه شىء ، إن هو إلا ظلم منهم ، ورد للحق .

وقولهم [لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم] لو عرفوا حقائق الرجال والصفات ، التى بها يعرف علو قدر الرجل ، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه ، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم الرجال قدراً ، وأعلاهم فخراً ، وأكملهم عقلا ، وأغزرهم علماً ، وأجلهم رأياً ، وعزماً ، وحزماً ، وأكملهم خلقاً ، وأوسعهم رحمة ، وأشدهم شفقة ، وأهداهم وأتقاهم .

وهو قطب دائرة الكمال ، وإليه المنتهى فى أوصاف الرجال ، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق .

يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه ، إلا من ضل وكابر .

فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله ؟! .

ومن جرمه ومنتهى حمقه ، أن جعل إلهه الذى يعبده ، ويدعوه ، ويتقرب إليه ، صنما ، أو شجراً ، أو حجراً ، لا يصر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وهو كَلٌّ على مولاه ، يحتاج لمن يقوم بمصالحه .

فهل هذا ، إلا من فعل السفهاء والمجانين ؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيما ؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون .

وفى هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى ، فى تفضيل الله بعض العباد على بعض فى الدنيا [ليتخذ بعضهم بعضا سخريا] أى : ليسخر بعضهم بعضا ، فى الأعمال والحرف ، والصنائع .

فلو تساوى الناس فى الغنى ، ولم يحتج بعضهم إلى بعض ، لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم .

وفيها دليل على أن نعمته الدينية ، خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى فى الآية الأخرى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

* يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئا ، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده ، التى لا يقدم عليها شيئا ، لوسّع الدنيا على الذين كفروا ، توسيعا عظيما ، ولجعل :

[لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج] أى : درجا من فضة .

[عليها يظهرون] إلى سطوحهم .

[ولبيوتهم أبواباً وسررا عليها يتكئون] من فضة ، ولجعل

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

لهم زخرفاً ، أى : لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف ، وأعطاهم ما يشتهون .

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع فى الكفر وكثرة المعاصى ، بسبب حب الدنيا .

ففى هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم .

وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا ، منغصة ، مكدرة ، فانية ، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

لأن نعيمها تام كامل من كل وجه ، وفى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

فما أشد الفرق بين الدارين !! .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ

---

* يخبر تعالى عن عقوبته البليغة ، بمن أعرض عن ذكره فقال :

[ومن يعش] أى : يعرض ويصد [عن ذكر الرحمن] الذى هو القرآن العظيم ، الذى هو أعظم رحمة ، رحم بها الرحمن عباده .

فمن قبلها ، فقد قبل خير المواهب ، وفاز بأعظم المطالب والرغائب .

ومن أعرض عنها وردها ، فقد خاب وخسر خسارة ، لا يسعد بعدها أبداً ، وقيّض له الرحمن شيطاناً مريداً ، يقارنه ، ويصاحبه ، ويعده ، ويمنيه ، ويؤزه إلى المعاصى أزاً .

[وإنهم ليصدونهم عن السبيل] أى : الصراط المستقيم ، والدين القويم .

[ويحسبون أنهم مهتدون] بسبب تزيين الشيطان للباطل ، وتحسينه له ، وإعراضهم عن الحق ، فاجتمع هذا وهذا .

فإن قيل : فهل لهذا من عذر ، من حيث إنه ظن أنه مهتد ، وليس كذلك ؟

قيل : لا عذر لهذا وأمثاله ، الذين مصدر جهلهم ، الإعراض عن ذكر الله ، مع تمكنهم من الاهتداء .

فزهدوا فى الهدى ، مع القدرة عليه ، ورغبوا فى الباطل ، فالذنب ذنبهم ، والجرم جرمهم .

ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله فى الدنيا ، مع قرينه ، وهو الضلال والغىّ ، وانقلاب الحقائق .

وأما حاله ، إذا جاء ربه فى الآخرة ، فهو شر الأحوال ، وهو : الندم والتحسر ، والحزن الذى لا يجبر مصابه ، والتبرِّى من قرينه ، ولهذا قال تعالى :

[حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين] .

كما فى قوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا » .

وقوله تعالى [ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون] أى : ولا ينفعكم يوم القيامة ، اشتراككم فى العذاب ، أنتم وقرناؤكم ، وأخلاؤكم .

وذلك لأنكم اشتركتم فى الظلم ، فاشتركتم فى عقابه وعذابه .

ولن ينفعكم أيضا ، روح التسلى فى المصيبة فإن المصيبة إذا وقعت فى الدنيا ، واشترك فيها المعاقبون ، هان عليهم بعض الهون ، وتسلَّى بعضهم ببعض .

وأما مصيبة الآخرة ، فإنها جمعت كل عقاب ، ما فيه أدنى راحة ، حتى ولا هذه الراحة .

نسألك ياربنا العافية ، وأن تريحنا برحمتك .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، مسلياً له عن امتناع المكذبين، عن الاستجابة له ، وأنهم لا خير فيهم ، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى :

[أفأنت تسمع الصم] أى : الذين لا يسمعون [أو تهدى العمى] الذين لا يبصرون .

[و] تهدى [من كان فى ضلال مبين] أى: بَيِّنٌ واضح ، لعلمه بضلاله ، ورضاه به .

فكما أن الأصم ، لا يسمع الأصوات ، والأعمى ، لا يبصر ، والضال ضلالا مبيناً ، لا يهتدى .

فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم ، بإعراضهم عن الذكر ، واستحدثوا عقائد فاسدة ، وصفات خبيثة ، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى ، وتوجب لهم الازدياد من الردى .

فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، إما فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، ولهذا قال تعالى :

[فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون] أى : فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق ، أنا منهم منتقمون .

[أو نرينك الذى وعدناهم] من العذاب [فإنا عليهم مقتدرون] ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره .

بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

فهذه حالك ، وحال هؤلاء المكذبين .

وأما أنت [فاستمسك بالذى أوحى إليك] فعلا واتصافاً ، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه ، وحرصاً على تنفيذه بنفسك وفى غيرك .

[إنك على صراط مستقيم] موصل إلى الله وإلى دار كرامته .

وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء .

إذا علمت أنه حق ، وعدل ، وصدق ، تكون بانياً على أصل أصيل ، إذا بنى غيرك على الشوك[1] والأوهام ، والظلم والجور .

[وإنه] أى هذا القرآن الكريم [لذكر لك ولقومك] أى : فخر لكم ، ومنقبة جليلة ، ونعمة لايقادر قدرها ، ولا يعرف وصفها ، ويذكركم أيضاً ، ما فيه ، من الخير الدنيوى والأخروى ، ويحثكم عليه ، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه .

[وسوف تسألون] عنه ، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم ، أم لم تقوموا به؟ فيكون حجة عليكم ، وكفراً منكم بهذه النعمة .

[واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة

---

(١) قوله « على الشوك » لعل الصواب « الشرك » كما يفيده سياق الكلام وسباقه .

رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم

يعبدون] حتى يكون للمشركين نوع حجة ، يتبعون فيها أحدا من الرسل .

فإنك لو سألتهم ، واستخبرت عن أحوالهم ، لم تجد أحدا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله ، وأن كل الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، يدعون إلى عبادة الله ، وحده لا شريك له .

قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وكل رسول بعثه الله ، يقول لقومه : اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

فدل هذا ، أن المشركين ليس لهم مستند فى شركهم ، لا من عقل صحيح ، ولا نقل عن الرسل .

* لما قال تعالى [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون] بين تعالى حال موسى ودعوته ، التى هى أشهر مايكون من دعوات الرسل ، ولأن الله تعالى ، أكثر من ذكرها فى كتابه ، فذكر حاله مع فرعون .

[ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] التى دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به ، كالعصا ، والحية ، وإرسال الجراد ، والقمل ، إلى آخر الآيات .

[إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول رب العالمين] فدعاهم إلى الإقرار بربهم ، ونهاهم عن عبادة ما سواه .

مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ

[فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون] أى : ردوها وأنكروها ، واستهزأوا بها ، ظلما وعلوا .

فلم يكن لقصور بالآيات ، وعدم وضوح فيها ، ولهذا قال :

[وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها] أى الآية المتأخرة أعظم من السابقة [وأخذناهم بالعذاب] كالجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات .

[لعلهم يرجعون] إلى الإسلام ، ويذعنون له ، ليزول شركهم وشرهم .

[وقالوا] عندما نزل عليهم العذاب : [ياأيها الساحر] يعنون موسى عليه السلام .

وهذا ، إما من باب التهكم به ، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً ، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه ، بما يخاطبون به ، من يزعمون أنهم علماؤهم ، وهم السحرة فقالوا : [ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك] أى : بما خصك الله به ، وفضلك به ، من الفضائل والمناقب ، أن يكشف عنا العذاب [إننا لمهتدون] إن كشف الله عنا ذلك .

[فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون] أى : لم يفوا بما قالوا ، بل غدروا ، واستمروا على كفرهم .

فِي قَوْمِهِ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ

وهذا كقوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا * ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » .

[ونادى فرعون فى قومه قال] مستعليا بباطله ، قد غره ملكه ، وأطغاه ماله وجنوده : [ياقوم أليس لى ملك مصر] أى : ألست المالك لذلك ، المتصرف فيه .

[وهذه الأنهار تجرى من تحتى] أى : الأنهار المنسحبة من النيل ، فى وسط القصور والبساتين .

[أفلا تبصرون] هذا الملك الطويل العريض .

وهذا من جهله البليغ ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته ، ولم يفخر بأوصاف حميدة ، ولا أفعال سديدة .

[أم أنا خير من هذا الذى هو مهين]يعنى قبحه الله ـ بالمهين ، موسى بن عمران ، كليم الرحمن ، الوجيه عند الله .

أى : أنا العزيز ، وهو الذليل المهان المحتقر ، فأينا خير ؟ [و] مع هذا فإنه [لا يكاد يبين] عما فى ضميره بالكلام ، لأنه ليس بفصيح اللسان .

مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وهذا ليس من العيوب فى شىء ، إذا كان يبين ما فى قلبه ، ولو كان الكلام ثقيلا عليه .

ثم قال فرعون : [فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب] أى : فهلا كان موسى بهذه الحالة ، أن يكون مزينا مجملا بالحلى والأساور ؟ .

[أوجاء معه الملائكة مقترنين] يعاونونه على دعوته ، ويؤيدونه على قوله.

[فاستخف قومه فأطاعوه] أى : استخف فرعون عقولهم ، بما أبدى لهم من هذه الشبه ، التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولا حقيقة تحتها ، وليست دليلا على حق ولا على باطل ، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول .

فأى دليل ، يدل على أن فرعون محق ، فى كون ملك مصر له ، وأنهارها تجرى من تحته ؟

وأى دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى ، لقلة أتباعه ، وثقل لسانه ، وعدم تحلية أمه له بأساور من ذهب ؟

ولكن فرعون ، لقى ملأ ، لا معقول عندهم ، فمهما قال ، اتبعوه ، من حق وباطل .

[إنهم كانوا قوماً فاسقين] فبسبب فسقهم ، قيض لهم فرعون ، يزين لهم الشرك والشر .

[فلما آسفونا] أى أغضبونا بأفعالهم [انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين] ليعتبر بهم المعتبرون ويتعظ بأحوالهم المتعظون .

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَا

---

* يقول تعالى : [ولما ضرب ابن مريم مثلا] أى : نهى عن عبادته ، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد .

[إذا قومك] المكذبون لك [منه] أى : من أجل هذا المثل المضروب .

[يصدون] أى : يلجون فى خصومتهم لك ، ويصيحون ، ويزعمون أنهم قد غلبوا فى حجتهم ، وأفلجوا .

[وقالوا أآلهتنا خير أم هو] يعنى : عيسى ، حيث نهى عن عبادة الجميع ، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم ، ونزل أيضا قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

ووجه حجتهم الظالمة ، أنهم قالوا : قد تقرر عندنا وعندك يا محمد ، أن عيسى من عباد الله المقربين ، الذين لهم العاقبة الحسنة ، فلم سويت بينه وبين معبوداتنا ، فى النهى عن عبادة الجميع ؟ فلولا أن حجتك باطلة ، لم تتناقض .

ولم قلت « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

وهذا اللفظ بزعمهم ، يعم الأصنام ، وعيسى ، فهل هذا إلا تناقض ؟ وتناقض الحجة ، دليل على بطلانها .

هذا أقصى ما يقرون به هذه الشبهة ، التى فرحوا بها ، واستبشروا ، وجعلوا يصدون ويتباشرون .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَهُ

وهى — ولله الحمد — من أضعف الشبه وأبطلها ، فإن تسوية الله بين النهى عن عبادة المسيح ، وبين النهى عن عبادة الأصنام ، لأن العبادة ، حق لله تعالى ، لايستحقها أحد من الخلق ، لا الملائكةالمقربون ، ولاالأنبياء المرسلون ، ولا من سواهم من الخلق .

فأى شبهة ، فى تسوية النهى عن عبادة عيسي وغيره ؟

وليس فى تفضيل عيسى عليه السلام ، وكونه مقربا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها ، فى هذا الموضع .

وإنما هو كما قال تعالى : «إن هو إلاعبد أنعمناعليه » بالنبوةوالحكمة والعلم والعمل « وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب .

وأما قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

فالجواب عنها من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن قوله « إنكم وما تعبدون من دون الله » أن « ما »اسم لما لا يعقل ، لا يدخل فيه المسيح ونحوه .

الثانى : أن الخطاب للمشركين ، الذين بمكة وما حولها ، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثانا .

الثالث : أن الله قال بعد هذه الآية « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ

فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون فى هذه الآية .

ثم قال تعالى : [ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون] أى لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض ، ويكونون فى الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم .

وأما أنتم يا معشر البشر ، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة .

فمن رحمة الله بكم ، أن أرسل إليكم رسلا من جنسكم ، تتمكنون من الأخذ عنهم .

[وإنه لعلم للساعة] أى : وإن عيسى عليه السلام ، لدليل على الساعة ، وأن القادر على إيجاده ، من أم بلا أب ، قادر على بعث الموتى من قبورهم .

أو ، وإن عيسى عليه السلام ، سينزل فى آخر الزمان ، ويكون نزوله ، علامة من علامات الساعة [فلا تمترن بها] أى : لاتشكن فى قيام الساعة، فإن الشك فيها ، كفر .

[واتبعون] بامتثال ما أمرتكم ، واجتناب ما نهيتكم .

[هذا صراط مستقيم] موصل إلى الله عز وجل .

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ

[ولا يصدنكم الشيطان] عما أمركم الله به [إنه] أى الشيطان [لكم عدو مبين] حريص على إغوائكم ، باذل جهده فى ذلك .

[ولما جاء عيسى بالبينات] الدالة عل صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة ، والأبرص ، ونحو ذلك من الآيات .

[قال] لبنى إسرائيل [قد جئتكم بالحكمة] النبوة والعلم ، بما ينبغى على الوجه الذى ينبغى .

[ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه] أى : أبين لكم صوابه وجوابه ، فيزول عنكم بذلك ، اللبس .

فجاء عليه السلام ، مكملا ، ومتمما لشريعة موسى عليه السلام ، ولأحكام التوراة .

وأتى ببعض التسهيلات ، الموجبة للانقياد له ، وقبول ما جاءهم به .

[فاتقوا الله وأطيعون] أى : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، وآمنوا بى ، وصدقونى ، وأطيعونى .

[إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية ، بأن الله هو المربى جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة والإقرار بتوحيد العبودية ، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإخبار

مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

عيسى عليه السلام ، أنه عبد من عباد الله ، ليس كما قال النصارى فيه « إنه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة » .

والإخبار بأن هـذا المذكور ، صراط مستقيم ، موصل إلى الله وإلى جنته .

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا [اختلف الأحزاب] المتحزبون على التكذيب [من بينهم] كل قال بعيسى عليه السلام ، مقالة باطلة ، ورد ما جاء به ، إلا من هدى الله من المؤمنين ، الذين شهدوا له بالرسالة ، وصدقوا بكل ما جاء به ، وقالوا : إنه عبد الله ورسوله .

[فويل للذين ظلموا] أى : ماأشد حزن الظالمين [من عذاب يوم أليم] وما أعظم خسارهم ، فى ذلك اليوم !! .

* يقول تعالى [هل ينظرون] أى : هل ينتظر المكذبون ، وهل يتوقعون [إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون] أى : فإذا جاءت ، فلاتسألوا عن أحوال من كذب بها ، واستهزأ بمن جاء بها .

وإن [الأخلاء يومئذ] أى : يوم القيامة ، المتخالين على الكفر والتكذيب ، ومعصية الله [بعضهم لبعض عدو] لأن خلتهم ومحبتهم فى الدنيا ، لغير الله ، فانقلبت يوم القيامة عداوة .

إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ

[إلا المتقين] للشرك والمعاصى ، فإن محبتهم تدوم وتتصل ، بدوام من كانت المحبة لأجله .

ذكر ثواب المتقين ، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ، ويذهب عنهم كل آفة وشر ، فيقول :

[ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون] أى : لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها .

وإذا انتفى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب .

[الذين آمنوا بآياتنا] أى : وصفهم الإيمان بآيات الله ، وذلك شامل للتصديق بها ، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم ، بمعناها والعمل بمقتضاها.

[وكانوا مسلمين] لله منقادين له فى جميع أحوالهم .

فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن .

[ادخلوا الجنة] التى هى دار القرار [أنتم وأزواجكم] أى : من كان على مثل عملكم ، من كل مقارن لكم ، من زوجة ، وولد ، وصاحب ، وغيرهم .

[تحبرون] أى : تنعمون وتكرمون ، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور ، والأفراح ، واللذات ، ما لا تعبر الألسن عن وصفه .

[يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب] أى : تدور عليهم

مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّـةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَـكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا

خدامهم ، من الولدان المخلدين بطعامهم ، بأحسن الأوانى وأفخرها ، وهى : صحاف الذهب وشرابهم ، بألطف الأوانى ، وهى : الأكواب ، التى لاعرى لها ، وهى من أصفى الأوانى ، من فضة أعظم من صفاء القوارير .

[وفيها] أى : الجنة [ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين] وهذا اللفظ جامع ، يأتى على كل نعيم وفرح ، وقرة عين ، وسرور قلب .

فكل ما تشتهيه النفوس ، من مطاعم ، ومشارب ، وملابس ، ومناكح وما تلذه العيون ، من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم مونقة ، ومبان مزخرفة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها ، على أكمل الوجوه وأفضلها ، كما قال تعالى « لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون » .

[وأنتم فيها خالدون] وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة ، وهو : الخلد الدائم فيها ، الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته ، وعدم انقطاعه .

[وتلك الجنة] الموصوفة بأكمل الصفات هى [التى أورثتموها بما كنتم تعملون] أى : أورثكم الله إياها بأعمالكم ، وجعلها من فضله ، جزاء لها ، وأودع فيها من رحمته ، ما أودع .

[لكم فيها فاكهة كثيرة] كما فى الآية الأخرى « وفيها من كل فاكهة زوجان » .

تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

[منها تأكلون] أى : مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية ، والثمار اللذيذة تأكلون .

ولما ذكر نعيم الجنة ، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال : [إن المجرمين] إلى [كارهون] .

* [إن المجرمين] الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم [فى عذاب جهنم] أى : منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب .

[خالدون] فيه ، لا يخرجون منه أبداً .

و [لا يفتر عنهم] العذاب ساعة ، لا بإزالته ، ولا بتهوين عذابه .

[وهم فيه مبلسون [أى : آيسون من كل خير ، غير راجين للفرج ، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون * قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » وهذا العذاب العظيم ، بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم .

[وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين] فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

[ونادوا] وهم فى النار ، لعلهم يحصل لهم استراحة .

[يامالك ليقض علينا ربك] أى : ليمتنا فنستريح ، فإننا فى غم شديد ،

مَـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾

أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا

وعذاب غليظ ، لا صبر لنا عليه ولا جلد .

[قال] لهم مالك خازن النار — حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضى عليهم :

[إنكم ماكثون] أى : مقيمون فيها ، لا تخرجون منها أبدا .

فلم يحصل لهم ما قصدوه ، بل أجابهم بنقيض قصدهم ، وزادهم غما إلى غمهم .

ثم وبخهم بما فعلوا فقال : [لقد جئناكم بالحق] الذى يوجب عليكم أن تتبعوه .

فلو تبعتموه ، لفزتم وسعدتم .

[ولكن أكثركم للحق كارهون] فلذلك شقيتم شقاوة لاسعادة بعدها .

* يقول تعالى : [أم أبرموا] أى : أبرم المكذبون بالحق المعاندون له [أمرا] أى: كادوا كيدا ، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ، ليدحضوه ، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق .

[فإنا مبرمون] أى : محكمون أمرا ومدبرون تدبيرا ، يعلو تدبيرهم ، وينقضه ويبطله .

وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة ، لإحقاق الحق ، وإبطال

لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ

الباطل ، كما قال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » .

[أم يحسبون] بجهلهم وظلمهم [أنا لا نسمع سرهم] الذى لم يتكلموا به ، بل هو سر فى قلوبهم [ونجواهم] أى : كلامهم الخفى الذى يتناجون به ،

أى : فلذلك أقدموا على المعاصى ، وظنوا أنها لاتبعة لها ولا مجازاة ، على ماخفى منها .

فرد الله عليهم بقوله : [بلى] إنا نعلم سرهم ونجواهم [ورسلنا] الملائكة الكرام .

[لديهم يكتبون] كل ما عملوه ، سيحفظ ذلك عليهم ، حتى يردوا القيامة ، فيجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا .

* أى قل يا أيها الرسول الكريم ، الذين جعلوا لله ولدا ، وهو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولم يكن له كفوا أحد .

[قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين] لذلك الولد ، لأنه جزء من والده ، وأنا أول الخلق انقيادا للاوامر المحبوبة لله ولكنى أول المنكرين لذلك ، وأشدهم له نفيا ، فعلم بذلك بطلانه .

فهذا احتجاج عظيم ، عند من عرف أحوال الرسل .

وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق ، وأن كل خير ، فهم أول الناس سبقا إليه ، وتكميلا له .

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

وكل شر ، فهم أول الناس تركا له ، وإنكارا له ، وبعدا منه .

فلو كان للرحمن ولدوهو الحق ، لكان محمد بن عبد الله ، أفضل الرسل أول من عبده ، ولم يسبقه إليه المشركون .

ويحتمل أن معنى الآية : لو كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين لله .

ومن عبادتى لله ، إثبات ما أثبته ، ونفى مانفاه ، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية .

ويلزم من هذا ، لو كان حقا ، لكنت أول مثبت له .

فعلم بذلك ، بطلان دعوى المشركين وفسادها ، عقلا ونقلا .

[سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون] من الشريك والظهير ، والعوين ، والولد ، وغير ذلك ، مما نسبه إليه المشركون .

[فذرهم يخوضوا ويلعبوا] أى : يخوضوا بالباطل ، ويلعبوا بالمحال .

فعلومهم ضارة غير نافعة،وهى الخوض ، والبحث بالعلوم ، التي يعارضون بها الحق ، وماجاءت به الرسل ، وأعمالهم لعب وسفاهة ، لاتزكى النفوس ، ولا تثمر المعارف .

ولهذا توعدهم بما أمامهم يوم القيامة فقال :

[حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون] فسيعلمون فيه ماذا حصلوا ، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم ، والعذاب المستمر .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

* [وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله] يخبر تعالى ، أنه وحده ، المألوه ، المعبود فى السموات والأرض .

فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض ، يعبدونه ، ويعظمونه ، ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكماله .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده * ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً » .

فهو تعالى المألوه المعبود ، الذى يألهه الخلائق كلهم ، طائعين مختارين . وكارهين .

وهذه كقوله تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » أي: ألوهيته ومحبته فيهما .

وأما هو ، فإنه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، متوحد بجلاله ، متمجد بكماله .

[وهو الحكيم] الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ، ماشرعه .

فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، وحكمه القدرى ، والشرعى ، والجزائى مشتمل على الحكمة .

[العليم] بكل شيء يعلم السر وأخفى ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى العالم العلوى والسفلى ، ولا أصغر منها ، ولا أكبر .

[وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما] تبارك بمعنى تعالى وتعاظم ، وكثر خيره ، واتسعت صفاته ، وعظم ملكه .

وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ

ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض ومابينهما ، وسعة علمه ، وأنه بكل شيء عليم .

حتى إنه تعالى ، انفرد بعلم الغيوب ، التى لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ولهذا قال :

[وعنده علم الساعة] قدم الظرف ، ليفيد الحصر ، أى : لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو .

ومن تمام ملكه وسعته ، أنه مالك الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

[وإليه ترجعون] أى : فى الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل .

ومن تمام ملكه ، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً ، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد ، إلا بإذنه .

[ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة] ، أى : كل من دعى من دون الله ، من الأنبياء والملائكة وغيرهم ، لا يملكون الشفاعة ، ولا يشفعون إلا بإذن الله ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولهذا قال :

[إلا من شهد بالحق] أى : نطق بلسانه ، مقراً بقلبه ، عالما بما يشهد به ، ويشترط أن تكون شهادته بالحق ، وهى الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، ولرسله بالنبوة والرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، من أصول الدين ، وفروعه ، وحقائقه وشرائعه .

يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، وهؤلاء الناجون من عقاب الله ، الحائزون لثوابه . ثم قال تعالى :

[ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله] أى : ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ، ومن هو الخالق ، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له .

[فأنى يؤفكون] أى : فكيف يصرفون عن عبادة الله ، والإخلاص له وحده ؟! .

فإقرارهم بتوحيد الربوبية ، يلزمهم به ، الإقرار بتوحيد الألوهية ، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك .

[وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون] هذا معطوف على قوله .
[وعنده علم الساعة] أى : وعنده علم قيله ، أى : الرسول صلى الله عليه وسلم ، شاكياً لربه ، تكذيب قومه ، متحزناً على ذلك ، متحسراً على عدم إيمانهم .

فالله تعالى عالم بهذه الحال ، قادر على معاجلتهم بالعقوبة .

ولكنه تعالى ، حليم يمهل العباد ، ويستأنى بهم ، لعلهم يتوبون ، ويرجعون ، ولهذا قال :

فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

[فاصفح عنهم وقل سلام] أى : اصفح عنهم ، ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية ، واعف عنهم ، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذى يقابل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين .

كما قال تعالى عن عباده الصالحين « وإذا خاطبهم الجاهلون » .

أى : خطاباً بمقتضى جهلهم « قالوا سلاماً » .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم ، من الأذى ، بالعفو والصفح ، ولم يقابلهم ، عليه السلام ، إلا بالإحسان ، إليهم والخطاب الجميل .

فصلوات الله وسلامه ، على من خصه الله بالخلق العظيم ، الذى فضل به أهل الأرض والسماء ، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء .

وقوله [فسوف يعلمون] أى : غِبَّ ذنوبهم ، وعاقبة جرمهم .

تم تفسير سورة الزخرف — ولله الحمد والمنة .

وبه تم الجزء السادس ويليه إن شاء الله الجزء السابع

وأوله تفسير سورة الدخان

فهرس

الجزء السادس

صفحة

تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علامة القَصِيم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدى

رقم الإيداع ٣٨٤٩ / ١٩٧٧